ريتشارد فلاناغان

الدرب الضيّق إلى مجاهل الشمال

ترجمة: خالد الجبيلي

FIFA WORLD CUP RUSSIA 2018

جائزة البوكر العالمية للرواية 2014

منشورات الجمل

رواية

ريتشارد فلاناغان

الدرب الضيّق إلى مجاهل الشمال

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

ريتشارد فلاناغان: **الدرب الضيّق إلى مجاهل الشمال**، رواية

ريتشارد فلاناغان: الدرب الضيّق إلى مجاهل الشمال، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: خالد الجبيلي
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٦
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ - بيروت - لبنان

Richard Flanagan: *The Narrow Road to the Deep North*
© 2013, Richard Flanagan

© *Al-Kamel Verlag* 2016
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى الأسير سان باياكو سان جيو غو (٣٣٥)

أماه، إنهم يكتبون قصائد

باول تسيلان

نحلة

تخرج مترنحة

من زهرة الفاوانيا

باشو

- ١ -

لماذا يوجد ضوء دائماً في بداية الأشياء؟ كانت جميع الذكريات الأولى التي يتذكرها دوريغو إيفانز تنحصر في أشعة شمس تغمر قاعة كنيسة يجلس فيها مع أمّه وجدته. كانت قاعة الكنيسة مشيّدة من الخشب. نور يبهر الأبصار، وهو يتهادى بخطوات وئيدة ذهاباً وإياباً، لتضمه نساء بين أذرعهن ويعانقنه بحرارة، ويغمرنه بمحبتهن. كان ذلك أشبه بالغوص في البحر ثم الخروج منه والعودة إلى الشاطئ، مرة تلو الأخرى.

بارك الله فيك، كانت أمّه تردد وهي تضمه إلى صدرها، ثم تفلته من بين ذراعيها، وتردد بارك الله فيك يا بني.

لا بدّ أن ذلك كان في عام ١٩١٥ أو في عام ١٩١٦. ربما كان عمره سنة أو سنتين. ثم برز ظل في هيئة ساعد يرتفع إلى الأعلى، وراحت خطوطه السوداء تتقافز في الضوء المنبعث من فانوس كيروسين. كان جاكي ماغوير جالساً في المطبخ الصغير المظلم في بيت أسرة إيفانز، وهو يبكي. في ذلك الحين، لم يكن أحد يبكي إلا الأطفال الصغار. كان جاكي ماغوير رجلاً بالغاً، لعله كان في الأربعين من العمر، أو أكثر قليلاً، وكان يحاول أن يجفف بظاهر يده الدموع التي تسيل على وجهه المليء بآثار الجدري، أم هل كان يمسحها بأصابعه؟

بكاؤه فقط هو الذي ظل ثابتاً في ذاكرة دوريغو إيفانز. كان صوتاً يشبه صوت شيء يُكسر. ذكّره إيقاعه البطيء بقوائم الأرنب الخلفية وهو يخبط على الأرض مختنقاً عندما يقع في المصيدة. الصوت الوحيد الذي كان قد سمعه آنذاك وكان يشبه ذلك الصوت. كان في التاسعة من عمره، وكان قد دخل لُيريَ أمّه بثرة متورمة مليئة بالدم على إبهامه، ولم يكن لديه شيء آخر يقارنها به. لم يكن قد رأى رجلاً بالغاً إلا مرة واحدة فقط. مشهد مفعم بالدهشة عندما عاد شقيقه توم من الحرب العظمى في فرنسا، وترجّل من القطار. كان قد ألقى بجعبته فوق التراب الحار على جانب الطريق وانفجر في البكاء بغتة.

بينما كان دوريغو إيفانز ينظر إلى شقيقه، تساءل ما الذي يدفع رجلاً بالغاً إلى البكاء. لاحقاً، أصبح البكاء مجرد تأكيد للمشاعر. المشاعر التي هي البوصلة الوحيدة في الحياة. أصبح الشعور عاماً، وأضحت العواطف مسرحاً الناس فيه ممثلون لا يعرفون من هم خارجه. وسيعيش دوريغو إيفانز فترة طويلة من الزمن تكفي حتى يشهد كلّ التغيرات التي طرأت، وسيتذكّر زمناً كان فيه الناس يشعرون بالخجل من البكاء، ويخشون من إبداء ضعفهم، والمشاكل التي تؤدي إليه. سيعيش عمراً كاملاً ليرى أناساً يُمتدحون على أشياء لا تستحق الثناء، لأنهم يعتبرون الحقيقة تسيء إلى مشاعرهم.

في الليلة التي عاد فيها توم، أوقدوا ناراً في الخارج. لم يفه توم بكلمة واحدة عن الحرب ولا عن الألمان أو عن الغاز والدبابات والخنادق التي كانوا قد سمعوا عنها. لم يقل شيئاً على الإطلاق. إن مشاعر المرء لا تعادل دائماً كلّ الحياة. وفي بعض الأحيان فإنها لا تساوي أيّ شيء على الإطلاق، بل راح يحدّق في النار المشتعلة.

- ٢ -

ليس للرجل السعيد ماض، أما الرجل الحزين فليس لديه شيء آخر. عندما تقدّم به العمر، لم يتذكر دوريغو إيفانز إن كان قد قرأ هذه العبارة أم أنه اختلقها من بنات أفكاره. اختلقها، ركّبها، ثم فككّها. فككّها بلا هوادة. من الصخر، إلى الحصى، إلى التراب، إلى الطين، إلى الحجر. وهكذا يمضي العالم، كما كانت تقول له أمّه عندما يسألها عن أسباب، أو يطلب منها أن تفسّر له كيف وصل العالم إلى هذا أو ذاك. كانت تقول دائماً إن العالم وجد هكذا. إنه هكذا يا ولد. كان يحاول اقتلاع قطعة من الحجر من عمق الأرض ليبني قلعة عندما كان يلعب، سقطت حجرة أكبر على إبهامه، فنبقت بثرة كبيرة محتقنة بالدم وراحت تنبض تحت ظفره.

حملته أمّ دوريغو بكلتا يديها وأجلسته على طاولة المطبخ في البقعة التي يهبط فيها نور المصباح، وكانت تتحاشى نظرة جاكي ماغوير الغريبة. ثم رفعت إبهام ابنها إلى الضوء. وبين نشيجه، قال جاكي ماغوير بضعة أمور. كانت زوجته قد استقلت القطار في الأسبوع الماضي مع أصغر أطفالهما وذهبت إلى لونسيستون، ولم يعودوا.

أخذت أمّ دوريغو سكين تقطيع اللحم التي تجمدت على حافة نصلها بقعة صفراء من دهن الخروف. عندما وضعت طرف السكين على جمرات الفحم في موقد المطبخ، انطلقت سحابة خفيفة من الدخان، وملأت المطبخ برائحة لحم محروق. ثم أخرجت السكين من الموقد بعد أن توهج طرفها بلون أحمر، وانبعثت شرارات من ذرات التراب الحارة البيضاء اللامعة. مشهد وجده دوريغو ساحراً ومرعباً في آن معاً.

لا تتحرك، قالت له، وأمسكت بيده. أدهشته قبضتها القوية.

كان جاكي ماغوير يروي كيف استقل قطار البريد إلى لونسيستون وذهب يبحث عنها، لكنّه لم يعثر عليها في أي مكان. بينما كان دوريغو إيفانز يراقب ما يجري، لامس طرف السكين المتوهّج ظفره، فانبعث لسان من الدخان عندما أحرقت أمّه ثقباً صغيراً في جلد أصبعه المتصلبة. ثم سمع جاكي ماغوير يقول -

لقد اختفى كل أثر لها من على وجه الأرض، السيدة إيفانز.

انبجست من إبهامه دفقة صغيرة من الدم الداكن لتحلّ محل الدخان المتصاعد، وتلاشى الألم المنبعث من بثرة الدم تحت ظفره، والرعب الذي كان قد تملكه عندما رأى سكين المطبخ المتوهّجة.

هيا امض، قالت أمّ دوريغو، ودفعته بمرفقها لينزل من على الطاولة. هيا انصرف الآن يا ولد.

لقد اختفت! قال جاكي ماغوير.

لقد حدث كلّ ذلك في تلك الأيام التي كان فيها العالم رحباً، وكانت جزيرة تسمانيا لا تزال هي العالم. ومن بين الأماكن النائية والمنسية، أصبحت قلة قليلة منها طي النسيان وأكثر بعداً من كليفلاند، تلك القرية الصغيرة التي يقطنها أربعون شخصاً أو قرابة ذلك، والتي كان يعيش فيها دوريغو إيفانز. قرية قديمة كان يُرسل إليها المحكومون بالإعدام، وكانت بمثابة محطة تتوقف عندها العربات للاستراحة، وقد شهدت أوقاتاً عصيبة، وأصبحت طي النسيان، لكنها لا تزال موجودة حتى الآن بعد أن غدت تحويلة للسكة الحديدية، تتناثر في جنباتها حفنة من البيوت التي توجد عادة في المناطق التي تعود إلى عهد الملك جورج الخامس، وأكواخ خشبية متهالكة ذات شرفات مسقوفة بالأغصان، كانت ملاذاً للذين عانوا من المنفى والضياع طوال قرن من الزمن، تحيط بها غابات

أشجار النعناع وأشجار الصمغ المتمايلة، وعريشة فضّية تتمايل وتتراقص تحت الحرارة القائظة. كان الطقس حاراً قاسياً في الصيف، وقاسياً، قاسياً جداً في الشتاء. لم تكن الكهرباء والمذياع قد وصلا بعد، ولو لم يكن ذلك الزمن في العشرينات من القرن العشرين، لكان من الممكن أن يكون في الثمانينات، بل ربما في الخمسينات من القرن التاسع عشر. بعد عدة سنوات، ردد توم، وهو رجل لم يكن يتكلم برمزية، بل ربما كان مدفوعاً، أو هكذا خيّل إلى دوريغو آنذاك، بموته الوشيك والرعب الذي تملكه من الموت، القول القديم - بأن الحياة كلها ما هي إلا حكاية رمزية، أما القصّة الحقيقية فهي ليست هنا - وقال إنها أشبه بخريف طويل لعالم يحتضر.

كان والده عامل صيانة في السكة الحديدية، وكانت أسرته تقيم في كوخ مشيّد من ألواح خشبية تعود ملكيته إلى مؤسسة الخطوط الحديدية في حكومة تسمانيا بجانب الخطّ. وفي الصيف، عندما يشحّ الماء، كانوا ينقلون الماء من الخزان المخصص للقاطرات البخارية. وكانوا ينامون تحت جلود حيوانات الأوبسوم التي كانوا يصطادونها، وفي معظم الأحيان، كانوا يقتاتون على الأرانب والكنيغرات التي يصطادونها، وعلى البطاطا التي يزرعونها، والخبز الذي يخبزونه. ولم يتمكن والدهم الذي نجا من فترة الكساد في تسعينات القرن التاسع عشر، والذي رأى الرجال يتضورون جوعاً في شوارع هوبارت، من أن يصدّق حظّه بأن انتهى المطاف به إلى أن يعيش في جنة العمّال هذه. وفي لحظاته الأقلّ تفاؤلاً كان يقول أيضاً: «ستعيش مثل كلب، وستموت مثل كلب».

كان دوريغو إيفانز يعرف جاكي ماغوير من العطلات التي كان يمضيها أحياناً مع توم. ولكي يذهب لزيارة توم، كان يركب في

مؤخرة عربة جو بايك من كليفلاند باتجاه درب فرعي في وادي فينغال. وبينما كان الحصان الذي كان يطلق عليه جو بايك بمحبة اسم غرايسي، يخب على طول الدرب، كان دوريغو يتمايل إلى الأمام وإلى الوراء، ويتخيّل نفسه في هيئة غصن شجرة نعناع يشير بأصابعه نحو السماء الزرقاء الفسيحة في الأعلى. كانت تهبّ عليه رائحة لحاء الشجر الرطب، وأوراق بدأت تجفّ، ويراقب أنواع ببغاوات اللوريكيت الصغيرة بألوانها الخضراء والحمراء وهي تزقزق في أعالي السماء. كان يجد متعة كبيرة عندما يسمع أصوات طيور النمنمة وآكل العسل، ويتناهى إليه صوت السوط الذي يختلط بصوت حوافر غرايسي، وصوت صرير وخشخشة السيورات الجلدية، والأعمدة الخشبية، والسلاسل الحديدية التي تصدرها العربة. عالم من الإحساس عاد في الأحلام.

كانا يشقّان طريقهما على امتداد الدرب القديم الذي تسير فيه العربات، ويجتازان الفندق الذي تتوقف عنده العربات للاستراحة، والذي أخرجته السكة الحديدية من الخدمة، فأضحى خرباً متهالكاً تعيش فيه عدّة أسر فقيرة، بمن فيها أسرة جاكي ماغوير. وكلّ بضعة أيام، تنبعث سحابة من الغبار معلنة عن قدوم سيارة، فيخرج الأطفال من وراء الأشجار ومن الفندق الذي تتوقف عنده العربات، ويطاردون السحابة التي تصدر ضجيجاً حتى تلتهب رئاتهم بالنار، وتتصلب وتتشنج سيقانهم.

عند منعطف وادي فينغال، ينزل دوريغو إيفانز من العربة، ويلوّح لجو وغرايسي بيده مودعاً، ويبدأ سيره إلى لويلين، البلدة التي تمتاز بأنها أصغر من كليفلاند. وما إن يصل إلى لويلين، حتى يمضي باتجاه الشمال الشرقي عبر حقول ترويض الخيول، ثم يأخذ طريقه من قمة جبل بن لوموند الصخرية المكسوة بالثلج، ويشقّ طريقه عبر

دغل نحو السهول المغطاة بالثلج وراء بن حيث يعمل توم لمدة أسبوعين، ويتوقف أسبوعاً، في صيد حيوان الأوبسوم. ويصل بعد الظهر إلى بيت توم الذي هو عبارة عن كهف يقع بجانب منعطف شديد الانحدار أسفل حافة نتوء جبلي. كانت مساحة الكهف أصغر قليلاً من مساحة مطبخ بيتهم ذي السقف المائل، وحتى في أعلى نقطة فيه، كان توم يقف محني الرأس. كان الكهف يضيق من كلا طرفيه مثل بيضة، ويظلل فتحة الكهف سقف صخري مغلق، مما يعني أنه يمكن إيقاد نار هناك طوال الليل لإشاعة الدفء في الكهف.

كان توم الذي هو الآن في مطلع العشرينات من عمره، يشغّل معه جاكي ماغوير أحياناً. كان توم الذي يمتلك صوتاً جميلاً، يغنّي في كثير من الأحيان أغنية أو أغنيتين في الليل. ثم يبدأ دوريغو في القراءة، على ضوء النار المتقدة، بصوت مسموع من نشرات قديمة ومن مجلات سميث الأسبوعية التي تشكّل جميعها مكتبة صائدي حيوان الأوبسوم، لجاكي ماغوي الذي لا يستطيع القراءة، ولتوم الذي يقول إنه يستطيع أن يقرأ. وكانا يحبّان أن يقرأ لهما دوريغو من عامود نصائح العمّة روز، أو القصائد الشعبية التي يرون أنها طريفة، أو أحياناً طريفة جداً. وبعد فترة من الزمن، بدأ دوريغو يحفظ لهما قصائد أخرى من أحد كتبه المدرسية يدعى «بارناسوس الإنكليزي». وكانا يفضّلان الاستماع إلى «أوليسيس»، لتينيسن.

وجه تكسوه بثور الجدري، مبتسم في ضوء النار البراقة، مثل فطيرة خوخ مخبوزة حديثاً، يقول جاكي ماغوير، يا لهؤلاء العظماء! كانوا قادرين على ضم الكلمات بإحكام أكثر مما تستطيع أن تفعله مصيدة نحاسية تخنق أرنباً. لم يخبر دوريغو توم بما رآه قبل اختفاء السيدة جاكي ماغوير بأسبوع: شقيقه يدسّ يده تحت تنورتها، بينما هي- امرأة ضئيلة الجسم، مشدودة، سمراء - تنحني وتتكئ إلى قنّ

الدجاج وراء مرآب العربات، وكان وجه توم مطبق على رقبتها. كان يعرف أن شقيقه يقبّلها.

لسنوات عديدة، كان دوريغو يفكّر كثيراً بالسيدة جاكي ماغوير التي لم يكن يعرف اسمها الحقيقي، والتي كان اسمها الحقيقي يشبه الطعام الذي كان يحلم به كلّ يوم في معسكر أسرى الحرب - هناك، وليس هناك، يضغط على جمجمته، شيء يتلاشى باستمرار كلما مدّ يده نحوه. وبعد فترة، بدأ تذكّره لها يخفت؛ وبعد فترة، لم يعد يتذكرها على الإطلاق.

- ٣ -

كان دوريغو الشخص الوحيد بين أفراد أسرته الذي تمكّن من اجتياز امتحان التأهيل عندما أنهى دراسته وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره، وهكذا حصل على منحة دراسية في مدرسة لونسيستون الثانوية. كان أكبر سناً من سنته الدراسية. في اليوم الأول من التحاقه بالمدرسة، عند فترة الغداء، سار إلى مكان يدعى الساحة العليا، وهي أرض مستوية تكسوها أعشاب جافة وأتربة، ولحاء جذوع الأشجار وأوراقها، وتنتشر على أحد جوانبها أشجار صمغ ضخمة. وراح يراقب الفتيان ذوي الأجساد الضخمة من الصفين الثالث والرابع الذين كان لبعضهم سوالف طويلة، وفتيان تكسو أجسامهم عضلات كالرجال، يصطفون في صفّين غير منتظمين، يتدافعون، ويتصادمون، ويتحركون كأنهم يرقصون رقصة قبلية. ثمّ بدأ سحر التحمية لبدء المباراة. فيبدأ أحد الفتيان بركل الكرة من الصفّ الذي يقف فيه عبر الساحة إلى الصفّ الآخر. عندها يركض جميع الفتيان المصطفين في ذلك الصفّ معاً نحو الكرة - وإذا ارتفعت عالياً - كانوا يثبون إلى

الأعلى لالتقاطها. وتحتدم حدة المعركة لإحراز هدف، ومن يسعفه الحظ في ذلك، يحظى بتقدير كبير. وتكمن الغنيمة - الجائزة - في ركل الكرة إلى الصفّ الآخر، وهكذا دواليك.

وهكذا انقضت ساعة الغداء كلها. لقد غلب الفتيان الأضخم، وأحرزوا العدد الأكبر من الأهداف، وحققوا معظم الركلات. أما بعض الفتيان الأصغر سناً، فقد تمكنوا من إحراز بضعة أهداف وركلات، وأحرز عدد منهم هدفاً واحداً في حين لم يحرز آخرون أي هدف.

شاهد دوريغو كلّ ذلك أثناء استراحة الغداء الأولى. وقد قال له أحد الفتيان من الصفّ الأول إنه يجب أن تكون في الصفّ الثاني على أقل تقدير، حتى تتاح لك فرصة المشاركة في اللعب - فالفتيان الكبار أقوياء جداً، وسريعون جداً، ولن يتوانوا عن لكز الرأس بمرفقهم، أو توجيه لكمة إلى الوجه، أو دفع ركبة في الظهر ليتخلصوا من منافسيهم. رأى دوريغو بعض الفتيان الأصغر سناً يتسكّعون خلف الساحة، بضع خطوات في الخلف، على أهبة الاستعداد للإمساك بكرة يمكن أن تقذف عالياً جداً، بينما يقف اللاعبون كتفاً إلى كتف.

في اليوم الثاني، انضم إليهم. وفي اليوم الثالث، وجد نفسه يقف وراء الفريق. ورأى من فوق أكتافهم كرة تتأرجح عالياً في الهواء ثم تعود لتهبط باتجاههم. لوهلة مكثت الكرة في الشمس، وعرف أن عليه أن يتلقى الكرة بيديه. هبت عليه رائحة بول النمل في أشجار الكينا التي أحس بظلال أغصانها اللزجة تبتعد عنه وتتلاشى عندما أخذ يجري إلى الأمام باتجاه اللاعبين. مضى الوقت بطيئاً، ووجد كلّ الحيز الذي يحتاج إليه في المكان الذي يتجمع فيه أقوى الفتيان وأضخمهم وراح يندفع الآن. عرف أن الكرة التي كانت

تتدلى من الشمس هي له، وأن كلّ ما عليه أن يفعله هو أن يصعد إلى السماء. لم تكن عيناه تركزان إلا على شيء واحد، وهو الكرة، لكنّه شعر بأنّه لن يتمكن من بلوغها بالسرعة التي كان يجري فيها، فوثب إلى الأعلى، ولامست قدماه ظهر أحد اللاعبين، ولامست ركبتاه كتفي لاعب آخر، وهكذا ارتقى إلى الشمس التي كانت تبهر الأبصار، فوق جميع اللاعبين الآخرين. وفي ذروة تناحرهم، امتدّت ذراعاه فوقه إلى الأعلى، وأحسّ أن الكرة بدأت تصل إلى يديه، وعرف أنه أصبح بإمكانه الآن أن يبدأ بالهبوط خارج الشمس.

قابضاً على الكرة بكلتا يديه بإحكام، سقط على ظهره بقوة إلى حدّ أنه أطلق معظم أنفاسه. نهض على قدميه وهو يلهث بشدة، ووقف هناك في النور، ممسكاً بالكرة البيضوية، مهيئاً نفسه الآن لينضم إلى عالم أضخم.

عندما بدأ يعود مترنحاً، أفسح المتعاركون حوله مكاناً يحظى بالاحترام.

اللعنة، من أنت؟ سأله فتى ضخم الجسد.

دوريغو إيفانز.

إنها رائعة يا دوريغو. ركلتك.

رائحة لحاء شجر الكينا، النور الأزرق البراق الذي يميّز منتصف نهار تسمانيا، الحاد الذي اضطره إلى إغماض عينيه نصف إغماضة حتى لا تنشطر عيناه. حرارة الشمس الشديدة على بشرته المشدودة، ظلال الآخرين القصيرة القاسية، الشعور بأنه يقف على عتبة، وولوج ببهجة، كون جديد في حين لا يزال كونك القديم معروفاً ويمكن الإمساك به ولم يكن قد فقده بعد - كان يدرك كلّ ذلك، كما كان يدرك التراب الحار، وعرق الفتيان الآخرين، والضحكة والبهجة النقية الغريبة لوجوده مع الآخرين.

اركلها! سمع أحداً يصرخ. اركل المنيوكة قبل أن يقرع الجرس وينتهي كل شيء.

في أعماق كيانه، فهم دوريغو إيفانز أن حياته كلها كانت رحلة إلى تلك اللحظة التي طار فيها لوهلة إلى الشمس، وأنه سيبتعد عنها الآن إلى الأبد. بالنسبة له، لن يكون هناك شيء حقيقي كهذا. لم يكن للحياة معنى كهذا أبداً.

- ٤ -

ألسنا شخصين ذكيين؟ قالت أيمي. كانت مستلقية معه على السرير في غرفة الفندق بعد ثمانية عشر عاماً من رؤيته جاكي ماغوير وهو يبكي أمام أمّه، تفتل بإصبعها خصلات شعره المقصوص، وهو يقرأ لها أوليسيس. كانت الغرفة في الطابق الثالث في فندق متهالك، ذات شرفة واسعة تجعلهما - لأنها تحجب رؤية الطريق في الأسفل والشاطئ المقابل - يتوهمان بأنهما جالسان قبالة المحيط الجنوبي، ويمكنهما سماع أصوات الأمواج وهي تتكسر على الصخور ثم تنسحب بلا توقف في الأسفل.

إنها حيلة، قال دوريغو. مثل إخراج قطعة عملة معدنية من أذن أحدهم.

لا، ليست كذلك.

لا، قال دوريغو. ليست كذلك. ما هي إذاً؟

لم يكن دوريغو متيقناً.

والإغريق، وأهل طروادة، ماذا عنهم جميعاً؟

ما الفرق بينهم؟

كان أهل طروادة عائلة واحدة. لقد خسروا.

والإغريق؟

الإغريق؟

لا. نادي بورت أديليد ماغبيز. طبعاً، الإغريق. ماذا عنهم؟

العنف. لكن الإغريق هم أبطالنا. إنهم يفوزون.

لماذا؟

إنه لا يعرف السبب تماماً.

هنا تكمن حيلتهم، طبعاً، قال. حصان طروادة، قربان للآلهة يخبئ موت الرجال، شيء يحوي شيئاً آخر.

لماذا لا نكرههم، إذن؟

الإغريق؟

لا يعرف السبب تماماً. كلما فكّر في الأمر، ازداد عجزاً عن الإجابة لماذا ينبغي أن يكون ذلك، وما السبب الذي جعل أسرة طروادة محكوم عليها بالفناء. كان يعتريه إحساس بأن الآلهة مجرد اسم آخر للزمن، لكنّه أحسّ بأنه سيكون غبياً إذا قال شيئاً كهذا، مثل إبداء اقتراح بأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً ضد الآلهة. لكنه أصبح وهو في السابعة والعشرين من العمر، وسيبلغ قريباً الثامنة والعشرين، يؤمن بالقضاء والقدر بالنسبة لقدره، وبالنسبة لأقدار الآخرين أيضاً. كما لو أنه يستطيع أن يرى الحياة لكنه لا يستطيع أن يفسرها، وكانت الكلمات - جميع الكلمات التي لا تعبّر عن الأمور مباشرة - بالنسبة له، هي الكلمات الأشد صدقاً.

كانت نظراته تتجاوز جسد أيمي العاري، تمرّ فوق خطّ الهلال الممتد بين صدرها وردفيها، المحاطِ بهالة من الزغب الناعم، إلى ما وراء الأبواب الزجاجية التي تقشّر طلاؤها الأبيض، حيث شكّل ضوء القمر درباً ضيّقاً فوق البحر الذي هرب من نظرته إلى الغيوم المنتشرة كما لو أنه كان بانتظاره.

لا يزال هدفي قائماً،
للإبحار وراء الشمس الغاربة، وحمّامات جميع
النجوم الغربية حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة.

لماذا تحبّ الكلمات إلى هذه الدرجة؟ سمع أيمي تسأله.

لقد ماتت أمّه بالسلّ عندما كان في التاسعة عشرة من عمره. لم يكن موجوداً، بل حتى أنه لم يكن في تسمانيا كلها، بل كان في البر الداخلي، في منحة دراسية لدراسة الطبّ في جامعة ملبورن. في واقع الحال، كان يفصلهما أكثر من بحر. لقد التقى في كليّة أورموند بأشخاص ينتمون إلى عائلات عريقة، تتباهى بإنجازات وأنساب تعود إلى فترات ما قبل قيام أستراليا، إلى عائلات عريقة في إنكلترا. كان باستطاعتهم أن يسردوا أجيال عائلاتهم، مناصبهم السياسية، وشركاتهم، وأنسابهم، وزيجاتهم السلالية، وقصورهم، وحظائر الأغنام التي يملكونها. بدأ يدرك تمام الإدراك، كما يدرك رجل متقدم في العمر، أن معظمها مجرد خيال أعظم من أيّ شيء كان قد حاوله ترولوب.

بشكل ما، كان ذلك أمراً مملاً للغاية، وبشكل آخر، كان أخاذاً. لم يكن قد التقى في حياته أشخاصاً يمتلكون هذا القدر من الثقة. أما اليهود والكاثوليك فكانوا أقل مرتبة وشأناً، وكان الآيرلنديون قبيحين، أما الصينيون والسكّان الأصليون فلا ينتمون إلى طبقة البشر. لم يكونوا يفكّرون بأمور كهذه، بل كانوا يعرفونها. كانت الأمور الغريبة تثير دهشته. بيوتهم المشيّدة من الحجارة، وأدوات المائدة الفضية الفخمة لديهم، وجهلهم بحياة الآخرين، كل ذلك أعماهم عن رؤية جمال العالم الطبيعي. كان يحبّ أسرته، لكنّه لم يكن يفتخر بها. كان إنجازها الرئيسي هو البقاء على قيد الحياة.

وسيستغرق العمر كله حتى يقدّر عظمة هذا الإنجاز. لكن في الوقت نفسه - عندما تُقارن بالتكريم والثروة والأملاك والشهرة التي يراها الآن لأول مرة - كانت تبدو إخفاقاً. وبدلاً من أن يخجل منها، ظل بعيداً عنها حتى وفاة أمّه التي لم يبك في جنازتها.

هيا يا دوري، قالت أيمي. لماذا؟ ومررت إصبعاً فوق فخذه.

بعد ذلك، أصبح يخشى الأماكن المغلقة والحشود وحافلات الترام والقطارات والمراقص، وكلّ الأمور التي تدفعه إلى الداخل وقطع النور عنه. كان يعاني من مشكلة في التنفّس. سمعها تناديه في أحلامه.

يا ولد، كانت تقول، تعال إلى هنا، يا ولد.

لكنّه لم يكن يذهب. كاد يرسب في امتحاناته. كان يقرأ ويعيد قراءة *أوليسيس*. لعب كرة القدم مرة أخرى، باحثاً عن الضوء، العالم الذي لمحه في قاعة الكنيسة وهو يصعد ويصعد نحو الشمس حتى أصبح رباناً، حتى أصبح طبيباً، حتى أصبح جرّاحاً، حتى أصبح مستلقياً في السرير في ذلك الفندق مع أيمي، يراقب القمر وهو يبزغ فوق سهل بطنها. راح يقرأ ويعيد قراءة *أوليسيس*.

النهار الطويل ينحسر: القمر البطيء يبزغ: التنهدات العميقة تتصاعد بأصوات عديدة. تعالوا يا أصدقائي، فلم يفت الأوان بعد للبحث عن عالم أحدث.

لقد أمسك الضوء في بداية الأشياء.
قرأ وأعاد قراءة *أوليسيس*.
التفت ليلقي نظرة على أيمي.
كانت أول شيء جميل عرفته في حياتي، قال دوريغو إيفانز.

- ٥ -

عندما استيقظ بعد ساعة، كانت قد صبغت شفتيها بلون أحمر كرزي، وكحلت عينيها المتوهجتين، ورفعت شعرها فأصبح وجهها في هيئة قلب.

أيمي؟

يجب أن أذهب.

أيمي -

بالإضافة إلى ذلك -

لا تذهبي.

لماذا؟

أنا -

لماذا؟ لقد سمعت -

أريدكِ. في كلّ لحظة يمكنني أن أكون فيها معكِ، أريدكِ.

- مرات كثيرة. هل ستترك إيلا؟

هل ستتركين كيث؟

يجب أن أذهب، قالت أيمي. قلت سأكون هناك بعد ساعة. أمسية لعب الورق. هل يمكنك أن تصدّق ذلك؟

سأعود.

حقاً؟

نعم.

ثمّ؟

يجب أن يكون هذا سرّاً.

سرّنا؟

لا. نعم. لا، الحرب. سرّ عسكري.

ماذا؟

سنُنقل إلى الخارج. يوم الأربعاء.

ماذا؟

ثلاثة أيام من -

أعرف متى يأتي يوم الأربعاء. أين؟

الحرب.

أين؟

كيف لنا أن نعرف؟

إلى أين ستذهب؟

إلى الحرب. إنها في كل مكان، الحرب، أليس كذلك؟

هل سأراك مرة أخرى؟

أنا -

نحن؟ ونحن؟ -

أيمي -

دوري، هل سأراك مرة أخرى؟

- ٦ -

أحسّ دوريغو إيفانز أن خمسين سنة تمرّ بقشعريرة في مكان ما من منشأة للتبريد. بدأ مفعول حبة دواء الذبحة الصدرية يسري، فبدأ ضيق الصدر الذي ألمّ به ينحسر، واختفت الوخزات من ذراعه، ومع أن قدراً من الاضطراب الداخلي العنيف الذي يعجز الطبّ عن علاجه ظل يعتمل في روحه المضطربة، فقد أحسّ بأن بإمكانه أن يعود من حمّام الفندق إلى غرفة النوم.

عندما عاد إلى سريرهما، نظر إلى كتفها العاري المنحني ذي

البشرة البيضاء البضة الذي يثيره جداً. رفعت قليلاً وجهاً يغشاه النوم، وسألته -

عمَّ كنت تتحدّث؟

عندما عاد واستلقى في السرير، وكوّر جسده على جسدها من الخلف، أدرك أنها تقصد حديثاً دار بينهما في وقت سابق، قبل أن تخلد إلى النوم. من بعيد - كما لو كان تحدياً لجميع الأصوات الكثيبة التي تتسلل في هذا الوقت المبكر من الصباح إلى داخل غرفة الفندق الذي ينزلان فيه في المدينة - كانت سيارة تهدر بعنف.

داركي، همس من وراء ظهرها، كما لو كان الأمر شديد الوضوح، ثمّ أدرك أنه لم يكن كذلك، فأضاف، غاردنر. لامست شفته السفلى لحمها وهو يتكلّم. ثم قال: لا أستطيع أن أتذكّر وجهه.

إنه لا يشبه وجهك، قالت.

لا داع لإثارة الموضوع، قال دوريغو إيفانز لنفسه. لقد مات داركي غاردنر ولا جدوى من ذلك. تساءل لماذا لا يمكنه أن يكتب شيئاً بهذا القدر من الوضوح والبساطة، وتساءل لماذا لا يستطيع أن يرى وجه داركي غاردنر.

هذا أمر محتوم لعين، قالت.

ابتسم. لم يتمكّن من تجاوز استخدامها كلمات مثل «العين». مع أنه كان يعرف أنها مبتذلة، فقد كانت تربيتها تتطلب استخدام مثل هذه اللغة الغريبة. ألصق شفتيه الجافّتين الهرمتين بلحم كتفها. ماذا عن المرأة التي جعلته يرتعش مثل سمكة؟

لا تستطيع أن تفتح جهاز التلفزيون أو تفتح مجلة، تابعت، تتهيأ للنكتة التي ستقولها، من دون أن ترى بروز أنفها.

وبدا لدوريغو إيفانز الذي لم يفكّر بالأمر كثيراً، أن وجهه منتشر

في كل مكان. فمنذ أن وجّه الانتباه إليه قبل عشرين عاماً في برنامج تلفزيوني كان يتحدث فيه عن ماضيه، بدأ كل شيء يحدّق فيه، بدءاً من أوراق رسائل الجمعية الخيرية إلى العملات المعدنية التذكارية. له منقار كبير، مرتبك، فوضوي بعض الشيء، شعره المجعّد الذي كان أسود وقد ابيضّ الآن وخفّ كثيراً. في السنوات التي كانت توشك بالانحدار، بدأ يبرز مرة أخرى إلى دائرة الضوء.

على نحو لا يمكنه تفسيره، أصبح في السنوات الأخيرة بطل حرب. جرّاح مشهور يحتفى به. رمز وطني يمثّل زمناً ومأساة. موضوع سير ذاتية ومسرحيّات وأفلام وثائقية. موضع تبجيل. سير القديسين، التملق. كان يعرف أنه يمتلك بعض ميزّات وعادات وتاريخ بطل حرب، لكنّه لم يكن هو. لقد حقق نجاحاً في الحياة أكثر مما سيحققه في الموت، ولم يتبق الكثير لحمل عباءة أسرى الحرب. يبدو أن إنكار التبجيل إهانة لذكرى الذين ماتوا. لا يمكنه أن يفعل ذلك. كما أنه لم يعد يمتلك القدرة.

مهما أطلقوا عليه من ألقاب - بطل، جبان، محتال - فقد أصبح يبدو له شيئاً فشيئاً أن لا علاقة له بكلّ ذلك، بل أن ذلك ينتمي إلى عالم أبعد وأكثر ضبابية بالنسبة له. كان يعرف أنه موضع تقدير الأمة، مع أن الذين اضطروا للعمل معه كجرّاح عجوز كانوا يشعرون باليأس منه، وربما كان عدد قليل من الأطباء يكرهونه، وربما كان الكثير من الأطباء الآخرين الذين فعلوا أشياء مماثلة في معسكرات أسرى الحرب الأخرى يحسدونه لأنهم يشعرون بأسى بأن ثمة شيئاً في شخصيته لا يمتلكونه هم، هو الذي رفعه إلى مرتبة أعلى منهم بكثير في عيون الأمة ومحبتها.

اللعنة على ذلك البرنامج الوثائقي، قال.

لكنه، في ذلك الوقت، لم يكن يعير أي انتباه للاهتمام والتقدير

اللذين حظي بهما. ربما كان يستمتع بذلك في سريرته، أو أنه كان يستمتع بذلك إلى حد ما. لكن ذلك توقف تماماً. لم يكن غافلاً عن نقّاده، بل كان يجد نفسه في أحيان كثيرة متفقاً معهم. لقد بدت له شهرته غير مفهومة لدى الآخرين. كان قد تفادى ما اعتبره بعض أخطاء الحياة، كالسياسة والغولف. لكن محاولته لاستنباط تقنية جراحية جديدة لاستئصال سرطان القولون باءت بالفشل، بل الأسوأ من ذلك، ربما تكون قد أفضت بشكل غير مباشر إلى وفاة عدد من المرضى. فقد سمع الآنسةن يطلق عليه اسم «جزّار». لعله كان، إذا تطلع إلى الماضي، متهوّراً. لكنه لو كان قد نجح، كان يعرف بأنّه سيغدق عليه المديح لجرأته وبعد نظرته. وكانت ملاحقته المستمرة للنساء والخداع الذي رافق ذلك فضائح خاصّة، وقد تم تجاهلها. كان لا يزال يستطيع أن يبهر حتى نفسه - السهولة والمهارة التي كان بإمكانه أن يكذب ويتلاعب ويخدع فيها - وكان يشعر بأن تقديره لنفسه قد أصبح في الحضيض في الواقع. لم يكن ذلك يعزى إلى غروره فحسب، بل إلى حماقاته.

حتى في العمر الذي بلغه الآن - ففي الأسبوع الماضي بلغ سبعة وسبعين عاماً - كان مشوّشاً بما أحدثته طبيعته من تأثير على حياته. وبالرغم من ذلك، فقد كان يعرف أن الجرأة نفسها، ذات الرفض لقبول الأعراف، نفس البهجة التي كان يجدها في اللعب، ونهمه اليائس نفسه، ليرى إلى أي مدى يمكنه أن يدفع حالة كانت قد دفعته في معسكرات أسرى الحرب إلى مساعدة الآخرين قد دفعته أيضاً إلى ذراعي لينيت الآنسةن، زوجة أحد الزملاء المقربين، ريك الآنسةن، الزميل العضو في مجلس كليّة الجرّاحين، الرجل الذكي، البارز المملّ تماماً، وشخص أو شخصين آخرين. كان يأمل في المقدمة التي أمضى ذلك اليوم في كتابتها - من دون أن يدخل فيها إيحاءات

غير ضرورية - أن يضع هذه الأشياء بشكل نهائي بطريقة ما في إطارها الصحيح، بصدق التواضع، لاستعادة دوره إلى ما كان عليه، وهو دور الطبيب، لا أكثر ولا أقل، ولكي يستحضر إلى ذاكرته الكثيرين الذين طواهم النسيان من خلال التركيز عليهم، بدلاً من التركيز على نفسه. في مكان ما أحسّ أنه عمل ضروري من أجل التقويم والتوبة. في مكان ما أكثر عمقاً، خشي أن يكون التقليل من قدر الذات، هذا التصاغر، لصالحه أكثر. لقد وقع في الفخ. كان وجهه في كل مكان، لكنّه لم يعد يستطيع الآن أن يرى وجوههم.

لقد أصبحت اسماً، قال.

من؟

تينيسن.

لم أسمع بها قط.

أوليسيس.

لم يعد أحد يقرأه.

لم يعد أحد يقرأ أيّ شيء الآن. إنهم يظنون أن براونينغ هو مسدس.

ظننت أنه لوسون فقط بالنسبة لك.

إنه كذلك. عندما لا يكون كيبلنغ أو براونينغ.

أو تينيسن.

إني جزء من كلّ ما لقيته.

لقد اختلقتَ ذلك، قالت.

لا. كثيراً - ما هي الكلمة؟

في محله؟

نعم.

يمكنك أن تقرأ كلّ ذلك، قالت لينيت الآنسةن، وهي تجوس بيدها فوق فخذه الضامر، وأشياء كثيرة غيرها. لكنّك لا تستطيع أن تتذكر وجه رجل.

لا.

جاء إليه شيلي عند الموت، وشكسبير كذلك. جاءا إليه من تلقاء أنفسهما وأصبحا جزءاً من حياته الآن مثل حياته. كما لو أنه يمكن احتواء حياة في كتاب، في جملة، في بضع كلمات. يا لهذه الكلمات البسيطة. لقد جئت إلى وليمة الموت. الابتسامة الحالمة، الشاحبة، الباردة. يا إلهي، تلك القامات العظيمة.

قال إن الموت هو طبيبنا. وجد حلمتيها رائعتين. في ذلك المساء، كان هناك صحفي على العشاء. بادره وسأله عن قصف هيروشيما وناغازاكي.

مرة، ربما، قال الصحفي. لكن مرّتين؟ لماذا مرّتين؟

كانوا وحوشاً، قال دوريغو إيفانز. إنك لا تفهم.

سأله الصحفي هل النساء والأطفال وحوش أيضاً؟ وأطفالهن الذين لم يولدوا بعد؟

الإشعاع، قال دوريغو إيفانز، لا يؤثّر على الأجيال اللاحقة.

لكن لم يكن ذلك هو السؤال، وكان يعرف ذلك، كما أنه لم يكن يعرف إن كان تأثير الإشعاعات قد انتشر. قال له أحدهم منذ زمن بعيد بأن الإشعاعات لم تنتشر، أم أنها انتشرت. من الصعب أن يتذكّر. في هذه الأيام بدأ يعتمد على نحو متزايد على الافتراض بأن ما قاله كان صحيحاً، وأن ما يقوله هو الصحيح.

قال الصحفي إنه كتب مقالاً عن الناجين، وأنه التقى بهم وأخذ صوراً لهم. وقال إن معاناتهم فظيعة ومستدامة طوال الحياة.

ليس الأمر أنك لا تعرف شيئاً عن الحرب أيها الشاب، قال

دوريغو إيفانز، بل يجب أن تعرف شيئاً واحداً. إن الحرب هي أشياء كثيرة.

استدار، لكنه عاد والتفت وقال: بالمناسبة، هل تغنّي؟

الآن حاول دوريغو أن يمحي من ذاكرته ذلك الحديث الآسف والأخرق الذي كان بصراحة محرجاً كما كان يفعل دائماً، في الجسد، وأمسك بيده أحد ثديي لينيت، حلمة بين أصبعين. لكن أفكاره ظلت تهيم في مكان آخر. لا شكّ أن الصحفي سيتناول القصّة إلى الأبد بعد ذلك، قصّة بطل الحرب الذي كان مناصراً للحروب، ويؤيد القصف بالقنابل النووية، أحمق عجوز، خرف، أنهى لقاءه معه بالسؤال هل يغني!

لكن شيئاً عن الصحفي ذكّره بداركي غاردنر، مع أنه لم يعرف ما هو. لا وجهه، ولا سلوكه. ابتسامته؟ خدّه؟ جرأته؟ كان دوريغو قد انزعج منه، لكنّه أعجب برفضه الانحناء لسلطة شخصية مشهورة، دوريغو. شيء من التماسك الداخلي - النزاهة، إذا أحببت. إصرار على الحقيقة؟ لا يمكنه أن يعرف. لم يتمكن من الإشارة إلى أي حركة، بادرة، عادة مماثلة. اعتراه إحساس غريب بالعار من الداخل. ربما كان أحمق، ومخطئاً. لم يعد متيقناً من أيّ شيء. ربما، منذ ذلك اليوم من ضرب داركي المبرح، لم يعد متيقناً من أي شيء.

سأكون جيفة وحش، همس في أذن صدفة مرجانية، ذلك العضو الأنثوي الذي كان يجده مثيراً للغاية، تلك الدوامة الناعمة، الطرية، التي تبدو له على الدوام دعوة للمغامرة. قبّل شحمة أذنها برقة متناهية.

يجب أن تقول ما تفكّر به بكلماتك أنت، قالت لينيت الآنسةن. كلمات دوريغو إيفانز.

كانت في الثانية والخمسين من العمر، لا أطفال لديها، لكنها ليست حمقاء. وكانت تكره نفسها لأنها تسمح لهذا لرجل العجوز أن يهيمن عليها. كانت تعرف أن ليس لديه زوجة فقط، بل لديه امرأة أخرى، حتى أنها كانت تشكّ بوجود امرأة أو امرأتين أخريين. حتى أنها كانت تفتقر إلى المجد الخانق لكونها عشيقته الوحيدة. لم تكن تفهم نفسها. كانت تفوح منه رائحة عجين مخمّر لرجل عجوز. كان صدره يتهدل وتتدلّى منه حلمات منكمشة. وكانت مضاجعته متفاوتة، غير مستقرة، لكنها على الرغم من ذلك، كانت تجد مضاجعته لها جيدة على نحو غريب وبطريقة تتحدى جميع الأحاسيس. برفقته، كانت تشعر بالأمان المنيع بأنها محبوبة. ومع ذلك كانت تعرف بأن جزءاً منه - الجزء الذي كانت تريده كثيراً، الجزء الذي كان فيه الضوء - ظل مراوغاً وغير معروف. في أحلامها كان دوريغو يعلوها دائماً بضع بوصات. في أيام كثيرة، كانت تغضب منه، تدينه، تهدده، وتعامله بجفاء، لكنها في أواخر الليل، عندما تكون مستلقية بجانبه، لم تكن تتمنّى أحداً غيره.

هناك سماء ملبّدة بالغيوم، كان يقول، وكان بوسعها أن تشعر به وهو يتهيأ للنهوض مرة أخرى. إنها تبتعد دائماً، تابع قائلاً، كما لو أنها لا تقوى على احتماله أيضاً.

- ٧ -

عندما وصلوا إلى سيام في أوائل عام ١٩٤٣، كان الأمر مختلفاً. أولاً، كانت السماء صافية ورحبة. سماء مألوفة، أو هكذا خيّل له. كان الفصل الجاف، وقد تعرّت الأشجار من أوراقها، وأصبحت الغابة مكشوفة، والأرض متربة. وثانياً كان هناك شيء من

الطعام. ليس بكميات كبيرة، ليس كافياً، لكن المجاعة لم تكن قد انتشرت بعد، ولم يعشعش الجوع بعد في بطون الرجال وفي عقولهم باعتباره شيئاً مجنوناً، ولم يكن عملهم لليابانيين قد أضحى ذلك الجنون الذي يقتلهم مثل الكثير من الذباب. كان الوضع قاسياً، لكن في البدء، لم يكن مجنوناً.

عندما نظر دوريغو إيفانز إلى الأسفل، رأى خطّاً مستقيماً من أوتاد المسّاحين ثبّتها مهندسو الجيش الإمبراطوري الياباني بالأرض بواسطة المطارق ووضعوا علامات على طريق السكة الحديدية التي تمضي بعيداً عن رأس مجموعة من أسرى الحرب الصامتين. وعرفوا من المهندسين اليابانيين أن الأوتاد تمتد على خط يبلغ طوله أربعمائة وخمس عشرة كيلومتراً من شمال بانكوك حتى بورما.

لقد حددوا معالم طريق سكة حديدية هائلة كانت لا تزال مجرد سلسلة من مخططات محدودة، وبدا أنها أوامر يستحيل تنفيذها تشجع القيادة اليابانية العليا بقوة على تنفيذها. كانت سكة حديدية أسطورية ثمرة اليأس والتعصّب، صنعتها الأسطورة واللا واقعية، لأنها ستُصنع من الخشب والحديد وآلاف من حياة البشر الذين سيُضحى بهم في السنة التالية من مدّها. لكن ما هو الواقع الذي يصنعه الواقعيون؟

أُعطيت لهم فؤوس مثلّمة وحبال قنب متفسخة للشروع في عملهم - قطع أشجار الساج العملاقة الممتدة على طول خطّ السكة الحديدية المخطّط لها من بقعة لا تزيد مساحتها على كيلومتر واحد.

كان أبي يقول أنتم أيها الشباب لا تفعلون ما يجب عمله، قال جيمي بيغيلو وهو ينقر بسبّابته على حافة الفأس المثلّمة والمسننة. كنت أتمنّى أن يكون ذلك اللقيط هنا الآن.

بعد ذلك، لن يتذكّر أحد حقيقة ما حدث أبداً. وشأن أفظع الجرائم، ستبقى طي النسيان كما لو أنها لم تحدث قط. المعاناة، الموت، الحزن، اللا جدوى الفظيعة لهذا الألم الهائل المثير للشفقة الذي عانى منها الكثيرون. لعل كل ذلك لا يوجد إلا في هذه الصفحات وفي صفحات بضعة كتب أخرى. يمكن احتواء الرعب داخل كتاب يمنحه شكلاً ومعنى. أما في الحياة فلم يعد للرعب شكل أكثر مما يوجد للمعنى. الرعب هو الرعب. وعندما يدهم يصبح كما لو أنه لا يوجد شيء في الكون غيره.

تبدأ القصّة التي يرويها هذا الكتاب في ١٥ شباط ١٩٤٢، عندما انتهت إمبراطورية بسقوط سنغافورة، وصعدت إمبراطورية أخرى. وفي عام ١٩٤٣، أصبحت اليابان التي توسعت كثيراً، والتي كانت قليلة الموارد، تخسر، وازدادت حاجتها إلى خطّ سكة حديدية. وزوّد الحلفاء جيش شيان كاي شيك الوطني في الصين بالأسلحة من خلال بورما، وسيطر الأمريكيون على البحار. ولقطع خطّ الإمدادات هذا عن أعدائهم الصينيين، وللاستيلاء على الهند عبر بورما - كما كان زعماؤهم يحلمون بجنون - كان يتعيّن على اليابانيين تزويد قواتهم في بورما بالرجال وبالمعدّات براً. إلا أن اليابان لم تكن تملك المال والمعدات اللازمة لمدّ خطّ السكة الحديدية هذه، ولا الزمن.

لكن للحرب منطقها الخاص. فقد كان يتملك الإمبراطورية اليابانية إيمان راسخ بأنها ستنتصر - الروح اليابانية التي لا تقهر، تلك الروح التي لا يمتلكها الغرب، تلك الروح التي يقال إنها إرادة الإمبراطور. الروح التي تؤمن بأنها هي التي ستسود وتهيمن حتى

تحقق انتصارها النهائي. ومن أجل مساعدة هذه الروح التي لا تقهر، والحث على هذا الإيمان، كانت الإمبراطورية محظوظة بوجود رجال عبيد. مئات آلاف العبيد، من الآسيويين والأوروبيين، كان بينهم اثنان وعشرون ألف أسير حرب أسترالي، استسلم معظمهم عندما سقطت سنغافورة كضرورة استراتيجية حتى قبل أن يبدأ أي قتال حقيقي، وسُيرسل تسعة آلاف منهم للعمل في مدّ السكة الحديدية هذه. وفي ٢٥ تشرين الأول ١٩٤٣، عندما انطلقت القاطرة البخارية C ٥٦٣١ على سكة حديد الموت التي انتهى العمل بها - وهو أول قطار يقوم بهذه الرحلة - يجرّ عرباته الثلاث التي تحمل على متنها شخصيات بارزة من اليابانيين والتايلانديين، والتي مرّت فوق أسرّة لانهائية من عظام البشر، من بينها رفات واحد من كل ثلاثة من أولئك الأستراليين الأسرى.

وتُعرض اليوم القاطرة البخارية C ٥٦٣١ هذه بكل فخر واعتزاز في المتحف الذي يشكّل جزءاً من النصب التذكاري الوطني الياباني غير الرسمي للحرب، ضريح ياسوكيوني في طوكيو. وإلى جانب القاطرة البخارية C ٥٦٣١، يحتوي الضريح على «كتاب الأرواح» الذي يرد فيه أكثر من مليونيْ اسم من أسماء الذين ماتوا في خدمة إمبراطور اليابان في الحروب الممتدة بين الأعوام ١٨٦٧ و١٩٥١. إن وجود كتاب الأرواح في هذا المكان المقدّس يعني التبرئة والغفران من جميع أعمال الشرّ. ومن بين تلك الأسماء الكثيرة جداً، ترد أسماء ١٠٦٨ رجلاً من المدانين بجرائم حرب بعد الحرب العالمية الثانية الذين أُعدموا. ومن بين تلك الأسماء الـ ١٠٦٨ من أسماء مجرمي الحرب الذين أُعدموا، ترد أسماء بعض الذين عملوا في إنشاء سكة حديد الموت الذين تبين أنهم مدانون بسوء معاملة أسرى الحرب.

ولا تذكر اللوحة المعلقة أمام القاطرة C ٥٦٣١ ذلك، كما أنها لا تذكر شيئاً عن مشاعر الرعب التي رافقت عملية مدّ السكة الحديدية. إذ لا ترد أسماء مئات آلاف الأشخاص الذين قضوا أثناء إنشاء السكة الحديدية تلك، بل لا يوجد عدد متّفق عليه عن جميع الذين قضوا نحبهم على سكة حديد الموت. ولم يكن أسرى الحرب من قوات الحلفاء سوى جزء يسير - قرابة ستين ألف رجل - من الرجال الذين خدموا كعبيد في ذلك المشروع الفرعوني، بالإضافة إلى ربع مليون شخص من التاميل والصين وجاوة وماليزيا وتايلند وبورما. ويذكر بعض المؤرخين أن خمسين ألفاً من هؤلاء العمّال العبيد لقوا حتفهم، ويقول بعضهم مائة ألف، ويذكر بعضهم الآخر مئتي ألف. لا أحد يعرف العدد بدقة.

ولن يعرف أحد أبداً. لأن أسماءهم أصبحت طي النسيان. ولا يوجد أي سجل يتحدث عن أرواحهم التائهة. لذلك لتكن هذه النبذة عنهم.

في وقت مبكر من ذلك اليوم، أنهى دوريغو إيفانز المقدمة التي يكتبها لكتاب عن غاي هيندريك الذي يصوّر فيه معسكرات أسرى الحرب، بعد أن طلب من سكرتيرته أن لا يقاطعه أحد لمدة ثلاث ساعات، عسى أن ينهي مهمّة لم يتمكن من إنجازها منذ أشهر عديدة وقد تأخرت الآن كثيراً. وحتى عندما انتهى من كتابتها، أحسّ أنّها محاولة فاشلة أخرى منه حتى يفهم ما يعني ذلك كله. فقد كتبها كمقدمة للآخرين لعلها توضّح بكل بساطة سكة حديد الموت.

شعر أن نبرته كانت حادة وشخصية إلى درجة كبيرة، وقد ذكرته على نحو ما بالأسئلة التي فشل في حلها طوال حياته. كان رأسه يعجّ بأمور كثيرة، وبطريقة ما، لم يتمكن من توضيح أيّ منها على

الصفحة. أشياء كثيرة جداً، أسماء عديدة، عدد كبير من الموتى، وبالرغم من ذلك، لم يتمكن من كتابة اسم واحد. ففي بداية المقدمة، قدم وصفاً لغاي هيندريك، خلاصة للأحداث التي وقعت في اليوم الذي مات فيه، بما في ذلك قصّة داركي غاردنر.

لكنه لم يكتب شيئاً عن أهم التفاصيل التي حدثت في ذلك اليوم. ألقى نظرة على المقدمة التي كتبها، كعهده، بالحبر الأخضر، مع أمل بسيط، إذا كان مذنباً، بأنه قد يكون هناك، في الهاوية التي تقبع بين حلمه وفشله، شيء جدير بالقراءة يمكن تلمس الحقيقة فيه.

- ٩ -

لسبب وجيه، كان أسرى الحرب يشيرون إلى الانحدار البطيء نحو الجنون الذي يعقب ذلك بكلمة واحدة هي: *الخط*. وإلى الأبد بعد ذلك، لم يكن يوجد بالنسبة لهم إلا نوعان من الرجال: الرجال الذين كانوا على *الخط*، وما تبقى من البشرية التي لم تكن على *الخط*. أو ربما كان هناك نوع واحد فقط من البشر وهم الرجال الذين نجوا من *الخط وظلوا على قيد الحياة*. أو ربما، في نهاية الأمر، لم يكن هذا الأمر كذلك ملائماً: فقد بدأت تتملك دوريغو إيفانز على نحو متزايد الفكرة بأنه يحصر نفسه فقط بالرجال الذين ماتوا على *الخط*، وخشي ألّا يوجد الكمال الفظيع للمعاناة والمعرفة التي تجعل المرء بشراً سوياً إلّا فيهم.

عندما عاد دوريغو إيفانز ونظر إلى أوتاد السكة الحديدية، رآها محاطة بأشياء كثيرة لا يمكن البوح بها، لا يمكن فهمها، غامضة، يتعذر وصفها. حقائق بسيطة تشرح حقيقة الأوتاد، لكنها لا تعني

شيئاً. ما هو *الخطّ*، تساءل، *الخطّ*؟ *الخطّ* هو شيء يمتد من نقطة إلى نقطة أخرى، من الحقيقة إلى الوهم، من الحياة إلى الجحيم - «طول بلا عرض»، عندما تذكّر وصف إقليدس للخطّ عندما كان في المدرسة. طول بلا عرض، حياة بلا معنى، الانتقال من الحياة إلى الموت. رحلة إلى الجحيم.

في غرفته في فندق باراماتا، بعد نصف قرن، غفا دوريغو إيفانز، تقلّب في فراشه، حلم بكارون القذر الذي ينقل الموتى بمركبه عبر نهر ستيكس إلى الجحيم لقاء قطعة نقدية «أوبول» كان يتركها في فمهم. في حلمه، راح يردد كلمات فيرجل عندما وصف كارون المخيف: وجهه مخيف وكريه، يكسوه شعر أشيب أشعث، تتقد عيناه العنيفتان بالشرر، وتتدلى عباءة قذرة من عقدة على كتفه.

في الليلة التي كان يستلقي فيها مع لينيت الآنسةن، كان يوجد بجانب سريرهما، كدأبه، أينما حلّ، كتاب، بعد أن استعاد عادة القراءة وهو في منتصف العمر. كان يخلص إلى القول إنه كتاب جيد، يجعلك ترغب في إعادة قراءته. كتاب عظيم يرغمك على إعادة قراءة روحك. كانت كتب كهذه نادرة بالنسبة له. وعندما تقدم به العمر، ازدادت ندرة. إنه يبحث، إيثيكا أخرى كان يرتبط بها إلى الأبد. كان يقرأ في المساء. لم يكد ينظر إلى الكتاب مهما كان عندما يحلّ الليل، لأنه كان موجوداً كتعويذة أو شيئاً يجلب الحظ - مثل إله مألوف يحرسه ويوصله بسلامة إلى عالم الأحلام.

كانت مجموعة من النساء اليابانيات قد قدّمن له الكتاب في تلك الليلة. كن قد جئن ليبدين اعتذارهن عن جرائم الحرب اليابانية. جئن باحتفال رسمي وكاميرات فيديو. وقد جلبن هدايا. كانت إحدى تلك الهدايا مثيرة للاهتمام: كتاب يحتوي على قصائد يابانية مترجمة موضوعها الموت، وهو تقليد يكتب فيه الشعراء اليابانيون قصيدتهم

الأخيرة. وضع الكتاب على المنضدة الخشبية الداكنة بجانب السرير، بجانب وسادته، ثم وضعه بحرص شديد بجانب رأسه. كان يؤمن بأن للكتب هالة تحميه، وأنه إذا لم يكن يقبع بجانبه كتاب فإنه سيموت. كان ينام بسعادة من دون نساء. لكنه لم ينم قط من دون كتاب.

- ١٠ -

بينما كان دوريغو إيفانز يتصفّح الكتاب في الصباح الباكر، أُخذ بإحدى القصائد. فقد استجاب شاعر الهايكو، شيسوي، من القرن الثامن عشر، وهو على فراش الموت، لطلب أن يكتب قصيدة الموت، أمسك بفرشاته ورسم قصيدته، ثم مات. وقد رأى أنصار شيسوي المشدوهين أنه رسم دائرة.

جرت قصيدة شيسوي في لا وعي دوريغو إيفانز بأنها تحوي فراغاً، لغزاً لانهائياً. عرض لا طول له، العجلة العظيمة، عودة أبديّة: الدائرة - نقيض الخطّ.

الأوبول الذي يُترك في فم الموتى لدفع أجر المراكبي.

مرت رحلة دوريغو إيفانز إلى الخطّ عبر معسكر أسرى الحرب في مرتفعات جاوة، حيث انتهى به المطاف، وبما أنه كان برتبة كولونيل، فقد أصبح الشخص الثاني في قيادة ألف جندي أسير معظمهم من الأستراليين الذين اجتازوا الزمن السرمدي الذي بدا أشبه بحياة مليئة ببرامج رياضية وتعليمية وحفلات موسيقية، ينشدون ويغنّون ذكرياتهم عن الوطن، ويبدأون عملهم بإعادة صياغة حكايات من الشرق الأوسط - قوافل الجمال التي تسير عند الغسق محملة بالأحجار الرملية، والآثار الرومانية، وقلاع الصليبيين، والمرتزقة القوقاز الذين يرتدون معاطف سوداء موشاة بخيوط من الفضة ويعتمرون قبعات سوداء عالية مجعدة مصنوعة من فرو أستراخان، والجنود السنغاليين الضخام الجثة الذين يتجاوزونهم وقد علّقوا أحذيتهم حول أعناقهم. ويتذكّرون بحزن الفتيات الفرنسيات في دمشق؛ ويصيحون من فوق الشاحنات أيها *اليهود اللقطاء!* وصاحوا بالعرب عندما مروا بهم في فلسطين بأعلى صوتهم أيها *العرب اللقطاء!* حتى رأوا في الكيبوتز الفتيات اليهوديات اللاتي كن يرتدين بناطيل قصيرة زرقاء، وبلوزات بيضاء، ويضغطن أكياس البرتقال على صدورهن. وضحكوا ثانية عندما سمعوا قصّة يابي بورروز، بشعره الذي يبدو أنه استعاره من حيوان إيكيدنا، *آكل النمل*، والذي أمضى أربعاً وعشرين ساعة في ماخور بالقاهرة، ثم خرج منه وهو يهرش ويحكّ بين ساقيه بشدّة، وقد أُطلق عليه هذا الاسم عندما سُئل، وهو ينظر إلى الأسفل، ما هذه الحشرات الغريبة؟ فقال لا بد أنني التقطتها من مقعد مرحاض مصري لعين، أليس كذلك؟

العجوز المسكين يابي، كانوا يقولون، اللقيط المسكين اللعين.

لم تحدث أمور كثيرة منذ مدة طويلة. كان دوريغو قد كتب رسائل غرامية إلى بعض الأصدقاء وهو جالس إلى طاولة دبقة سكب عليها مشروب العرق في أحد مقاهي القاهرة. شهوات بشرية يفرزها في مباهاة أبدية تبدأ دائماً بعبارة *أكتب إليك هذه الرسالة على ضوء إطلاق النار. . .*

ثمّ جاءت الصخور وبعر الماعز الجاف، وأوراق الزيتون اليابسة في الحملة السورية، يمشون وينسلون، من حين لآخر، بثيابهم وعتادهم الثقيل، بجانب جثّة جندي سنغالي منتفخة، والأفكار التي تعجّ في رؤوسهم، تتناهى إليهم من بعيد أصوات قرقعة المعارك والمناوشات التي تجري في مكان آخر، وقد تناثرت جثث الرجال مع أسلحتهم وثيابهم مثل الحجارة - في كل مكان، وبصورة حتمية - وعندما لم يتمكنوا من تحاشي أجساد القتلى المنتفخة راحوا يطأونها دون أن يبدي أحد منهم أي تعليق. وسأل أحد البغّالين القبارصة الثلاثة دوريغو إيفانز عن الاتجاه الصحيح الذي يجب أن يسلكوه. لم تكن لديه أدنى فكرة، لكنّه كان يعرف، حتى في ذلك الحين، بأن عليه أن يقول شيئاً حتى يبقوا جميعاً متماسكين. ونهق بغل في مكان قريب، وأخرج ذرة رمل من زاوية عينه، وتطلّع حوله إلى حقل الذرة الذي يقفون فيه، ثم عاد لينظر إلى الخريطتين، إلى خريطته وخريطة سائقي البغال اللتين لم تكونا متطابقتين في أيّ تفصيل هام. ونظر أخيراً إلى البوصلة التي لم تكن متطابقة أيضاً مع أي من الخريطتين في أي تفصيل هام، لكنه، وكما هو الحال في الكثير من القرارات التي كان يتخذها، كان يثق بغريزة تبين له أنها غالباً ما تكون صائبة، وعندما لا تكون كذلك، كانت تحفزّه على الحركة، على أقل تقدير، وبدأ يفهم بأنها أهمّ في أكثر الأحيان. كان يشغل منصب نائب قائد مشفى إخلاء المصابين التابع للقوة الإمبراطورية الأسترالية ٢/ ٧

القريبة من خطّ الجبهة، عندما تلقوا أمراً بجمع معدات مستشفاهم الميداني كيفما اتفق في فوضى الانسحاب التكتيكي ذاك، وفي اليوم التالي، أضحت فوضى تقدّم استراتيجي.

ونُقل ما تبقى من مشفى إخلاء المصابين في شاحنات إلى مسافة بعيدة وراء الخطوط الأمامية، بينما ظل هو مع التجهيزات المتبقية بانتظار وصول الشاحنة الأخيرة. لكنه فوجئ بقدوم قافلة مؤلفة من عشرين بغلاً قوياً يقودها ثلاثة قبارصة، وصدرت له أوامر جديدة بالتقدّم مع تجهيزاته ومعداته إلى قرية تقع على الجبهة الجديدة على مسافة عشرين ميلاً جنوباً على خريطتهم، وستة وعشرين ميلاً غرباً على خريطته. وشكّل القبارصة، وهم رجال ذوو أجسام ضئيلة، ثرثارون، جزءاً آخر من كرنفال قوات الحلفاء التي تحارب هناك في سوريا ضد كرنفال قوات فيشي الفرنسية، حرب صغيرة في خضم حرب أكبر بكثير لم يعد أحد يتذكّرها.

- ١٢ -

ما كان ينبغي أن يستغرق يومين، استغرق جلّ الأسبوع. وفي اليوم الثاني، صادف دوريغو والبغّالون الثلاثة، في درب منحدر يفضي إلى الجبال، فصيلة مؤلفة من سبعة جنود مدفعية من تسمانيا تعطلت شاحنتهم. بقيادة شاب برتبة رقيب يدعى داركي غاردنر، كانوا متجهين إلى نفس المكان. نقلوا أسلحتهم من طراز فيكيرز والحوامل الثلاثية القوائم وصناديق الذخيرة المعدنية، وثبتوها بالحبال على البغال الأخرى، وتابعوا طريقهم معاً. كان داركي غاردنر يغني أحياناً بصوت عذب وهم يشقّون طريقهم صعوداً فوق المنحدرات الصخرية والحجارة، عبر الممرات الجبلية، والقرى

المدمرة، يمرون فوق الجثث المتفسخة، والجدران الحجرية نصف المتداعية، نصف المنتصبة، وكانت تهب عليهم رائحة زيت زيتون منسكب، ورائحة حصان نافق، وكراسي متناثرة ومناضد مهشمة ورائحة الأسرّة. رائحة سقوف بيوت منهارة، ولم يتوقف العدو عن قصفهم بمدافع من عيار ٧٥ من أمامهم ومن خلفهم.

عندما عادوا إلى السهل، اجتازوا جدراناً حجرية جافة لم توفر الحماية من قذائف المدافع ذات العيار خمسة وعشرين للرجال الذين يرقدون الآن بسلام وسط عتادهم وأسلحتهم وخوذهم الفولاذية الفرنسية المتناثرة والمهشمة. وواصلوا طريقهم بين جثث القتلى المتناثرة وراء سواتر دفاعية من الأحجار التي كدست بلا جدوى كحاجز دفاع من الموت، الجثث المنتفخة المتناثرة في حقل الذرة التي تحوّلت إلى مستنقع بشع مع الماء الجاري من قناة حجرية قديمة أصابتها قذيفة، جثث خمسة عشرة قتيلاً في قرية لا يتجاوز عدد بيوتها سبعة حاولوا أن ينجوا من الموت. كانت هناك جثة امرأة ملقاة أمام المئذنة المهدّمة، وقد تناثرت صرتها الصغيرة من الخرق الملونة فوق التراب، وقد ثبتت أسنانها على قرعة، وظلت أشلاء الجثة المتفسخة فوق شاحنة محترقة.

ثم تذكّر دوريغو إيفانز الصرة الباهتة اللون الموشاة بأزهار حمر وبيض جميلة، واعتراه شعور غريب بالخجل لأنّه لم يتذكّر شيئاً غير هذا. لقد نسي طعم الغبار الحادّ فوق حجارة بيوت القرية المهدمة، ورائحة جيف الحمير الهزيلة، ورائحة جيف العنزات التعيسة الكريهة، ورائحة الشرفات المحطمة، ورائحة بساتين الزيتون المدمرة، ورائحة القنابل الشديدة الانفجار الكريهة الحامضة، ورائحة زيت الزيتون المندلق الثقيلة، تمتزج كلها في رائحة واحدة بدأ يربطها بكائنات حية لبشر كانوا في محنة حقيقية. فراحوا يدخّنون سجائر

حتى يبقى الأموات خارج أنوفهم، ويتبادلون النكات حتى لا ينهش الأموات عقولهم، ويأكلون ليذكّروا أنفسهم بأنهم لا يزالون أحياء، وتساءل داركي غاردنر هل يُحتمل أن يُقتل هو نفسه، لكنه كان يعتقد بأن فرصه في النجاة تتحسّن باستمرار.

عندما كانوا يجتازون حقول الذرة الصفراء في منتصف الليل، مرّوا بقرية مهدّمة تضيئها شعلة خضراء، هجرها الفرنسيون لسبب لا يعرفه أحد بعد أن استولوا عليها من الأستراليين في معركة ضارية. وقد أحالت مدافع الهاون التي استخدمها الفرنسيون في هجومهم المدافعين الأستراليين إلى أشياء لا تمت للإنسانية بصلة، لحم جاف داكن أحمر، وأحشاء متناثرة تذروها الرياح، وعظام مهشمة، ووجوه منقبضة على أسنان مكشوفة، تلك الأسنان الرهيبة المكشوفة للأموات التي بدأ دوريغو إيفانز يراها في كلّ ابتسامة.

ووصلوا أخيراً إلى القرية التي أُمروا بالتوجّه إليها، ليكتشفوا أن الفرنسيين لا يزالون يحتلونها وأنها لا تزال تتعرض لقصف شديد من البحرية الملكية. وفي عرض البحر، كانت السفن الحربية تقذف حممها بمدافع ضخمة بلا هوادة لتدمير القرية بيتاً بيتاً، وتنتقل من الإسطبل إلى البيت الحجري بجانبه، ثم إلى المبنى الملحق خلفه. وراح دوريغو إيفانز، والبغّالون ورماة المدفعية يراقبون ذلك من مسافة آمنة، بينما استحالت البلدة إلى أنقاض وغبار.

ومع أنه كان يصعب تخيّل بقاء أيّ شيء هناك لم يمت، ظل وابل من القذائف ينهمر. وعند الظهيرة انسحب الفرنسيون على حين غرة. فتقدّم الأستراليون فوق الأرض الصفراء التي أحرقتها القنابل المتفجرة، وشقّوا طريقهم عبر جدران شرفات منهارة، وساروا فوق بلاطات مهشمة، وحول أشجار سقطت لكن جذورها ظلت سليمة، ومدافع انحنت فوهاتها والتوت سبطاناتها، وساروا فوق أجساد أطقم

المدفعية المنتفخة المثخنة بالجروح، الذين كان يبدو أن بعضهم نائمون تحت شمس الظهيرة، لولا أن هلاماً يسيل من عيونهم المفقوءة كان يشكّل مع الأوساخ التي تلوث خدودهم غير الحليقة معجوناً وسخاً. لم يكن أحد يشعر بشيء سوى الجوع والإرهاق. ثم ترنحت عنزة أمامهم بصمت، وقد تدلّت أحشاؤها من أحد الجانبين، وبانت أضلاعها، رأسها مرفوع، لا يصدر عنها أي صوت، كما لو كان باستطاعتها أن تعيش من خلال قوة تحمّلها وشجاعتها وحدها. لعلها كانت تمتلك تلك القوة.

إنه السيد باو غيست اللعين نفسه، قال الجندي في سلاح المدفعية، النحيف، الأحمر الشعر. لقد أطلقوها على أي حال. كان اسمه الكامل غاليبولي فون كسلر، صاحب مزرعة تفاح في وادي هوون فالي، يحييّ الآخرين بتحية نازية بطيئة. وقد أُطلق عليه هذا الاسم لأن والده الألماني كان قد ادّعى أنه كان رجلاً هاماً في العالم القديم، فأضاف لقب فون الأرستوقراطي إلى اسم الفلاح كسلر، والرعب الذي تملكه لاحقاً بعد أن خسر كلّ شيء في العالم الجديد، عندما أُحرق الإسطبل الذي كان يملكه خلال الهستيريا التي سادت ضد الألمان في الحرب العظمى. فتغيّر اسم المستوطنة الجبلية الواقعة خلف هوبارت التي عاشوا فيها مع مهاجرين ألمان آخرين على الفور من بسمارك إلى كولنسفال، وغيّر كارل فون كسلر اسم ابنه الأول من اسم يكرّم والده إلى اسم يكرّم تورط أستراليا في الاحتلال المشؤوم لتركيا قبل سنة واحدة من ولادته. كان اسماً أكبر بكثير من وجه يشبه لبّ تفاحة قديمة. كان يُعرف ببساطة باسم كِس.

في البلدة، ساروا بجانب دبابة فرنسية متوهّجة تحترق، وشاحنات مقلوبة، وعربات مدرّعة محطمة، وسيارات عادية مليئة بالثقوب من الطلقات النارية، وأكوام ذخيرة، وأوراق، وملابس،

وقذائف، ومدافع وبنادق مبعثرة في أرجاء الشوارع. وفي خضم كل هذه الفوضى وهذا الخراب، كانت الدكاكين مفتوحة، والتجارة مستمرّة، وكان الناس يكنسون وينظفون كما لو أن ذلك قد حدث بسبب كارثة طبيعية، وكان أستراليون خارج أوقات الخدمة يجوبون المحلات، يشترون الهدايا التذكارية أو يحصلون عليها بالتملق والمداهنة.

غطّوا في النوم على أصوات بنات آوى التي كانت تعوي وهي تقترب لتتغذى على جثث القتلى.

- ١٣ -

عند بزوغ الفجر، استيقظ دوريغو ليجد داركي غاردنر قد أوقد ناراً في وسط الشارع الرئيسي في القرية. كان يجلس أمام النار الموقدة على كرسي وثير ذي مسند، منجّد بقماش من الحرير الأزرق، مطرّز بأسماك فضّية. كانت إحدى ساقيه مدلاة على ذراع الكرسي، وهو يلعب بعلبة سجائر فرنسية مهشمة. في بحر ذلك الكرسي الوثير - تكسو جسده الأسمر الداكن النحيل بدلة كاكي وسخة - ذكّرت دوريغو بحزمة من أعشاب البحر جرفتها الأمواج إلى شاطئ غريب.

بدا حجم حقيبة داركي غاردنر نصف حجم حقيبة أي شخص آخر، لكن كان يبدو أنها تحتوي على معين لا ينضب من المواد الغذائية والسجائر - التي تباع في السوق السوداء، سواء أكانت مزورة أم مسروقة - معجزات صغيرة جعلته يكسب اسمه الآخر وهو الأمير الأسود. ما إن ألقى دوريغو إيفانز علبة سردين برتغالي، حتى بدأ فرنسيو فيشي يقصفون القرية بمدافع عيار خمسة وسبعين،

وبالرشاشات الثقيلة، وأغارت طائرة وراحت تقصف في رواحها وإيابها. لكن كلّ شيء كان يبدو أنه يحدث في مكان آخر، فراحوا يحتسون قليلاً من القهوة الفرنسية التي وجدها جيمي بيغيلو، ويتحادثون، بانتظار أن تصدر لهم أوامر أخرى أو بانتظار أن تجدهم الحرب.

وكان رابيت هيندريكس - وهو رجل مربوع القامة، في فمه طقم أسنان مخلخل - يوشك أن ينهي لوحة يرسمها على ظهر بطاقة بريدية عن دمشق لتبدو بديلاً عن صورة مايسي الممزقة، زوجة ليزارد برانكوسي. كان وجهها مليئاً بخطوط رفيعة تشبه خيوط العنكبوت، وقد تجمّع ما تبقّى من السائل المستحلب في عدة وريقات أشجار خريفية صغيرة، ما جعل من الصعب تخمين أنها امرأة. وتمكن قلم رصاص رابيت هيندريكس من رسم طريقة وقفتها وعنقها، لكنها كانت تشبه قليلاً ماي وست حول العينين، وتشبه كثيراً ماي وست حول الصدر، مظهراً شقّ صدر لا تدّعي مايسي أنها تملكه، ونظرة تبدو مباشرة ومغوية أكثر، بطريقة ما، تشي بأشياء يندر أنها تتعلق بمايسي.

فسّر لي، قال جيمي بيغيلو، لماذا نحن رماة المدافع الأفريقيين السود نقاتل من أجل الفرنسيين الذين يريدون قتلنا أيضاً، والأستراليون يقاتلون إلى جانب الإنكليز في الشرق الأوسط؟

أثار الرسم - الذي ربما بدا مزيفاً، ونتيجة لذلك، خيانة غريبة - قلق ليزارد برانكوسي. لكن بما أن الآخرين جميعاً ظنّوا أن زوجته تبدو رائعة، قدّم لرابيت هيندريكس ساعة يده مقابل ذلك، وقال إن هذه هي فتاته، لكن رابيت رفض أخذها، وأخرج دفتر الرسم وراح يرسم صورة جماعية لهم وهم يحتسون قهوة الصباح.

حتى إنه ليس شرق أستراليا المنيوكة، قال جاك رينبو. كان له

وجه راهب، ولسان عامل في ميناء، لكنه لم يكن كذلك، بل كان مزارع نبات الجُنجل. إنه الشمال، قال. لا عجب أننا لا نستطيع أن نعرف أين تقع القرية التالية، بل إننا لا نعرف أين نحن. إنه الشمال البعيد المنيك.

كنتَ شيوعياً على الدوام يا جاك، قال داركي غاردنر. أراهن من اثني عشر مقابل واحد بأنني سأموت عندما يحين وقت الفطور. لا يمكنني أن أطلب شيئاً أكثر إنصافاً من ذلك.

وقال جاك رينبو إنه يفضّل أن تطلق عليه النار هنا ويُقتل.

وراهن دوريغو إيفانز بعشرة شلنات مقابل عشرين شلناً بأن الرقيب سينجو من الموت وسيعيش حتى انتهاء الحرب.

صحيح، قال جيمي بيغيلو. أوافقك. إنك ستعيش يا داركي.

ارم قطعتي عملة في الهواء، قال داركي غاردنر، وأَخرج زجاجة كونياك من كيس يقبع عند قدميه وراح يصبّ منه قليلاً في قهوة كلّ منهم، أتراهن على النتيجة، لكن إذا جاءت طرة ثلاث مرات متتالية، فمن الناحية الإحصائية من المحتمل أن تكون طرة مرة أخرى. لذلك أتراهن على طرة مرة أخرى. فكلّ رمية هي دائماً الرمية الأولى. أليست فكرة رائعة؟

بعد لحظة، وجدتهم الحرب أخيراً. فقد كان دوريغو إيفانز يقف بجانب الكرسي ذي المسند، يصبّ القهوة، وكان يابي بورروز قد جاء من المطبخ الميداني يحمل علبة ساخنة فيها طعام إفطارهم، عندما سمعوا صوت قذيفة عيار خمسة وسبعين قادمة باتجاههم. قفز داركي غاردنر من على كرسيه، وأمسك بدوريغو إيفانز وسحبه إلى الأرض. مرّ الانفجار بينهما مثل موجة كونية.

عندما فتح دوريغو عينيه وتطلّع حوله، وجد الكرسي ذا المسند الأزرق الموشى بسمكه فضّية صغيرة قد اختفى. وفي وسط العجاج،

نهض فتى عربي واقفاً. صاحوا به بأن ينبطح على الأرض، وعندما لم ينتبه لهم، نهض يابي بورروز على ردفيه ليلوّح له بأن يستلقي على الأرض، وعندما لم يجدِ ذلك نفعاً، ركض نحو الفتى. في تلك اللحظة، انفجرت قذيفة أخرى. وقذفت قوة الانفجار الفتى العربي نحوهم، وحزّت شظية حنجرته. لقد قُتل قبل أن يتمكن أحد من الوصول إليه.

التفت دوريغو إيفانز إلى داركي غاردنر الذي كان لا يزال يمسكه بقوة. إلى جانبهما، كان رابيت هيندريكس يعيد سنين اثنتين إلى مكانهما في فمه. أما يابي بورروز فلم يتبق منه شيء.

أريد أن أبقي على رهاناتي، قال الأمير الأسود.

كان دوريغو على وشك أن يجيب عندما حلّقت طائرة معادية مرة أخرى. عندما حلّقت فوقهم، استحالت الطائرة إلى هبة دخان أسود فجأة. وسقطت منها نقطة فُتحت إلى مظلة. كان من الواضح أن الطيار قد نجا. وعندما جرفت الريح الطيّار نحوهم، أخذ روستر ماكنيس بارودة ٣٠٣ من أحد القبارصة، وصوّبها نحو الطيار. أبعد دوريغو إيفانز سبطانة البارودة، وقال له بأن لا يتصرف كغبي منيك.

ويابي؟ صرخ روستر ماكنيس. كان الحصى يغطي شفتيه. عيناه كرتان بيضاوان وحشيتان. هل كان ذلك أمراً سخيفاً حقيراً؟ وذلك الفتى؟ هل كان؟

كان وجهه يبدو وسيماً لكن عندما أشار جاك رينبو، نظر إلى الأعلى عن قرب كما لو أنه كان مركّباً من قطع غيار. كانت سمعته تشير إلى إنه جندي غير كفء، لكنه عندما رفع البندقية ٣٠٣ إلى كتفه وصوّب ثانية وأطلق النار، دُهش الجميع بأنه وجد هدفه مباشرة. فتلوّى الطيار الهابط بالمظلة كما لو أن ريحاً عنيفة مفاجئة قد فجرّته، ثمّ هوى فجأة.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، عندما أكلوا أخيراً العصيدة التي بردت الآن والتي كانت في العلبة الساخنة التي كان يحملها يابي بورروز، لم يجلس أحد مع روستر ماكنيس.

- ١٤ -

وهكذا واصلوا طريقهم - يطلقون نكاتاً، ويحكون قصصاً عن المساكين الذين لم يعودوا، وعن قصر طرابلس الذي استولت عليه قوات الامبراطورية الأسترالية والذي أصبح مركزاً ترفيهياً، وعن لعبة الطرة والنقش، ولعبة التاج والمرساة، واحتساء البيرة، وعن الرفاق والفتيات العاملات في الغرفة الواقعة قبالة الممر اللاتي نزلن إلى ساحة اللعب ليعرفن إن كان الحظ سيحالفهن، وعن لعبة كرة القدم في القرى الجبلية التي لعبوها مع الفتيان السوريين. ثمّ في جاوة، بعد استسلامهم، النساء اللابسات مآزر السارونغ المبللة اللاتي كنّ يقطفن الشاي، واللاتي كانوا يشاهدونهن أحياناً لدى خروجهن لجمع الحطب في مجموعات. يا لروعة جمالهن وهن يغيّرن مآزرهن المبللة ويرتدين مآزر جافة ويلتقطن القمل من شعر بعضهن بعضاً - يا إلهي، قال غاليبولي فون كسلر عندما مرّوا بهنّ، هذا ما أطلق عليه العقاب الحقيقي.

لكن عقوبتهم كانت قد بدأت منذ عهد ليس بالبعيد. فقد نُقلوا بعد ستّة شهور بالشاحنات إلى الساحل في طريقهم إلى مشروع جديد في سيام. كانوا ألفاً، محشورين طوال ثلاثة أيام في قارب يشبه الدلو إلى سنغافورة، ثمّ مشوا إلى تشانغي غول. كان مكاناً جميلاً - ثكنات فيها بيوت بيضاء من طابقين، وفيها مروج جميلة. جنود أستراليون يرتدون بدلات أنيقة، لائقون جسدياً، وضبّاط يسيرون

ملوحين بعصيهم، وأشرطة حمراء تزين جواربهم. يُطل على مضيق جوهور، وبساتين مزروعة بالخضراوات.

أما هم فكانوا ضامرين، نحيلين، يرتدون بدلات متنافرة الألوان، هولندية وأسترالية. وكان عدد كبير منهم حفاة بلا أحذية. وقف رجال دوريغو. «حثالة جاوة» أطلق عليهم البريغادير كروبار كالاهان، قائد معسكر أسرى الحرب الأستراليين في تشانغي. وعلى الرغم من توسلات دوريغو إيفانز، رفض كالاهان تزويدهم بالملابس وبالأحذية وبالطعام، بل حاول إبعاد دوريغو إيفان، عن قيادتهم لموقفه المتمرّد لأنه طلب من كالاهان أن يفتح أبواب مخازنه لهم، لكنه لم يفلح.

عرض وات كوني الضئيل الجسم على تشم فاهي خطة للهروب. كانت الخطة تتمثل في أن يتمكنا من الوصول إلى جماعة من العمال على رصيف ميناء سنغافورة، ويختبآ في صناديق أو في شيء من هذا القبيل، ثم يُحمَّلان مع البضائع الأخرى إلى متن السفينة وبعدها يعودان إلى سيدني.

إنها خطة جيدة يا وات، قال تشم فاهي. لكنها لم تكن كذلك. لعبوا كرة القدم ضد فريق معسكر تشانغي في الجهة العليا، وخسروا بثمانية أهداف، لكن ليس قبل أن يسمعوا ثلاثة أرباع خطاب مورتن الذي افتتح كلمته بكلمات أصبحت خالدة بالنسبة لهم - لدي شيء واحد فقط أريد أن أقوله لكم يا رجال، وأول شيء هو...

بعد أسبوعين غادر «حثالة جاوة» بنفس الأسمال البالية التي جاؤوا فيها. وكان وات كوني الذي لم يختبئ في صندوق بينهم. وبعد أن أطلق عليهم رسمياً الآن اسم قوة إيفانز ج، نُقلوا إلى محطة القطارات وحُشروا في عربات فولاذية مغلقة صغيرة تشبه صناديق تستخدم لنقل الرزّ. سبعة وعشرون رجلاً في كلّ عربة، ليس فيها

متسع للجلوس. سافروا تحت حرارة استوائية لاهبة عبر أنفاق من الغابات وأشجار المطاط، وشاهدوا من خلالها عدداً كبيراً من الحفارين المبللين بالعرق، وباباً منزلقاً مفتوحاً جزئياً تتشابك فوقه أعشاب خضراء لا نهاية لها، ثم اختفى كل ذلك. ثم ظهرت العاملات الملاويات والهنديات والصينيات في إزارهن الساورنغ، جميعهن يغطين رؤوسهن بأغطية ملونة وهن يعملن في حقول الرزّ، أما هم فقد كانوا يقبعون في الظلام الكثيف لتلك الأفران القاسية. كانوا رجالاً كالآخرين، لا يعرفون أنفسهم. كان كل ما يخيّل إليهم هو أنهم يسافرون الآن للقائه.

كان يمتد تحتهم خطّ السكة الحديدية إلى مسافات بعيدة، وبالعرق الرطب الذي يسيل منهم كانوا يتمايلون ويتأرجحون في أذرع وأرجل أحدهم الآخر. ومع اقتراب نهاية اليوم الثالث، بدأوا يرون حقول الرز، وبدأت تلوح أمامهم كتل أشجار نخيل السكّر، والنساء التايلانديات الداكنات البشرة بصدورهن الكبيرة، وشعرهن الأسود الفاحم، وابتساماتهن الجميلة. كان عليهم أن يتناوبوا على الجلوس، وكان كلّ واحد منهم ينام وساقاه فوق الرجل النائم إلى جانبه، تغلفّهم رائحة كريهة من القيئ العفن، ورائحة أجساد زنخة، ورائحة الخراء والقيء، ومضوا في طريقهم، يملأ وجوههم السخام، وقلوبهم مريضة، ألف ميل، خمسة أيام بلا طعام، توقفوا عند ستّ محطات، ومات منهم ثلاثة رجال.

وبعد ظهر اليوم الخامس أُنزلوا من القطار في بان بونغ التي تبعد أربعين ميلاً عن بانكوك. ثم وضعوا في شاحنات لها حواف مرتفعة، حُشر في كلّ شاحنة ثلاثون رجلاً مثل أبقار، وتشبث أحدهم بالآخر مثل القرود، وسافروا عبر الغابة على درب مكسو بالتراب الناعم الذي يتجاوز عمقه ستّ بوصات. وراحت فراشة زرقاء زاهية الألوان

ترفرف فوقهم. سحقها أسير حرب من غرب أستراليا بيده عندما حطت على كتفه.

هبط الليل. لم يتوقف الطريق. وصلوا في وقت متأخر من ذلك المساء إلى تارسو، تكسوهم الأوساخ ويغطيهم التراب. ناموا بين الأوساخ، لكنهم أعيدوا إلى الشاحنات عند الفجر فانطلقت لمدة ساعة في درب لا يعدو كونه درباً للعجول باتجاه الجبال. في نهاية الدرب، نزلوا من الشاحنات وساروا حتى فترة متأخرة من بعد الظهر، ثم توقّفوا أخيراً في بقعة صغيرة خالية من الأعشاب بجانب نهر.

قفزوا إلى النهر المبارك وسبحوا. خمسة أيام محبوسين في صناديق فولاذية، يومان في شاحنات - ما أجمل الماء؟ سعادة الجسد، بركات العالم وراء الحجاب - بشرة نظيفة، انعدام الوزن، الكون المتدفق من فيض من الهدوء. ناموا مثل ألواح خشبية في مراجيح علقوها بين الأشجار، إلى أن أيقظهم زعيق القرود عند الفجر.

سار بهم الحرّاس عبر الغابة لمسافة ثلاثة أميال ونصف الميل. تسلّق ضابط ياباني جذع شجرة ليخاطبهم.

قال: شكراً لكم لأنكم قطعتم كل هذا الطريق الطويل لتأتوا إلى هنا لمساعدة الإمبراطور في مدّ السكة الحديدية. إن كونكم أسرى هو عار عظيم. عظيم! وستعوّضون عن ذلك بشرف بناء سكة الحديد من أجل الإمبراطور. إنه لشرف عظيم. عظيم.

وأشار إلى خطّ أوتاد المسّاحين التي علّمت المسار الذي ستسير عليه السكة، وسرعان ما اختفت الأوتاد في الغابة.

أزالوا أشجار الساج من بقعة من الغابة للقسم الأول المخصص لهم من الخطّ. وبعد أن انتهت هذه المهمّة بعد ثلاثة أيام كاملة،

طُلب منهم أن يقيموا معسكرهم الآن في موقع يبعد بضعة أميال. كتل ضخمة من الخيزران، أشجار ضخمة ارتفاعها ثمانون قدماً، بأغصانها الممتدة أفقياً، ونبات الخبيزة، والشجيرات الواطئة - قطعوا وعزقوا وأحرقوا ومهدوا كل ذلك، مجموعات من رجال شبه عراة يظهرون ويتلاشون في الدخان واللهب، عشرون رجلاً يشدّون حبلاً كأنهم رجل واحد، مثل قطيع من العجول يسحبون أكداس الخيزران بأطرافها الشائكة القاسية.

ثم راحوا يجمعون الحطب، واجتازوا معسكراً إنكليزياً على بعد ميل. كانت تفوح منه رائحة نتنة، وكان يعجّ بالمرضى. لم يكن الضباط يفعلون الكثير لإنقاذ رجالهم لكنهم كانوا يبذلون الكثير من أجل أنفسهم. وكان ضباط الصف يسيّرون دوريات في النهر لمنع الجنود من صيد الأسماك. كانت لدى بعض الضبّاط الإنكليز صنارات صيد، ولم يكونوا يرغبون في أن يصطاد جنودهم السمك، لأنهم يعتبرون السمك ملكاً لهم فقط.

عندما عاد الأستراليون إلى تنظيف معسكرهم، قدّم حارس ياباني عجوز نفسه بأن اسمه كينجي موغامي. ضرب على صدره.

قال لهم إنه يعني بذلك أنه أسد الجبل، وابتسم.

أراهم ما المطلوب منهم أن يفعلوه: منجل مالاوي طويل لقطع وتثليم أطر السطح، وتمزيق الطبقة الداخلية من لحاء الخبيزة إلى أشرطة طويلة من أجل تثبيت المفاصل معاً؛ وتغطية السقف بقشّ سعف النخيل، والأرضية بالخيزران المقطع والمسطّح من دون استخدام أي مسمار. وبعد بضع ساعات من العمل في بناء أولى ملاجئ المعسكر، قال الحارس الياباني العجوز: حسناً يا رجال، ياسومي.

جلسوا.

إنه ليس شخصاً سيئاً، قال داركي غاردنر.

إنه أفضلهم، قال جاك رينبو. هل تعرف؟ لو أتيحت لي نصف فرصة لشطرته إلى شطرين، من العين إلى فتحة شرجه بشفرة مثلّمة.

ضرب كينجي موغامي صدره مرة أخرى وقال: أسد الجبل بنغا كروسبي. وبدأ أسد الجبل يدندن -

اذهبوا آآآ كونوا إيجابيين
الإزالة سلبي،
الضرب بالسوط إيجابي
لا تعبث مع السيد أثناء ذلك
لا لا تعبث مع السيد أثناء ذلك.

- ١٥ -

في ذلك الوقت المبكّر من الخطّ، عندما كانوا لا يزالون قادرين على القيام بأمور كهذه، أقام الرجال حفلة موسيقية في المساء على مسرح صغير أقاموه من الخيزران، وأوقدوا ناراً في كل جوانب المسرح. بالإضافة إلى دوريغو إيفانز، كان قائدهم يشاهد العرض، الكولونيل ريكسروث، دراسة في التناقضات المتباينة: رأس قاطع طريق فوق جسد جزّار، لهجة حقيقية وكلّ ما يرافق ذلك في ابن بائع قماش فاشل من بالارات، أسترالي بذل كل ما بوسعه ليدخل في روع الناس أنه إنكليزي، رجل تطوع في الجيش في عام ١٩٢٧ بسبب الفرص التي أفلتت منه في مكان آخر في الحياة. ومع أنه كان، هو ودوريغو إيفانز، في نفس الرتبة، لكن بفضل الخبرة ولكونه رجلاً عسكرياً مقابل طبيب، فقد كان ريكسروث هو الأقدم رتبة من دوريغو.

التفت الكولونيل ريكسروث إلى دوريغو إيفانز وقال له إنه يعتقد

أن جميع قواتهم الوطنية البريطانية ستكون كافية، وأن عصبية الرابطة البريطانية ستصمد، وأن روحهم البريطانية لن تضعف، وأن دمهم البريطاني يجمعهم معاً.

فقال دوريغو إيفانز إن قدراً قليلاً من الكينين ليس بالأمر السيئ.

كان عدد قليل من الإنكليز قد جاؤوا من معسكرهم لتقديم مسرحيّة قصيرة عن أسير حرب ألماني في الحرب العظمى. كان الهواء في الليل خانقاً يعجّ بالحشرات إلى درجة أنها كانت تغبش عليهم رؤية الممثلين قليلاً.

قال الكولونيل ريكسروث إنه لم يحب موقفه هذا. لأنه لم ير إلّا الجانب السلبي منه. وإن ذلك يحتاج إلى أفكار إيجابية. الاحتفال بالشخصية الوطنية، وما إلى ذلك.

فقال دوريغو إيفانز، لم أعالج في حياتي الشخصية الوطنية.

بدأ الأستراليون يهتفون للسجين الألماني.

وتابع كلامه، لكني أرى الكثير من أمراض سوء التغذية.

لدينا ما لدينا، قال الكولونيل ريكسروث.

فقال دوريغو إيفانز، هذا إن لم نقل شيئاً عن الملاريا والزحار والقرحات الاستوائية.

انتهت المسرحيّة بالسخرية والاستهجان. تذكّر دوريغو أخيراً ما كان الكولونيل ريكسروث يذكّره به دائماً: الإجاص الذي كان يتناوله والد إيلا، فأدرك كم كان جائعاً، وكيف أنه لم يكن يحبّ هذا النوع من الإجاص بقشرته الصدئة، وكيف أنه أصبح الآن مستعداً لتناول أيّ شيء يقدم له.

أمراض المجاعة، كرّر دوريغو إيفانز. ستكون الأدوية، لكن الطعام والراحة أفضل منها بكثير.

إذا كان عملهم في مدّ خطّ السكة الحديدية لليابانيين لم يستحل

إلى جنون سيقضي عليهم، فإن تأثيره الجسدي العميق قد بدأ يظهر عليهم. فقد كان ليز ويتل الذي فقد أصابعه من داء البلاغرا يعزف على أكورديون مهترئ -جُمعت أجزاؤه بتخييط رقع من جلد الجاموس - وربط أعواد خيزران برسغه. وكان المغني الذي يرافقه، جاك رينبو، أعمى. تساءل دوريغو إيفانز وهو يراهما هل أن مجموعة من الأمراض هي التي فعلت لهما ذلك - مهما كان السبب، فقد كان يدرك على نحو مؤلم بأن الغذاء يمكن أن يعالج حالتهما وجميع المآسي التي يراها. فقد انتفخ وجه جاك رينبو الذي يبدو أشبه براهب وقد أصبح مثل قرعة، وتورّم جسمه الهزيل في الأسفل على نحو غريب أيضا بسبب إصابته بمرض بْري بري الذي يصيب الأعصاب نتيجة نقص الفيتامينات، فأحدث قرحة نهشت ساقه المنتفخة حتى العظم - وظهرت قزحيّة وردية عمياء تحدّق من الجرح في حشد أسرى الحرب الذين أصيب عدد كبير منهم بأمراض خطيرة، كما لو أنها كانت تأمل أخيراً في أن ترى جمهور أحلامها.

كان الممثلون يؤدّون الآن مشهداً من فيلم جسر واترلو. كان ليز ويتل يؤدي دور روبرت تايلور، وجاك رينبو يؤدي دور فيفيان لاي. كانا يسيران باتجاه بعضهما فوق الجسر المصنوع من الخيزران.

لا أظن أنني سأراك مرة أخرى، قال روبرت تايلور، الذي يجسد شخصيته ليز ويتل الذي فقد أصابعه، بلكنة إنكليزية متصنعة. كان عمراً بكامله.

ولا أنا، قالت فيفيان لاي، التي يجسد شخصيتها جاك ريبنو، الضرير، المتورم، المتقرح.

عزيزتي، قال ليز ويتل. إنك لم تتغيّري على الإطلاق.

انطلقت ضحكات عالية، ثم راحا يغنيان أغنية شارة الفيلم «أولد لانغ سين».

كما ترى، تابع الكولونيل ريكسروث، إنه ما نحمله في داخلنا.

ماذا؟

الرزانة البريطانية.

إنه فيلم أمريكي.

الشجاعة، قال الكولونيل ريكسروث.

إن الجيش الياباني يدفع رواتب لضبّاطنا. خمسة وعشرون سنتاً في اليوم. إنهم ينفقونها على أنفسهم. اليابانيون لا يتوقّعونهم أن يعملوا. يجب عليهم.

يجب عليهم ماذا يا إيفانز؟

يجب أن يعملوا هنا في المعسكر. في حفر جور المراحيض. في تقديم الرعاية في المستشفى. في التمريض. بناء معدات للمرضى. صنع عكازات لهم. بناء ملاجئ جديدة. غرف عمليات.

أخذ نَفَساً عميقاً.

وعليهم أن يجمعوا رواتبهم لشراء الطعام والأدوية للمرضى.

هذا مرة أخرى، إيفانز، قال الكولونيل ريكسروث. إنه مثال يجب أن نحتذيه. لا البلشفية.

أوافق. ما هو المثال الصحيح.

لكن الكولونيل ريكسروث كان قد بدأ يصعد إلى خشبة المسرح. شكر الممثلين، ثمّ تحدث كيف أن تقسيم الإمبراطورية البريطانية إلى جنسيات اعتباطية هو أمر من ضرب الخيال. فمن أكسفورد إلى أودناداتا في جنوب أستراليا، فهم شعب واحد.

كانت نبرته عالية وحادة. لم يكن يمتلك موهبة الخطابة لاستنهاض الهمم، بل كان لديه إحساس في غير محله بأن رتبته هي موهبته. بدا صوته، كما قال غاليبولي فون كسلر، كأنه يعزف على الناي من فتحة شرجه.

ولهذا السبب، تابع الكولونيل ريكسروث، بما أننا أعضاء في الإمبراطورية البريطانية، باعتبارنا إنكليزاً، يجب أن نتمسك بالنظام والانضباط اللذين هما شريان حياة الإمبراطورية. إننا سنعاني لأننا رجال إنكليز، سوف ننتصر كإنكليز. شكراً لكم.

ثم سأل دوريغو إيفانز هل يريد المشاركة في التخطيط لإقامة مقبرة ملائمة تطلّ على النهر لدفن موتاهم.

أفضّل أن يقوم الأمير الأسود بسرقة علب السمك من مخازن اليابانيين حتى لا يموت من تبقى على قيد الحياة، قال دوريغو إيفانز.

الأمير الأسود لص، أجاب الكولونيل ريكسروث. لكن هذا سيكون مكاناً جميلاً للاستراحة الأبدية، ويستحق أن يبذل الجميع جهودهم في سبيل هؤلاء الرجال، وأفضل بكثير من الممارسة الحالية في نقلهم إلى الغابة ودفنهم في أي مكان فيها.

الأمير الأسود يساعدني في إنقاذ حياة الرجال.

أخرج الكولونيل ريكسروث خريطة كبيرة تحدد موقع المقبرة ومواقع القبور، مقسّمة وفق الرتب المختلفة. وبافتخار، قال لدوريغو بأنّه حجز بقعة شاعرية تطل على نهر كواي للضباط، وأشار إلى أن الرجال بدأوا يموتون، وأن التعامل مع الجثث أصبح الآن مسألة ذات أولوية قصوى.

قال إنها حجّة لا يمكن دحضها. لقد بذلنا جهوداً جبارة حتى وصلنا إلى كل ما وصلنا إليه. أريدك أن تكون جزءاً من هذا.

زعق قرد في بستان خيزران قريب.

إني أفعل كل ذلك من أجل الرجال فقط، قال الكولونيل ريكسروث.

- ١٦ -

بدأت الأوراق تتبرعم على أغصان الأشجار وأخذت تغطي السماء، فاسودّت السماء، وابتلع اللون الأسود المزيد والمزيد من العالم. وبدأ الطعام يشحّ يوماً بعد يوم. وهبت الريح الموسمية، وفي البداية، قبل أن يعرفوا كلّ ما كان يخبئه لهم المطر، كانوا ممتنين.

ثمّ بدأ *السبيدو*.

والسبيدو تعني أنه لم تعد هناك أيام للاستراحة، وازدادت حصص العمل كثيراً، وطالت نوبات العمل. وأذابت *السبيدو* التميز المبهم حالياً بين الأصحاء والمرضى ليزداد إبهاماً بين المرضى والمحتضرين، وبسبب *السبيدو* أُمر الأسرى بالعمل أكثر وأكثر، لا في نوبة واحدة فقط، بل في نوبتين اثنتين، في النهار والليل.

هطلت أمطار غزيرة، وأطبقت عليهم أشجار الساج والخيزران، ومات الكولونيل ريكسروث من الزحار ودُفن مع الآخرين في الغابة، فتسلّم دوريغو إيفانز القيادة. وكما أن الأغصان الخضراء قد امتدت ووصلت إلى عنان السماء السوداء، فقد سحبهم الطين الأسود إلى الأسفل، وفرض ضريبة على رواتب الضباط لشراء الطعام والأدوية للمرضى. وأقنع الضباط العاملين، وداهنهم، وأصرّ عليهم، بينما كان الرعب الأخضر يضغط بلا هوادة وبلا توقف على أجسادهم التي ملأها الجرب، وعلى أحشائهم المترنّحة، ورؤوسهم المحمومة، وسيقانهم المتقرّحة، وعلى مؤخراتهم التي يسيل منها الخراء باستمرار.

كان الرجال يطلقون على دوريغو إيفانز اسم *الكولونيل* في وجهه، ويطلقون عليه اسم *الأخ الكبير* في الأماكن الأخرى. ومرت

لحظات كان الأخ الكبير يشعر فيها بأنه أصغر بكثير مما أرادوا أن يتحمله. كان هناك دوريغو إيفانز، وكان هناك هذا الرجل الآخر الذي يبادله النظرات والعادات وأساليب الكلام. لكن الأخ الكبير كان نبيلاً في حين لم يكن دوريغو كذلك، وكان مستعداً للتضحية في سبيل الآخرين، بينما كان دوريغو أنانياً.

كان يشعر أن جزءاً منه يتلمس طريقه إليه، وكلما طال ذلك، كان الرجال المحيطون به يؤكدون له دوره. كانوا كأنهم يريدون أن يكون كذلك، كما لو أنه يجب أن يكون هناك أخ كبير. وبما أنهم كانوا في حاجة ماسة إلى ذلك، احترامهم المتعاظم له، تعليقاتهم الجانبية المهموسة عنه، رأيهم فيه - كل ذلك جعله يقع في فخ التصرف بطريقة كان يعرف جيداً أنه لم يكن كذلك. وأصبح يبدو له أنه بدلاً من أن يكون قدوة لهم يحذون حذوه، كانوا يقودونه هم بالتملق.

وأصبحوا يتبعونه الآن، وراحوا يتهادون معاً عبر تلك الأيام التي شيّدت مثل صيحة لم تنته قط، صراخ ندي، أخضر، وجد دوريغو إيفانز أنه يتضخّم بسبب الصمم الناجم عن سم الكينين، سديم الملاريا الذي يعني أن دقيقة واحدة تأخذ عمراً بكامله يمر، وأنه لم يكن يستطيع أن يتذكر أسبوعاً من التعاسة والرعب أحياناً. كان يبدو أن كلّ ذلك ينتظر خاتمة لم تأت قط، حدث ما كان يعني له شيئاً، وكان بالنسبة لهم تطهيراً يحررهم من هذا الجحيم.

وبالرغم من ذلك، كان بإمكانهم الحصول على بيضة بطّة، أو على إصبع أو إصبعين من سكّر النخيل، أو يمكنهم حكاية نكتة، يعيدونها ويكررونها، يحورونها ويعيدون صياغتها بمحبة، ويقدّرونها باعتبارها شيئاً نادراً وجميلاً كما كانت في الأصل. هذا ما جعل مسألة البقاء على قيد الحياة أمراً ممكناً. لكن لا يزال هناك أمل.

ومن تحت قبعاتهم المتهدلة التي كبرت كثيراً على رؤوسهم، كان السجناء الذين كانت أجسادهم تتضاءل باستمرار يبدون تعليقات جانبية ويطلقون اللعنات عندما ينجرفون إلى كون آخر عاشوا فيه كالنمل وكان كلّ ما يهمّ هو السكة الحديدية. كعبيد عراة في القسم المخصص لهم من الخطّ، لم يكن لديهم شيء أكثر من الحبال والأعمدة والمطارق والقضبان وسلال القشّ والمعاول، بظهورهم وسيقانهم وأذرعهم وأيديهم، بدأوا يزيلون الأشجار والأعشاب في الغابة من أجل الخطّ، ويكسرون الصخور من أجل الخطّ، ويزيلون الأتربة من أجل الخطّ، ويحملون العوارض الخشبية والقضبان الحديدية من أجل الخطّ. مثل عبيد عراة، جُوّعوا وضُربوا واشتغلوا إلى درجة تجاوزت الإعياء في سبيل الخطّ. ومثل عبيد عراة بدأوا يموتون من أجل الخطّ.

لم يكن بوسع أحد أن يتوقع ذلك، لا الضعفاء ولا الأقوياء. وبدأ الموتى يتكدسون. ثلاثة في الأسبوع الماضي، ثمانية هذا الأسبوع، اللّه يعلم كم سيموت اليوم. كوخ المستشفى - لا يمكن تسميته مستشفى، بل إنه لا يعدو كونه مكاناً يُسمح فيه للذين وصلوا إلى أسوأ حالاتهم بالاستلقاء بين الأوساخ ورائحة الغنغرينا الكريهة التي تفوح من فوق مصاطب طويلة - امتلأت الآن بالمحتضرين. لم يعد هناك رجال لائقون جسدياً. بل لم يعد سوى المرضى، المرضى والموتى. لقد ولت الأيام التي كان غاليبولي فون كسلر يقول فيها إن العقاب الحقيقي هو أن لا تتمكن من لمس امرأة. بل أصبح العقاب الحقيقي هو مجرد التفكير بامرأة. وأصبحت الآن أفكارهم تتركز على الطعام والراحة.

لاحقت المجاعة الأستراليين. لقد تخفت في تصرفات وفي أفكار كلّ شخص. لقاء ذلك لم يكن بإمكانهم إلا أن يقدموا حكمتهم

الاسترالية التي كانت عبارة عن آراء أكثر فراغاً من خواء بطونهم. حاولوا أن يتحدوا ويتمسكوا بجفافهم الأسترالي، ولعناتهم الأسترالية، وذكرياتهم الأسترالية، ورفقتهم الأسترالية. لكن فجأة لم تعد أستراليا تعني لهم الكثير إزاء القمل والجوع وداء بري بري، وإزاء السرقة والهزائم، بل والسخرة كذلك. أخذت أستراليا تنكمش وتتضاءل، وأصبحت الآن حبة الرزّ أكبر بكثير من قارة، وأصبح الرجال هم الأشياء الوحيدة التي تكبر كل يوم، والقبعات المتهدلة المائلة التي بدأت تبدو مثل قبعات عريضة فوق وجوههم الضامرة وعيونهم المظلمة الغائرة، العيون التي أصبحت تبدو مجرد محاجر يظللها السواد بانتظار أن تأكلها الديدان.

ومع ذلك ظل الموتى يزدادون ويتراكمون.

- ١٧ -

كان فم دوريغو إيفانز مليئاً باللعاب، وكان عليه أن يجفف شفتيه بظاهر يده عدة مرات كي لا يسيل لعابه مرة أخرى. راح يحدّق في شريحة اللحم المقطّعة بصورة سيئة، والمشوية حتى درجة التفحم، القابعة في كوبه الصفيح المستطيل، والتي كان الدهن المتفحم الذي يسيل منها يلطّخ العلبة الصدئة. لم يكن يستطيع أن يفكّر بأنه يريد شيئاً في حياته أكثر من هذا. نظر إلى المساعد في المطبخ الذي أحضر له طعام عشائه. قال له المساعد كيف أن عصابة بقيادة الأمير الأسود، سرقت في الليلة الماضية بقرة من أحد التجار التايلنديين، وذبحها في الغابة، وبعد أن رشا الحارس بشريحة منها، أعطى ما تبقى من اللحم سرّاً إلى مطبخ المعسكر. شريحة لحم - شريحة لحم! قُطعت وشُويت وقُدّمت إلى دوريغو ليتناولها للعشاء.

كان المساعد، كما رآه دوريغو إيفانز، رجلاً مريضاً - لماذا هو الذي يقوم بأعمال المطبخ؟ - مريض مصاب بمرض أو بعدّة أمراض المجاعة. وعرف دوريغو إيفانز أن شريحة اللحم، هي بالنسبة لهذا الرجل أيضاً، في تلك اللحظة بالذات، أكثر الأشياء رغبة واستثنائية في الكون كله. أبدى حركة سريعة، وطلب من المساعد أن يأخذها إلى المستشفى وأن يتقاسمها المرضى هناك. لم يكن المساعد متيقناً إن كان جادّاً في ما يقوله. لم يبد أي حركة.

الرجال يريدون أن تأكلها أنت، قال المساعد، يا سيدي. لماذا؟ قال دوريغو إيفانز لنفسه. لماذا أقول إنني لا أريد شريحة اللحم؟ كان يريد أن يلتهمها، وكان الرجال يريدونه أن يتناولها، كنوع من التقدير له. لكنه على الرغم من ذلك، كان يعرف جيداً أن لا أحد سيحسده على قطعة اللحم هذه، وكان يعرف أيضاً أن شريحة اللحم ما هي إلا اختبار يحتاج إلى شهود، امتحان عليه أن يجتازه، امتحان سيصبح قصّة جميعهم بحاجة إليها.

خذها، قال دوريغو إيفانز.

بلع ريقه، محاولاً أن يزدرد اللعاب الذي كان يسيل من فمه. خاف أن يفقد صوابه، أو أن يتهاوى بطريقة فظيعة أو مهينة. أحس بأن روحه لم تهدأ، بأنه يفتقر إلى أمور كثيرة يحتاجونها منه الآن، تلك الأمور التي جعلت شخصاً مؤهلاً لأن يعيش حياة رجل بالغ. وبالرغم من ذلك، فقد وجد نفسه الآن زعيم ألف رجل يقودونه بغرابة حتى يكون جميع الأشياء الكثيرة التي لم يكنها هو حقاً.

ازدرد ريقه مرة أخرى؛ لا يزال اللعاب يسيل من فمه. لم يفكّر بنفسه بأنه رجل قوي. كان يعرف أنه قوي - رجل قوي مثل ريكسروث. ريكسروث، قال دوريغو إيفانز لنفسه، كان سيأكل

شريحة اللحم لأنه يعتبر أنها من حقه، ثم سينكش أسنانه بسعادة أمام رجاله المتضورين جوعاً. أما دوريغو إيفانز، بخلاف ذلك، فقد كان يعتبر نفسه رجلاً ضعيفاً لا يحق له أي شيء. إنه رجل ضعيف يشكّل الألف شخص توقّعاتهم عنه بأنه رجل قوي. إن ذلك يتحدى المنطق. إنهم أسرى لدى اليابانيين وهو أسير أملهم.

الآن صرخ، كاد يفقد السيطرة على نفسه.

ظل المساعد واقفاً لا يتحرّك، لعله ظنّ أنه يمزح، لعله يخشى أنه لم يفهمه جيداً. وطوال الوقت، كان دوريغو إيفانز يخشى أنه إذا بقيت شريحة اللحم أمامه لحظة أخرى، فإنه سيمسك بها بكلتا يديه ويبتلعها كلّها بلقمة واحدة ويفشل في الامتحان ويكشف عن حقيقته. في سورة غضبه على تلاعب الرجال به، في سورة غضبه على ضعفه، استوى واقفاً فجأة، وصرخ غاضباً - الآن! إنها لك، ليست لي! خذها! تقاسمها مع الآخرين! تقاسمها مع الآخرين! عندها أحسّ المساعد بالارتياح بأنه يستطيع الآن أن يتذوق لقمة من شريحة اللحم، وابتهج لأن الكولونيل أثبت أنه كلّ ما كان يقوله الجميع عنه بأنه الأخ الكبير، فتقدم وأخذ شريحة اللحم إلى المستشفى، ومعها قصّة أخرى تقول كم أن قائدهم رجل استثنائي حقاً.

- ١٨ -

كان دوريغو إيفانز يكره الفضيلة، يكره أن تُحترم الفضيلة، يكره الناس الذين يتظاهرون بأن لديهم فضيلة، أو ينسبون الفضيلة إلى أنفسهم. وكلما أُتّهم بالفضيلة مع تقدمه في العمر، ازداد كرهه لها. لم يكن يؤمن بالفضيلة. الفضيلة مجرد تفاخر كاذب تكتسي حلة أنيقة وتنتظر أن يصفق لها الناس. لقد سئم النبل والجدارة، ووجد في

عيوب لينيت الآنسة أنها أكثر البشر روعة. ففي ذراعيها غير الوفيتين وجد الوفاء لحقيقة غريبة للطبيعة العابرة لكلّ شيء.

كانت تعرف السعادة ولم يكن يؤرقها الشكّ. وبعد أن ذوى جمالها وغادرها، وبدأ الموج ينحسر من المركب الذي هدأ الآن، أصبحت تحتاج إليه أكثر بكثير من احتياجه إليها. كان ذلك أمراً مفهوماً لكليهما، وأصبحت واجباً آخر عليه. لكن حياته أصبحت كلّها واجباً الآن. واجب تجاه زوجته. واجب تجاه أطفاله. واجب تجاه عمله، تجاه للجان، تجاه الجمعيات الخيرية. واجب تجاه لينيت. واجب تجاه النساء الأخريات. كان أمراً منهكاً. إن ذلك يتطلب طاقة كبيرة. في بعض الأحيان، كان يدهش حتى نفسه. كان يفكر أنه يجب أن يكون هناك نوع من التقدير لما حققه. إن ذلك يتطلب شجاعة غريبة. إنه أمر مقزز. جعله يكره نفسه، لكنّه لم يعد يستطيع أن لا يكون نفسه الآن أكثر مما لم يكن يستطيع أن يكون هو نفسه مع الكولونيل ريكسروث. وبطريقة ما، الشيء الذي منحه الإحساس، والاتجاه والقدرة على الاستمرار، الواجب قبل كل واجب آخر، ما كان يعتقد بأنه يدين به للرجال الذين كان معهم في ذلك المعسكر.

إنك تفكّر بها، قالت.

مرة أخرى لم يقل شيئاً. ولما كان قد أنجز كلّ واجباته الأخرى فقد أصبح يعامل لينيت بطريقة أحسّ فيها بأنه شجاع - أي أنه غطّى المسافة المتنامية بينهما بمودّة متزايدة. أصبحت تشعره بالملل أكثر فأكثر؛ ولو لم تظل مغامرة بالنسبة له، لتوقّف عن رؤيتها منذ سنوات. فلم يعد هناك شغف في مضاجعتهما، واضطر للاعتراف، لنفسه ولها، بأن الأمور لم تعد كما كانت ذات يوم، لكن يبدو أن لينيت لم تكترث للأمر. في الحقيقة، وهو لم يكترث أيضاً. كان

يكفي له بأن تدعه يشمّ ظهرها، أن يرخي يداً بين فخذيها البضين الناعمين. قد تكون غيورة وأنانية، ولا يمكنه أن يفعل شيئاً إزاء ذلك، لكن صغر جسدها كان يرضيه.

بينما كانت تثرثر عن السياسة وتتحدث عن المجلة التي كانت تعمل فيها نائب محرّر، وعن الإهانات التافهة التي تحمّلتها من رؤساء كان يجب أن تكون رئيسة لهم، انتصارات مكتبها، هواجسها، رغباتها العميقة. كان يرى مرة أخرى تلك السماء أثناء السبيدو، قذرة دائماً، وكان يفكّر كيف أنه لم يتذكر داركي غاردنر منذ سنوات، ليس حتى البارحة، عندما حاول أن يكتب قصة عن هزيمته.

كان قد طُلب منه أن يكتب مقدمة لكتاب الرسومات التي رسمها غاي هيندريكس، أسير الحرب الذي مات على الخطّ، والذي حمل دوريغو دفتر رسوماته وأخفاه حتى انتهاء الحرب. كانت السماء وسخة دائماً، وكانت تتحرّك دائماً، تبتعد، أو هكذا بدت له، إلى مكان أفضل لم يكن الرجال يموتون فيه من دون سبب، مكان كانت الحياة فيه تستجيب لشيء أكثر من الحظ. كان داركي غاردنر محقّاً: كانت كلها مجرد لعبة طرة ونقش. تلك السماء المكدومة، ذات الحواف الزرقاء وبرك الدم. أراد دوريغو أن يتذكر داركي غاردنر، وجهه، وهو يغنّي، تلك الابتسامة الماكرة. لكن كلّ ما أمكنه أن يراه، مهما حاول استدعاء وجوده، كانت تلك السماء الوسخة وهي تسرع مبتعدة من كلّ ذلك الرعب.

كلّ رمية هي دائماً الأولى، تذكّر قول دوريغو داركي.

أليست فكرة رائعة؟

أنت لن تعترف بذلك، قالت لينيت الآنسةن. هيا تابع. ألا تفكر فيها؟

لم أدفع قط، كما تعرفين، عشرة شلنات. أعرفها.

عشرون إلى ثلاثة. أتذكّر ذلك.

أعرف عندما تفكّر فيها.

أتعرفين، همس في كتف لينيت الآنسةن اللحيم، البض، إني كنت أكتب المقدمة اليوم، وعلقت في *السيدو*، عندما شغّلونا سبعين يوماً بلياليها من دون يوم عطلة واحد، أثناء الرياح الموسمية. كنت أحاول أن أتذكّر متى ضربوا داركي غاردنر ضرباً مبرحاً. كان ذلك في نفس اليوم الذي حرقنا فيه جثمان غاي هيندريكس، العجوز المسكين. حاولت أن أكتب ما تذكّرته عن ذلك اليوم. بدا الأمر فظيعاً ونبيلاً في الوقت نفسه. لكنّه لم يكن لا هذا ولا ذاك.

أعرف.

كان الأمر بائساً وسخيفاً. تعال إلى هنا.

أظن أنهم ضجروا من ذلك، من الضرب المبرح. اليابانيون، أقصد.

هيا. دعنا ننام.

كان هناك ناكامورا، ذلك الحقير التافه، السحلية بمشيته المتبخترة كالدمية، ومهندسان يابانيان آخران. أم كانوا ثلاثة؟ حتى أنني لا أستطيع أن أتذكّر ذلك. أي نوع من الشهود أنا؟ أقصد، ربما كانوا يريدون أن يؤذوه حقاً في البداية، لكنهم بدأوا يملون من ذلك، كما كان رجالنا يجدون الطرق بالمطارق مملاً. هل يمكنك تخيّل ذلك؟ عمل فقط، وعمل مملّ، رتيب.

دعنا ننام.

عمل قاس، مضرج بالعرق. مثل حفر خندق. توقّف أحدهم للحظة. وقلت في نفسي، حسناً، هذا هو الأمر. حمداً لله. رفع يده إلى جبهته، مسح العرق بأصابعه وشمّها. هكذا فقط. ثمّ عاد إلى

عمله في ضرب داركي. لم يكن لذلك أي معنى، لا في ذلك الحين ولا الآن، لكنّك لا تستطيع أن تكتب ذلك، أليس كذلك؟

لكنّك كتبته.

لقد كتبت. شيئاً. نعم.

وكنت صادقاً.

لا.

ألم تكن صادقاً؟

كنت دقيقاً.

في الخارج، في الليل، كما لو أنه كان يبحث عن شيء مفقود لا أمل في العثور عليه، أصدرت شاحنة ترجع إلى الوراء صوتاً بائساً.

لا أعرف لماذا تبرز لك، قالت.

لا.

حقا لا أعرف. ألم يكن هناك عدد كبير ممن عانوا؟

نعم، قال موافقاً.

لماذا تبرز إذاً؟

لم يحر جواباً.

لماذا؟

مستلقياً على سرير الفندق ذاك في باراماتا، أحسّ أنه يجب أن يفكّر بالعالم المليء بالأمور الجيدة خارج غرفتهما، تلك السماء الزرقاء تنتظر أن تعود مرة أخرى بعد بضع ساعات، تلك السماء الزرقاء العظيمة التي ارتبطت في عقله بالحرية المفقودة في طفولته، وعلى الرغم من ذلك، لم يتوقّف عقله عن رؤية سماء المعسكر ذات الخطوط السود.

حدثني، قالت.

كانت تذكّره دائماً بالخرق الوسخة التي يقطر منها الزيت.

أريد أن أعرف، قالت.

لا. إنك لا تريدين.

لقد ماتت، أليس كذلك؟ أنا لا أغار إلّا من الأحياء.

من تلك المرأة
على الشاطئ،
ينهمر الغسق
عبر أمواج المساء.

إيسا

- ١ -

كان دوريغو إيفانز في أديليد، يخضع لتدريباته النهائية في مركز إخلاء المصابين ٢/٧ في معسكر الجيش في وارادال تحت حرارة الشمس الضارية، في أواخر عام ١٩٤٠، قبل إرساله إلى مكان مجهول لا يعرف أحد أين. كان قد أخذ إجازة نصف يوم - لا تصلح لأي شيء. كان توم قد أرسل له برقية من سيدني قال له فيها إن عمّهما كيث الذي يمتلك فندقاً ويدير مشرباً بالقرب من الشاطئ خارج أديليد، مشتاق لرؤية دوريغو، وقال إنه سيحيطك برعايته. لم يكن دوريغو قد رأى كيث مولفاني من قبل، وكلّ ما كان يعرفه عنه هو أنه كان زوج أخت والدهم الصغرى التي ماتت في حادث سيارة منذ بضع سنوات. وعلى الرغم من أن كيث لم يتزوّج ثانية منذ ذلك الحين، فقد ظل على اتصال بأسرة زوجته الأولى وكان يرسل بطاقات أعياد الميلاد إلى توم الذي أبلغه أن دوريغو موجود في أديليد. كان دوريغو ينوي زيارة عمّه في ذلك اليوم، لكن السيارة التي كان يأمل في استعارتها قد تعطلت. فذهب في تلك الليلة لزيارة مجموعة من زملائه الأطباء في مركز ٢/٧ في مرقص تابع للصليب الأحمر في المدينة.

صادف أن اليوم كان يوم سباق الخيل الرئيسي في ملبورن،

وكانت الحماسة في الشوارع قد خفتت. ولتزجية الوقت قبل انطلاق السباق، راح يتمشّى في شوارع المدينة، حتى وصل إلى مكتبة قديمة في شارع راندل. لاحظ حركة دائبة في المكتبة في وقت مبكر من ذلك المساء: إطلاق مجلة أو شيء من هذا القبيل. كان هناك شاب شديد الثقة بنفسه بشعر أهوج، وربطة عنق كبيرة مرخية، يقرأ من مجلة.

لا نعرف ترياقاً لليأس
مثل سكارى، بطاريق الليل الغاضبة،
نجلس القرفصاء فوق حصى الساحة
نربط أشرطة أحذيتنا تحت ضوء المصباح المغبش.

لم يفهم دوريغو إيفانز شيئاً منها. فقد بدأ ذوقه يتحجّر ويتحيز نحو الذين كانوا يغوصون في أعماق الأعمال الكلاسيكية أثناء المراهقة، لكنهم لم يبحروا إلى أماكن أخرى إلا نادراً. وكان يفضل في معظم الأحيان الأعمال المعاصرة، ويميل إلى الأساليب الأدبية التي كانت سائدة قبل منتصف القرن - بالنسبة له شعراء العصر الفيكتوري وكتّاب العصور القديمة.

عندما وقفت أمامه مجموعة صغيرة من الأشخاص وحجبت رؤيته فلم يعد بإمكانه تصفّح الكتب، ارتقى الدرجات الخشبية في الطرف الآخر من المكتبة الذي بدا واعداً أكثر. كان الطابق الثاني يتألف من مكتبين خلفيين صغيرين فارغين، وغرفة كبيرة فارغة أيضاً، أرضيتها مكسوة بألواح خشبية خشنة عريضة تصل إلى نوافذ ناتئة تطل على الشارع. كان المكان مليئاً بالكتب التي يمكنه أن يتصفّحها. كتب مكدسة في أكوام مائلة، كتب في صناديق، كتب مستعملة

متراصة مائلة عند زوايا متقابلة مثل ميليشيا غير منضبطة على رفوف ممتدة من الأرض حتى السقف على طول الجدار الجانبي.

كانت الغرفة حارة، لكنّه أحسّ بأنها أقل وطأة بكثير من الاستماع إلى الشعر في الطابق السفلي. راح يسحب كتاباً هنا، وكتاباً هناك، لكن ما لفت انتباهه هو الأنفاق المائلة وأشعة الشمس المتسللة من النوافذ الناتئة. كانت ذرات الغبار تعلو وتهبط من حوله، تتلألأ، ترتعش في عواميد تعكّر شفافية الضوء. رأى عدّة رفوف مليئة بطبعات قديمة لكتّاب كلاسيكيين راح يتصفّحها راجياً أن يعثر على نسخة من طبعة رخيصة من كتاب الإنيادة لفيرجيل، كان قد قرأها في نسخة مستعارة. لم تكن القصيدة العظيمة التي تعود إلى العصور القديمة هي ما يبحث عنه دوريغو إيفانز، بل الهالة التي كان يراها بها في كتب كهذه - هالة تشع إلى الخارج وتنقله إلى الداخل إلى عالم آخر وتقول له إنه ليس وحيداً.

هذا الإحساس، هذا الشعور بالتواصل، سيغمره في لحظات معينة. في لحظات كهذه، كان يتملكه إحساس بأنه لا يوجد إلّا كتاب واحد في الكون، وأن جميع الكتب الأخرى إنما هي مدخل لهذا العمل العظيم - عالم جميل لا ينضب، ليس عالماً خيالياً، بل العالم كما هو في الواقع، كتاب لا بداية له ولا نهاية.

تناهى إليه صوت صياح من أسفل الدرج. عندما تعقب الصوت رأى مجموعة من الرجال الصاخبين وامرأتين، إحداهما مكتنزة الجسم، حمراء الشعر، تعتمر قبعة داكنة، والأخرى أنحف، شقراء، تضع على شعرها زهرة قرمزية براقة ثبتتها وراء أذنها. وكانوا من حين لآخر، يرددون نصف أغنية، نصف أنشودة، بخشونة: *تقدم رولي العجوز، تقدم.*

كان الرجال يرتدون مزيجاً من البدلات العسكرية الرسمية:

القوات الجوية الملكية الأسترالية، والقوات البحرية الملكية الأسترالية، والقوات الأسترالية الإمبراطورية - وكما خيّل إليه، كانوا ثملين قليلاً، يسعون جميعاً، بطريقة أو بأخرى، إلى لفت انتباه المرأة الأنحف. إلا أنها لم تكن تعير أياً منهم أدنى اهتمام. ثمة شيء كان يبعدها عنهم، ومهما حاولوا إيجاد سبل للتقرب منها، لم تكن هناك ذراع في بدلة عسكرية يشبك ذراعها، ولا ساق في بدلة عسكرية تلامس ساقها.

وبلمحة واحدة رأى دوريغو إيفانز كلّ ذلك بوضوح، وأحسّ بالضجر منهم ومنها هم الذين لم يكونوا إلا حلية تزيّنها، واحتقرهم لأنهم عبيد شيء يبدو من الواضح أنه لن يكون ملكاً لهم قط. وكره قدرتها على تحويل رجال إلى ما اعتبره كلاباً يسيل لعابها، بل إن ذلك زاد من كرهه لها.

استدار وراح يدقق النظر في رفوف الكتب. في جميع الأحوال، كان يفكّر بإيلا التي التقى بها في ملبورن عندما كان يكمل تدريبه في الجراحة. كان والد إيلا محامياً بارز في ملبورن، وكانت أمّها تنحدر من عائلة مشهورة تمتلك مراع شاسعة. وكان جدها واحداً من الذين كتبوا الدستور الاتحادي. كانت إيلا معلّمة. وعلى الرغم من أنها كانت تثير الملل أحياناً، فقد كان عالمها ونظراتها لا تزال تحترق بتوهج لهفة على دوريغو، وعلى الرغم من أن حديثها كان مليئاً بالعبارات العامة التي تستخدمها كما لو أنها حفظتها عن ظهر قلب وكانت تكرّرها بتصميم، وعلى الرغم من أنه لم يكن متيقناً تماماً بماذا تفكّر، فقد كان يراها امرأة رقيقة ومخلصة، وجاء معها عالم بدا لدوريغو آمناً، أبدياً، واثقاً، ثابتاً لا يتغير؛ عالم من غرف الجلوس والنوادي المشيدة من الخشب الداكن، ودوارق بلّورية مليئة بشراب الشيري والبيرة، والتخمة، المسكرة قليلاً، ورائحة خانقة

قليلاً من العفن المصقول. كانت أسرة إيلا متحررة إلى حد أنها رحبت في عالمها بشاب يحمل مستقبلاً واعداً، وينتمي إلى أسرة تقليدية من طبقة اجتماعية أدنى، وأفهمته أن شروط قبولها به هي أنه يجب أن ينتمي بكليته إلى ذلك العالم. ولم يخيّب دوريغو إيفانز الشاب أملها. فقد أضحى جرّاحاً، وكان من المفترض أن يتزوّج إيلا. ومع أنهما لم يثيرا موضوع الزواج قط، فقد كان يعرف أنّها تعرف أيضاً أنه سيتزوجها. كان يقول لنفسه إن اقترانه بإيلا شيء آخر يشبه الحصول على شهادته في الطب، الحصول على ترقية، الارتقاء درجة أعلى، التقدم إلى الأمام. ومنذ أيام كهف توم عندما أدرك قوّة القراءة، كانت كلّ خطوة يخطوها دوريغو إلى الأمام تشبه هذه.

تناول كتاباً من أحد الرفوف، وعندما قرّبه من صدره، عبر من الظلّ إلى عامود أشعة الشمس. أبقى الكتاب هناك، وظل ينظر إلى ذلك الكتاب، ذلك الضوء، ذلك الغبار. كما لو كان هناك عالمان. هذا العالم، وعالم خفي بدأ شعاع ضوء شمس بعد الظهر ويكشف كأنه العالم الحقيقي - من ذرات الغبار المتطايرة التي تدور بسرعة جنونية، تومض، تقفز عشوائياً وتصطدم إحداها بالأخرى، ثم تبتعد وتنطلق في اتجاهات جديدة تماماً. وقف هناك في ضوء ذلك الوقت المتأخّر من المساء، وقد تعذر عليه أن يصدق بأن أيّ خطوة يخطوها لن تكون نحو الأفضل. لم يفكّر قط إلى أين أو لماذا، لم يتساءل قط ما الذي يمكن أن يحدث لو اصطدم، بدلاً من أن يتقدّم، مثل ذرة من الغبار في ضوء الشمس.

عادت المجموعة الصغيرة من الرجال في الجانب الآخر من الغرفة تتجمع، لكنها اتجهت نحوه. كانت تتحرّك مثل سرب من الأسماك أو سرب من الطيور عند الغسق. لم تكن لدى دوريغو الرغبة في أن يقترب منها، لذلك اقترب من رفوف الكتب الملاصقة

للنوافذ المطلة على الشارع. ومثل سرب الطيور أو سرء السمك، توقفت ذرات الغبار على حين غرة كما كانت قد بدأت، وشكّلت كتلة على بعد بضع خطوات من رفوف الكتب. شعر أن بعض الرجال ينظرون نحوه. أمعن النظر في الكتب. عندما رفع عينيه، عرف لماذا تحرّكت كتلة الغبار. فقد تحركت المرأة التي كانت تضع زهرة حمراء على شعرها إلى البقعة التي يقف فيها، وها قد أصبحت الآن، تقف أمامه وقد ارتسمت عليها خطوط الظلّ والضوء.

- ٢ -

كانت عيناها زرقاوين مثل اللهب الأزرق المنبعث من نار الغاز. كانتا جارحتين. لبضع لحظات كانت عيناها كلّ ما كان يدركه. كانتا تنظران إليه. لكن لم تكن فيهما أي نظرة. كانتا كأنهما تلتهمانه. هل كانت تقيّمه؟ تكوّن رأياً عنه؟ لم يعرف. ربما كانت هذه الثقة هي التي جعلته يشعر بالامتعاض وعدم الثقة. كان يخشى أن تكون فجّة، وأنها، وأن تنفجر، بعد دقيقة، في الضحك، ثم تنضم إليهما ثلة الرجال الذين كانوا متحلقين حولها، يسخرون منه. رجع خطوة إلى الوراء. ارتطم بالمكتبة فلم يعد بوسعه أن يتراجع أكثر. وقف هناك. يد تفصل بينه وبين رفّ المكتبة. استدار جسده بزاوية حادة نحوها.

رأيتُكَ تدخل إلى المكتبة، قالت مبتسمة. بعد ذلك، لو سُئل كيف كانت تبدو، لارتبك واعترته الحيرة. إنها الزهرة، قرّر أخيراً. ثمة شيء في جرأتها. إن وضع زهرة حمراء كبيرة في شعرها ودسّ السويقة وراء أذنها، قد لخصّ كيانها كله. إلا أن ذلك، كان يعرف، لم يكن يشي بشيء عنها على الإطلاق.

عيناكَ، قالت بغتة.

لم يقل شيئاً. في الواقع لم يكن يعرف ماذا يقول لها. لم يسمع قط شيئاً سخيفاً كهذا. عيناكَ؟ ودون أن يقصد، وجد نفسه يبادلها تلك النظرات المحدقة، ممعناً النظر فيها، يلتهمها بعينيه كما كانت تلتهمه. لم يكن يبدو أنها تبدي أي اهتمام. كانت تشي بغموض وحميمية مقلقة. معرفة يتعذر تفسيرها أصابته بالذهول والصدمة - بأنه قد يحدّق في جميع أجزاء جسد المرأة، لكنها لا تعبأ بذلك مهما أطال النظر إليها.

كان ذلك مذهلاً بقدر ما كان محيّراً. بدا أنها سلسلة من العيوب الطفيفة تتجلى في شامة بالقرب من شفتها اليمنى. وعرف أن كلّ هذه العيوب مجتمعة تشكل جمالاً من نوع ما، وفي هذا الجمال قوّة، وتلك القوّة هي الوعي واللاوعي. ربما أصرّ، بأنها تفكّر بأن جمالها يمنحها الحقّ في أن تحصل على أي شيء تريده. حسناً، إنها لن تحصل عليه.

شديدتا السواد، قالت، وهي تبتسم الآن. لكني متأكّدة من أنك تسمع ذلك كثيراً.

لا، قال.

هذا غير صحيح تماماً، لكن أحداً لم يقلها قط بالأسلوب الذي قالتها فيه. ثمة شيء منعه من أن يبتعد عنها، وعن سماع كلامها الغريب، ويغادر. ألقى نظرة على حلقة الرجال في الجانب الآخر من رفوف المكتبة. اعتراه شعور مشوب بالقلق بأنها تقصد كلّ كلمة قالتها، وأنها تقصده بكلامها.

زهرتكِ، قال دوريغو إيفانز، إنها -

لم يكن يعرف ما نوع الزهرة.

إنها مسروقة، قالت.

بدا أنها تمتلك كلّ الوقت المتاح في العالم حتى تقيّمه، وبعد أن

فعلت ذلك، وجدت أنه يروق لها. ضحكت بطريقة جعلته يشعر بأنّها وجدت فيه أكثر الأشياء جاذبية في العالم. كان كما لو أنّ جمالها، عينيها، كلّ شيء فيها فاتن ورائع، أصبح موجوداً فيه الآن أيضاً.

هل أعجبتكَ؟ سألته.

كثيراً.

من شجيرة زهرة الكاميليا، قالت، وضحكت مرة أخرى. ثم توقفت ضحكتها التي كانت أشبه بقوقأة خفيفة، مفاجئة، فيها شيء من البحة والمودة. مالت إلى الأمام. هبّت عليه نفحة من رائحة عطرها. ورائحة الكحول. لكنه عرف أيضاً أنها لم تكن تعبأ بالقلق الذي اعتراه، وأن هذه لم تكن محاولة للسحر أو الغزل. ومع أنه لم يكن يقصد ذلك أو كان يريد ذلك، فقد أحسّ أن شيئاً يجري بينهما، شيئاً لا يمكن إنكاره.

أنزل يده إلى وراء ظهره والتفت فأصبح في مواجهتها تماماً. كان عامود من أشعة الشمس يسقط بينهما من النافذة، وكانت ذرات الغبار تتصاعد حوله. رآها كأنه يراها من نافذة زنزانة. ابتسم، وقال شيئاً - لم يعرف ما هو. نظر وراء الضوء إلى ثلة الرجال. كان حارسها البريتوري ينتظر في الظّل، وأمل في أن يتقدم أحد من الرجال لأمر ما ويستغلّ شعوره بالارتباك ويعيدها إلى حلقتهم.

من أي سلاح أنت؟ سألته.

ليس نوعاً واحداً.

مستخدماً كتابه، نقر على البقعة البنية المثلثة داخل الدائرة الخضراء المخيطة على كتف سترته.

مركز إخلاء المصابين ٢/٧. أنا طبيب.

أحسّ بشيء من الامتعاض وبقدر من العصبية. ما علاقته بالجمال؟ خاصة عندما أدرك من قسمات وجهها، صوتها، ثيابها،

كلّ شيء فيها، بأنها امرأة من طبقة اجتماعية رفيعة، وأنه، على الرغم من أنه أصبح الآن طبيباً وضابطاً، لم يبتعد بعد عن أصوله، لأنه لم يكن يرى ذلك مهماً.

ساورني القلق بأنني تطفلت-

إطلاق مجلة؟ آه، لا. يخيّل إليّ أنهم يرحبون بأي شخص فيه نبض أو حتى من دون نبض. تيبي هناك - لوّحت بيدها باتجاه المرأة الأخرى - تقول تيبي إن الشاعر الذي كان يقرأ قصائده سيحدث ثورة في الأدب الأسترالي.

رجل شجاع. لقد حضرت لسماع... هتلر.

هل فهمت كلمة منها؟ قالت، نظرتها ثابتة ومتفحصة في آن واحد.

بطاريق؟

ابتَسَمَتْ ابتسامة عريضة، كما لو أن جسراً صعباً تم عبوره.

أفضّل أشرطة أحذية، قالت.

كان أحد الرجال المعجبين بها والذي كان يغنّي بطريقة بول روبيسون: الحصان العجوز رولي، لا يزال يشقّ طريقه.

لقد حثّتنا تيبي جميعاً على القدوم، قالت بنبرة جديدة من الألفة، كما لو أنهم كانوا أصدقاء منذ عدّة سنوات. أنا وشقيقها وبعض أصدقائه. إنها طالبة برفقة الشاعر في الطابق الأسفل. كنّا في نادي الضباط نستمع إلى مباراة الكأس الرئيسية وطلبت منا أن نأتي للاستماع إلى ماكس.

من هو ماكس؟ سأل دوريغو.

الشاعر. لكن هذا ليس مهماً.

من هو رولي؟

حصان. وهذا ليس مهماً أيضاً.

لبث صامتاً، لم يعرف ماذا يقول، فلم تكن كلماتها تنطوي على أي معنى، لا علاقة لكلماتها بما كان يدور بينهما. إذا كان الحصان والشاعر غير مهمين، فما هو المهم؟ ثمة شيء فيها - حدّتها؟ صراحتها؟ شراستها؟ وجدها مثيرة للقلق للغاية. ماذا تريد؟ ماذا تقصد؟ أتوق إلى أن تغادر.

عندما تناهى إلى دوريغو صوت رجل، التفت فرأى رجلاً من المجموعة - يرتدي بدلة ضابط سماوية اللون تابعة للقوات الجوية الملكية الأسترالية - يقف إلى جانبهما، وقال لها بلهجة إنكليزية متكلفة بأنهم يريدونها أن تعود للانضمام إليهم لتساعدهم في حلّ جدال عن الرهانات. لاحقت نظرتها دوريغو، وعندما رأت البدلة الرسمية الزرقاء، تغيّر وجهها تماماً. كأنها أصبحت امرأة أخرى، وذوت عيناها اللتان كانتا حيويتين وهي تنظر إلى دوريغو، أما الآن، بعد أن نظرت إلى الرجل الآخر، فقد انطفأ بريقهما فجأة.

أراد صاحب البدلة الرسمية الزرقاء أن يتجاهل تحديقها بالالتفات إلى دوريغو.

أنت تعرف أنها اختارته، قال.

اختارت من؟

رولي العجوز. مائة إلى واحد. أطول رهان في تاريخ الكأس. كانت تعرف. كانت تعرف جيداً أيّ حصان. لقد راهن هاري هناك بعشرين جنيهاً.

قبل أن يتمكن دوريغو من الإجابة، تحدثت المرأة مع ضابط القوات الجوية بطريقة عرف دوريغو أنها فاتنة لكنها خالية من أيّ مشاعر.

لديّ سؤال آخر فقط لصديقي، قالت وأشارت إلى دوريغو. ثمّ سأعود إليك لمناقشة رهان السباق.

بعد انتهاء تلك المحادثة القصيرة، عادت إلى دوريغو، فتسمّر صاحب البدلة الرسمية الزرقاء في مكانه، ثم عاد بعد لحظة أو لحظتين لينضم إلى الآخرين.

- ٣ -

أي سؤال؟

لا أعرف أي سؤال، قالت.

إنه يخشى أنها تتلاعب به. قالت له غريزته بأن يذهب، لكن شيئاً جعله يبقى.

ما هذا الكتاب؟ سألته، مشيرة إلى يديه.

كاتولوس.

حقاً؟ ابتسمت مرة أخرى.

أراد دوريغو إيفانز أن يتحرر منها، لكنّه لم يكن قادراً على تحرير نفسه. هاتان العينان، تلك الزهرة الحمراء، الطريقة - لكنّه لم يشأ أن يصدق ذلك - الطريقة التي بدا أنها تبتسم فيها له. وضع إحدى يديه وراء ظهره، وراح ينقر بأصابعه على ظهر الكتب المصفوفة هناك، كُتب لوكريتيوس وهيرودوت وأوفيد. لكنّها لم تجب.

شاعر روماني، قال.

اقرأ لي واحدة من قصائده.

فتح الكتاب، خفض عينيه، ثم رفعهما.

أأنتِ متأكّدة؟

طبعاً.

إنها جافة جداً.

وكذلك أديليد.

عاد وخفض عينيه إلى الكتاب وقرأ -

شعرت بوخزة جوع أخرى
بين
سترتي وعباءتي.

أغلق الكتاب.

بالنسبة لي فهي كلها لاتينية، قالت.

لكلينا، قال دوريغو إيفانز. كان يأمل في أن يهينها، لكنه أدرك أنه لم يتمكن من فعل ذلك. عادت تبتسم له. حتى أنها جعلت إهانته لها تبدو كأنه يغازلها، وتساءل إن لم يكن الأمر كذلك.

نظر إلى النافذة لعل أحداً ينجده. لكن أحداً لم يهبّ لنجدته.

اقرأ المزيد، قالت.

قلّب بسرعة بضع صفحات. توقّف ثم قلّب بضع صفحات أخرى. توقّف، وبدأ يقرأ:

لنحيَ ونحبّ
ولا نكترث بالشيوخ
الذين يعظون ويحرّمون.
عندما تغيب الشموس
تستطيع أن تشرق ثانية،
لكنّنا -

أحسّ بغضب غريب يعتمل في نفسه. لماذا يقرأ هذه القصيدة

من بين كلّ القصائد؟ لماذا لا يقرأ شيئاً آخر يمكن أن يهينها فيه؟ لكن قوة أخرى تملكته الآن، راحت توجّهه، تُبقي صوته منخفضاً وقوياً، بينما مضى يقرأ:

لكنّنا، عندما ينار ضوؤنا العابر،
يجب أن ننام الليل الطويل بلا نهاية.

أمسكت الجزء العلوي من بلوزتها بإبهامها وسبّابتها، وشدتها إلى الأعلى وهي ترمقه بعينين بدا أنهما تقولان إنها تحبّ أن تُشدَّ إلى الأسفل.

أغلق الكتاب. لم يعرف ما الذي عليه قوله. خطرت له أشياء عديدة، أشياء، أشياء غير ضارة، أشياء وحشية، حوّلت انتباهه عن المكتبة، وبعيداً عنها وعن تلك النظرة الفظيعة، عيناها بلهيبهما الأزرق المتوحش - لكنّه لم ينبس بكلمة. من بين جميع الأشياء السخيفة التي يمكن أن يقولها، كلّ الأشياء التي أحسّ أنها وقحة وضرورية، سمع نفسه يقول -

عيناك هما -

كنّا نتحدّث عن أن الحبّ مجرد هراء، قاطعه صوت رجل غريب.

عندما التفت دوريغو، رأى أن أكثر المدّعين البائسين، الصديق المقرّب، قد ترك حلقة المعجبين لينضم إليهما، ربما ليأخذ هاتين العينين الزرقاوين معه. ربما كان يشعر أن عليه أن يوجه كلامه إلى دوريغو أيضاً، ابتسم الصديق له، محاولاً، كما شعر دوريغو، أن يعرف من هو دوريغو إيفانز، ولماذا يقف مع المرأة. كان يودّ أن يخبره.

معظم الناس يعيشون دون حبّ، قال الصديق. ألا توافق؟

لا أعرف، أجاب دوريغو.

ابتسم الصديق، لوى فمه لدوريغو، وفتحه ببطء لها، دعوة متواطئة لها كي تعود إلى مجموعته، إلى عالمه، إلى سرب الدبابير. تجاهلت هذا الرجل الدَّعيّ. أدارت كتفها له، وقالت إنها ستعود بعد دقيقة؛ مبدية بوضوح أن عليه أن يذهب لأنها تريد أن تبقى مع دوريغو. لكن دوريغو الذي كان يراقب تواصلها الصامت، لكن الواضح، لم يكن يرجو أن يحدث ذلك.

كلّ هذه الأحاديث عن الحبّ، تابع الدَّعيّ، مجرد هراء. لا توجد هنالك حاجة إلى الحبّ. إن أفضل الزيجات تقوم على التوافق. يثبت العلم أننا جميعاً نوّلد حقولاً كهرومغناطيسية. فعندما يلتقي شخص شخصاً آخر فهو يحمل آيونات متضاربة فإذا سارت في مسارها الصحيح، فإن أحدهما ينجذب إلى الآخر. لكن هذا ليس حبّاً.

ما هو إذن؟ سأل دوريغو.

المغناطيسية، قال الدَّعيّ.

- ٤ -

مع أن الميجور ناكامرا لم يكن يجيد لعب الورق، فقد فاز فوزاً ساحقاً. كان ثمة تفاهم بين صغار ضباطه وأسرى الحرب الأستراليين الذين يلعبون معه بأن من الأفضل ألّا يخسر. وبواسطة مترجمه الخاص، الملازم فوكوهارا، شكر ناكامرا كلاً من الكولونيل والميجور الأستراليين على هذه الأمسية الممتعة. ثم نهض الميجور الياباني واقفاً، تعثّر إلى الخلف قليلاً وكاد أن يقع، لكنه سرعان ما

استعاد توازنه. بدا ناكامرا متحمّساً مع أنه كاد يسقط منكباً على وجهه.

كان ويسكي ميخونغ الذي جلبه قد أحدث مفعوله في الضابطين الأستراليين. تحرّك دوريغو إيفانز بحذر لينهض. كان يعرف أن دوره قد جاء الآن في اللعب باعتباره *الأخ الكبير*. انتظر طوال الليل، لكنّه قدّر أن اللحظة قد حانت ليتصرّف.

لقد بدأ *السبيدو* منذ سبعة وثلاثين يوماً بلا هوادة، قال الميجور دوريغو إيفانز. نظر إليه ناكامرا، مبتسماً. بادله دوريغو إيفانز الابتسامة. من أجل تحقيق أمنيات الإمبراطور، فمن الحكمة أن نسخّر جميع مواردنا. وبغية مدّ السكة الحديدية على أفضل وجه، يجب أن نريح رجالنا، لا أن نحطمهم. إن يوم استراحة واحد لن يحافظ على طاقة الرجال فحسب، بل سيحافظ على الرجال أنفسهم.

كان يتوقّع أن ينفجر ناكامرا في وجهه، أن يضربه أو يهدّده، أو في أقل تقدير أن يصرخ في وجهه. لكن القائد الياباني لم يزد على أن ضحك بينما أخذ الملازم فوكوهارا يترجم ما يقوله. ترنّح وانتفض عندما ترجم فوكوهارا ردّه لدوريغو.

يقول الميجور ناكامرا إن الأسرى محظوظون. فهم يستعيدون شرفهم بموتهم في سبيل الإمبراطور.

توقف ناكامرا، التفت وأخذ يكلّمهم.

صحيح أن هذه الحرب قاسية، ترجم الملازم فوكوهارا. وهل الحرب غير ذلك؟ لكن الحرب كائنات بشرية. الحرب هي ما نمثله نحن. الحرب هي ما نفعله. السكة الحديدية قد تقتل البشر، لكني لا أصنع البشر. أنا أصنع السكة الحديدية. إن التقدّم لا يتطلب حرية. إن التقدّم لا يحتاج إلى حرية. الميجور ناكامرا يقول إن التقدّم قد

يحدث نتيجة أسباب أخرى. أنت يا دكتور، تدعوها لا حرية. أما نحن فندعوها *الروح*، *الأمة*، *الإمبراطور*. يا دكتور أنت تسمّيها وحشيّة، أما نحن فإننا نسميها القدر. بنا أو بدوننا. إنه المستقبل.

انحنى دوريغو إيفانز. وفعل سكويزي تايلور، الضابط برتبة مايجور، نائبه في القيادة، ذات الشيء.

لكن الميجور ناكامرا لم ينه كلامه بعد. فراح يتكلّم، وعندما انتهى قال فوكوهارا -

إمبراطورتيكم البريطانية، يقول الميجور ناكامرا. إنه يقول: أتظن أنها لم تكن بحاجة إلى عدم الحرية، يا كولونيل؟ لقد ثبتت عارضة وراء عارضة على السكة من عدم الحرية، جسراً بعد جسر من عدم الحرية.

استدار الميجور ناكامرا وغادر. ذهب دوريغو إيفانز مترنحاً إلى كوخ ضباط أسرى الحرب، واتجّه مباشرة إلى سريره، سرير حديدي صغير لا يسعه. كان السرير الحديدي الصغير امتيازاً سخيفاً أحبّه لأنه لم يكن في واقع الحال امتيازاً على الإطلاق. نظر إلى ساعة يده. إنها الساعة ١٢:٤٠. انطلقت منه أنّة. ولكي يسند ساقيه الطويلتين، ركّب منصباً ثلاثي القوائم من الخيزران، ووضع عليه صفيحة كيروسين مسطحة وثبتّها بمزيد من عيدان الخيزران. كانت تقع غالباً عندما يتقلّب في نومه.

أشعل عقب شمعة مركونة بجانب سريره الصغير وتمدد. التقط كتاباً مثني الحافة - كنز في المعسكر - رواية رومانسية يقرأها قبل النوم لتجعل عقله يهيم في مكان آخر، وهو على وشك أن ينهيها. لكن دوريغو إيفانز، السكران، المنهك، المريض، لم تكن لديه الآن ما يكفي من الطاقة ليقرأ ولا من الرغبة ليتحرّك، فداعب النوم جفنيه.

- ٥ -

حلم الرجل العجوز بأنه شاب نائم في أحد معسكرات أسرى الحرب. كان الحلم هو أكثر الأشياء الحقيقية التي عرفها دوريغو إيفانز الآن. كان يلاحق المعرفة، مثل نجم يهوي، إلى أقصى حدود الفكر الإنساني.

انتصب جالساً.

كم الساعة؟

الثالثة تقريباً.

يجب أن أذهب.

لم يجرؤ على نطق اسم إيلا. أو كلمة زوجة، أو كلمة بيت.

أين هي تلك التنّورة الأسكتلندية؟

أعدتَ تفكّر بها؟

تنّورتي؟

إن هذا يجرح مشاعري، كما تعرف.

التنّورة اللعينة.

كان قد جاء مرتدياً تنّورة أسكتلندية، بعد العشاء السنوي الذي تقيمه جمعية *باراماتا* بيرنز التي هو عضو فيها منذ أن جاء للعمل في سيدني في عام ١٩٧٤، والتي انضم إلى عضويتها لسبب لا يعرفه إلا ربما، بسبب الويسكي، رذيلته العامة، وبسبب رذيلته الخاصة وهي النساء. والآن فُقدت التنّورة.

ليست إيلا، قالت. لأن هذا ليس حبّاً.

فكّر بزوجته. وجد أن زواجه عزلة عميقة. لم يفهم لماذا تزوّج، لماذا يعتبر النوم مع نساء مختلفات إثماً، لماذا يعني كلّ ذلك أقل وأقل. ولم يعرف سبب الألم الغريب الذي بدأ يلمّ به أسفل معدته

والذي أخذ يزداد، لماذا تعتريه رغبة جامحة في أن يتشمم رائحة ظهر لينيت الآنستن، أو لماذا تعتبر أحلامه الشيء الحقيقي الوحيد في حياته.

فتح الثلاجة الصغيرة، وأخرج منها آخر زجاجة صغيرة من ويسكي غلينفيديتش. بهزة رأسه، لاحظ التقنية الجديدة باللمس، ما يعني أنه ما إن يأخذ القنينة من الثلاجة، حتى تُسجّل إلكترونياً على الفور. شعر بقدوم عالم جديد أكثر ذكاء، عالم أكثر ترويضاً، عالم الحدود والمراقبة، حيث يُعرف كلّ شيء، وعدم الحاجة إلى اختبار وتجريب أي شيء. كان يعرف أن ذاته العامة - ذلك الجانب الذي يضعونه على العملات المعدنية والطوابع - ستمتزج مع الزمن القادم، وأن الجانب الآخر، ذاته الخاصة، سيزداد غموضاً وبغضاً. هذا الجانب الذي سيتآمر الآخرون لإخفائه.

لم يكن عصر الامتثال الجديد القادم يلائم جميع الأشياء، حتى المشاعر العاطفية، والشيء الذي كان يربكه هو كيف أصبح الناس يلمسون بعضهم بعضاً بشكل زائد عن الحد، ويتحدّثون عن مشاكلهم كأنهم يسمّون الحياة بطريقة تصف لغزها أو تُنكر فوضاها وتشوشها. أحسّ بأن شيئاً يذوي، الطريقة التي تُقيّم فيها المجازفة بشكل متزايد، وبقدر الإمكان، إلغاؤها واستبدالها بعالم جديد مبتذل أصبحت فيه مشاهدة طريقة تحضير الطعام أكثر إثارة من قراءة الشعر؛ عالم أصبحت فيه الحماسة تأتي من دفع ثمن شوربة من أعشاب الأعلاف. كان قد تناول حساء أعشاب الأعلاف في المعسكرات، لكنه يفضّل الطعام. كانت أستراليا التي تقبع في رأسه مليئة بقصص الموتى. وبات يرى أستراليا الأحياء الآن بلداً أكثر غرابة.

لقد ترعرع دوريغو إيفانز في عصر كان يمكن تصوير الحياة فيه في صورة الشعر، أو أنها كما كانت بالنسبة له وبشكل متزايد، ظلّ

قصيدة واحدة. فإذا كان قدوم التلفزيون الذي صاحبته فكرة الشهرة - الأشخاص الذين هم، في الأحوال العادية، كما يرى دوريغو، أناس عاديون لا تتمنى أن تعرفهم - قد أنهى ذلك العصر، فإنه يتغذى عليه أيضاً أحياناً، ووجد في وضوح الذين نظموا حياتهم وفق أسرار الشعر البهي موضوعاً مناسباً لصورة خاوية من الفكر إلى درجة كبيرة.

إن ما أبرز دوريغو هو فيلم وثائقي عنه عن الخطّ بمناسبة يوم أنزاك في عام ١٩٧٢ احتفاء بالأستراليين الذين شاركوا وقضوا في الحرب، ودفعه لأول مرة إلى الوعي الوطني، وعززت مكانته برامج حوارية أخرى اتخذ فيها بتصنع موقفاً إنسانياً محافظاً. قناع آخر.

عارفاً أنه عاش أكثر من عمره، وشاعراً برغبته الأبدية في أن يحيا حياة طائشة، فتح زجاجة الويسكي الصغيرة. عندما رشف منها، تحسسّ التنّورة بأصابع قدمه بجانب قاعدة الثلاجة الصغيرة. ارتداها، ونظر إلى السرير حيث بدت لينيت، في ذلك الضوء الليلي الغريب المنبعث من الساعة الإلكترونية والضوء الأخضر المنبعث من جهاز إنذار الدخان، كأنها ترقد تحت الماء. لاحظ أنها تضع ذراعها فوق عينيها. رفعها. كانت تبكي. بصمت من دون أي حركة.

لينيت؟

أنا على ما يرام، قالت. اذهب.

لم يشأ أن يقولها لكن كان عليه أن يقولها.

ماذا في الأمر؟

لا شيء.

انحنى ولامس بشفتيه جبينها الطحلبي اللون. طعم بودرة. رائحة الياسمين التي تأسره والتي توقظ فيه دائماً الرغبة في الهرب.

إنه أمر قاس، قالت، عندما تريد شيئاً ولا تتمكن من الحصول عليه.

تناول مفاتيح سيارته. كان يجد متعة كبيرة في أن يقود سيارته في الطرق الخلفية وهو ثمل، الأضواء، اللعبة في ألّا يُقبض عليه، وأن يفلت مرة أخرى. أنهى ارتداء ثيابه بسرعة، جرع آخر رشفة من قنينة ويسكي غلينفيديتش الصغيرة، أمضى خمس دقائق محبطة في البحث عن كيس النقود الذي يُعلق في تنورته والذي وجده أخيراً تحت كتاب قصائد الموت اليابانية، ثم غادر، ونسي أن يأخذ معه كتابه.

- ٦ -

في الأسبوع التالي حصل دوريغو على إجازة لمدة أربعين ساعة. عاد إلى ملبورن على متن طائرة عسكرية، وفي اليومين الهادئين الخاويين والليلة التي أمضاها مع إيلا، حاول أن يُحدث أكبر قدر ممكن من الضجيج والحركة. كان يشعر بأنه بحاجة ماسة إلى ذلك أكثر من أي وقت مضى، مثل رجل على شفا حفرة من الموت يستميت للتعلّق بالطين تحته.

مرات عديدة، أراد أن يحدّث إيلا عن المرأة التي كان قد كلّمها في المكتبة في أديليد. لكن ماذا سيقول لها؟ فلم يحدث شيء بينهما. رقص هو وإيلا. وشربا. ماذا حدث؟ لم يحدث شيء.

ضم إيلا مثل طوق نجاة. كان يتشوق لأن ينالها على السرير ليكتشف نفسه ويكتشفها مرة أخرى، وشعر بالامتنان لأنها لن تشعر كما بدا له فجأة بأنه زنى بشكل لا يمكن تفسيره. شعرها الأسود، عيناها الداكنتان، قوامها الممتلئ - كانت جميلة، لكن بالرغم من ذلك، لم يشعر بشيء نحوها.

ماذا حدث؟ لم يكن يفكّر بالشعر أو بالعينين، بل اعتراه إحساس مربك مثل مليون ذرة غبار ترقص وبلا معنى. شعور غريب بالذنب

جعله كئيباً. لكنه ماذا فعل؟ لم يفعل شيئاً، في أحسن الأحوال، حدّثها لبضع دقائق ثمّ استدار وغادر المكتبة. حتى أنه لم يعرف ما اسمها. ماذا طلب منها؟ ماذا قالت له؟ لا شيء! لا شيء! حتى أنه لم يعرف ما اسمها.

عالم إيلا - الذي بدا حتى ذلك الحين مريحاً للغاية في أمنه ويقينه وكان يتمنّى أن يكون جزءاً منه- وجده دوريغو بغتة شاحباً وباهتاً. مع أنه حاول أن يجد فيه ذلك الإحساس الغامض بالسهولة، تلك الرائحة المتأصّلة من القوّة وامتيازاتها التي وجد أنها أكثر جاذبية من قبل، لم تعد تعني له شيئاً الآن -بل الأسوأ من ذلك، أصبحت تبدو بغيضة.

فسّرت إيلا والآخرون فظاظة دوريغو الجديدة بحالة الزمن العصيبة: الحرب. الحرب تضغط عليك، الحرب تجعلك مختلاً، الحرب تلغي وجودك، الحرب تجعلك معذوراً. من جانبه، خيّل إلى دوريغو بأنه لا يستطيع الانتظار حتى تأتي الحرب، إذا كانت هي البديل.

وحكى أخيراً لإيلا، كما لو أنه كان مجرد لقاء غريب، لكن عندما كان يحكي لها ذلك، بدا له كأن اللقاء خيانة زوجية. تملكه شعور بخجل لا يمكن تبريره. لماذا لا يريد إيلا؟ وبتصوير هذه المرأة الغريبة بأنها امرأة حادة الطباع، غير ملائمة نوعاً ما، أحسّ بأنّه خان ما حدث، وخانها وعلى نحو ما خان نفسه. أنهى القصّة بقشعريرة.

هل هي جميلة؟ سألته إيلا.

قال لها إنها امرأة عادية. وشعر بأن عليه أن يقول المزيد، فقال إن لديها - وراح يبحث عن ملامح لا يتذكرها، لا يمكن أن تُعتبر

غير ملائمة - *أسنان* جميلة. أسنانها جميلة، قال. هذا كل شيء عنها في الحقيقة، قال.

أنياب، أكثر دقة، قالت إيلا، صوتها أعلى قليلاً. وزهرة كاميليا حمراء تزّين شعرها؟ أقصد أن أقول. كانت تبدو مثل وحش.

لكنها لم تكن كذلك. لقد وقفت هناك وثمة شيء حدث، شيء ما حدث بينهما، وكم تمنى أنه لم يحدث. لأن إيلا بدت له الآن شخصاً لم يعرفه من قبل. حديثها الذي وجده آنذاك بهيجاً، وجده الآن ساذجاً ومزيفاً، وأصبحت رائحة عطرها كريهة الآن في منخريه، لذلك تمنى أن يهينها لكي تغادره.

هل عليّ أن أغار؟ سألت إيلا.

ممّ تغارين؟ قال. لا أستطيع أن أخبرك عن مدى سعادتي عندما خرجت من تلك المكتبة.

بعد لحظات، أخذ يقبّل إيلا. إن إيلا لطيفة، قال لنفسه. وفي مكان ما في داخله كان يشفق على إيلا، واعتراه إحساس بأنهما سيعانيان بسبب رقتها وشفقته. كان يكره رقتها ويخاف من شفقته، وكان يريد أن يتجنب كل ذلك إلى الأبد. وكلما ازداد كراهية وخوفاً، تمنى أن ينجو بنفسه، وكلما ظل يقبّلها، ازداد عناقهما حرارة، وكلما انتقلت اللحظة إلى لحظة أخرى، وذلك اليوم إلى اليوم التالي، وكلما امتلأت الحياة بالحياة، تلاشى مزاجه الكئيب، وكاد يتوقّف عن التفكير بالفتاة التي تزيّن شعرها بزهرة الكاميليا الحمراء.

كان سعيداً. وبدا أن الإجازة تمضي بسرعة في خضم تلك الدوّامة التي لا تنتهي من الحفلات واللقاءات العابرة والأصدقاء الجدد. كان يبدو أن الجميع يريدون أن يلتقوا برجل إيلا، سواء

أكانوا أصدقاءها أم أصدقاء والديها. وهكذا تعرّف على معظم شخصيات المجتمع في ملبورن، وبدأ يرى نفسه في صورتهم -شابّ سيرتقي بعد انتهاء الحرب إلى مناصب عظيمة. كان كلّ شيء في هذه الحياة المثالية منسجماً ومتسقاً بشكل جميل - هو وإيلا وأسرة إيلا ومكانتها في العالم التي ستصبح قريباً مكانته هو أيضاً. وما كان صعباً للغاية مع إيلا أصبح الآن سهلاً على حين غرة: فقد زالت جميع العوائق بينهما، وأصبح كما كان في السابق، بل ربما أفضل. ونسي تماماً المكتبة والشكوك التي كانت تساوره.

عندما عاد إلى أديليد، انهمك في أعمال هيئة الأركان التي كان يمقتها كثيراً. خارج كوخ نيسسن في مبنى إدارة معسكر وارادال - حيث يوجد له مكاتب ولبعض الضباط الأطباء الآخرين-كان التراب يتطاير في دوامات في الساحة، أما في الداخل، تحت وطأة الحرارة الفظيعة الشبيهة بحرارة الفرن، فقد حاول أن يركز على التحضير للعمل: الإمدادات والمعدات التي إمّا أنها كانت غير متوفرة وإما أن أحداً لا يرى ضرورة لها، بالإضافة إلى القدر الكبير والمربك من الأعمال الكتابية التي نادراً ما كان يرى الهدف منها أو نهاية لها. وفي الليالي الأكثر برودة التي تقام فيها حفلات وتوزع فيها بيرة باردة وشراب الروم المبرد، فكان يلقي بنفسه فيها لينسى واقعه الذي كان يجد نفسه فيه أحياناً.

وصلت بطاقة بريدية من كيث مولفاني يكرّر فيها دعوته إلى زيارته في فندقه *ملك كورنوال*. كانت تتصدر البطاقة الملوّنة يدوياً صورة للفندق: مبنى ضخم مشيّد بالحجارة، يتألف من أربعة طوابق - توجد في كل طابق شرفة بثلاثة أضلاع تطلّ مباشرة على شاطئ طويل خال من الناس - مشيّد كما تقول البطاقة في عام ١٨٨٦. ومن سحنة وشكل أصحاب القوارب وشوارب الرجال الواقفين أمام

الفندق، كان يمكن القول إن البطاقة نفسها هي أحدث من ذلك بقليل. ووضعها دوريغو بالخطأ وسط ملفات المكتب.

في كلّ شيء وفي كلّ شخص كان يتزايد الشعور بالإحباط كلما وردت تقارير تتحدث عن الهجوم الخاطف على لندن، فضلاً عن التقارير الأولية عن الأستراليين الذين يحاربون الإيطاليين في ليبيا، وبالرغم من ذلك، فإنهم لا يزالون في معسكراتهم في أديليد. وسرت إشاعات عن نقل الجنود إلى أماكن محتملة: اليونان وبريطانيا وشمال أفريقيا، واحتلال النرويج.

انهمك دوريغو في لجة الحياة، في العمل المسعور، وفي الحفلات المحمومة، ونسي كلّ شيء آخر. ذات مساء، وجد بالصدفة تحت كومة طلبات للحصول على نقالات، البطاقة البريدية التي تبرز صورة فندق كيث مولفاني على الشاطئ. وفي عطلة نهاية الأسبوع التالي، حصل على إجازة لمدة اثنتي عشرة ساعة. وبما أنه لم يكن لديه شيء هام يفعله، قاد دوريغو إيفانز شاحنة ستوديبيكر التي تسير على الفحم استعارها من شقيق أحد الجنود لديه على طول الساحل.

عندما حلّ المساء، وصل إلى مستوطنة صغيرة أشبه بقرية سياحية لسكان أديليد. ومع النسيم الذي كان يهبّ من المحيط، وصوت ارتطام الأمواج، لم تصبح الحرارة محتملة فحسب، بل أضحت أيضاً شيئاً شهوانياً ومحتفى به. وإن بدا الشاطئ رائعاً في البطاقة البريدية، فإن فندق ملك كورنوال بدا أعظم وأكثر فخامة مما أظهرته الصورة، يحيط به ذلك السحر الكيميائي الذي يذكّر بأشياء قديمة كانت قد مرت بأوقات عصيبة.

في داخل الفندق كان هناك مشرب طويل معتم على طراز جنوب أستراليا: له سقف عال، وضوء خافت لطيف بعد الضوء الحاد

لصيف جنوب أستراليا. بدا أن تدرج ألوان الخشب المبقع واللون الأشهب الداكن يهدئ العيون ويريحها بعد الوهج الشديد في عالم خارج الفندق. وكان الصوت الإيقاعي للمراوح المعلقة في السقف يغطي على أحاديث الرواد المنخفضة. توجه دوريغو إلى المشرب الذي كانت تقف وراءه نادلة منهمكة في ترتيب وصفّ بعض القناني على الرفّ الخلفي. كانت مولية ظهرها له، عندما سألها عما إذا كان بإمكانها أن تساعده على إيجاد كيث مولفاني.

أنا ابن أخ كيث، أضاف.

لا بد أنك دوريغو، قالت النادلة عندما التفتت.

كان شعرها الأشقر مرفوعاً ومعقوصاً في شكل شينيون. أنا –

مخروط من ضوء كهربائي قاتم يضيء المشرب جعل عينيها الزرقاوين تتلألآن. للحظة كان ثمة شيء فيهما، ثمّ فرغتا.

أنا زوجة كيث، قالت.

– ٧ –

جال ببصره في أرجاء المكان. من الرفّ العالي الذي صُفَّت عليه زجاجات الرم والويسكي، إلى الزبائن الآخرين، إلى المنشفة المكتوب عليها ملك كورنوال، وإلى يد امرأة تحمل منشفة صحون مبللة. أصابع رشيقة ذات أظافر مطلية بلون أحمر غامق. اجتاحته رغبة جامحة لأن يلمسها بفمه. أحسّ بنفسه يتألق، ويدور أمامها.

قولي لكيث إن –

نعم.

إن إجازتي قصيرة، ولا أستطيع أن أبقى.

وأنت –

ابن أخيه.

دوري؟

لم يستطع أن يتذكّر اسمه لكنه بدا صحيحاً.

أنت دوري؟ دوريغو؟ أليس هذا ما يطلقون عليك؟

حسناً، نعم. نعم.

إنه... غير عادي.

لقد ولد جدّي هناك. يقولون إنه جاء مع بن هول.

بن هول؟

سارق يعيش في الأدغال:

لأنه كما في أيام
توربين ودوفال
كان أصدقاء الناس مجرمين
وكذلك كان بن هول الشجاع.

هل تستخدم كلماتك أنت؟ سألته.

دوريغو هو اسمي الأوسط لكنه -

ظل عالقاً؟

أظن ذلك.

كيث غير موجود. سينزعج لأنه لن يراك.

الحرب.

نعم. ذاك السيد هتلر.

سآتي في وقت آخر.

نعم تعال يا دوري. سينزعج كثيراً لأنك لم تمكث.

همّ بالمغادرة. شعر في أعماقه بعاصفة قوية من الحماسة والخيانة، كما لو أنها كانت له ثم هجرته، واقترن ذلك بشعور بأنها له وبأن عليه أن يستعيدها. عندما أصبح عند الباب، استدار وخطا خطوتين نحو المشرب.

ألسنا؟ قال.

أمسكت الطرف العلوي من بلوزتها بين إبهامها وسبّابتها - ظفراها المطليان بألوان زاهية مثل خنفساء عيد الميلاد - وفردت جناحيها وشدت البلوزة إلى أعلى.

المكتبة؟

نعم، قالت.

عاد إلى المشرب.

قال: ظننت أنها كانت-

من؟

أحسّ به، شيء عنه وعنها، لكنّه لم يعرف ما هو. لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً حيال ذلك. لم يفهمه، لكنّه أحسّ به.

أولئك الرجال. كانوا -

كانوا ماذا؟

معك. كانوا -

نعم؟

كانوا - معجبين بك.

لا تكن سخيفاً. إنهم أصدقاء صديق من نادي الضباط لم أره منذ فترة طويلة، وبعض أصدقائهم. إذن أنت هو الطبيب الشاب الذكي؟

حسناً، شاب، نعم. وأنتِ كذلك.

إني أتقدم في العمر. سأخبر كيث بأنك أتيت.

بدأت تنظف طاولة المشرب. أمال زبون كأساً فارغة حوافها مكسوة برغوة، نحوها.

إني قادمة، قالت.

غادر، عاد بالشاحنة إلى المدينة، وجد حانة وشرب كثيراً حتى النسيان إلى حد أنه لم يعد يستطيع أن يتذكّر أين ركن شاحنة الستوديبيكر. لكنه تذكرها عندما صحا. ألمّ به صداع فظيع. ألم في كلّ حركة وتفكير. إنها السبب والعلاج، وهي فقط، وهي فقط، وهي فقط.

بعد عدّة أسابيع، حاول أن ينسى من خلال مشاركته في تدريبات المسير الطويلة اللانهائية مع جنود سرية المشاة كضابط طبيب، يمشي عشرين ميلاً كل يوم - من كروم العنب في الوادي حيث يملؤون جعبهم بعنب المسكات وبالنبيذ الأحمر، إلى الشواطئ الساحلية حيث يسبحون، ثم يعودون سيراً، ثم يعودون مرة أخرى - تحت الحرارة اللاهبة التي كانوا يعتبرونها عدواً لهم. كان يساعد في حمل جعب الجنود الذين ينهارون من شدة الإعياء. ثم أمره قائد السرية بالتوقف عن عمل ذلك كي لا يبدو أحمق في عيون الرجال.

في بعض الليالي، كان يكتب رسائل إلى إيلا يحاول فيها استخدام صيغ وعبارات مجازية عن الحبّ تعلّمها من كتب الأدب. كانت الرسائل طويلة، مملّة وغير صادقة. كانت تعذّب عقله أفكار ومشاعر لم يكن قد قرأها قط. لذلك، كان يعرف أن ذلك لا يمكن أن يكون حبّاً. أحسّ بدوامة من الكراهية والشهوة نحو زوجة كيث. أراد أن يضم جسدها إليه. أراد ألّا يراها ثانية. أحسّ بكراهية وبمسافة غريبة، أحسّ بقدر من التواطؤ - كما لو كان يعرف شيئاً ينبغي ألّا يعرفه - وعلى نحو غريب، أحسّ بأنّها تعرف ذلك أيضاً.

قال لنفسه إنه عندما تنطلق كتيبته إلى ما وراء البحار، عندها سيتوقف بسعادة عن التفكير فيها. لكنه لم يقدر على التوقف عن التفكير فيها.

خفّ تناوله للطعام، وفقد شيئاً من وزنه، وأصبح مهموماً مما حدا بقائد السرية الذي كان معجباً بحماسة دوريغو غير العادية، إلى منحه إجازة خاصة لمدة عشرين ساعة. كانت إيلا قد أخبرته بأنها ستأتي إلى أديليد إذا حصل على إجازة قصيرة، وقالت ليس لديها الوقت الكافي للسفر إلى ملبورن. ومع أنه كان ينوي قضاء إجازته معها، حتى أنه اختار مطعماً محدداً ليأخذها إليه، فلم يذكر لها في أي من الرسائل والبطاقات الكثيرة التي أرسلها إلى إيلا بأنه سيذهب في إجازة قريباً. وعندما اقترب موعد إجازته، قال إنه ليس من المناسب أن يخبرها لأنها لن تتمكن من اتخاذ أيّ ترتيبات، وأنها ستشعر بإحباط مدمر. عندما قرّر أن يتبع أسلوب الصمت، وبعد أن أقسم بأنه لن يعود إلى فندق ملك كورنوال، هاتف عمّه كيث الذي دعاه وطلب منه أن يمكث ليلة في فندقه، وقال له إن 'حبيبتي أيمي'، كما كان يدعو زوجته، ستكون مسرورة برؤيته تماماً كما هو حال كيث.

أيمي، قال دوريغو إيفانز لنفسه وهو يغلق سماعة الهاتف، حبيبتي أيمي.

- ٨ -

بعد أن لعب الورق مع الضبّاط الأستراليين، غطّ الميجور ناكامرا في نوم كحولي عميق. ورأى في أحلامه الغريبة بأنه ضائع في غرفة مظلمة وبدأ يتحسس ساق فيل. كان يحاول أن يتصوّر أي غرفة تستطيع أن تحملها مثل هذه الأعمدة. ورأى فماً هائلاً تنبعث منه نباتات لولبية متسلقة، وأوراق أشجار خانقة تشكّل عصابة حول عينيه

فلم يعد يرى. وكان يشعر بالحياة حوله، لكنها لم تكن حياة واضحة بالنسبة له. كانت جميع الأشياء في هذه الغرفة غير متوقّعة وغير متحضّرة - سواء أكانت الغابة اللانهائية أم الأسرى الأستراليون شبه العراة الذين يعرف أنهم يحيطون به مثل قطيع من القردة المهدّدة الضخمة المكسوة بالشعر.

ما هذه الغرفة؟ كيف يمكنه الخروج منها؟ بدأت عصابة العين الخضراء تلتفّ الآن حول حنجرته، تخنقه. بدأ قلبه يخفق بقوة. شعر بأنه يتذوق طعم ملعقة نحاسية في فمه الجاف. عرق زنخ يسيل من ظهره في برودة دبقة. يحكّ جسمه كثيراً وفاحت منه رائحة نتنة لم يطقها هو نفسه. كان يرتجف، يرتعش، عندما أدرك أنّ أحداً يهزّه ليوقظه.

ماذا؟ صاح ناكامرا.

في هذه الأيام لم يعد ينام نوماً هانئاً. كان إيقاظه بشكل مفاجئ وفظ في منتصف الليل يربكه ويثير حنقه. كان يشمّ رائحة المطر الذي يهطل أثناء هبوب الرياح الموسمية قبل أن يسمع قطراته تصفع الأرض في الخارج، ثم انسلّ صوت الملازم فوكوهارا المزعج منادياً اسمه.

ماذا في الأمر؟ صرخ ناكامرا مرة أخرى.

عندما فتح عينيه، لاحت أمامه ظلال تثب وضوء يرتعش. ثم بدأ يحك جسمه. قبعة مبللة مطاطية تشكّل مخروطاً أسود لامعاً ارتفعت من قاعدتها إلى وجه فوكوهارا المتجهم. كان نظيفاً وأنيقاً كدأبه حتى في أحلك الظروف، وقد تزين بشعره المقصوص، ونظارته ذات الإطار المصنوع من القرن المبلل بقطرات ماء، وشاربه. وكان الرقيب توموكاوا يقف خلفه حاملاً فانوس كيروسين، معتمراً قبعة مستديرة مبللة، تُبرز رأساً في شكل جزرة.

كان الرقيب توموكاوا في مهمة حراسة. سيدي، قال فوكوهارا عندما دخل إلى المعسكر سائق شاحنة برفقة كولونيل من الفرقة التاسعة التابعة لخط السكة الحديدية.

فرك ناكامرا عينيه، ثمّ حكّ مرفقه بشدّة حتى سقطت قشرة جرب فبدأ مرفقه ينزف. على الرغم من أنه لم ير القراد، لكنه كان يعرف أنه يملأ جسمه. القراد اللاسع. كان القراد يلسعه تحت ذراعيه، في ظهره، في أضلاعه، أسفل بطنه، في أرجاء جسمه. لم يكف عن الحكّ، لكن القراد لم يتوقف عن الحفر في أعماق جسده. كان القراد صغيراً للغاية يتغلغل تحت جلده ويلدغه هناك.

توموكاوا! صاح. هل تستطيع أن تراه؟ هل تستطيع!

رفع ذراعاً.

اختلس توموكاوا نظرة باتجاه فوكوهارا. سار إلى الأمام. رفع فانوسه وراح يفتّش في ذراع ناكامرا. تراجع.

لا يا سيدي.

القراد!

لا يا سيدي.

إنها صغيرة للغاية لا يمكن لأحد آخر رؤيتها. إن هذا جزء من طبيعتها الجهنمية. لا يعرف كيف تغلغلت إلى داخل جلده لكنه يظن بأنّها تضع بيضها في مساماته وتفقس تحت جلده، ثم تولد وتنمو ثم تموت. يجب على المرء أن يحكّها ويخرجها. قراد سيامي، لم يتوصل العلم إلى معرفته بعد.

كان قد طلب من الرقيب توموكاوا أن يفتّش في كل بقعة من جسمه باستخدام زجاجة مكبّرة، لكن هذا الأحمق لم يكف عن القول بأنه لا يرى شيئاً. كان ناكامرا يعرف أنه يكذب. قال فوكوهارا إنه لا يوجد قراد، وأن هذا الإحساس ناجم عن تناوله عقار الفيلوبون. ماذا

يعرف بحقّ الجحيم؟ توجد أشياء كثيرة في هذه الغابة لم يرها أو يختبرها أحد. ذات يوم سيكتشف العلم القراد ويضع تسمية له، لكن عليه أن يتحمّله الآن، كما كان عليه أن يتحمّل أموراً كثيرة أخرى.

واصل فوكوهارا قائلاً: لقد أحضر الكولونيل كوتا طلبات جديدة من فرقة قيادة خطّ السكة الحديدية ليقدمها لك قبل أن يواصل طريقه إلى معبر ثري باغودا. إنه يريد أن يطلعك عليها في أقرب وقت يناسبك.

لوّح ناكامرا بسبابة مرتعشة إلى منضدة ميدانية صغيرة بجانب سريره الحديدي.

شابو، تمتم.

أبعد توموكاوا مصباح الكيروسين عن وجه قائده، وراح يفتّش في ظلال الرسوم التقنية والتقارير وجداول العمل الملوثة بالسخام الملقاة على سطح الطاولة الملطخة ببراعم العفن الداكن.

فوكوهارا، الشاب المتحمس الذي يشبه عنقه عنق طير الأطيش البحري، فوكوهارا الذي وجده ناكامرا مفرطاً في حماسته، واصل كلامه وراح يصف ما حدث للشاحنة الأولى بالقرب من الطريق الذي سيظل مغلقاً ولا يمكن عبوره خلال عشرة أيام، وكيف أنها ربما، تحت الأمطار -

نعم، نعم، قال ناكامرا. شابو!

غاصت الشاحنة في الوحل على بعد ثلاثة كيلومترات، ويخشى الكولونيل كوتا أن يأتي السكان المحليون وينهبوا الشاحنة التي تحمل تجهيزات، أنهى الملازم فوكوهارا كلامه.

شابو! قال ناكامرا مهسهساً. شابو!

لمح توموكاوا زجاجة الفيلوبون على كرسي بجانب الطاولة التي

كان قد أعطاها إلى ناكامرا الذي أصبح في هذه الأيام يتعاطى الميثامفيتامين الذي يوزعه الجيش إلى جانب أشياء قليلة أخرى. قلب ناكامرا القنينة وراح يهزّها. لم يخرج منها شيء. جلس ناكامرا على سريره العسكري، وراح يحدق في القنينة الفارغة في يده.

ومن أجل إلهام الروح القتالية، قال ناكامرا بصوت خافت وهو يقرأ الملصق على قنينة عقار الفيلوبون حسب التعليمات العسكرية. كان ناكامرا يعرف أنه بحاجة إلى ساعات نوم طويلة، وأدرك أن هذا غير ممكن حالياً، وأنه سيضطر إلى أن يسهر بقيّة الليل لكي يعقد اجتماعاً مع كوتا ويبحث في مسألة إنقاذ الشاحنة وأن ينجز في الوقت نفسه الجزء المخصص له من الخطّ الحديدي خلال الفترة المستحيلة التي أمرت بها القيادة الآن. إنه بحاجة إلى شابو.

فجأة ألقى بعنف قنينة الفيلوبون خارج الكوخ المفتوح فاختفت مثل أشياء كثيرة أخرى دون أن تصدر صوتاً، وضاعت في ذلك الفراغ من الوحل والغابة والليل اللانهائي.

الرقيب توموكاوا!

سيدي! قال الرقيب. ومن دون أن ينبس أحدهما بكلمة أخرى، خرج من الخيمة إلى الظلام. كان جسمه القصير يعرج قليلاً. فرك ناكامرا جبينه.

فكّر بالإرادة التي يتعين عليه أن يستجمعها كلّ يوم ليحقق التقدّم المطلوب في مدّ خطّ السكة الحديدية. في البداية - عندما أصدرت القيادة العليا أوامرها بإنشاء الخط الحديدي لربط سيام مع بورما - كان الأمر مختلفاً. كان ناكامرا، الضابط في الفرقة الخامسة المختصة بإنشاء السكة الحديدية في الجيش الإمبراطوري الياباني مفعماً بالحماسة. فقد كان الإنكليز والأمريكيون قد درسوا فكرة إنشاء مثل هذه السكة الحديدية قبل نشوب الحرب وقالوا إنها مهمة

مستحيلة، في حين أمرت القيادة اليابانية العليا بمدّ هذا الخط في أقصر وقت ممكن. كانت متعة ناكامرا لا توصف بدوره هذا الصغير لكن الهامّ في هذه المهمّة التاريخية، وشعوره بالفخر بأن حياته ارتبطت بمصير وطني وإمبراطوري.

لكن عندما شقّ ناكامرا طريقه في آذار ١٩٤٣ إلى قلب هذه البلاد الغامضة، ووجد نفسه لأول مرة وقد ابتعد عن الحشود والمدن التي كانت قد شكّلته، وأصبح ينفذ القوانين الغريبة التي يعيش في ظلها الرجال في هذه الأماكن. مهندسون وجنود وحرّاس يحملون معهم قانون الجيش، يجسدون رغبات الإمبراطور. إنهم يجسدون الروح اليابانية التي أرست الخطط والأحلام والإرادة. إنهم اليابان ذاتها، لكنهم قليلون، أما العمال العاديون وأسرى الحرب فإنهم كثيرون، وكانت الغابة تطبق عليهم كلّ يوم أكثر فأكثر.

في هذا الحشد من الرجال، بدأ ناكامرا يدرك بشكل متزايد بأن حياته هنا أصبحت معزولة على نحو غريب وغير متوقّع. لقد بدأت هذه العزلة تؤرقه أكثر فأكثر، ولكي يضع حداً لهذه المشاعر المثيرة للقلق انهمك في عمله، وكلما عمل أكثر، أصبح العمل بالنسبة له معادلة مجنونة. وبعد أن هبت الرياح الموسمية، وفاض النهر وارتفع منسوبه وازداد جريانه سرعة وامتلأ بجذوع الأشجار، وازداد خطورة لأنه بدأ يجرف أشياء ثقيلة إلى مصب النهر، وفي الوقت نفسه، لم يكن بالإمكان اجتياز الطريق - كما رآه الكولونيل كوتا نفسه - وتضاءلت الإمدادات كثيراً إلى حد أنها كادت تنعدم. فلا تتوفر آلات بل توجد أدوات يدوية فقط وهي من أردأ الأنواع، ومنذ البداية لم تكن هناك أعداد كافية من الأسرى لإنجاز العمل، وأصبح الأسرى الذين لم يموتوا بعد أو الذين هم على وشك الموت، في حالة صحية متردية. ومما أدى إلى تفاقم الأمور انتشار الكوليرا منذ أسبوع إلى

درجة أن التخلّص من جثث الموتى أصبح مشكلة حقيقية تستنزف طاقة الرجال اللائقين جسدياً، وتبعدهم عن العمل في الخطّ الحديدي. وبدأ الطعام يشحّ ولم تكد توجد أدوية، وعلى الرغم من كل ذلك، كانت قيادة السكة الحديدية تتوقّع منه أن يحقق إنجازات أكبر.

كان ناكامرا يعمل وفق الخرائط اليابانية والخطط اليابانية والمخطّطات اليابانية والرسوم التقنية اليابانية لفرض الأوامر اليابانية والهدف الياباني على الغابة بلا معنى وبلا هدف، وعلى أسرى الحرب المرضى والمحتضرين، دوّامة تبدو بلا سبب أو نتيجة. غضب عارم متزايد يدور في دوامة بسرعة متزايدة، ومن داخل تلك الدوامة وخارجها كانت تصدر الأوامر، جداول لانهائية من العمال الذين يتقاضون أجراً وأسرى الحرب الذين يظهرون ثم يختفون، لا يمكن تقسيمهم أو معرفتهم مثل نهر كيوي أو جراثيم الكوليرا. أما الضباط اليابانيون الذين يأتون بين الحين والآخر فقد كانوا يمكثون ليلة واحدة يمضونها في الشرب والثرثرة ونقل بعض الأخبار، ويحصّن الرجال بعضهم بعضاً بحكايات عن الشرف الياباني وعن الروح اليابانية التي لا تقهر والنصر الياباني الوشيك، ثمّ يختفون هم أيضاً في جحيمهم في مكان آخر على خطّ السكة الحديدية المجنونة التي لا تني تزداد طولاً.

هبّت ريح رطبة على الكوخ فتناثرت الأوراق المبللة على الطاولة الميدانية. نظر ناكامرا إلى عقربي ساعته اللامعين. كانت الساعة الثالثة. لا تزال هناك ساعتان ونصف الساعة على موعد انطلاق بوق الإيقاظ. كان قلقاً، فالقراد يزداد سوءاً، وأخذ يحكّ صدره بشراسة متزايدة بينما وقف فوكوهارا ينتظر سماع أوامره. لم يقل ناكامرا شيئاً حتى عاد الرقيب توموكاوا الذي، وبنفس الاحترام المتملق الذي

يديه في جميع تصرفاته تجاه رؤسائه، انحنى ومدّ يده بقنينة فيلوبون مليئة.

أمسك ناكامرا القنينة وتناول منها أربع حبات. وعلى الرغم من أنه أصيب بالملاريا للمرة الثانية، كان لا يزال منهكاً. ولكي يواصل عمله أخذ يتناول بضع حبات شابو. لقد أصبح شابو أكثر ضرورة له من الطعام. إن مدّ هذه السكة الحديدية - من دون أجهزة وآلات وفي هذا القفر - مهمّة تفوق طاقة البشر. وبعد أن جعله الشابو يتقدّ نشاطاً، أصبح بإمكانه العودة إليه يوماً بعد يوم منهك، بتأجّج مضاعف. وضع القنينة على الطاولة ورفع عينيه ورأى الرجلين ينظران إليه.

يساعدني الفيلوبون على اجتياز هذه الحمّى، قال ناكامرا، وبدا أخرق فجأة. إنه ممتاز. إنه يقي من لسعات القراد اللعين.

بدأ يشعر بأن ذهوله في الصباح الباكر يتلاشى بطريقة سحرية ويتحول إلى يقظة وحماسة متجدّدتين، حدّق ناكامرا في الرجلين حتى أطرقا بعيونهما.

إن الفيلوبون ليس مخدراً، قال ناكامرا. الأجناس المتدنية فقط كالصينيين والأوربيين والهنود هي التي تدمن على المخدرات.

وافق فوكوهارا. إن فوكوهارا مثير للضجر.

نحن من اخترع الفيلوبون، قال فوكوهارا.

نعم، قال ناكامرا.

الفيلوبون هو تعبير عن الروح اليابانية.

نعم، قال ناكامرا.

نهض واقفاً وأدرك أنه لم يكترث لخلع ثيابه عندما أوى إلى السرير. حتى أن لفافة ساقه الموحلة ظلت مربوطة بإحكام حول

ربلتي ساقيه، بالرغم من أن الشريط المتقاطع على أحد ساقيه كان قد تراخى وانحلّ.

يقدم لنا الجيش الياباني الإمبراطوري شابو للمساعدة في العمل في سبيل الإمبراطورية، أضاف توموكاوا.

نعم، نعم، قال ناكامرا. التفت إلى فوكوهارا. خذ عشرين أسيراً إلى الطريق وأنقذ الشاحنة.

الآن؟

طبعاً الآن، قال ناكامرا. اسحبوها إلى المعسكر، إذا دعت الضرورة.

وبعدها؟ سأل فوكوهارا. هل نمنحهم يوم عطلة؟

بعدها يذهبون ويؤدون عملهم اليومي في مدّ السكة الحديدية، قال ناكامرا. أنت صاح وأنا صاح، فلنواصل العمل.

بدأت حاجة ناكامرا إلى الحكّ تخفّ. بدأ قضيبه يتضخم داخل بنطلونه. كان إحساساً لطيفاً بالقوّة. استدار فوكوهارا ليغادر عندما نادى ناكامرا اسمه.

أنت مهندس، قال ناكامرا، وتعرف أنه يجب معاملة جميع الرجال كآلات في خدمة الإمبراطور.

أحسّ ناكامرا بأن شابو قد بدأ يشحذ أحاسيسه، ويمنحه القوّة حيث كان يشعر بالضعف، واليقين حيث تدهمه الشكوك. لقد أزال شابو خوفه، ومنحه قوة في عمله، وجعله يظل متألقاً وصلباً.

وإذا تعطّلت الآلات، قال ناكامرا، حتى إذا تعين عليهم أن يعملوا باستخدام القوة، حسناً، فاستخدم تلك القوة معهم.

أدرك أن القراد قد توقّف عن الحكّ أخيراً.

- ٩ -

بدا الرجل الذي كان يسير نحوه طيفاً من العدم، ومدّ دوريغو إيفانز يده إلى ذلك العدم لتحيته.

لا بد أنك العمّ كيث.

تحت شمس الظهيرة اللاهبة، ومن جسمه الضخم الذي حجب الضوء، ورأسه المخفي في ظلّ قبعة أكوبرا المستديرة، بدا أن عمره يزيد قليلاً على الأربعين سنة ولا يخلو من الهيبة. كان يبدو مثل عمود برق متزعزع. لكنه لم يكن كما يبدو، وكلّ شيء كان يبدوه، كما لو كان المرء ينظر من خلال زجاج نافذة قديمة - منحنياً، راكعاً، مرتجفاً في موجات الحرارة التي تشكل مويجات فوق الطريق المعبد والأرصفة الإسمنتية، تراب ساحة وارادال للاستعراضات، وأكواخ الصفيح التي كان دوريغو إيفانز ينتظر أمامها.

عندما استقلّ دوريغو إيفانز سيارة عمّه كيث القديمة من طراز فورد كابريوليت، رأى كم أنه ضخم، وكيف أن وجهه يشي بأنه في الخمسين من العمر. وكانت في السيارة كلبة صغيرة من سلالة جاك روسل اسمها الآنسة بياتريس بدا أنها تبرز ضخامة كيث مولفاني - ظهره الواسع، وفخذاه العريضتان، وقدماه الضخمتان. كانت الكلبة اللاهثة تقبع باسترخاء مثل قطعة شاموا رخوة.

كان الجو حاراً لا يسمح بالتدخين، لكن بالرغم من ذلك، كان يدخّن غليوناً. جلّل الدخان ابتسامة غريبة أدرك دوريغو لاحقاً أنها ابتسامة ثابتة، مصممة على أن تجد العالم بهيجاً مع أن كلّ الدلائل المنبعثة من الحياة تشير إلى عكس ذلك. وقد تكون جميعها مخيفة ومهددة لولا أن نبرة صوت كيث كانت عالية قليلاً ذكّرت دوريغو بفتى مراهق. في ذلك الصوت لم تكن هناك نهاية أكثر من حرارة أديليد

التي لا تطاق. وأصبح من الواضح لدوريغو إيفانز أن عالم كيث مولفاني هو عالمه، عالم مستقل، محاط بثلاث شموس - فندقه ومقعده كنائب في المجلس المحليّ وزوجته.

عندما شقّا طريقهما باتجاه الساحل، أخذ يشكو من الصعوبات التي يواجهها الفندق، وقال بتنهيدة هامسة إن من يثير تلك المشاكل لتدمير سمعته هم سائقو سيارات الأجرة. *السائقون* الذين يجلبون مجموعات من ثمانين شخصاً يومياً لا يكفون عن الشكوى من الحمامات ويتوقّعون أن تقدم لهم جميعاً وجبات طعام بسهولة، بينما تكون محظوظاً إذا تمكنت من بيع بضع قطع من البسكويت الأفغاني يوم الأحد التالي ببنسين أو بنصف بنس؛ وهم لا يكفّون عن التذمر لشركات السيارات التي يعملون فيها، ولنوادي السيارات الملكية اللعينة عن الحمّامات الوسخة والصابون. إنهم يتذمرون باستمرار، هؤلاء السائقون. لكن الأسوأ منهم الباعة الجوالون. لماذا، فقد أراد أحدهم اليوم أن يستأجر غرفة ليتخذها مكتباً لتوزيع البروميد والأسبيرين، لكنّي أشكّ في أنه يريدها لأمور تتعلق بالجنس.

أشياء تتعلق بالجنس؟

كما تعرف، أشياء تتعلق بالنساء والولادات وعدم إنجاب الأطفال والواقيات الذكرية لمنع الحمل، وكتيبات إنكليزية متحررة؛ كما تعرف، *الطبل*.

نعم، قال دوريغو بطريقة غير واثقة إلى حد أن كيث شعر بالحاجة إلى ترسيخ الفكرة، مهما كان رأي الآخرين، بأن فندق *ملك كورنوال*، ليس متاهة أخلاقية.

حسناً، فأنا رجل متحرر، منفتح يا دوريغو، واصل كيث مولفاني كلامه، لكنّي لا أريد أن يُعلن في صحيفة «حقيقة ملبورن» وأن يدور الحديث في محاكم أديليد بأن فندق *ملك كورنوال* مرتع

للقاءات الغرامية في أديليد. أنا لست رجلاً متزمتاً، ولست مثل أصحاب تلك الفنادق الأمريكية الذين يصرّون على أن يترك النزيل باب غرفته مفتوحاً إذا كانت معه في الغرفة سيدة ليست زوجته.

كما تعرف، قال فجأة، ممهداً السبيل للحديث عن الزنا والإقامة في الفندق، ففي أمريكا، يمكنك أن ترى إعلاناً في بلدتك يقول: *إلى من يهمه الأمر، طُلب من السيد سين مغادرة ويستريا في واتستوريا لأنه استضاف في غرفته سيدة غير زوجته*. هل يمكنك أن تتصوّر هذا؟ أقصد، إنهم يسمحون للأشخاص بالالتقاء في غرفهم، ثم يبتزّونهم بتهديدهم بنشر إعلانات كهذه. إنهم يديرون الفنادق في أمريكا كما يدير ستالين الاتحاد السوفييتي اللعين.

ثم تحدث عن عائلة دوريغو، لكن معظم معلوماته - التي استقاها مما كتبه توم الصغير في بطاقات عيد الميلاد التي يرسلها له - كانت قديمة، لكن الآنسة بياتريس التي كانت تكاد تقع من النافذة وهي تتنشق هواء نقياً، أنقذتهما من الشعور بالحرج لدى اكتشاف أن أمّ دوريغو قد ماتت. كان منحنياً إلى الأمام ممسكاً بالمقود مثل جذع شجرة اقتلعته عاصفة، ويداه الكبيرتان لا تتوقفان عن الحركة إلى أعلى وأسفل المقود كما لو كان كرة عرّاف بلورية وهو لا يكف عن البحث عن شيء، عن وهم قد يساعده على أن يعيش، فوق دروب أديليد المستوية المستقيمة الطويلة.

لم تكن هناك سيارات كثيرة في الطريق، ولم تكن هناك سوى الاستقامة والانبساط وموجات الحرارة الآخذة في الارتفاع. لم يتوقف كيث مولفاني عن الكلام كأنه كان يخشى مما يمكن أن يحدثه الصمت، أو مما قد يسأله دوريغو، فكان يطرح أسئلة عن دوريغو ويجيب عليها بنفسه على الفور. وكان حديثه يدور غالباً عن المعركة التي يواجهها حالياً بوصفه نائباً في المجلس المحليّ حول اقتراح

قدمه رئيس البلدية لإقامة شبكة صرف صحي. كان دوريغو يحدّق من النافذة، يمرر يده الرطبة في النسيم، بينما ظل كيث يتكلّم، غير مدرك أن دوريغو لم يكن يبدي أي اهتمام، وظل يسأل أسئلة ويجيب عليها بنفسه دون أن ينتظر رد دوريغو، وكان كلّ جواب ينتهي بابتسامة تشي بعدم الموافقة. ومثل عازف كلارينت منفرد، كان يذكر أيمي بين الحين والآخر.

إنها امرأة عصرية. عصرية للغاية. امرأة نشيطة. تؤدي عملاً رائعاً. إنها الحرب. لقد تغيرت أشياء كثيرة. لقد أذابت كلّ شيء، هذه الحرب. لم تكن ترى أشياء كهذه قبل الحرب. أليس كذلك؟

حسناً -

لا، أظن ذلك. لا تتعرض لندن وحدها للهجوم فقط. لا. فلم يعد أحد الآن يفكر مرتين في الأشياء التي كانت تعتبر فضيحة منذ سنة. أستطيع أن أقول إنني رجل عصري. لكنني أشعر بامتنان كبير لأنني أعيش في كنف عائلة محترمة.

بالرغم من ابتسامته الثابتة، بدا أنه في حالة شديدة من البؤس.

في إحدى الأمسيات كانت مع امرأة ذات شعر أحمر تُدعى تيبي. لا يمكنني أن أتحمّلها.

تيبي؟

نعم تيبي، أتعرفها؟

حسناً.

إني أسألك؟ إنه أحد أسماء ببغاء أسترالي، وعليّ أن أحضر هذا الاجتماع اللعين في البلدية لذلك يجب أن أذهب الليلة. في غاولر التي تبعد عدة ساعات. الليلة. إني آسف جداً لأنني لن أتمكن من البقاء معك. بشكل غير متوقّع - رئيس البلدية يريدني أن أحضر.

لماذا؟

أظن -

لا أعرف لماذا. في جميع الأحوال، أيمي ستعتني بك، ولكي أكون صريحاً، فأنا سعيد بأنك ستعتني بأيمي. لا أظن أنك تمانع؟

لم تكن هناك أهمية في سماع الرد لذلك لم يعد دوريغو يحاول.

حسناً، إني واثق من أنك سترتاح، قال كيث مولفاني. وستنام في سرير مريح، بدلاً من أن تنام في سرير عسكري.

عندما وصلا إلى فندق الملك كورنوال، رافق كيث دوريغو إلى غرفة في الطابق الرابع. عندما كانا يصعدان الدرج الكبير المغطى بسجادة مهترئة، صادفا أيمي وهي تهبط الدرج إلى الطابق الأسفل، تحمل كيساً فيه ثياب معدة للغسيل. اعترت دوريغو نشوة غريبة. لم تكن ملائمة ولا يمكن إنكارها. ألقت نظرة على زوجها. نظرة رأى دوريغو فيها مزيجاً معقّداً من المشاعر الحميمية التي لا يراها العالم عادة - النوم معاً، الروائح، الأصوات، العادات المحببة والمحبطة، المتع والأحزان، الصغيرة والكبيرة - الملاط الذي يجمع شخصين ويجعلهما شخصاً واحداً.

كان شعرها مشدوداً إلى الوراء في شكل ذيل حصان، لونه ذهبي غامق تحت ضوء البهو. وبينما كان يعرّفه عليها، ترسخ بينهما تواطؤ قبل أن يحدث أي تواطؤ. بنظرة واحدة رأى وجهها متورداً ومتوهجاً بشكل غير طبيعي، خصلة شعر طليقة قفزت مثل سمكة سلمون أمام أذنها اليمنى، وأدرك أنهما اتفقا بصمت على أن لا ينبسا بكلمة في تلك اللحظة عن المكتبة.

أيمي، قال كيث، أرجو أن تكوني قد رتبتِ بعض الأمور لاستضافة ضيفنا.

هزّت كتفيها. رأى استدارة ثديها الطفيفة في بلوزتها الزرقاء الموشّاة بأزهار الذرة.

هل تحبّ فيفيان لي؟ سألت أيمي. يعرض في المدينة فيلم جديد لفيفيان لي يدعى «جسر واترلو». أتودّ أن. . .

لقد شاهدته من قبل، قال دوريغو الذي لم يكن قد شاهده حقاً، وفجأة أدرك كم أنه رجل شرّير. أخذ رأسه يطنّ مثل أزيز النحل. هل يخشى وجوده معها؟ هل يحاول أن يثبت قوّته عليها؟

للأسف، قال كيث. لكني واثق من أن هناك أفلاماً أخرى.

لم يعد دوريغو يفهم نفسه، ولم يفهم لماذا قال ذلك. لكنّه قاله، ثمّ، على نحو غير متوقع، سمع نفسه يقول:

لكنّي أحبّ أن أشاهده مرة أخرى.

الانسحاب، ثم الهجوم: الطريقة التي سيتبعها كثيراً بعد ذلك.

هزّت أيمي كتفيها بلا مبالاة مرة أخرى، وأرغم دوريغو إيفانز نفسه على أن يبعد عينيه عنها، ونظر إلى أسفل الدرج حتى عادت ثانية ودخلت في مجال رؤيته في الطابق الأرضي. أصابع يدها الطويلة تجري على الدرابزين المصقول. لاحقت نظراته ذيل شعرها المتأرجح يمنة ويسرة وهي تهبط الدرج حتى اختفت في الفراغ.

- ١٠ -

من بين الأشياء العديدة التي توقّع دوريغو إيفانز أن تحدث في ذلك المساء، لم يكن يتوقّع أن تصحبه إلى ناد ليلي في شارع هيندلي. قالت إنه إذا كان قد شاهد الفيلم، فإنه يعرف مسبقاً ما سيحدث، وأن ذلك سيفسد متعة مشاهدته. كان يرتدي بدلته العسكرية، وكانت ترتدي قميصاً شرقياً بلون المشمش، وبنطلوناً حريرياً أسود فضفاضاً. كان تأثيرها قوياً وعذباً. فقد بدا له جسدها بارز المعالم وقوياً عندما كانت تتحرّك، تنسل انسلالاً.

المهم هو ألّا تعرف شيئاً، قالت أيمي. ألا تظن ذلك؟

لا يظن ذلك. لم يكن يعرف. كان النادي الليلي عبارة عن قاعة كبيرة، منخفضة الإضاءة، تجللها ستائر لتعتيمها. كانت مليئة بالظلال وبالبدلات الرسمية. شم دوريغو رائحة خميرة، رائحة سُكر خفيف لأعشاب ربيعية. احتسيا شراب المارتيني بينما كانت الأوركسترا تعزف. كانت هناك إثارة غريبة في الهواء. بعد قليل، أُطفئت أضواء المسرح، وأشعل أعضاء الفرقة شموعاً مثبتة على حوامل النوتات الموسيقية، ثم أشعل الندل الشموع على الطاولات.

لماذا الشموع؟ سألها دوريغو.

سترى، قالت أيمي.

حدّثته عن نفسها. كانت في الرابعة والعشرين من عمرها، تصغره بثلاث سنوات. قالت إنها جاءت من سيدني منذ بضع سنوات حيث كانت تعمل في أحد المخازن الكبرى، والتقت بكيث عندما كانت تعمل نادلة في فندق ملك كورنوال. ثم حدّثها عن إيلا. كانت كلّ كلمة يقولها لها تبدو دفاعاً عمّا كان يشعر به حقاً، وفي الوقت نفسه، خيانة لكلّ ما كان يمثّله. ثم نبذ هذه المشاعر.

قال دوريغو لنفسه إن الشيء الذي يفصله عن أيمي عميق. بالنسبة لهما، فإن علاقتهما علاقة صداقة يسندها عمود زوجها، عمّه، من جهة، وخطبته الوشيكة من إيلا، من جهة أخرى. وقد جعله ذلك يشعر بالارتياح مع أيمي، ربما أكثر مما لو كان الأمر غير ذلك.

أحسّ بالسعادة معها لأسباب يجهلها لا يستطيع أن يتذكّر أنه شعر بها منذ فترة طويلة. راح يراقب ظلال ضوء الشموع وهي تتقافز على وجه جعله يبدو فضولياً أكثر من ذي قبل. عندما التقى بها لأول مرة في المكتبة، لم تكن نظراتها هي التي منحته هذا الانطباع. أما

الآن فلم يتخيّل أنه توجد امرأة أجمل منها. وجد متعة كبيرة لأنه قريب جداً من أيمي، حتى من الطريقة التي كان الرجال الآخرون ينظرون فيها إليه بحسد، بطمع، إلى المرأة التي كانوا يظنون أنها امرأته. طبعاً، قال لنفسه، إنها ليست امرأته، لكن هذا الإحساس كان جميلاً. أحسّ بالإطراء.

تكلما مع عدد من ضبّاط البحرية الذين سرعان ما تركوهما وشأنهما وانهمكوا في أحاديث أخرى. مالت أيمي ووضعت يدها فوق يده. أطرق بعينيه، لا يعرف ماذا يعني ذلك. شعر بحرج شديد، لكنه لم يبعد يده عن يدها.

ما هذا؟ سأل دوريغو.

أدرك أنها تنظر إلى يديه أيضاً.

لا شيء، قالت.

لمستُها جعلت تياراً كهربائياً يسري في جسده، شلّته. وفي وسط تلك الضوضاء والدخان والصخب، لم يدرك سوى تلك اللمسة. الكون والعالم، حياته وجسده، اختُزلت بنقطة تماس كهربائي. راحا يحدّقان في أيديهما. وعلى الرغم من ذلك، اعتبر أن كلّ هذا لا يعني شيئاً. لأنها يجب ألّا تعني شيئاً. يدها على يده. يده في يدها. لأن الاعتقاد بأي شيء آخر هو خطأ. تعال غداً، سيكون بالنسبة لها أحد أقارب زوجها مرة أخرى، سيكون مخطوباً من امرأة أخرى بعد فترة، وستكون هي زوجة عمّه. لكنها يجب أن تعني شيئاً، كان يرجو يائساً أن يفكر -

لا شيء؟ سمع نفسه يكرر.

حاول أن يسترخي، لكنّه لم يستطع أن يلجم الحماسة التي تملكته من لمستها. مررت سبابتها على ظاهر يده.

أنا زوجة كيث، قالت.

ظلت تحدّق بشرود في يده.

نعم، قال.

لكنها لم تكن تسمعه. راحت تنظر إلى إصبعها، إلى ظلّها الطويل، وهو ينظر إليها، مدركاً أنها لم تكن تسمع فعلاً.

نعم، قال.

كان يشعر بها تلمسه. سرى الشعور في أنحاء جسمه، ولم يستطع أن يفكّر بأي شيء آخر.

وأنتَ، قالت، أنتَ لي.

رفع عينيه، مجفلاً. للمرّة الثانية فاجأته، وللمرّة الثانية، اعتراه خوف غريب، عندما بدأ يدرك شيئاً فشيئاً أنها لا تخدعه، بل إنها صادقة بصراحتها الغريبة. كلّ ما يعني ذلك أرعبه، لكنّها كانت لا تزال تنظر إلى إصبعها، إلى أيديهما بين كأسيهما نصف الفارغتين، إلى الدوائر التي تتبّعتها.

ماذا؟

عندها فقط رفعت عينيها.

أقصد، قالت، أقصد أنك رجل إيلا. أما الليلة فأنت لي.

ضحكت ضحكة خافتة، كما لو أن كلّ ذلك لم يكن يعني شيئاً.

كرفيق.

رفعت يدها، لوّحتها وراء أذنها في حركة توحي بأنها تطلب من أحد أن يمضي.

تعرف ماذا أقصد.

لكنّه لم يعرف. لم تكن لديه أدنى فكرة. اعتراه شعور بالإثارة وبالخوف معاً، وبأن ما قالته لا يعني شيئاً، لكنه يعني كلّ شيء. إنها مراوغة. أحسّ بالضياع.

عندما أطفأ النذل الشموع على الطاولات، وبدأت الفرقة تعزف معزوفة «الأزمنة التي ولّت» على رقصة فالس سوينغ. إنها تؤسس لذكرى اللقاء والفراق، دوائر تتشكل لتعود وتنفصم مرة أخرى. وعند نهاية كلّ فاصل موسيقي، كان يتقدم أحد العازفين وينفخ الشمعة أمامه ويطفئها.

وجد دوريغو نفسه يرقص مع أيمي. وعندما انسلت إلى ساحة الرقص بخطوات وئيدة إلى العتمة، أرخت رأسها على كتفه. بدا أن جسدها يدعو جسده إلى تمايل لدن مشترك. عندما امتزج جسده بحذر في جسدها، قال لنفسه ثانية إن هذا لا شيء، إن هذا لا يعني شيئاً، لا يمكن أن يفضي هذا إلى شيء.

ماذا تهمهم؟ سألته.

لا شيء، همس.

بينما راحا يدوران في حلقات، وجد جسداهما سلاماً غريباً في أن يميل أحدهما إلى الآخر، وكان كذلك أشد إحساساً بالتوقع والتوتّر. أحسّ بأنفاسها. ذلك النسيم العليل الذي يهبّ على رقبته.

عندما أُطفئت آخر شمعة، خيّم الظلام. بغتة فُتحت الستائر المسدلة على النوافذ - وعلى شهقات الإعجاب - أغرق نور البدر الغرفة. كانت رقصة الفالس توشك على الانتهاء، وعرف أن كل ما حدث ما هو إلا حنين غريب لمستقبل يخشى كلّ شخص أنه لن يكون له، إحساس بالغد الذي تم التكهن به للتو ولا يمكن تغييره إلا هذه الليلة.

في الضوء الزئبقي وظلّ الحبر الأزرق، إنفصل الراقصون ببطء عن بعضهم بعضاً وصفّقوا. لوهلة، راح أحدهما ينظر إلى الآخر. كان يعرف أنه يستطيع أن يقبّلها، وأن ما عليه إلا أن ينحني قليلاً إلى

ظلّها، وعندها سيسقط إلى الأبد. لكنه تذكّر بعد ذلك من هما، فسألها إن كانت تريد كأساً أخرى.

خذني إلى البيت، قالت.

- ١١ -

لدى رجوعهما إلى الفندق، اصطحبته إلى الغرفة التي تقيم فيها هي وكيث. جلس على أريكة خمرية اللون. من غطاء ظهر الأريكة، هبتّ عليه رائحة مرهم البرليانتين الذي يستخدمه كيث لطلاء شعره، وشمّ رائحة تبغ الغليون المتناثر فوق الأريكة المطرزة. شغلّت أيمي الحاكي، ووضعت أسطوانة قالت إنها تريده أن يسمعها. وضعت إبرة الحاكي وجلست على ذراع الأريكة التي يجلس عليها دوريغو. انطلق صوت البيانو، وبدأ صوت الساكس يأتي ويذهب مع النسائم التي تهب من المحيط والتي جعلت الستائر المخرّمة بالدانتيلا ترفرف، ثم انطلق صوت يغني:

رنين بيانو في الشقّة المجاورة
كلمات متعثرة تخبرك ماذا يعنيه قلبي
أراجيح ملونة في مدينة المعارض
تأرجح هذه الأمور الحمقاء
تذكّرني بك

قالت إنه ليزلي هتشينسون. كما تعرف فهو على علاقة ودية مع سيدات الأسرة المالكة.

علاقة ودية؟

ابتسمت.

نعم، قالت برقة شديدة، وهي ترمقه. علاقة ودية.

ضحكت مرة أخرى، ضحكة أنطلقت من حنجرتها، وأدرك كم أحبّ ضحكتها.

انتهت الأغنية. نهض ليذهب. أعادت الأسطوانة. ودعها. عند الباب انحنى وقبّلها بتهذيب على وجنتها، وعندما بدأ يبتعد عنها، أمالت وجهها على رقبته. انتظرها لتبعد رأسها.

يجب أن تذهب، سمعها تهمس. لكنّها أبقت وجهها قريباً من وجهه.

بدأت إبرة الحاكي تصدر خشخشة وظلت تدور حتى نهاية الأسطوانة.

نعم، قال.

انتظر لكن لم يحدث شيء.

ظلت الإبرة عالقة في ثلمها، تخدش الدوائر الرملية طوال الليل.

نعم، قال.

انتظر، لكنّها لم تتحرّك. بعد لحظات، أحاطها بذراعيه برقة. لم تبتعد عنه.

قريباً، قال.

حبس أنفاسه حتى أحسّ بها تلتصق به برقة. لم يتحرّك.

أيمي؟

نعم؟

لم يجرؤ على الرد. أخذ نفساً عميقاً. ثبّت قدميه ليحافظ على توازنه. لم يعرف ماذا يقول. خشي أن يقول شيئاً آخر فيربك هذه

المعادلة الحسّاسة. ترك يده تهبط وتطوق خصرها، متوقعاً أن تبعدها عنها. لكنها، بدلاً من ذلك، همست:

أيمي. تعني صديقة بالفرنسية..

وجدت يده الأخرى منحنى ردفيها الأنيق.

قالت: أمّي علّمتني ذلك عندما كنت صغيرة.

لم تبعد تلك اليد كذلك.

آمي، أيمي، أمور، كانت تناديني. آمي، صديق، حبيب.

الأحصنة الثلاثة الأولى الفائزة في السباق، قال دوريغو.

قرّبت شفتيها من رقبته. بدأ يشعر بأنفاسها تهبّ على جلده. أحسّ بجسدها يلامس جسده. أصبح الآن منتصباً، وأحسّ بالحرج عندما أدرك أنها لا بد أنها تشعر بصلابته. لم يجرؤ على أن يتحرّك في أيّ اتجاه خشية أن يبطل هذا السحر. لم يكن من الواضح له ماذا يعني ذلك، أو ماذا يجب أن يفعل. لم يجرؤ على تقبيلها.

- ١٢ -

أحسّ دوريغو بيد دافئة تزحف فوق ساقيه فاستيقظ مجفلاً. استغرق بضع لحظات حتى أدرك أن شمس الصباح الباكر بدأت تتسلل إلى غرفته. وجد رسالة من أيمي تحت باب غرفته تقول إنها ستكون منهمكة في أعمال الفندق حتى فترة بعد الظهر - سيقام حفل استقبال زفاف عند الغداء - لذلك لن تتمكن من توديعه.

لفّ منشفة حوله وخرج إلى الشرفة الواسعة. أشعل سيجارة. جلس وراح ينظر عبر الأقواس الفيكتورية إلى حيث يمتد المحيط الجنوبي اللانهائي، الذي يتموّج أمامه.

لم يحدث أي شيء؛ قالت عندما غادر غرفتها. كانت تلك هي

الكلمات التي قالتها بحذافيرها. ضم أحدهما الآخر، لكنّها قالت إن هذا لا يعني شيئاً. كيف يمكن أن يعني ذلك أيّ شيء بالنسبة له؟ لم يحدث شيء أكثر من عناق، لم يحدث شيء. كان ذلك كلّ ما حدث. لم يحدث شيء في المكتبة. عناق؟ الناس يفعلون أكثر من ذلك في المآتم.

إيمي، أيمي، آمور، همس تحت أنفاسه. لم يحدث أي شيء، ومع ذلك، فقد تغيّر كلّ شيء. كان على وشك أن يسقط.

أنصت إلى صوت الأمواج تتكسر ونظر إلى الرمل البراق، ومع ذلك كان يسقط. هبت نسائم عليلة من ظلال الصباح الباكر الطويلة، وعلى الرغم من ذلك بدأ يسقط. أخذ يسقط ويسقط، وتملكته حرية جامحة. كان سلوكها محيّراً. كان يعرف كلّ ذلك. لم يكن يعرف أين سينتهي بهما الحال.

استوى واقفاً، مهتاجاً، مشوّشاً، عازماً. رمى سيجارته، ودخل ليرتدي ثيابه. لم يحدث شيء، لكن على الرغم من ذلك، كان يعرف أن ثمة شيئاً قد بدأ.

- ١٣ -

عاد إلى المعسكر وإلى حياة النظام والانضباط. لكن تلك الحياة فقدت جوهرها بالنسبة لدوريغو. لم تعد الحياة تبدو حقيقية. يأتي الناس، يتكلم الناس، يقول الناس أشياء كثيرة، لكن لم يكن أحد منهم مثيراً للاهتمام. يتحدثون عن هتلر، وعن ستالين، وعن شمال أفريقيا، وعن الهجوم الخاطف. لم يكن أحد يتحدّث عن أيمي. إنهم يتحدثون عن المعدّات والتجهيزات العسكرية، وعن الاستراتيجية، وعن الخرائط وجداول المواعيد، وعن الروح

المعنوية، وعن موسوليني وتشرشل وهيملر. كان يتوق إلى أن يصرخ بأعلى صوته آمي! أيمي! آمورا كان يريد أن يمسكهم من مؤخرة أعناقهم، ويخبرهم بما جرى، كم أنه أصبح في شوق إليها، كيف أنها قلبت مشاعره رأساً على عقب..

لكن بقدر ما كان يريد أن ينصت إليه الجميع، كان يحرص على ألّا يعرف أحد شيئاً. أحاديثهم الكئيبة المملة. إن عدم معرفتهم بأيمي وهيامه بها وهيامها به هو الضمان الذي يمنعه من أي طيش. ففي اليوم الذي يبدؤون يتحدثون عنه وعن أيمي، سيكون اليوم الذي يستحيل فيه غرامهما إلى مأساة تلوكها ألسنة الجميع.

بدأ يقرأ الكتب. لكن لم يعجبه أي منها. كان يفتّش في صفحات تلك الكتب عن أيمي. لم يعثر عليها فيها. بدأ يرتاد الحفلات لكنها كانت تشعره بالضجر. بدأ يجوب الشوارع. يحدّق في وجوه الغرباء. لم يكن يرى أيمي. كان العالم بأعاجيبه اللانهائية، يشعره بالملل. راح يفتّش في كلّ حيز في حياته عن أيمي، لكنه لم يعثر على أيمي في أي مكان. وأدرك أن أيمي هي زوجة عمّه، وأن حبّه لها مجرد ضرب من الجنون، وأن لا مستقبل له، وأنه مهما كان فلا بد أن ينتهي، وأن عليه أن يضع حداً له. وبما أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال مشاعره، فعليه ألّا يسمح لها بأن تقوده. وإذا لم يرها فلن يرتكب أيّ خطأ. لذلك قرر ألّا يزور أيمي أبداً.

عندما جاء موعد إجازته التالية - لمدة ستة أيام - لم يذهب إلى الفندق، بل استقلّ القطار الليلي المتجه إلى ملبورن حيث أنفق كلّ ما يملكه من نقود على النزهات والهدايا التي أغدقها على إيلا، باذلاً كل ما بوسعه لكي ينسى نفسه فيها، ساعياً إلى محو ذاكرة لقائه الغريب بأيمي. أما إيلا فكانت تنظر بنهم إلى وجهه، إلى عينيه -

وبقلق متزايد إلى قلبه الذي اقترب خلال لحظات من الخوف - كان بإمكانه أن يرى وجهها ساعياً لأن يكتشف في وجهه وعينيه النهم نفسه. ما كان يبدو سابقاً وجهاً غريباً جميلاً لدوريغو إيفانز، أصبح يبدو الآن مملّاً إلى درجة لا يمكن تصورها. عيناها السوداوان - اللتان رآهما في البداية ساحرتين - أصبحتا تبدوان له الآن ساذجتين، حتى أنهما أصبحتا تشبهان عيني بقرة في ثقتهما، مع أنه بذل كل ما بوسعه لكي لا يفكّر في هذا الأمر، وازداد احتقاره لنفسه لأنه يفكر بذلك. وهكذا غرق بتصميم متجدّد بين ذراعيها، في أحاديثها، في مخاوفها، ونكاتها وقصصها، راجياً أن تتمكن هذه الحميمية من أن تخنق كلّ ذكرياته بأيمي مولفاني في نهاية الأمر.

في ليلته الأخيرة، ذهبا لتناول طعام العشاء في نادي والدها. صادفا هناك ضابطاً برتبة ميجور في القوات الجوية الملكية الأسترالية راح يحكي لهما نكات وحكايات فأضحك إيلا كثيراً. وعندما قال الميجور بأنه ذاهب إلى ناد ليلي آخر في مكان قريب، طلبت إيلا من دوريغو أن يذهبا معه لأنه رجل مسلٍ. اعترت دوريغو مشاعر غريبة لم تكن مشاعر غيرة ولا مشاعر امتنان، إنما مزيج غريب من كليهما.

أحبّ أن أكون مع الناس، قالت إيلا.

كلما التقيت بعدد أكبر من الناس، قال دوريغو لنفسه، أحسست بمزيد من الوحدة.

- ١٤ -

بدأ اليوم قبل أن يستيقظ الأسرى، بل حتى قبل أن يستيقظ الحرّاس والمهندسون بعدة ساعات من شروق الشمس. عندما بدأ ناكامرا يخوض في الوحل الآن، يتنشق هواء الليل الرطب، بعد أن

اضمحلت وتلاشت كوابيسه، وهيّجت ألغام الميثامفيتامين قلبه وعقله، اعتراه شعور بأن هذا اليوم، هذا المعسكر، هذا العالم، هي ملك له وحده، يستطيع أن يشكلها كما يشاء. وجد الكولونيل كوتا، كما قال فوكوهارا سابقاً، في فوضى من الخواء، جالساً في مقعد من الخيزران إلى منضدة يأكل سمكاً معلباً.

كان الكولونيل رجلاً متين البنية يقارب طوله طول رجل أسترالي، تتناقض بنية جسمه مع وجهه الذي بدا لناكامرا مترهلاً من جانبي أنف يبدو مثل زعنفة سمكة قرش تتهاوى على ضربات موجات تنحدر إلى أسفل خديه المتغضنين. لم يعبأ كوتا بالتحدث معه قليلاً، بل دخل في موضوع العمل مباشرة، وقال إنه سيغادر في الصباح حالما تعدّ له وسيلة نقل. وأخرج الكولونيل من حقيبة جلدية مبللة، حافظة ملوثة بالزيت من نوع جابارا، صفحة واحدة من الأوامر المطبوعة بالآلة الكاتبة، وعدّة صفحات من الرسوم الفنية المبللة كثيراً إلى حد أنها التفّت حول أصابع ناكامرا وهو يقرأها. كانت الأوامر معقدة وبغيضة. كان الأمر الأول فنياً بحتاً: فعلى الرغم من انتهاء نصف المجاز الرئيسي للخطّ الحديدي، فقد عدّلت قيادة خطّ السكة الحديدية خطط ناكامرا الأصلية، وأصبحت تريد الآن تعريض المجاز بنسبة الثلث لأمور تتعلق بالميل القائم في القطاع التالي. وسوف يستلزم المجاز الجديد قطع ثلاثة آلاف متر مكعّب آخر من الحجارة وإزالتها.

عندما صبّ توموكاوا شاياً حامضاً لكليهما، انحنى ناكامرا وأعاد ربط أشرطة لفافة ساقه. لم تكن لديهم مناشير أو فؤوس كافية لإزالة أشجار الغابة، ولذلك كان الأسرى يقطعون الأحجار بأيديهم باستخدام مطارق وأزاميل، بل لم يكن لديه عدد كاف من الأزاميل الملائمة لكي يستخدمها الأسرى. وعندما كانت الأزاميل التي

بحوزتهم تصبح مثلمة، لم تكن توجد كميات كافية من فحم الكوك لشحذها ثانية. أسند ناكامرا ظهره إلى المقعد، وقال

إن آلات الحفر ذات المكابس ستكون مفيدة.

مسّد الكولونيل كوتا خدّه المترهل.

آلات؟

ترك الكلمة معلقة في الهواء، تاركاً ناكامرا ينهيها في عقله - بالمعرفة بأنه لا توجد آلات، والإحساس بالخزي لأنه توسل، والشعور بأنه سُخر منه. أطرق ناكامرا. عاد كوتا يتكلم.

لا يمكن إنقاذ شيء. لا يمكن عمل شيء حيال ذلك. عرف ناكامرا أنه أخطأ بإثارته هذه المسألة، لكنه شعر بالامتنان لأن الكولونيل كوتا بدا له متفهماً. تلا الأمر الثاني: تقديم الموعد النهائي لإنهاء السكة الحديدية من كانون الأول إلى تشرين الأول. غمر ناكامرا إحساس باليأس. أصبحت مهمّته مستحيلة الآن.

أعرف أن بمقدورك القيام بذلك، قال الكولونيل كوتا. فلم نعد في نيسان، قال ناكامرا آملاً في أن يُفهم ذلك بأنه إشارة غير مباشرة إلى موافقة القيادة على الخطط النهائية. إننا في شهر آب. ظلت عينا الكولونيل كوتا مثبتتين على عيني ناكامرا.

سنكثّف جهودنا، قال ناكامرا.

لا يمكنني أن أكذب عليك، قال الكولونيل كوتا. أشكّ في أن تكون هناك زيادة مماثلة في الآلات أو في الأدوات. ربما سيأتي مزيد من العمال، لكن حتى هذا لا يمكنني أن أكفله. لدينا ربع مليون عامل وستون ألف أسير يعملون في مدّ الخط الحديدي هذا. أعرف أن الإنكليز والأستراليين كسالى. أعرف أنهم يتذمرون كثيراً ويقولون إنهم يتعبون كثيراً أو يجوعون كثيراً وأنهم لا يمكنهم مواصلة العمل. إنهم يجرفون كمية قليلة من التراب ثم يتوقّفون للاستراحة.

يضربون ضربة واحدة بالمطرقة، ثمّ يتوقفون. كما أنهم يعترضون على أمور تافهة على سبيل المثال، عندما يُصفعون. فإذا أهمل جندي ياباني عمله فإنه يتوقّع أن يُضرب. من يعطي الجبناء الحقّ بأن لا يُصفعوا؟ أما العمال البورميون والصينيون الذين يرسلون إلى هنا فلا يتوقفون عن الهرب أو يموتون. أما التاميل، فالحمد لله أنهم بعيدون عن بلدهم ولا يفكرون في العودة إلى مالايا، لكنهم يموتون الآن في كل مكان بسبب الكوليرا، وحتى الآلاف الأخرى التي تصل فإنها لا تشكل قوة عاملة كافية. لا أعرف. لم يعد أي شيء يجدي.

عاد ناكامرا إلى قراءة الرسالة المطبوعة بالآلة الكاتبة. الأمر الثالث: نقل مائة أسير من معسكره للعمل في معسكر آخر قريب. معبر ثري باغودا الذي يبعد حوالي مئة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال على الحدود مع بورما.

لا يمكنني التخلي عن مئة أسير، قال ناكامرا لنفسه. إني بحاجة إلى ألف أسير آخر لإكمال هذا الجزء خلال الوقت المحدد لي، لا إلى أن أخسر المزيد. رفع عينيه ونظر إلى الكولونيل كوتا.

هل يجب أن يسير الرجال المئة إلى هناك؟

لا يمكنهم القيام بذلك في هذه الرياح الموسمية.

كان ناكامرا يعرف جيداً أن عدداً كبيراً منهم سيلقون حتفهم خلال محاولة الوصول إلى هناك، ربما معظمهم. لكن السكة الحديدية تتطلب ذلك. فقد أمر الإمبراطور بمدّ هذا الخطّ، وهكذا تقرّر إقامة هذه السكة الحديدية. كان بوسعه أن يرى ذلك، في الواقع - هذا الواقع المليء بالأحلام والكوابيس التي يعايشها كلّ يوم - لا توجد وسيلة أخرى لمدّها. ظل متشبثاً برأيه.

افهمني، قال ناكامرا، إن مشكلتي عملية. بدون أدوات، ومع تناقص عدد الرجال كلّ يوم، كيف يمكنني أن أمدّ هذه السكة؟

حتى لو مات معظمهم من الإعياء فعليك أن تنجز العمل، قال الكولونيل كوتا، وهزّ كتفيه. حتى لو ماتوا جميعاً.

كان باستطاعة ناكامرا أن يرى أنه، في هذه التضحية أيضاً، لا توجد وسيلة أخرى لتحقيق رغبات الإمبراطور. ففي جميع الأحوال من هو أسير الحرب؟ إنه أدنى مرتبة من إنسان، مجرد مادّة تستخدم لمدّ الخط الحديدي، إنه مثل العوارض المصنوعة من خشب الساج والقضبان الفولاذية والبراغي. وإذا أُسر، هو الضابط الياباني، فإنه سيُعدم عندما يعود أخيراً إلى اليابان.

قبل شهرين، كنت في غينيا الجديدة، قال الكولونيل كوتا. في بوغانفيل. يقولون إن جاوة هي الجنة، وأن بورما هي الجحيم، لكن لا أحد يعود من غينيا الجديدة.

ابتسم الكولونيل، وعلت طيات وجهه المتهدلة وهبطت، ذكّرت ناكامرا بسفح تل ذي مصاطب.

أنا البرهان على أن أقوال الجنود القدامى غير صحيحة دائماً. لكن الوضع شديد القساوة هناك. فالسلاح الجوّي الأمريكي لديه قدرة مذهلة. كانت طائراتهم اللوكهيد تقصفنا يوماً بعد يوم. لم تتوقف عن القصف ليلاً ونهاراً. كانوا يقدمون لنا طعاماً يكفينا لمدة أسبوع فقط ويتوقعون أن نقاتل طوال شهر. لو توفر لدينا ملح وثقاب فقط في ساحة القتال، لتمكنّا من مواجهة أيّ شيء. لكني أقول لك، وماذا عن الأميركيين والأستراليين؟ يمكنهم التباهي بقوّة معدّاتهم وتجهيزاتهم العسكرية، وآلاتهم وتكنولوجياتهم فقط. تمهّل! سنشنّ عليهم حرب إبادة. فلدى كلّ ضابط ورجل في جيشنا الرغبة في أن يذبح ويقتل جميع الأميركيين والأستراليين. سننتصر لأن روحنا ستصمد وروحهم ستنهار.

عندما كان الكولونيل يتكلّم، كان وجهه ذو المصاطب في نظر

ناكامرا يحمل في داخله قدراً كبيراً من حكمة اليابان القديمة. فمن كلّ ما كان ناكامرا يراه جيداً والأفضل في بلده، في حياته، عرف ناكامرا أن الكولونيل، بصوته اللطيف، يحكي له أموراً تفوق هذه القصّة: بأنه يقول إنه مهما كان حجم المصيبة، ومهما كانت هناك مشكلة عدم توفر الأدوات واليد العاملة، فإنه يتعين على ناكامرا أن يصمد، أن يتحمل، لأن السكة الحديدية ستُنجز، وسننتصر في الحرب، وكلّ ذلك بفضل الروح اليابانية.

لكن ما هي تلك الروح، ماذا تعني بدقة. لم يكن ناكامرا يعرف. إنها جيدة ونقية، وتشكل بالنسبة له قوة حقيقية أكثر من الخيزران الشائك وخشب الساج والمطر والوحل والصخور والعوارض الخشبية والقضبان الفولاذية التي يعملون بها كلّ يوم. بشكل ما أصبحت جوهره، لكن على الرغم من ذلك كانت شيئاً يفوق الكلمات. ولتفسير ما يجول في رأسه، وجد ناكامرا نفسه يحكي قصّة.

قال: ليلة البارحة، كنت أتكلّم مع طبيب أسترالي. أراد الطبيب أن يعرف لماذا شنت اليابان الحرب، ففسرت له أن نبل الإرادة العالمية هي جوهر الفكرة التي توجهنا. حكيت له عن شعارنا، *العالم كله تحت سقف واحد*، لكني لا أظن أنه فهم حقيقة ما أقصد، فقلت له باختصار إن آسيا أصبحت الآن للآسيويين، وأن اليابان هي التي تتزعم الكتلة الآسيوية. قلت له إننا نحرّر آسيا من الاستعمار الأوروبي. كان من الصعب أن يفهم ذلك، فظل يتحدث عن الحرية.

في حقيقة الأمر، لم يكن ناكامرا يعرف كيف يفكّر الأستراليون. الكلمات، نعم، لكن الأفكار لا تعني شيئاً البتة.

الحرية؟ قال الكولونيل كوتا. ضحكا.

الحرية، قال ناكامرا، وضحكا مرة أخرى. كانت أفكار ناكامرا

غابة مجهولة، بل ربما كانت عصية على فهمه. بالإضافة إلى ذلك فهو لا يهتمّ بأفكاره، بل كان كل ما يهمه هو أن يكون متأكّداً، متيقناً. كانت كلمات كوتا بمثابة شابو بالنسبة لعقله المريض. إن اهتمام ناكامرا يتركز على خط سكة الحديد، الشرف، الإمبراطور، اليابان، ويرى نفسه ضابطاً جيداً شريفاً. لكنه، بالرغم من ذلك، كان يحاول أن يفهم الاضطراب الذي يعتريه.

أتذكّر عندما كان الأسرى يقيمون حفلات موسيقية، حضرت إحداها ذات ليلة. الغابة، النار. كانوا ينشدون أغنية «والتسينغ ماتيلدا». اعترتني عاطفة مرهفة، بل حتى أنني تعاطفت معهم. كان من الصعب ألّا تثير مشاعرك.

أما السكة الحديدية، قال الكولونيل كوتا، فهي ساحة حرب لا تقل عن الخطّ الأمامي في بورما.

تماماً، قال ناكامرا. ليس بمقدور المرء أن يميّز بين التصرفات الإنسانية وغير الإنسانية. لا يستطيع المرء أن يذكر، لا يستطيع المرء أن يقول إن هذا الرجل هنا إنسان، وذاك الرجل هناك شيطان.

هذا صحيح، قال الكولونيل كوتا. هذه حرب، والحرب تتجاوز هذه الأشياء. والسكة الحديدية بين سيام وبورما لأغراض عسكرية، لكن تلك ليست النقطة الأهم. إن السكة الحديدية هذه هي أعظم إنجاز تاريخي في قرننا هذا. من دون آلات أوروبية، في فترة استثنائية، سنمدّ السكة التي قال الأوربيون إن مدّها غير ممكن. هذه السكة الحديدية هي اللحظة التي نصبح فيها نحن وآفاق مستقبلنا الحافز الجديد للتقدّم العالمي.

احتسيا المزيد من الشاي الحامض، وحزن الكولونيل كوتا لأنه غير متواجد على الجبهة حتى يموت في سبيل الإمبراطور. لقد لعنوا الغابة والمطر وسيام. تحدّث ناكامرا عن صعوبة دفع الأستراليين إلى

العمل، وقال لو أنهم قبلوا الدور العظيم الذي منحه لهم القدر، لما عاملهم بهذه القسوة التي لا ترحم. ليس من طبيعته أن يكون قاسياً، لكن إزاء عناد الأستراليين فإنه مجبر على أن يكون كذلك.

ليس لديهم روح، قال الكولونيل كوتا، هذا ما لاحظته في غينيا الجديدة. إذا طلبت منهم أن يتحملوا المسؤولية فإنك تراهم يتبعثرون كالصراصير.

لو كانت لديهم روح، قال الكولونيل ناكامرا، لاختاروا الموت بدلاً من عار الأسر.

أذكر عندما ذهبت إلى مانتشوكوو لأول مرة، بعد تخرجي من كلية الضباط، قال الكولونيل كوتا، قابضاً يده كأنه يمسك مقبضاً أو قبضة بإحكام. ضابط برتبة ملازم، غرّ تماماً. قبل خمس سنوات. كم يبدو ذلك الآن بعيداً. كنا نجري تدريبات ميدانية خاصة للاستعداد للمعركة. أخذونا إلى أحد السجون لاختبار شجاعتنا. لم يُقدَّم طعام للأسرى الصينيين منذ أيام عديدة. كانت أجسادهم هزيلة ضامرة. كانوا مقيدين ومعصوبي العيون، وأرغموا على الركوع أمام حفرة كبيرة. استلّ الملازم المناوب سيفه. غرف بيده قليلاً من الماء من دلو وبلل به جانبي نصل السيف. لا أنسى قط قطرات الماء وهي تنقط من سيفه.

انظر، قال. هكذا تُقطع الرؤوس.

- ١٥ -

بعد ظهر يوم السبت التالي، كانت حرارة الشمس لا تطاق. بعد أن أنهت أيمي مولفاني طعام الغداء وتأكّدت من أن كلّ شيء جاهز للعشاء، قرّرت تبديل ثيابها والذهاب إلى الشاطئ للسباحة. كان

الطريق من فندق كينغ كورنوال إلى الشاطئ يعجّ بالناس. عندما راحت تسير على الرمل، تناهت إلى سمعها أصوات الأمواج وأصوات الصراخ، وكانت تعتمر قبعة من القشّ، وترتدي بنطالاً قصيراً أزرق وبلوزة قطنية بيضاء، أدركت أن نظرات الرجال والنساء كانت منصبة عليها.

أيام الصيف الطويلة الحارة، والليالي الشهوانية، وغرفة النوم الخانقة، وأصوات وروائح كيث، ملأت أيمي مولفاني بأرق وقلق غريبين. كانت تتملكها رغبة جامحة في مغادرة المكان في أن تغدو شخصاً آخر، في مكان آخر. أن تبدأ بالتحرّك وألّا تتوقف أبداً. لكن كلما صرخ صوت في أعماقها طالباً منها التحرّك، أدركت أنّها متسمّرة في مكان واحد، في حياة واحدة. كانت أيمي مولفاني تريد أن تعيش ألف حياة، لكنها لم تكن تريد أن تكون تلك الحيوات مثل الحياة التي تعيشها الآن.

كانت تنتهز فرصة الحرب وطبيعة كيث المتساهلة للهرب من الفندق لليلة تمضيها هنا أو هناك. كانت هناك بعض المغامرات الصغيرة - فقد دفعها ضابط في القوات الجوية الملكية الأسترالية إلى الجدار بعد ليلة أمضتها في الرقص، لكنها أحست بالكثير من الارتياح وبالقليل من الإحباط، عندما اكتفى الضابط بتقبيلها بحرارة وتلمّس بعض أجزاء من جسدها، ونامت مع بائع جوّال كان يأتي أحياناً إلى مشرب الفندق الخلفي، ثم التقت به ذات ليلة خارج دار السينما في البلدة. كان شيئاً فظيعاً. فما إن بدأ ذلك، حتى اعتراها شعور بأنه لن يتوقف، وأنها ستتركه ينهي ما كان قد بدأ به. وبمقارنته بكيث، فقد كان له جسد شاب قوي، وكان مفعماً بالحيوية، كثير المداعبة - الكثير منها. لكن عندما شاركته السرير وهي في كامل عريها، شعرت بالخوف: فلم تتحمل لمساته ورائحة وجسده

وملمسه. أرادت أن تغادر بسرعة، ثم تقيّأت وأحست بخواء فظيع. وقررت ألّا يتكرر ذلك. وقد ساعدها قرارها هذا على معالجة إحساسها بالذنب. وعلى نحو غريب، دفعتها خيانتها هذه إلى أن تكون وفية لكيث. وقالت لنفسها بما أنها لم تحبّ ذلك البائع الجوّال فغن ما حدث لم سكن خيانة حقيقية. وظل حبّها لكيث كما كان في السابق: فقد ظلت ترعاه وتهتم به كما في الماضي. كان يسليها وكانت تقدّر لطفه ورقته. وكانت الأيام والشهور التي تلت تلك الليلة الفظيعة من أفضل الأيام والشهور التي عرفاها في حياتهما. لكن حتى عندما كانت أيمي مولفاني تنام طويلاً وبعمق ثم تصحو رائقة، صافية البال، ويجلب لها كيث فنجان الشاي إلى السرير، كانت تشعر بأنها تريد شيئاً آخر، لكنها لم تكن قادرة على تحديد ما الذي تريده. وبينما كانت ترشف الشاي وتنظر إلى كتلة ظهره الضخمة وهو خارج من الغرفة، لم تكن تتمالك نفسها عن التساؤل ما الذي تريده - الرغبة التي كانت تنهش معدتها، الرغبة التي تجعلها ترتجف أحياناً بشكل لا إرادي. رغبة خفية، فظيعة لا اسم لها كانت تخشى أنها ربما كانت جوهر الحياة ذاتها.

بدأ هذا الشعور يعتريها منذ حوالي سنة. كانت تغازل الآخرين، لكن بحذر. وصادقت أشخاصاً ربما لم يكن عليها أن تصادقهم، لكن مرة أخرى، بطريقة بدت لها وللآخرين، إن لم تكن ملائمة تماماً، فهي لم تكن ملائمة أيضاً. لذلك، بعد أن شعرت بحرية غريبة - حتى بالأمان - قررت أن أيّ تعارف لا يمكن أن ينتهي بأيّ شيء غير متوقّع، وبدأت تشعر بالجرأة في أن تفعل وتقول أحياناً أموراً كهذه للرجال كما فعلت مع الطبيب الطويل القامة في المكتبة. لكنها فكّرت مرة أخرى أنه ربما لا يوجد أي خطأ في سلوكها، لأنها لم تكن تحبّ أحداً منهم ولأنها لا تزال تحبّ كيث. شعرت أنها

توصلت إلى توازن يجعل ذلك الحبّ أقوى، ولم تعرف السبب الذي جعلها تخلع خاتم زواجها عندما خطت نحو ذلك الطبيب الطويل القامة في المكتبة.

عندما فكّرت أيمي في الأمر، أدركت أن ما قالته للطبيب الطويل القامة لم تقله من قبل لأي شخص آخر. لم تفهم ذلك، كما لم تفهم لماذا وضعت يدها على يده في النادي، ولم تفهم لماذا عانقته عندما همّ بمغادرة غرفتها. كانت قد قررت ألّا تفعل مثل هذه الأشياء الحمقاء مرة أخرى. حاولت إقناع نفسها أن ما حدث لن يتكرر. لكنها، في قرارة نفسها، كانت تخشى شيئاً آخر، وحاولت جاهدة ألّا تسمح بأن تسيطر عليها كلمات بل حتى أفكار خوفها.

عندما ألقت منشفتها على الرمل المتلألئ تحت أشعة الشمس، وقبعة القشّ، وخلعت ثيابها، أحسّت بقوة شبابها وجسدها. وبالرغم من أنها كانت تشعر بأنها امرأة تافهة، فقد أدركت أيمي، حتى لوهلة، أنها امرأة مميزة على قدر من الأهمية. ركضت نحو الماء. وبعكس الكثير من النساء الأخريات اللواتي كن يخضن في الماء حتى الركبة، ألقت أيمي مولفاني بنفسها تحت موجة كبيرة غمرتها. وعندما عادت وطفت على سطح الماء، وفي فمها ملوحة الماء، والسماء الصافية المتألقة المشعة، تلاشى اضطرابها، وحلّ محله ذلك الإحساس الغريب الذي طفا على السطح واحتل مركزاً جديداً من حياتها. لوهلة، بدا لها أن كلّ شيء متزن، كلّ شيء ينتظر.

عامت أيمي في الماء. على مسافة بعيدة في البحر كان هناك يخت صغير راكد فوق سطح الماء الساكن. عندما استدارت لتعود إلى الشاطئ، رأت رجلاً متوسط العمر يرتدي ثوب سباحة صوفياً قديماً يحدّق فيها. كان جسده خالياً من الشعر، جلده يشبه لحم طير منتوف قبل أن يوضع في الفرن. أشاح بنظره عنها بسرعة.

مرة أخرى، اعترتها تلك العاطفة المؤرقة الغريبة التي لن تتركها: لكن أيمي مولفاني لم تكن قادرة على الإعراب عما ترغب فيه. سبحت قليلاً إلى مسافة أبعد، كأن البحر والشمس وهبات النسيم كانت تدفعها إلى أن تفعل شيئاً، أيّ شيء، لكن أن تفعل شيئاً. عندما نظرت إلى أعلى الأمواج وأسفلها، رأت أناساً آخرين يقفون في صف معها، مجموعة من الأشخاص المترقبين، المتفائلين، بانتظار أن تتكسر الموجة التالية، لركوبها نحو الشاطئ. عندما بدأ المحيط يرتفع مشكلاً جداراً متدحرجاً وراءها، لاحظت خطّاً طويلاً من أسماك فضية بعيون صفراء تجري فوقها.

بقدر ما كانت ترى، كانت الأسماك تسبح بنفس الاتجاه فوق الموجة، وكانت الأسماك كلها تسبح بشراسة ساعية للهرب من قبضة الموجة المتكسرة. لكن الموجة كانت تمسك بالأسماك في قبضتها وتجرفها إلى حيث تشاء، ولم يكن ثمة شيء يستطيع أن يغير مصير تلك السلسلة المتألّقة من الأسماك. أحست أيمي بأنها بدأت ترتفع مع الموجة المتضخمة. تشنجت بتوقع وحماسة، لا تعرف إن كانت ستنجح في الإمساك بها، وإن نجحت، فماذا سيحلّ بها وبالأسماك.

- ١٦ -

أرخى الكولونيل كوتا قبضته وقال: باعد بين ساقيه، ورفع سيفه، وبصرخة قوية هوى به بقوة. بدأ الرأس يتدحرج بعيداً. كان الدم لا يزال يتدفق مثل نافورتين عندما كان علينا أن نحذو حذوه. كنت أتنفس بصعوبة. خشيت أن أقلل من قدر نفسي. خبأ بعض الأسرى رؤوسهم بين أيديهم، وأخطأ أحدهم ضربته فاندلقت نصف رئة منه. كان الرأس لا يزال في مكانه، وتعيّن على الملازم أن يحلّ

هذه المشكلة. طوال الوقت كنت أراقب لأعرف ما هي الضربة الجيدة، وما هي الضربة السيئة، وأين يجب أن تقف بجانب الأسير، وكيف تبقي الأسير هادئاً لا يتحرك. عندما أتذكر ذلك الآن، أتذكر أنني كنت طوال الوقت أراقب، أتعلّم. لا قطع الرأس فقط.

عندما جاء دوري، لم أصدّق أنني فعلت ذلك ببرودة أعصاب شديدة لأنني كنت مرعوباً في داخلي. ومع ذلك، استللت السيف الذي كان أبي قد أعطاني إياه، ودون أن أرتعش، مبلّلاً حدّ السيف كما أرانا المدرب دون أن أسقطه، وللحظة رحت أراقب، بينما تجمعت قطرات الماء ثم انسلّت ببطء. لن تصدّق كم ساعدتني مراقبة قطرات الماء.

وقفت وراء الأسير. استعدت توازني. تفحصت رقبته بإمعان. كانت نحيلة ومتغضنة، وتوجد أوساخ بين طياتها. لم أنس قط تلك الرقبة. وقبل أن أبدأ انتهى. تساءلت لماذا كانت هناك كريّات دهنية صغيرة على سيفي ولم أتمكن من إزالتها بالورقة التي أعطوني إياها. كان ذلك كلّ ما كنت أفكّر فيه - من أين أتى ذلك الدهن من تلك الرقبة الهزيلة الضامرة؟ كانت رقبته رمادية، وسخة مثل الوسخ الذي تبول عليه عادة. لكني ما إن قطعتها، حتى عادت الألوان تبدو زاهية جداً، متألقة - دمه الأحمر، عظمه الأبيض، لحمه الوردي، صفار ذلك الدهن. الحياة! كانت تلك الألوان هي الحياة نفسها.

فكّرت كم كان الأمر سهلاً، كم كانت الألوان براقة وجميلة، وما أذهلني هو أنها انتهت بسرعة. وعندما تقدّم الطالب الضابط التالي ليقطع رأس أسير آخر، رأيت الدم لا يزال يتدفق من رقبة أسيري في نافورتين، تماماً مثل ضحيّة الملازم، لكن أقل بقليل فقط. لا بد أنني لاحظت ذلك بعد أن قتلته بقليل.

لم أعد أشعر بأيّ شيء إزاء ذلك الرجل. ولكي أكون صادقاً،

فقد احتقرته لأنه قبل مصيره بخنوع وتساءلت لماذا لم يقاوم. لكن ماذا ستجدي مقاومته؟ وعلى الرغم من ذلك، فقد شعرت بالحنق منه لأنه تركني أذبحه.

لاحظ ناكامرا كيف أن يد كوتا التي يمسك بها السيف وهو يحكي قصّته تنقبض وترتخي، كأنه يتدرب أو يقطع رأساً.

إن ما اعتراني من أحاسيس يا ميجور ناكامرا، تابع الكولونيل كلامه، كان شيئاً هائلاً في معدتي كأنني أصبحت رجلاً آخر، كأنني اكتسبت شيئاً، هذا ما شعرت به. كان شعوراً هائلاً وفظيعاً، كما لو أنني متّ أيضاً وولدت من جديد.

قبل ذلك اعتراني القلق حول كيف سينظر إليّ رجالي عندما أقف أمامهم. لكني بعد ذلك، كنت أنا من ينظر إليهم. كان هذا يكفي. لم أعد أبالي ولا أخاف. كنت أحدّق فيهم - في مخاوفهم، ذنوبهم، أكاذيبهم - رأيت كلّ شيء، عرفت كلّ شيء. عيناك شريّرتان، قالت لي امرأة في إحدى الليالي. كان يكفي أن أنظر إلى الناس لأزرع الخوف في نفوسهم. لكن بعد فترة، بدأ هذا الإحساس يموت. بدأت أشعر بالاضطراب. بالضياع. عاد الرجال يتكلمون عني بوقاحة من وراء ظهري. لكني كنت أعرف ذلك. لم يعد أحد يخشاني. مثل فيلوبون - ما إن تحوزها، حتى لو جعلك ذلك تشعر بالدناءة، فإنك تريدها ثانية.

هل يمكنني أن أقول لك شيئاً؟ كان هناك دائماً أسرى. وإذا مرت بضعة أسابيع ولم أقطع فيها رأساً، كنت أذهب وأبحث عن رقبة شخص في هذا العالم تعجبني. كنت أجعله يحفر قبره. بينما كان يستمع إلى قصّة الكولونيل الفظيعة، كان ناكامرا يرى أنه حتى بمثل هذه الأفعال الفظيعة أيضاً، لم تكن هناك طريقة أخرى يمكن فيها تلبية رغبات الإمبراطور.

الأعناق، تابع الكولونيل كوتا قائلاً وهو ينظر بعيداً إلى المكان الذي تجمعت فيه مياه المطر الذي لم يتوقف عن الهطول طوال الليل. أصبح هذا كلّ ما أراه في الناس الآن. أعناقهم. ليس من الجيد التفكير بهذه الطريقة، أليس كذلك؟ لا أعرف. هكذا أصبحت الآن. كلما التقيت بشخص جديد، أنظر إلى رقبته وأتفحصها بدقة - هل إن قطعها سهل أم صعب. وهذا كلّ ما أصبحت أريده من الناس، أعناقهم التي تُقطع، هذه الحياة، تلك الألوان: الأحمر، الأبيض، الأصفر.

كما ترى فإن أول ما رأيته فيك هو رقبتك، قال الكولونيل كوتا. إنها رقبة جيّدة - أستطيع أن أرى بدقة أين يجب أن يهوي السيف. إنها رقبة ممتازة. سيطير رأسك متراً. كما ينبغي أن يحدث. وقد تكون الرقبة رفيعة جداً أو غليظة جداً، أو أنهم يتلوون أو يصرخون من الرعب - يمكنك أن تتخيّل ذلك - وإذا لم تقطع الرأس جيداً، فإنك تضطر لقطعها حتى الموت بغضب شديد. وعلى الرغم من أن رقبة الرقيب لديك تشبه رقبة ثور، طريقة وقفته، كما ترى. يجب أن أركّز على ضربتي وعلى البقعة التي يجب أن أضربه فيها حتى يموت بسرعة.

بينما كان الكولونيل كوتا يتحدث، ظل يقبض ويرخي قبضة يده، يرفعها وينزلها عندما تنقبض، كأنه يعدّ سيفه لقطع رأس آخر.

الأمر لا يتعلق بالسكة الحديدية فقط، قال الكولونيل كوتا، التي يجب أن تقام وأن ننتصر في الحرب.

يجب أن يتعلم الأوربيون كذلك أنهم ليسوا بالعرق المتفوّق، قال ناكامرا.

وأن نتعلّم أننا من نحن، قال الكولونيل كوتا.

لم ينبس أي من الرجلين بكلمة لبضع لحظات، ثم أخذ الكولونيل كوتا يردد:

حتى في كيوتو
عندما أسمع طائر الوقواق،
أشتاق إلى كيوتو.

باشو، قال ناكامرا.

عندما واصلا حديثهما، سُرَّ ناكامرا عندما اكتشف أن الكولونيل كوتا يقاسمه الشغف بالأدب الياباني الكلاسيكي. ازدادا حماسة عندما راحا يتحدّثان عن حكمة الهايكو الدنيوية لإيسا، وعظمة بوسون، والهايبون أعجوبة باشو العظيمة، «الدرب الضيّق إلى مجاهل الشمال»، قال الكولونيل كوتا، ملخّصاً في كتاب واحد عبقرية الروح اليابانية.

لاذا بالصمت. بلا أي سبب، أحسّ ناكامرا أن معنوياته قد ارتفعت فجأة للفكرة التي طرأت له بأن الخط الحديدي يشكل نصراً لاحتلال الهند، للفكرة بأن العالم كله يقبع تحت سقف واحد، وهو جمال شعر باشو. وبدت كلّ هذه الأمور التي بدت مشوّشة وتفتقر إلى الجوهر عندما حاول أن يشرحها للكولونيل الأسترالي، بدت واضحة وجلية ومترابطة الآن. أصبح لطيفاً وطيباً للغاية، عندما راح يتحدّث مع رجل لطيف، طيب مثل الكولونيل كوتا.

بصحة خطّ السكة الحديدية، قال الكولونيل كوتا، رافعاً كوب الشاي. بصحة اليابان، قال ناكامرا، رافعاً كوبه بدوره.

بصحة الإمبراطور! قال الكولونيل كوتا.

بصحة باشو! قال ناكامرا.

إيسا! بوسون!

جرعا ما تبقّى من شاي توموكاوا الحامض، ثم وضعا كوبي الشاي على المنضدة. ولكونهما غريبين لا يعرفان ماذا سيقولان بعد ذلك، بدا الصمت الذي خيّم مرة أخرى لناكامرا أنه تفاهم عميق. فتح الكولونيل علبة سجائر زرقاء غامقة رسمت عليها شمس كوومنتانغ البيضاء، وقدم سيجارة لزميله الضابط. أشعل كل منهما سيجارته واسترخيا. راح كل منهما يتلو مزيداً من قصائد هايكو المفضّلة. لم يكن الشعر هو الذي أثار حماستهما بقدر ما أثارتهما حسّاسيتهما للشعر؛ ولم تثرهما عبقرية القصائد بقدر ما أثارتهما الحكمة في فهم القصيدة؛ ولم تثرهما معرفة القصيدة، بل المعرفة بأن القصيدة تظهر الجانب الأسمى للروح اليابانية وتبرزها - تلك الروح اليابانية التي ستتجلى قريباً في السفر كلّ يوم على الخط الحديدي الذي مدّوه إلى بورما، الروح اليابانية التي ستشق طريقها من بورما إلى الهند، الروح اليابانية التي ستغزو العالم من هناك.

بهذه الطريقة، قال ناكامرا، فإن الروح اليابانية الآن هي ذاتها السكة الحديدية، والسكة الحديدية هي الروح اليابانية، وسيساعد دربنا الضيّق إلى مجاهل الشمال في نقل جمال عقار باشو وحكمته إلى جهات العالم الأربع.

وبينما كانا يتحدثان عن شعر الرينغا والواكوا والهايكو وعن بورما والهند والسكة الحديدية، تملّك الرجلين إحساس عظيم بالمعنى المشترك، مع أنه لن يتمكن أحدهما من الحديث بعد ذلك عمّا كانا يتحدثان عنه الآن. تلا الكولونيل كوتا قصيدة هايكو أخرى للشاعر كاتو، واتفقا على أن هذه الموهبة اليابانية السامية - في تصوير الحياة بدقة شديدة، بالغة الروعة - وأنه بعملهما في السكة الحديدية، فإنهما يساعدان على إظهارها إلى العالم. وهذه المحادثة

بينهما كانت حقاً سلسلة من توافقية، جعلتهما يشعران بأنهما في حال أفضل بكثير لحرمانهما والكفاح المرير الذي هو عملهما.

ثم نظر ناكامرا إلى ساعة يده.

يجب أن تعذرني، يا كولونيل. الساعة الرابعة إلا عشر دقائق. يجب أن أعيد ترتيب الجداول لتحديد الأهداف الجديدة قبل موعد نداء الاستيقاظ.

عندما همّ بالمغادرة، وضع الكولونيل يده على كتف ناكامرا.

يمكنني أن أتحدث عن الشعر معك طوال الليل، قال الرجل الضخم.

في عتمة وفراغ الكوخ، أحسّ ناكامرا بعاطفة قوية تجاه الكولونيل كوتا عندما طوق بذراعه ناكامرا وقرّب منه وجهه الذي يشبه زعنفة سمك القرش. فاحت منه رائحة سمك البلم الزنخ. كانت شفتاه فاغرتين.

في عالم آخر، بدأ الكولونيل كوتا يقول. الرجال... الرجال يحبون.

لم يتمكن من مواصلة حديثه. ابتعد ناكامرا. عدّل الكولونيل كوتا وقفته وأمل في أن يكون قد أساء فهمه. ففي غينيا الجديدة، ذبحوا أسرى أمريكيين ورجالهم هم وأكلوهم. كانوا يتضورون جوعاً. تذكّر الجثث التي سُلخت أفخاذها وبرزت عظامها. الألوان: البني، الأخضر، الأسود. تذكّر المذاق الحلو. كان يريد أن يعرف شخص آخر ذلك. بأنّهم كانوا جائعين وأنه لم يكن لديهم خيار آخر. أن يقول إن ما يقوله صحيح. أن يضمه. أن...

لم يكن بالإمكان عمل غير ذلك، قال ناكامرا.

لا، أجاب الكولونيل كوتا، خطا إلى الوراء، وفتح علبة سجائر كومينتانغ ليقدم لناكامرا سيجارة أخرى. بالطبع لا.

عندما أشعل الميجور سيجارة، قال الكولونيل كوتا. . .

حتى في مانتشوكوو
عندما أرى رقبة
أشتاق إلى مانتشوكوو.

أغلق علبة السجائر، ابتسم، وأحكم قبضته، استدار وغادر، ضحكته الغريبة تلاشت معه في ضوضاء الليلة التي هبت فيها الريح الموسمية.

- ١٧ -

دُهشت أيمي مولفاني كيف أن الكذب بدأ يراودها الآن بهذه السهولة، واعتراها شعور بالخجل وبالبهجة في آن معاً لقدرتها الجديدة هذه. عندما بدأ كيث يتحدث بتباهٍ عن سياسات المجلس أثناء العشاء، قاطعته وقالت له إنها ستمضي يوم غد مع صديقة قديمة لها، وإنهما ستذهبان بالسيارة إلى شاطئ بعيد، معزول، لتمضيا وقتاً ممتعاً وتسبحان، وقالت إنها ستأخذ سيارة فورد كابريوليت من أجل هذه النزهة.

بالطبع، قال كيث، وعاد فوراً إلى رواية حكايته عن الموظف الجديد في المجلس وآرائه القديمة عن شبكة الصرف الصحي.

قولي له شيئاً حقيقياً! كادت أيمي تصرخ. لكن ما هو ذلك الشيء الحقيقي، كيف يمكن أن يبدو، لم تكن تعرف، فضلاً عن أنها لم تكن تريد أن يبدي اهتماماً بها. وكلما انتقل كيث في حديثه عن البلاليع والحاجة الملحّة إلى إقامة شبكة للصرف الصحي ونظم

التخطيط الحديثة وعن توفير مراحيض للجميع، والخطط الوطنية والتنظيم والإدارة العلمية، ازدادت شوقاً ولهفة إلى لمس أصابع دوريغو إيفانز في العتمة.

في تلك الليلة جافاها النوم. استيقظ كيث مرّتين وسألها عمّا إذا كانت مريضة، لكنها قبل أن تجيب، كان قد غطّ في النوم ثانية، وراح يهمهم في نومه وسال خيط من الرغوة الجافة المالحة عند ثنية شفته.

بدأت اليوم التالي بوضع مكياج على وجهها مرّتين قبل أن ترضى عن نفسها، وبدّلت ثيابها عدّة مرات قبل أن تستقر على ما كانت قد بدأت به: شورت غامق وبلوزة قطنية خفيفة في شكل شال تُبرز أفضل مفاتنها. ثمّ خلعت بلوزة القطن لترتدي بلوزة حمراء مفتوحة الصدر تحبها كثيراً تشبه البلوزة التي كانت ترتديها أوليفيا دي هافيلاند في فيلم «كابتن بلود»، لكن لم يكن عندها تنورة تتطابق معها. وبعد الساعة العاشرة بقليل، عندما كان دوريغو إيفانز ينتظرها بالقرب من بوابة الحارس خارج الثكنة - دوريغو إيفانز الذي، كما خيّل إليها، بابتسامته وأنفه وتصفيفة شعره الذي كان أطول من المعتاد- يشبه الممثل إيرول فلين كثيراً -بالتنورة الزرقاء الفاتحة المزّهرة والقميص الأصفر بلا أردان، أحست أنها لم تكن تبدو عملية، لكنها جذابة.

بوجود دوريغو إلى جانبها، أصبح كلّ ما كانت أيمي تراه مملاً وغبياً البارحة وتأمل في أن تتخلص منه، بهيجاً ومثيراً اليوم؛ وكلّ ما كانت تراه ليلة البارحة سجناً خانقاً تتمنى أن تهرب منه، أضحى اليوم أكثر جمالاً وروعة في حياتها. ولشدة إحساسها بالتوتر أخذت تقود السيارة ببطء، تتوقف بين الحين والآخر، فأخذ دوريغو مكانها وراح يقود السيارة بنفسه.

يا إلهي، قالت لنفسها، كم كانت تريده، وكم كانت السبل التي

تريده بها غير لائقة وشنيعة. أحست كم أنها تشعر بالخزي، كم أن قلبها شرّير، وكيف أن العالم سيعاقبها. وعلى الفور راودتها فكرة أخرى وقالت مؤكدة لنفسها إن قلبي الشرّير المخزي، يتحلى بشجاعة أكثر مما يتحلى به العالم. لوهلة بدا لأيمي أن ما من شيء في العالم لا يمكنها أن تواجهه وتهزمه. ومع أنها كانت تعرف أن هذه هي أكثر الأفكار حماقة، فقد زادتها حماسة وشجاعة.

كانت سيارة الفورد في حالة مزرية. كان المحرّك يجأر، وعلبة تغيير السرعة تصدر هديراً مخيفاً كلما غيّر دوريغو السرعة. في هذا الضجيج، أحسّت أنها تمتلك الحرية في الكلام، لم تكن كلماتها شيئاً، لكن تدفقها كان كلّ شيء.

إنه رجل طيب، قالت. لا تعرف كم أنه رجل رقيق. أقصد، أنا أحبّ كيث. كثيراً. ومن لا يحبّه؟ إنه رجل طيب.

إنه أفضل الرجال، قال دوريغو إيفانز، بنبرة لا تنم عن نفاق.

نعم، قالت أيمي. إنه رجل طيب. وذلك الموظف في المجلس! إنه لا يعرف شيئاً عن شبكة الصرف الصحي.

كانت تعرف أنها تهذر، وأن ما كانت تريده حقاً هو أن تخبر دوريغو كيف أن كيث لم يقل كلمة واحدة تشعر بأنها نابعة من قلبه. بل إن كلّ كلمة تقولها هي مجرد قناع. أرادت أن تخبر دوريغو بأنها تتوق إلى أن يقول لها كيث أشياء حقيقية، أو مجرد شيء حقيقي واحد.

لكن ما هو ذلك الشيء الحقيقي الذي قد لا تعرفه أيمي في قلبها. إن ما تريد أن تسمعه أيمي مولفاني لا يدور حول المراحيض وحدائق المدينة، وضرورة التخطيط الجيد لشبكة المجاري. إنها تعرف أنها تريد أن تسمع أشياء بعكس ذلك تماماً. بالفعل، لم تكن تريد أن يتحدث زوجها عن أي شيء، لكنها كانت تريد أن يحدثها

دوريغو إيفانز عن أمور كثيرة، ولا تريده أن يقول شيئاً إذا ما أُبطل السحر - إذا قال بطريقة ما إنها مجرد نزهة، إنها مجرد واجب يجب أن يقوم به كجزء مما جرى، أو لأنه بعيد جداً عن بيته وعن عائلته. لقد أبدت كلّ هذه الاضطرابات الغريبة المتناقضة، كلّ هذا المحيط من المشاعر عن الرجل الذي لم تتزوّجه، بالتحدث عن الرجل الذي كانت -

كيث هو كيث.

عندما وصلا إلى بداية الدرب المفضي إلى الشاطئ، أشعل دوريغو سيجارة، لكنه أبقاها في فمه. عندما مدّت أيمي يدها بارتباك لحماية تنورتها وكرامتها عندما مشت فوق سياج مفكك من الأسلاك الشائكة، خدشت فخذها فصرخت. لوت ساقها إلى الخارج. بدأ خط رفيع من الدم يسيل عند باطن فخذها، ثلاث نقاط حمراء قانية.

ألقى دوريغو إيفانز سيجارته من فمه وقرفص أمامها.

أنا آسف، قال بطريقة رسمية، وبإصبعه رفع حاشية التنورة الزرقاء الفاتحة فوق فخذ أيمي بقليل، ومسح الخدش بمنديله. توقف وراح ينظر إلى الخدش. ظهرت نقاط الدم الثلاث مرة أخرى.

مال نحوها أكثر. وضع يداً حول ربلة ساقها الأخرى ليحافظ على توازنه. كان بإمكانه أن يشمّ رائحة البحر. رفع عينيه ونظر إليها. كانت تحدّق فيه بنظرة لم يستطع تفسير مغزاها. أصبح وجهه قريباً جداً من فخذها. سمع صراخ نورس. عاد ينظر إلى ساقها.

لامس قطرة الدم السفلى بشفتيه.

أنزلت أيمي يدها وأسندتها على مؤخرة رأسه.

ماذا تفعل؟ سألته بصوت فيه بحة، لكن أصابعها كانت لا تزال تتخلل شعره في تناقض غريب. أدرك التوتّر في صوتها، وخفّة ورقة

أصابعها التي تلمسه، رائحة جسدها التي غمرته. ببطء شديد، لا يكاد طرفا شفتيه يلمسان لحمها. قبّل قطرة الدم، مخلفاً بقعة قرمزية على فخذها.

ظلت يدها مسندة إلى رأسه، أصابعها تتخلل شعره. استدار نحوها أكثر قليلاً، ثم رفع يده وأمسك فخذها من الخلف برقة.

دوريغو؟

ظلت نقاط الدم الأخرى تكبر. كان يتوقع أن تعترض، أن تهزّ ساقها وتبعده عنها، بل حتى تركله، لم يجرؤ على النظر إلى الأعلى. راح يحدق بقطرات الدم تلك، ثلاث زهرات كاميليا ترمز إلى الشهوة، ظلت تكبر. كان جسدها قصيدة لا يمكن حفظها عن ظهر قلب. قبّل قطرة الدم الثانية.

تشنجّت أصابعها في شعره. لعق قطرة الدم الثالثة، بالقرب من خطّ ظلّ تنورتها حيث يزداد فخذها اكتنازاً. غرست أطراف أصابعها في شعره. قبّل ساقها مرة أخرى، هذه المرة متذوقاً ملوحتها، أغمض عينيه وأرخى شفتيه على فخذها، يتشممها، يستمتع بدفئها.

ببطء، بتردّد، ترك ساقها ونهض واقفاً.

- ١٨ -

في ربع الساعة التالية، في ظل عاصفة خرقاء من الصمت، سارا في درب ضيق تتشابك فيه الشجيرات حتى الشاطئ. بدأت الحرارة تشتد، وبدأ العرق يسيل منهما. أحسّ كلاهما بالامتنان للشاطئ الخالي وللمحيط والجلبة التي يُحدثها، وعزلته. بعد أن بدّلا ملابسهما، ولم يكن يفصل بينهما سوى مسافة قليلة بين الكثبان الرملية. ركضا معاً إلى البحر.

شعرت أيمي بأن الماء حوّلها إلى شيء كلّي وقوي. إلى أشياء كانت تبدو البارحة في محور كيانها لكنها ذابت اليوم واستحالت إلى أمور تافهة، ثم انجرفت وتلاشت جميعها: إعداد قائمة الطعام لمطعم الفندق للأسبوع القادم؛ صعوبة شراء بطانيات صوفية جديدة لغرف الفندق؛ رائحة النادل؛ الصوت المقزز الذي يصدره كيث من فمه عندما يشعل غليونه في المساء.

وراء خطّ الأمواج استدارا، وجهاهما مبللان وعيناهما ماسيتان. فوق هضبة المحيط اللانهائية لم يظهر إلا رأساهما، يخوضان في الماء، يحدّق أحدهما في الآخر. أدركت أنه يسبح تحت سطح الماء ولمس جسدها عندما طفا ثانية. مثل فقمة، مثل رجل.

بعد أن استلقيا بين هضبتين من الكثبان الرملية، وكانت قد خفّت حدة الأمواج المتكسرة، وانحرف اتجاه الريح عنهما. وبعد أن جفّ جسداهما، عادت الحرارة تشكل ثقلاً مدهشاً. تمددت أيمي على الرمل وكذلك دوريغو. تشرّب ظهرها الحرارة وأراحت وجهها في الظلّ المعتم الذي أحدثه رأسها. بعد قليل، تحركت قليلاً وأرخت رأسها على بطنه. أشعل سيجارة أخرى.

رفع دوريغو ذراعه إلى السماء التي ارتسمت فيها خطوط بيضاء وقال لنفسه إنه لم ير في حياته قط شيئاً بمثل هذه الروعة. أغمض إحدى عينيه وراح يراقب بعينه الأخرى إصبعه يلامس جمال سحابة.

لماذا لا نتذكّر الغيوم؟ قال.

لأنها لا تعني شيئاً.

ومع ذلك فهي كلّ شيء، قال دوريغو لنفسه، لكن هذه الفكرة كانت من الاتساع والسخف ما لا يعيرها معه أحد أي اهتمام، فتركها تنجرف بعيداً مع الغيمة.

مرّ الوقت ببطء أو بسرعة. من الصعب معرفة ذلك. تدحرج أحدهما فوق الآخر.

دوري؟

همهم دوريغو.

هل تعرف أنني عندما أكون وحيدة مع كيث فإني لا أقدر على تحمّله وأكره نفسي، قالت. لماذا ذلك؟

لم يكن لدى دوريغو إيفانز أي رد. رمى سيجارته فوق كثيب الرمل.

لأنني أريد أن أكون معك، قالت.

مضى الوقت وتوقف كلّ شيء.

هذا هو السبب، قالت.

مهما كان الشيء الذي يبعد أحدهما عن الآخر، مهما كان الشيء الذي يكبح جسديهما، ذاب الآن وتلاشى. لو دارت الأرض، لتعثّرت واضطربت، لو هبت الريح لانتظرت. لقد وجدت الأيدي اللحم، اللحم، اللحم. أحسّ بوزن رمشها غير المحتمل على رمشه. قبّل الخطّ الوردي الخفيف الذي خلّفه مطاط كيلوتها الذي يدور حول بطنها كما يدور خطّ الاستواء حول العالم. بينما كانا مستغرقين في اكتشاف أحدهما الآخر، تناهى إليهما صوت صرخات عالية منبعثة من مكان قريب انتهت إلى عواء أعمق.

رفع دوريغو عينيه. رأى كلباً ضخماً يقف فوق الكثيب الرملي، يسيل من فمه لعاب يتخلله دم. كان يقبض بفمه الذي يسيل اللعاب منه بطريقاً صغيراً ينتفض. اعتراه إحساس غريب بأن أيمي كانت بعيدة جداً، وأنه يحوم ويرفرف فوق جسدها العاري. تحوّلت مشاعره بغتة. أيمي التي أسكرته رائحة جسدها ونعومته وانسيابه،

طعمه الحلو المالح؛ أيمي، التي بدا له قبل لحظة بأنها ستتحول إلى مظهر آخر من نفسه، ابتعد عنه الآن. إن فهم أحدهما الآخر أعظم من فهمهما لله. وبعد لحظة، تلاشى.

أمال الكلب رأسه إلى جانب. سقط من فمه البطريق الذي ارتخى جسمه وأصبح ضعيفاً الآن، ثم استدار الكلب واختفى. لكن عواء البطريق المخيف والطويل، بنهايته المفاجئة - ظل قابعاً في رأسه.

انظر إليّ، سمع أيمي تهمس. إليّ فقط.

عندما عاد ونظر إلى الأسفل، كانت عينا أيمي قد تغيّرتا. بدا بؤبؤ عينيها مثل طبقين صغيرين، وأدرك أنه ضاع فيهما. أحسّ بجاذبية شهوتها له تشدّه وتعيده إليها، تعيده إلى قصّة ليست قصته، والآن، بعد أن أصبح بحوزته كلّ ما حلم به في الأيام الأخيرة، أراد أن يهرب منها بأسرع ما بوسعه. خشي أن يفقد نفسه، أن يفقد حريته ومستقبله. ما كان قد أثاره منذ لحظات بشدة، بدا الآن غير جذاب وعادياً، وتمنّى لو أنه تمكن من الهرب. لكنه أغمض عينيه. وما إن ولجها، حتى ندت من بين شفتيها آهة بصوت لم يعرفه من قبل.

شهوة جامحة، تكاد تكون عنيفة، هيمنت على مضاجعتها، والتحم جسداهما الغريبين في جسد واحد. نسي تلك الصرخات الحادّة القصيرة، ذلك الرعب بالعزلة المتواصلة، خوفه من مستقبل لا اسم له. أصبح جسدها له مرة أخرى. لم يعد الأمر مجرد شهوة أو نفور، بل عنصر آخر منه، بدونه سيكون غير كامل. فيها أحسّ بأقوى عودة إليها وأشدها ضرورة. وبدونها، شعر أن حياته لم تعد أيّ حياة على الإطلاق.

حتى آنذاك، كانت ذاكرته تأكل حقيقتهما. ثم، لم يعد يتذكّر

سوى جسديهما، يعلوان ويهبطان مع تكسر الأمواج، تهبّ عليهما نسائم البحر التي كدّرت قمم كثبان الرمل ونثرت الرماد الذي التهم سيجارته التي كان قد ألقى بها.

- ١٩ -

غفا هواء محتضر في ممرات فندق ملك كورنوال. كان الضوء الخافت يشي بالإرهاق والسأم. في مطبخ الفندق، فاحت رائحة شبيهة برائحة الغاز، مع أنه لم يكن هناك تسرّب غاز. وفي الطوابق العليا والدرجات المكسوة بالسجاد المغبّر، كانت تتصاعد وتختفي روائح تشعر أيمي أنها تمثّل خيبة أمل، رائحة كرات الغبار وجفاف ممتزج بروائح شحوم ثقيلة منبعثة من وجبات طعام فاسدة ومن لقاءات البائعين الجوالين الغرامية، وروائح النساء الضجرات أو البائسات أو كليهما. هل أنا إحدى تلك النساء؟ تساءلت أيمي وهي تصعد إلى الطابق العلوي. هل أنا واحدة منهن أيضاً؟

لكن عندما دخلت إلى الغرفة القابعة في الزاوية التي اتخذاها غرفة لهما - حيث تصدر النوافذ الواسعة صريراً بمفصلاتها المهترئة وقفلها الصدئ عندما تفتح، والتي تطل على المحيط والضوء المتواصل في الشارع. كانت رائحة البحر تعبق في الغرفة التي كان الهواء يتراقص فيها. هنا حيث تبدو جميع الأشياء ممكنة - كانت تعرف أنها لم تكن كذلك. كانت قد أعدّت له قليلاً من البوظة وزجاجتي بيرة، لكن بالرغم من الحرارة اللاهبة، لم يكن قد فتحها بعد.

أشار دوريغو إيفانز إلى الساعة ذات الإطار البلاستيكي الأخضر المنتصبة على رف الموقد. وعلى الرغم من أن عقرب الدقائق كان

قد اختفى في زمن غير معروف، بدا أن عقرب الساعات كان ينتظر هناك ثلاث ساعات أكثر من الوقت الذي قالت إنها ستأتي خلاله.

قالت له: كان عليّ أن أنتظر حتى انصرف جميع العاملين لكي يكون صعودي إلى هنا آمناً فلا يراني أحد.

من بقي؟

نادلتان، رئيس الندل، الطباخ. ميلي، النادلة. لكن لا أحد منهم يصعد إلى الطابق العلوي.

يبدو أن لا أحد ينزل هنا.

ليس الليلة. لقد حجزت لجميع النزلاء في الطابقين الأولين، لذلك لا يوجد أحد غيرنا في الطابق العلوي.

خرجا إلى الشرفة الواسعة، وجلسا فوق قطعة الأثاث الحديدية الصدئة، وتناوبا على شرب البيرة من زجاجة واحدة.

إنك مقامرة كبيرة، قال دوريغو، كما يقول كيث.

ها، قالت أيمي. انظر إلى تلك الطيور، وأشارت بيدها إلى المكان الذي تهبط فيه طيور البحر فجأة إلى المحيط كأنها جثث ميتة. اتجهت نحو الدرابزين الحديدي الذي تقشّر طلاؤه منذ أمد بعيد والذي أصبح يغلفه غبار أكسيد الحديد. مررت إحدى يديها فوق الأكسيد الرملي، الأحمر اللون مثل صخرة قديمة.

كان كيث يظن أنك ستتعلمين الصيد بالبندقية، قال دوريغو.

حلّقت الطيور ثانية فوق سطح الماء وقد التقطت بمناقيرها سمك الوايتينغ. ضغطت أيمي على الحديد الصدئ بأطراف أصابعها. وجهت نظراتها إلى الشاطئ الطويل الممتد على مسافة عدة أميال حتى يبلغ رأساً بحرياً قديماً متآكلاً، لا تكسوه إلا شجيرات شائكة. بدا رأسها يعجّ بأشياء بعيدة. حاول أن يمسك يدها لكنّها أبعدتها بسرعة.

هل قال كيث ذلك؟

قال إنك تعرفين دائماً الدرب والحقل والأوزان وأفضل الرهانات.

ها، قالت، وعادت إلى أفكارها. في الشارع في الأسفل، جعلها نباح كلب تنتفض. تطلعت حولها بقلق.

إنه هو، قالت. استطاع أن يسمع الرعب في صوتها. لقد عاد قبل يوم من موعد قدومه المحدد. يجب أن أذهب، إنه -

إنه كلب كبير، قال دوريغو. اسمعي. إنه كلب كبير. إنه لا يشبه نباح الآنسة بياتريس.

صمتت. توقّف النباح. سُمع صوت رجل - إنه ليس صوت كيث - يكلم الكلب، ثم اختفى.

بعد فترة من الصمت تكلّمت.

إني أكره تلك الكلبة. أقصد، أنا أحبّ الكلاب، لكنه يتركها على الطاولة بعد أن ننهي طعامنا. لسانها البشع يقفز مثل أفعى فظيعة.

ضحك دوريغو.

ويسيل من فمها اللعاب، تلهث، قالت أيمي. كلبة على طاولة الطعام؟ هل تتخيّل ذلك؟

عند كلّ وجبة؟

هل يمكنني أن أخبرك شيئاً؟ أنت فقط؟

طبعاً.

لا يتعلق الأمر بالآنسة بياتريس - ويجب ألّا تخبر أحداً بما سأقوله لك.

طبعاً.

هل تعدني؟

طبعاً.

عدني!

أعدك.

عادت إلى الكهف المظلّل في الشرفة وجلست. أخذت جرعة من البيرة، ثمّ رشفت جرعة كبيرة. وضعت الكأس، رفعت عينيها إليه ثم عادت ونظرت إلى الكأس المرسوم عليها خرزات.

كنتُ حاملاً.

نظرت إلى أصابعها، وراحت تفرك بأطراف أصابعها الصدأ الذي غدا رطباً الآن.

من كيث. إذاً أنت زوجته.

كان ذلك من قبلُ. قبلَ زواجنا.

توقفت ورفعت رأسها تتطلع حولها، كأنها تبحث عن شخص آخر في الشرفة المظلّلة الواسعة. عندما تأكدت من عدم وجود أحد، التفتت إليه.

لهذا السبب تزوّجنا. لم يكن - كان يبدو له ذلك فظيعاً - لم يكن يرى من الملائم أن ننجب طفلاً بلا زواج. هل تفهم؟

ليس تماماً. كان بإمكانكما أن تتزوجا. لقد تزوّجتما.

إنه رجل طيب. إنه كذلك. لكن - عندما حبلت -لم يشأ أن نتزوج. بينما كنت أريد أنا ذلك لحماية الطفل. أنا لم...

توقفت مرة أخرى.

أحبّه. لا. لم أحبّه. بالإضافة إلى...

بالإضافة إلى ماذا؟

لن تظن بي بأنني امرأة سيئة.

لماذا؟

شرّيرة؟ أنا لست شرّيرة.

لماذا؟ لماذا أفكّر بشيء كهذا؟

لأنني قلت إنني سأذهب إلى ملبورن لمشاهدة مباريات الكأس. قلت لهم إنني أذهب دائماً. كنت جديدة هنا، ماذا كانوا يعرفون؟ لكن -

لكنك لم تذهبي.

لا. ليس الأمر كذلك. لقد ذهبتُ. لكنّي أيضاً -

كانت أصابعها تتحرّك بسرعة، تحاول أن تزيل الصدأ. وفجأة، مَسَحَتها على جانبي فستانها، مخلفة عليه بقعة حمراء.

ذهبتُ أيضاً لرؤية رجل - طبيب - في ملبورن. لقد رتّب كيث ذلك. قال كيث إنها أفضل طريقة للتعامل معه. كان ذلك في شهر تشرين الثاني. حسناً. لقد حدد الموعد.

فُتح صمت لم تتمكن حتى الأمواج المتلاطمة أن تملأه.

لم يكن لديّ أدنى اهتمام بالخيول، قالت أيمي.

لكنّكِ اخترت أولد رولي ليفوز بالكأس. مائة على واحد. لا بد أنك تعرفين شيئاً.

اخترته لأنه مائة على واحد. اخترته حتى أخسر. لم أكن أتوقّع أن ينطلق من بوابة الانطلاق. لقد اخترته لأنني أكره السباق على الكأس. إني أكره كلّ شيء عنه.

نهَضَتْ واقفة.

لا أريد أن أتحدّث عن ذلك هنا على الشرفة.

دخلا وتمددا على السرير. أسندت رأسها إلى صدره، لكن الجو كان حاراً، ثم رفعت رأسها عنه واستلقت إلى جانبه، تتلامس أطراف أصابعهما فقط.

جلس هناك - كيث، أعني. جلس كيث هناك وأجلس في حضنه

الآنسة بياتريس وقال إنه رتب الأمر مع رجل في ملبورن ليعتني بي. رجل. ماذا يعني ذلك؟ رجل؟

للحظة، بدا أن هذا السؤال قد أعادها إلى التفكير بعمق، ثم عادت تتكلّم.

ثم ربّت على كلبته. لم أكره في حياتي شيئاً كما كرهت تلك الكلبة. إنه لا يلمسني لكن ها هو يداعب تلك الكلبة.

وماذا حدث بعد ذلك؟

لا شيء. ذهبتُ لرؤية الرجل في ملبورن. ظل يداعب كلبته القذرة.

- ٢٠ -

كان صوت المروحة المثبتة في السقف التي تدور ببطء يبدد الجلبة المنبعثة أحياناً من الطريق ومن الشاطئ في الأسفل البعيد. وجد نفسه يستمع إلى صوت تنفّسها، إلى صوت الأمواج، إلى صوت الساعة المنتصبة على رف الموقد. في لحظة ما، أدرك أن رأس أيمي عاد يستند إلى صدره وقد غطّت في النوم. وفي لحظة أخرى، أدرك أنه هو أيضاً قد غطّ معها في النوم. تثاءبت الستارة عندما بدأت تهبّ نسائم البحر عند المساء، تلاشت معها الحرارة وبدأت تأتي هبات من ضوء الغسق المغبش بالدخان. عندما تحرّك، أدرك أن الليل قد خيّم، وأن المصباح منار، وأيمي مستيقظة، ترمقه بعينيها.

ثم؟ همس.

ثم ماذا؟

الرجل الذي في ملبورن؟

آه. نعم، قالت، ثم توقّفت ونَظَرت إلى السقف أو ربما إلى ما

وراء السقف. فجأة أصبحت نظرتها تشي بقدر من الحيرة والاستسلام، كما كانت تتوقّع أن العالم يعود دائماً إلى هذا المكان الغامض في السقف أو في النجوم وراءه. نعم، قالت عدة مرات، وهي لا تزال تنظر إلى الأعلى. أخيراً، عادت ونظرت إليه.

كان عليّ أن أتظاهر بأنّني ذهبت إلى ملبورن لحضور السباق. لقد درست الخيول بعناية، راهنت وما إلى ذلك. لعلّي بدأت أهتم بها قليلاً. أظن أنها جديرة بأن يفكّر فيها المرء، ثم توقفتُ عن الاهتمام بها. كانت مثل الخيول. كنت أتظاهر فقط. لا أعرف. ربما لهذا السبب أراهن أحياناً على الخيول بمبالغ قليلة.

وكيث؟

عندما عدت، أصبح في غاية اللطف. يخيّل إليّ أنه كان يشعر بالذنب. كنت منزعجة للغاية. أراد أن يتزوجني على الرغم من أنه لم يعد هناك طفل - ربما للتعويض عن ذنبه. ربما كان أكثر خجلاً مني. لا أعرف.

هل وقعت في الحبّ؟

وقعتُ فقط. كان كلّ شيء ثلجاً. في رأسي. هل اعتراكَ مثل الشعور من قبل؟ يكون لديك عالم ثم تستحيل كلّ أفكارك إلى ثلج. كان كيث لطيفاً للغاية وكنت أنا ثلجاً. ربما كنت خجولة. ربما أظن أني مجرد أوساخ. أعرف أنني لم أكن أرغب في أن أظل عانساً. لعلي ظننت أننا نستطيع أن نصلح الأمر. أن أحمل منه مرة أخرى للتعويض عن المرة السابقة. لكني كنت مخطئة. بدأت أكرهه لشدة لطفه. بدأت أكرهه حتى كرهني. قال إنني خدعته حتى يتزوجني. وبطريقة ما، بدا أن ذلك كما كان يجب أن يكون. قال إنني خدعته، إني فعلت أشياء فظيعة، لذلك جاء الحمل. ربما لا يفكّر بذلك الآن. لكن في بعض الأحيان، تقال أشياء وهي ليست مجرد

كلمات. إنها كلّ شيء يظن أحدهم بالشخص الآخر في جملة. جملة واحدة فقط. لقد خدعتِني، قال لي، لنتزوج. هناك كلمات وكلمات لا تعني شيئاً، ثم تصادف جملة واحدة تعني كلّ شيء.

استلقت أيمي على جانبها وراحت تحدّق باتجاه البحر. مستلقياً عند ظهرها، شعر بالغيرة من وسادتها. استلقيا معاً صامتين لفترة طويلة. بإصبعه، أزاح خصلات الشعر التي سقطت على وجهها فأعادها وثبتها وراء أذنها. كان شكل صدفتها يثيره على الدوام. اعتراه دوار فظيع، كأنه جُرف إلى داخل دوامة هائلة لا نهاية لها. الساعة ذات إطار البيكليت الأخضر اختزلت إلى عقربها وأرقامها الفوسفورية، دائرة شبحية عائمة بدا أنها تحوم الآن فوقهما وتصدر صوت تكتكات. تدحرجت إليه وأحسّ بأنفاسها تهبّ برقة على صدره. رأى عينيها تفتحان، تحدّقان بإمعان فوق جسده كما لو أنها تحدّق في شيء بعيد جداً، ثم تغمضان.

بعد فترة طويلة، صحا على حسّ صوتها.

أتسمع ذلك؟ قالت.

من النافذة المفتوحة تناهت إليه أصوات الأمواج. بعض الزبائن يغادرون المشرب في الأسفل بأربعة طوابق، يتحدّثون عن كرة القدم. وقع خطوات، صوت سيارة من حين لآخر في الشارع الخاوي، امرأة تكلّم طفلاً، أشخاص مجتمعين معاً.

الأمواج، قالت، الساعة. الأمواج، الساعة.

أرهف السمع ثانية. بعد لحظات، تناغمت أذنه. خيّم الصمت على الشارع في الأسفل، وبدأ يسمع صوت الارتفاع البطيء للأمواج ودويّ الشاطئ، تكتكات الساعة المخملية. توقيت البحر، قالت عندما تكسرت موجة أخرى. توقيت البشر، قالت عندما دقّت الساعة. إننا نسير وفق توقيت البحر، قالت وضحكت. هذا ما أظنه.

إن كان كريهاً إلى هذه الدرجة، فما الذي يجعلك تبقين؟

إنه ليس كريهاً، إنه هكذا. ربما أحبّه بطريقتي. إنه ليس نحن.

لكن الحبّ هو الحبّ.

صحيح؟ يخيّل إليّ أحياناً أنه لعنة، أو عقاب. عندما أكون معه، أشعر بالوحدة. عندما أجلس قبالته، أشعر بأنني وحيدة. عندما أستيقظ في منتصف الليل وأنا مستلقية بجانبه، أشعر بأنني وحيدة جداً. وأنا لا أريد أن أكون وحيدة. إنه يحبّني وأنا لا أستطيع أن أقول... سيكون ذلك قاسياً للغاية. أظن أنه يشفق علي، لكن هذا لا يكفي. وربما أشفق عليه. هل تفهم؟

لم يفهم ولم يستطع أن يفهم. لم يفهم لماذا إذا أرادها، وكلما أرادها أكثر، ربط نفسه أكثر بإيلا. لم يفهم كيف أنها تكنّ لكيث الحبّ لكن ذلك يجعلها تشعر بأنها بائسة ووحيدة، مع أن قيوده تبدو أقوى بطريقة ما من حبّهما الذي جعلها سعيدة. وبينما تابعت كلامها، بدا أنّ كلّ شيء يحدث لهما ليسا هما من يقررانه، وأنهما يعيشان في عالم فيه الكثير من الناس والكثير من القيود والروابط، وأنْ لا شيء من كل ذلك يسمح لهما أن يبقيا معاً.

إننا لسنا اثنين فقط، قال.

بالطبع، نحن اثنان، أو نحن لا شيء، قالت أيمي. ماذا تقصد أننا لسنا اثنين؟

لكنّه لم يكن يعرف ماذا يقصد. في تلك اللحظة، أحسّ أنه موجود في الأفكار، في المشاعر، وفي كلمات الناس الآخرين. من هو، لا يعرف. لم يكن يمتلك الكلمات أو الأفكار التي تصف حالتها أو ماذا سيحل بها. كان يبدو له أن العالم يتيح بعض الأشياء ويحجب أشياء أخرى، وأنه ما من سبب ولا تفسير، لا عدالة ولا أمل، بل لا شيء سوى الحاضر، ومن الأفضل تقبل ذلك.

لكنها ظلت تتكلّم، محاولة أن تفسر عالماً يتعذر تفسيره وفكّ رموزه. لم تكفّ عن سؤاله عما ينوي عمله، عن أفكاره، عن رغباته. كان يشعر أنها تحاول أن توقعه في فخ الالتزام ثم ترفضه باعتباره أمراً مستحيلاً. كأنها تريده أن يسمّي ما يجري بينهما، لكنه إذا فعل ذلك، فإنه سيقتل ذلك الشيء نفسه.

في الضوء الخافت، سمعها تقسم -

ذات يوم سأذهب. ذات يوم سأذهب ولن يعثر عليّ.

يصعب تصديقها. لم يقل شيئاً. صمتت. أحسّ أن عليه أن يقول شيئاً.

لماذا تقولين لي ذلك؟

لأني لا أحبّ كيث. ألا ترى ذلك؟

أحسّ كلاهما أن هذه الكلمات هي بوح جديد ومقلق.

لاذا بالصمت لفترة من الوقت. باستثناء دائرة الزمن الخضراء المنتظرة قبالتهما، كانا في ظلام دامس ذاب فيه جسداهما. لم يعثر أحدهما على الآخر في الظلام، بل عثرا على قطع استحالت إلى شيء مختلف تماماً. شعر بأنه قد يتطاير إلى مليون شظية لولا أن ذراعيها وجسدها يضمونه إليها.

اسمع، قالت. إننا على توقيت البحر.

لكن صوت البحر تلاشى ولم يعد يسمع سوى صوت واحد هو صوت الساعة الخضراء ذات العقرب الوحيد. كان يعرف أن هذا ليس صحيحاً، أنه عندما قبّل صوان أذنها كانت نائمة، وأن الشيء الصحيح الوحيد في الكون في تلك اللحظة هو أنهما يستلقيان معاً في ذلك السرير. لكنّه لم يكن يشعر أنه في سلام.

- ٢١ -

كان هواء الصباح مثل هواء منبعث من فرن حتى قبل أن تشرق الشمس. ساعدت دوريغو في ترتيب الفراش لإخفاء فضيحتهما عن عيني الخادمة. راحت ترمقه وهو يغتسل: يداه في هيئة طاسة رطبة، وجهه اللامع يسقط منهما مثل فطيرة ينبعث منها البخار. كان أول ما لاحظته هو ذراعاه، بشرته السمراء الداكنة، الطريقة التي يلتقط فيها الأشياء ويمسكها بها، دورق الماء البارد، فرشاة الحلاقة، شفرة الحلاقة. بقوّة لطيفة، وليس بعنف. لحمه المشدود الذي يمتاز به.

كان منحنياً إلى الأسفل دافناً رأسه في حوض الماء. ذراعاه ممدودتان على كلا الجانبين مثل أرجل حمل مقلقلة. لكنّه لم يكن مثل حمل على الإطلاق - بل مثل ذئب، قالت لنفسها، راسخاً في جلسته هناك، متأهباً، مترقباً. ذئب أسود، وقد أصبح شعره الأسود تحت إبطيه أملس لامعاً من الصابون. صدره. كتفاه عندما يرفع أحد ذراعيه كأنه يريد أن يوقف شيئاً - سيارة، قطار، قلبها - ثم ينزلها كما لو أنها لم تكن شيئاً.

أرادت أن تدفن وجهها في هذين الإبطين وتتذوقهما، تعضهما، تغوص فيهما. لم تكن ترغب في أن تقول شيئاً، بل كانت تريد أن تمرّغ وجهها في أنحاء جسده. ندمت لأنها لم تلبس ذلك الفستان المطبّع - الأخضر. يا له من لون قبيح، يا له من فستان رخيص، غير مغرٍ، وقد أرادت أن يكون ثدياها ناهضين، مكشوفين، لا أن يكونا ضائعين ومخبئين. راحت تراقبه، عضلاته حيوانات صغيرة ترتسم على ظهره. راحت تراقبه وهو يتحرّك، أرادت أن تقبّل ذلك الظهر، هاتين الذراعين، الكتفين. رأته يرفع عينيه فرآها.

العينان، العينان السوداوان. لا تريان وتريان.

قالت شيئاً لتهرب من تلك النظرة لكنّها ظلت واقفة. ماذا يدور في خلده، لم تعرف قط. سألته مرة، فقال إنه لا يعرف. ثم خُيّل إليها أنه مرغوب. إنه وسيم. لم تحب ذلك أيضاً. أحسّت أنه شديد الثقة بنفسه، يعرف أشياء كثيرة - شيء آخر أدركته لاحقاً كانت مخطئة حوله. المعرفة واللا معرفة.

إنه دقيق حتى الكمال

عندما رآها لا تزال تحدّق به، أشاح بعينيه عنها وأطرق، احمرَّ وجهه.

كانت تتوق لأن تعرف كلّ شيء عنه، لأن تخبره كلّ شيء عنها. لكن من هي؟ لقد أتت من سيدني مع صديقة لها لزيارة عائلة في أديليد، ولم تعد، ثم حصلت على عمل كنادلة في مشرب فندق ملك كورنوال، حيث تعرفت على كيث مولفاني. إنه رجل مملّ، لكنه لطيف بطريقته، وقد حدثت أشياء كثيرة، ومن هي؟ ابنة رسّام إعلانات ولافتات في بالمين مات وهي في الثالثة عشرة من العمر، واحدة من سبعة أطفال شقّوا طريقهم بأفضل ما بوسعهم. لم تلتق قط برجل مثل دوريغو.

هل الأرضية أكثر إثارة مني؟ قالت.

لماذا قالت ذلك؟ إنها امرأة شرّيرة، إنها امرأة مخزية؛ كانت تعرف ذلك، وفي بعض الأحيان كانت تقول إنه حتى لو عرف العالم كله ذلك، فلن تأسف حتى لو كانت على فراش الموت. لن تأسف على شيء. ناولته قميصه.

لا ، قال.

ابتسم. ابتسامته، عضلة ذراعه تتحرّك مثل كرة إلى الوراء وإلى الأمام تحت جلده وهو يتناول المنشفة منها، ودفن ابتسامته فيها. تتحرك ولا تتحرك.

لكنها قالت لنفسها إنه يبدو غير واثق. كلّ الرجال كذابين ولا ريب فإنه لا يختلف عنهم - لسان واحد فقط وحكايات أكثر من حظيرة كلاب ضالة. لقد رأت الكثير، وسارت في كلّ اتجاه. اشتهت أن تضع قضيبه الرائع في فمها الآن، أمام جميع الموجودين في غرفة الطعام في الطابق السفلي. إن ذلك سيضيف قليلاً من القشطة إلى قهوتهم.

فجأة تمنّت أن يختفي. أرادت أن تطرده، وكانت ستفعل ذلك، لكنها خافت مما قد يحدث لو لمسته.

دوري؟

السؤال والرغبة.

لا يمكن أن يكون، وهكذا كان، وتساءلت هل سيتلاشى هذا الشعور، هذه المعرفة، هذا النحن.

دوري؟

نعم.

دوري، هل يء؟

يء، ماذا؟

هل يخيفك، قالت أيمي، إذا قلت أحبّك.

لم يحر دوريغو جواباً واستدار، بينما أخذت أيمي تبحث في غطاء السرير الأزرق عن خيوط القطن المنسلة، تسحبها.

آه، إنها امرأة شرّيرة وقد كذبت على نفسها وعلى كيث، لكنها لم تندم على شيء. إنها لا تريد الحبّ. إنها تريده هو نفسه.

مع أن الوقت كان لا يزال في الصباح، عادا واستلقيا معاً على السرير الذي أعادت ترتيبه. جاست يده فوق ثدييها، وشكّلت يده عشّاً تحت ذقنها. مرر أنفه إلى أعلى وأسفل عنقها. تحركت بتثاقل. شفتاه مفتوحتان، عنقها يعلو.

لا، قال.

عندما غطّ في النوم، نهضت واقفة على قدميها، تعثّرت، استعادت توازنها. تمطّت وخرجت إلى ظلّ الشرفة. على الشاطئ من بعيد كان هناك أطفال يصرخون بين الأمواج. كانت الحرارة أشبه بقوة أمومية، تطلب أن تجلس. جلست هناك طويلاً، تنصت إلى صوت الأمواج وهي تتكسر. عندما شعرت أن الظلّ بدأ يقصر فوق ساقيها الممدودتين، نزلت أخيراً الطوابق الثلاثة إلى الغرفة التي تقيم فيها مع وزوجها.

كانت تشم رائحة دوريغو في كل مكان، حتى بعد أن استحمّت. لقد عطّر عالمها. استلقت على سريرها الزوجي وغطت في النوم حتى بعد الغسق، وعندما استيقظت، كان هو كلّ ما استطاعت أن تشمّه.

- ٢٢ -

بدأ دوريغو إيفانز يمضي مع أيمي جميع الإجازات التي يحصل عليها، سواء أكانت لمدة نصف يوم، أم ليوم كامل أم لأيام أو ليال عديدة. ووجد وسيلة نقل جديدة وهي شاحنة مخبز صغيرة من طراز أوستن كان أحد زملائه الضباط قد فاز بها في لعبة ورق. وكان هذا الزميل يعير دوريغو سيارته بسعادة كبيرة كلما أراد استعارتها. وكان كيث يجد متعة كبيرة في زيارات دوريغو ويقول إنه سعيد جداً لأن دوريغو يكون بصحبة أيمي عندما يسافر لأداء التزاماته ومهامه العديدة التي بدا أنها أصبحت تتكرر دائماً مع تقدم الصيف.

أصبحت الحياة التي يمضيها دوريغو في فندق ملك كورنوال والتي تقاس بالساعات والتي لم تتجاوز بضعة أسابيع، تبدو أنها الحياة الوحيدة التي كان يعيشها. وكانت أيمي تستخدم عبارات من

قبيل: *عندما نعود إلى حياتنا الحقيقية، عندما ينتهي الحلم*، لكن تلك الحياة فقط، تلك اللحظات التي كان يقضيها معها فقط هي التي كانت حقيقية بالنسبة له. أما جميع الأشياء الأخرى فلم تكن سوى وهم يتجاوزه مثل ظلّ، بلا مبالاة، بدون ارتباط. ولم يكن يغضب إلا عندما كانت تلك الحياة الأخرى، ذلك العالم الآخر، يريدان النيل منه، وجعله يتصرف أو يفكّر بشيء، أيّ شيء، سوى أيمي.

ولم تعد حياته العسكرية التي استغرقت كل حياته في الماضي، تثير أدنى اهتمام فيه، ولم تعد تثيره. وعندما كان ينظر إلى المرضى، لم يكن يراهم سوى نوافذ يرى أيمي من خلالها، ولم يكن يرى أحداً سواها. وأصبح كلّ جرح، كلّ شقّ، كلّ عملية، وكلّ قطبة يخيطها، تبدو له غير متقنة، خرقاء، عديمة الجدوى. وحتى عندما يكون بعيداً عنها، كان يراها، يشمّ رائحة عنقها الذي تتضوع منه رائحة المسك، يحدّق في عينيها البراقتين، يسمع رنين ضحكتها بصوتها المبحوح، يمرر إصبعه في باطن فخذها المكتنز قليلاً، يحدّق في الجزء غير المكتمل في شعرها؛ في ذراعيها الممتلئتين باكتناز أنثوي غامض، ليس مشدوداً ولا مترهلاً، لكنه كان رائعاً ومدهشاً بالنسبة له. كانت عيوبها تتضاعف كلما نظر إليها وكان ذلك يثيره باستمرار. كان يشعر بأنه مستكشف في أرض جديدة، حيث كان كلّ شيء مقلوباً رأساً على عقب، لكنه كان الأكثر روعة بالنسبة له.

كانت تعوزها تلك الأشياء المتناسقة العديدة التي جعلته يعجب بإيلا التي كانت تشبه نجمات هوليوود. كانت أيمي أكثر اكتنازاً، فيها قدر أكبر من اللحم والدم. عندما يبتعد عنها، كان يحاول تذكر أكثر عيوبها المثالية، يتذكر كيف كانت تثيره وتبهجه، وكلما فكّر بها أكثر، ازداد حبه لها. تلك الشامة الجميلة القابعة فوق شفتها، ابتسامتها الخلابة بأسنانها البارزة، الصعوبة الطفيفة في مشيتها. إذ كانت

تتمايل مستغرقة في التفكير حتى تكاد تبدو أنها تتبختر، كأنها تحاول أن تتحكم بشيء يتعذر التحكم به، تدّعي الرزانة دون أن تكشف أيضاً عن شيء هو في الوقت نفسه مزيج من أنثى وحيوان. ولم تكن تكفّ عن شدّ بلوزتها لا شعورياً، تشدّها إلى الأعلى لتغطي شقّ صدرها، كما لو أن ثدييها، لو لم تفعل ذلك، كانا سيقفزان ويهربان منها في أي لحظة.

يتذكّر كيف أنها كلما حاولت أن تتهرب وتخفي طبيعتها الحقيقية، ازدادت تمرداً في النظرة التي تجلبها. كانت كتلة متنقلة من التناقضات. ففي الوقت نفسه، يحرجها ويفرحها ذات الشيء الذي ينزّ منها. عندما كانت تضحك ينبعث منها صوت مثل قوقأة دجاجة، وكانت تتمايل عندما تتحرّك. كانت تمثّل له دائماً رائحة المسك وأنفاس البحر الهائج التي تهب عادة على شرفة الفندق، وتهزّ برفق الأبواب الزجاجية الكبيرة المشرعة. وفي السرير، كانت أحياناً تتلمس بيدها أجزاء من جسدها، وتحدّق في ردفيها أو في فخذيها بحيرة غريبة: كان جسدها يشكل لغزاً كبيراً لها وله أيضاً. كانت تصف نفسها بأنها هيئة مليئة بالعيوب - شكل ساقيها، عرض خصرها، شكل عينيها.

في البداية لم يصدّق مشاعرها تجاهه، ثم رفض أن يعتبرها شهوة. وأخيراً، عندما لم يعد بإمكانه إنكارها، بدأ يزداد دهشة وحيرة من شدة حيوانيتها وقوّتها وشراستها التي قلما يمكن تصديقها. وإذا أحسّ بأن قوة الحياة هذه ضخمة وعصية على التفسير أحياناً على رجل لا يقدّر نفسه عالياً مثل دوريغو إيفانز، كان يعترف بأنها لا ترحم، لا يمكن تغييرها، محتومة، وساحقة، فيستسلم لها.

اجتاحتهما الشهوة بلا هوادة. أصبحا متهوّرين. كانا يستغلان أيّ فرصة لممارسة الحبّ، ينتهزان أي مكان معتم ودقائق قد تؤدي

إلى اكتشافهما بغتة. يتحديان العالم بأن يراهما ويعرفهما على حقيقتهما. كانا يتقصدان ذلك جزئياً، يريدان ذلك جزئياً، يتفاديان ذلك جزئياً، ويخفيانه جزئياً، لكنهما كانا يجدان دائماً إثارة كبيرة في القيام بذلك. كانت أمواج المحيط تعلو وتتكسر على جدران فندق ملك كورنوال السميكة المشيّدة من الأحجار المائلة إلى اللون الأزرق. دأبهما في الداخل، التحام جسد أحدهما في جسد الآخر ببطء. جسداهما يلتحمان وينزلقان من العرق الذي يسيل منهما. مارسا الجنس على الشاطئ، في مياه المحيط، وبشيء من الصعوبة، في سيارة الكابريوليت في الشارع الخلفي لفندق ملك كورنوال، وفوق برميل بيرة كوبيرس في القبو البارد. وفي إحدى المرات مارسا الجنس في المطبخ في أواخر الليل. لم يكن يستطيع مقاومة قوة تيارها.

بعد مضاجعتها، يصبح مأخوذاً بوجهها الذي لا يبدي أي مشاعر، القريب منه كثيراً، الساهم بعيداً، ينظر إلى الأعلى، إليه وعبره وما وراءه. في أوقات كهذه تكون غارقة في النشوة. حاجباها مزججان مرسومان بدقة شديدة، قويان جداً. وتبدو العينان الزرقاوان اللاهبتان الفضيتان في ضوء الليل أنهما لا تركّزان عليه، بل تحدّقان فيه مباشرة. شفتاها المفترتان قليلاً، لا تبتسمان، بل تصدران أرقّ وألطف الأنفاس، فينحني فوقها ويدير خدّاه لهما ليحسّ بنسائمها الرقيقة تلامس بشرته، ليتأكد أن هذه ليست رؤية، بل إنها هي، هي التي على السرير معه. لم يكن يعرف بهجة، أو فخراً، بل دهشة. في غرفة الفندق المظلمة، خيّل إليه أنه لم ير ما هو أجمل من هذا.

ذات مرة، عندما غادر كيث إلى المدينة في وقت مبكر لحضور اجتماع، جاءت إلى غرفته في الصباح. تحادثا، وعندما همّت بالمغادرة، عانق أحدهما الآخر، وتبادلا القبل، وارتميا على

السرير. ساقاها تفيضان فوق السرير، وهو نصف واقف، نصف جاثم، ولجها. وعندما نظر إلى وجهها، بدا له أنها لم تكن هناك، بل حتى أنها لم تكن تشعر به.

ازدادت عيناها لمعاناً وازدادتا إشراقاً لكنهما لم تكونا تركزان على نحو غريب. كانت شفتاها منفرجتين بشكل يمكن أن تتسلل منهما أنفاسها الرقيقة، شلال قصير متكرر من التنهدات، جزئياً استجابة له، وجزئياً استجابة لنشوة تخصها هي وحدها فقط. أخافه وجهها الساهم، كما لو أن كلّ ما تريده منه حقاً هو إلغاؤه، نسيانه، وشغفهما لا يمكن أن يؤدّي إلّا إلى محوه من العالم. كما لو أنه كان مجرد عربة تمتطيها لتصل إلى مكان آخر، بعيد جداً، لا يعرفه أبداً، فيعتريه إحساس بالاستياء المملّ بعد قليل. وعندما أمسكته بقوة وشدّته إليها بعنف، فهم أنّ جسده يقوم بالرحلة نفسها على نحو ما. تساءل هل تظن أن كلّ هذا هو؟ لم يكن هو. كان لغزاً بالنسبة له أيضاً.

وهكذا استمر، ذلك الصيف الذي لا ينتهي أبداً، ثم انتهى مثل سيارة راكبي المتعة تحطّمت في ليلة الأحد التي أخبر فيها كيث أيمي بأنه يعرف، وبأنه كان يعرف دائماً.

- ٢٣ -

بدأ كيث مولفاني من البداية، وكان من الواضح أن شيئاً لم يفته. راح يقود السيارة أبطأ مما يقود عادة، لأنه بعد تطبيق قوانين التعتيم، لم تكن هناك مصابيح تنير الشوارع، ولم تعد ترى أضواء منبعثة من البيوت، وكانت أضواء السيارات كلها مجللة بأغطية مثقبّة.

أعرف، قال. كنت أعرف منذ البداية.

ارتجّت أرضية السيارة تحت قدمي أيمي. حاولت أن تذيب نفسها في اهتزازاتها، لكن بدا أن هذه الاهتزازات تقول لها دوري - دوري - دوري. لم تجرؤ على أن تنظر إلى زوجها، بل راحت تحدّق إلى الأمام في عتمة الليل.

منذ البدء، قال، عندما جاء إلى المشرب يسأل عنّي.

بدت الأميال تمرّ بين الجمل. بدا أن السيارة ضاعت في سواد صاخب لانهائي. بذلت كل ما بوسعها لأن تبعده عن تفكيرها، لكن كلّ ما شعرت به هو الحزن المنبعث من كيث، حزن بدا أنه يُفرغ العالم. ومع أن السيارة كانت ترتجّ وتصدر أنيناً رتيباً، كان كلّ ما يلفّها هو الصمت والخلوة والسكون الأكثر فظاعة. لم تعرفه هكذا إلا منذ أن ماتت أخته المحبوبة بالسلّ في الصيف الماضي.

ربما كان ذلك أيضاً أحد أشكال الحزن، قالت لنفسها. لا توجد بهجة، لا دهشة، لا ضحكة، لا طاقة، لا ضوء، ولا مستقبل. الأمل والأحلام هي رماد بارد متخلّف عن نار ميتة. ليس هناك حديث أو جدال. فماذا يمكن أن يقال؟ إنه الموت. موت الحبّ، قالت أيمي لنفسها. إنه يجلس هناك، ينحني إلى الأمام، خيوط عديدة مشققة من اليأس تبرز من كيس فيه ثياب غير متطابقة: سروال فضفاض بني اللون، وقميص قطني أخضر، وربطة عنق صوفية طينية اللون.

أظن أن ذلك صفاقة، قال كيث.

اعترضت أيمي مولفاني بكل ما بوسعها دون أن تقول الحقيقة، بأن الحقيقة هي أنه لم يجر شيء آنذاك. قالت إنهما كانا حينذاك غريبين، مجرد لقاء عابر في المكتبة كانت، كما ذكّرت كيث، قد حدّثته عنه، وأن ذلك حدث بعد عرض للأزياء، وأكدت له أنه لم يحدث شيء.

لا شيء؟ قال كيث مولفاني. إبتسم ابتسامته المعهودة، ابتسامة

أشعرتها بالخوف والخجل. ألم تتقلص معدتك. تابع قائلاً، ألم تشعري بالإثارة أو التوتر وأنت تتحدثين معه؟

لم ترغب في أن تكذب، لم تنبس بكلمة، وهي تدرك أن السكوت اعتراف يدينها، لكن الكلمات ستكون أسوأ قليلاً.

إني أعرفك جيداً يا أيمي. وأعرف أنّك كنت.

كيف عرف؟ تساءلت. كيف عرف وهما لم يعرفا؟ وعلى الرغم من ذلك فهو يعرف.

لو كان رجلاً آخر، لظنت أنه يخدعها. أما كيث مولفاني فقد كان صريحاً، وله علاقة مؤسفة مع الحقيقة جعلتها تخسر منذ أن التقت دوريغو. لم تكن تقول ما يخطر على بالها بسرعة، بل ربما كانت تفكر بما ستقوله ثلاث أو أربع مرات، بعد أن تختبر كلّ الأخطاء وتدقق العيوب. أما كيث، فكان يقول ما يخطر على باله مباشرة. إنه يعرف، يعرف دائماً، وهو يحمل معرفته الفظيعة كما يفعل أشياء كثيرة أخرى، بصمت، بصبر، بلا تذمر، حتى تلك الليلة، عندما عادا من زيارة إلى بيت روبرتسون، عندما انفتح شيء في السواد أمامه، ولم يعد قادراً على حمله أكثر.

ظل زواجهما مريحاً طوال الصيف - ربما عندما فكّرت أيمي في الأمر، بل ازداد. كان يبدو أشبه بالكنبة من طراز الملك إدوارد التي رفض أن يبدّلها بعد زواجهما: مترهلاً، مريحاً إذا جلس المرء في البقعة الطرية ولم يجلس في البقعة الصلبة. لم يكن أنانياً وكان لطيفاً. لكنه لم يكن دوريغو. وبدأت تجد الأمر يزداد صعوبة لخداع نفسها بأن هذا هو الحبّ. أحست بأن زواجهما يذوي. عادت إلى وجوده، إلى سريرهما ذي الشرشف القطني الأصفر الرقيق بحوافه المخملية الذي كانت تطويه في الليالي الحارة، بمودة وبهدوء، لكنها كانت تخبئ حياة داخلية، اضطراباً ينقلها إلى مكان آخر.

كانت تعتريها أحياناً رغبة شديدة في أن تجثو على ركبتيها وتعترف. إثمها الذي كانت تستطيع أن تعيش معه في النهار، وكان في الليل، وكان في ساعات الصباح الأولى، يقبض على معدتها ويطبق بقوة على صدرها فيصبح تنفسها بطيئاً لا تتحمّل ثقله الذي يسحقها. لم تكن تريد غفرانه، بل مجرد التوفيق النقي بين حقيقتها وحياتها، وبعد أن تفعل ذلك، فإنها ستنهض وتستدير وتغادر بلا رجعة.

- ٢٤ -

مع أن أيمي كانت تستمتع بالإطراء والاهتمام الذي كان يغرقها بهما والهدايا التي يغدقها عليها صاحب الفندق العجوز، الملتحي، خلال الشهور القليلة الأولى من عملها في فندق ملك كورنوال. ولعلها كانت تشجعه على عمل ذلك لا شعورياً - لكن ذلك بدأ يزعجها أيضاً. ففي إحدى الليالي، وبعد أن أُغلق المشرب، وجدت نفسها مع كيث وحدهما. كانت قد تقصدت ذلك لأنها خمّنت أنها اللحظة المناسبة لتخبره بلطف بأن عليه أن يتوقف عن إبداء اهتمامه السخيف بها، وأن ذلك لم يفضِ ولن يفضِ إلى شيء. لكنها بدلاً من أن تفعل ذلك، وجدت نفسها تضيع في متاهة من المداعبات واللمسات. لم تعرف متى أو كيف تتملص منه، لكن بدا لها أخيراً أن من الأسهل لها والأكثر حكمة أن تسايره وأن تنتظر لحظة مناسبة أخرى لتقول له ذلك.

وشيء، كما كانا يفعلان أحياناً، لم يؤد إلى شيء آخر، بل حطّم عالماً.

بعد أن أجهضت غمر كيث إحساس بالذنب وبدأ يفكّر بالزواج

منها. كانت أيمي مضطربة تائهة غير قادرة على اتخاذ أيّ قرار، وبذل كيث كل ما بوسعه حتى يجلبها تماماً إلى عالمه وإلى عالم الفندق الذي كرست جلّ وقتها للعمل فيه. لكن على العكس من ذلك، بدا اقتراحه بالزواج - في حقيقته ومدى احترامه - المنفذ الوحيد للورطة. قالت لنفسها إن الخلافات التي بدأت تبدو جلية، ربما لم تكن تزيد أو تقل عن الخلافات التي تحدث بين الأزواج الآخرين عادة.

لكن ربما لم يكن الأمر كذلك، فقد بدأت تكتشف فيه رجلاً لطيفاً، كريماً، حنوناً. وللمرة الأولى في حياتها، أصبحت تشعر بالأمان وأصبحت لديها ثروة متوسطة. ولقاء الفرق في عمريهما - حوالي سبعة وعشرين سنة - منحها كيث قدراً من الحرية في أن تأتي وتذهب كما تشاء، ولم تكن جاحدة. لا، لم يكن الأمر جحيماً.

عرفت أن هناك أشياء كثيرة يمكنها أن تحبها في كيث. صحبته جميلة ومعاملته لها جيدة. كان يحرص دائماً على أن يكون الفندق في حالة جيدة، وكان يوفر لها احتياجاتها، ويحرص على تلقيم النار بالحطب في الشتاء، وتزويد المطبخ بالثلج في الصيف. كان يحيطها برعايته واهتمامه. كانت تشعر بأنّها موجودة كما كان الفندق موجوداً بالنسبة له، كجزء من حياته التي لها احتياجات يجب تلبيتها. كان يهتم بكلّ هذه الأمور، لكن لم يكن لديه شغف رئيسي بها. وبغية ملء فراغ حياتهما، انهمك في العمل بالفندق، وكان يمضي ما تبقى من وقته في العمل سكرتيراً في عدّة نواد رياضية، ونائباً في مجلس المدينة. لكن أيمي كانت تريد أكثر من أن يوفر لها احتياجاتها، وأكثر من أن يوفر الراحة لها، ويلقم الموقد بالحطب، ويقدم لها الحليب المبرّد. كانت ترغب في أكثر من غطاء فراش قطني أصفر باهت مهترئ، يطوى بعناية شديدة حتى تتطابق الثنيات فوق بعضها.

كانت تريد شيئاً من الإهمال، المغامرة، شيئاً مجهولاً. إنها لا تريد الراحة، بل تريد الجحيم.

في بعض الليالي، كان يضطجع فوق ظهرها، يداعب ردفيها، فخذيها. كانت تحسّ بيده تجوس فوق صدرها وهي تفكّر بعنكبوت هانتسمان سمين. ثمّ تجوس تلك الأصابع بين ساقيها لإمتاعها. لكنها لم تكن تستجيب له قط. فوجدت أن أفضل طريقة للتجاوب مع اهتمامه ومداعباته هي ألّا تفعل شيئاً وتظل ساكنة، لا تبدي مقاومة ولا قبولاً. وعندما كان يضع ساقاً هنا، وعندما يلجها هناك، كانت تجاريه فقط، لا تقول شيئاً، لكنها كانت ترفض قبلاته باستمرار. كان فمها لها هي وحدها.

كان ذلك يثير غضبه أحياناً، فيمسكها من ذقنها، ويدير وجهها نحو وجهه، ويمرر شفتيه فوق شفتيها، ويتلوّى لسانه كالأفعى على فمها المزموم، ذهاباً وإياباً - كانت تتخيّل أنه يلعق قفل باب - ثم يترك وجهها، وتندّ منه أحياناً تأوهة، خوار حيواني مرعب غريب.

ومع الزمن، بدأ يذعن لشروطها. وفي النهاية، كانت تلقي الشرشف جانباً، ومن دون أن تقول له شيئاً، أو تبدي أي إيماءة أو حركة، تتوجّه إلى الحمّام مشحونة بالغضب.

كان يؤلمها أن تجرح مشاعره، لكنها كانت تشعر بأنها صادقة. وإذا كانت تتركه يشعر كالوسخ، الوحل، شيئاً حقيراً مقرفاً، فثمة سبب لذلك، سبب غريب، متناقض. كانت تريده فجأة أن يعرف وأن يعرف كلّ شيء، وفي الوقت نفسه، كانت تبذل كل ما بوسعها لإخفاء علاقتها بدوريغو عنه وتبقيها سراً كي لا تجرح مشاعره. كانت تريد أن تحدث أزمة بينهما تنهي كلّ شيء. لم تكن تريد أن يتغيّر شيء. كانت تريد أن تستفزه وفي الوقت نفسه لا تريد أن يُستفز.

وعندما كانت تعود إلى السرير، لا تلمسه ولا تكلّمه، بل تستلقي

على السرير مولية له ظهرها. كان ينحني فوقها يحاول تقبيل جبهتها عدة مرات، ربما في ذعر، ربما رغبة في الحصول على إشارة، على تأكيد بأنه لم يرتكب خطأ، بأنها تحبّه، بأنّها تشعر به كما يشعر بها. لكنها لم تكن تبدي أي استجابة.

كانت أيمي تحسّ بجسده خلفها يلهث. كانت تعرف أنّ الحبّ ليس طيبة قلب، وليس سعادة. لم تكن بالضرورة أو دائماً غير سعيدة مع كيث، ولم تكن مشاعرها إزاء دوريغو تنم دائماً عن السعادة. بالنسبة لأيمي فإن الحبّ هو لمس الكون، انفجار داخل كائن بشري، وأن ينفجر ذلك الشخص في داخل الكون. إنه فناء، مدمر العوالم.

عندما استلقت على السرير وكيث ينشج بصمت وراء ظهرها، فهمت أنّ الحبّ لن ينتهي إلا بعد أن تتطهر كلّ قوّته في التعاسة، في القسوة، والمحو كما هي في الطيبة والبهجة. وفي كلّ ليلة، عندما تستلقي هناك، كانت تشعر بشظايا من الزجاج المكسور تمزق بطنها - تقطع وتقطع وتقطع.

- ٢٥ -

لم يكن هناك أحد تستطيع أيمي أن تحدّثه عن أمور كهذه. يجب أن يكون الحبّ علنياً، قال السيد روبرتسون عندما كانت هي وكيث يلعبان لعبة «الخمسمائة». وها هما الآن في طريق عودتهما إلى البيت. وإلا فإنه لا يعتبر حبّاً يجب أن يكون الحبّ متبادلاً أو أنه يموت.

اعتاد كيث وأيمي على لعب الورق مع السيد روبرتسون وزوجته في ليلة أول يوم أحد من كلّ شهر. وكان الحديث يدور عن فضيحة انتشرت في تلك الأيام عن محام مشهور هجر زوجته من أجل ابنة

طبيب. فشاعت قصص كثيرة عن زوج هجر زوجته بطريقة بشعة وعن قصة زنا مقززة. لا شك أن اللاعبين كانوا متعاطفين كثيراً مع الزوجة التي هجرها زوجها، وقالوا إن الزوج الذي يجد شريكاً آخر يجب أن يكون موضع احتقار وسخرية، ويجب نبذه.

كانت أيمي تتوق إلى تلك النهاية المثيرة. لكن بدلاً من ذلك، بدأت الأمور تنزف. راحت تنزف وتنزف ولا تتوقّف عن النزيف. أدركت أنه لن تكون هناك نهاية مثيرة، بل مجرد ذبول بطيء، تماماً كالنهاية البائسة التي لحقت بأخت كيث بعد أن أصيبت بالسلّ. نزيف ومزيد من النزيف.

كانت هناك أسئلة كثيرة تريد أن تسألها، أن تعرفها. هل ترون ذلك حقاً؟ كانت تتمنى أن تسأل. هل الحبّ الذي يدور في السر ليس حبّاً؟ هل مقدّر له ألّا يكون له وجود؟ ألا يتوقّف عن النزيف حتى يذوي ويموت؟

تملكتها الرغبة في أن تقلب الطاولة التي يلعبون عليها وتبعثر أوراق اللعب ويذروها الرياح. اعترتها الرغبة في أن تقف وتسألهم هل يؤمنون بما يقولونه. أجيبوني، كانت تريد أن تقول. ألا يمكن أن يكون الحبّ الذي لا يسمى حبّاً هو حبّاً أيضاً؟ ألا يمكن أن يكون حبّاً أعظم؟ *أنا أحبّ رجلاً آخر*؛ أرادت أن تقول لهم جميعاً. عندما تناثرت الأوراق على الطاولة، تبين أن كلّ نقطة رابحة ما هي إلا تمثيلية عديمة القيمة. أرادت أن تقول لهم إن الرجل الآخر هو رجل رائع، وأنها حتى لو لم تره لثلاثين سنة أخرى فإنها ستظل تحبّه، وأنها ستظل تحبّه حتى لو مات وحتى تموت هي أيضاً.

لكنها بدلاً من أن تقول ذلك، راحت تنظر إلى هاري روبرتسون الذي يلعب جيداً، وكيف أنه هو وكيث اللذين يلعبان دائماً شريكين، يربحان.

ما أسهل الغشّ، قالت إلسي روبرتسون، وهي تجمع الأوراق وتخلطها للعب جولة ثانية. إنه أمر مثير للشفقة. لا يتطلب الأمر إلا الكذب وإساءة الثقة.

خُيّل إلى أيمي أنّهم يتحدّثون عن الحبّ. الخيانة ليست سهلة، قالت أيمي لنفسها. إنها صعبة؛ صعبة جداً، جداً. إنها ليست ضعفاً في الشخصية. إنها هكذا، حتى أنها لا تعتبر غشاً. لأنك لو كنت صادقة مع نفسك، أليست الخيانة الحقيقية هي التمثيلية التي كنت تلعبينها مع زوجك؟ أليست هذه، الخيانة الحقيقية، هي التي يريدها العالم والسيد والسيدة روبرتسون ويقرانها؟

كانت تنتظر إشارة، فكرة، كلمات من امرأة أخرى تشير إلى أنها ليست الوحيدة في ذلك. لكنها لم تر تلك الإشارة. كان دوريغو قد أخبرها في عصر ذلك اليوم بأن كتيبته ستتحرك يوم الأربعاء، وأنه قد يلقى حتفه، أو أنه قد يعيش لكنه لن يعود إليها أبداً. تذكّرت ما كان قد قاله عن الإغريق وعن أهالي طروادة - هل سينتصر الإغريق ثانية؟

وتساءلت: هل إن حبّها العظيم لا يعتبر حبّاً؟ ولماذا إنها، عندما أحسّت بأنها بدأت توجد من خلال شخص آخر فقط، بدأت تشعر بذلك الخواء الفظيع؟

كانت أيمي تعرف هذا القَدَر: بأنها ستكون وحيدة.

عندما غادرا في ذلك المساء، وجدت أيمي كيث هادئاً على غير عادته. فهو عادة ما يكون ثرثاراً، لكنه لم يعد يتحدث كثيراً مؤخراً، ولم يكد يقول شيئاً عندما انتهى اللعب. بدا أن الحزن الذي ينبع من كيث يُفرغ العالم. حاولت أن تبعد أفكارها بالنظر من نافذة سيارة الكابريوليت التي كانت تصدر قرقعة، ضوضاء الطريق، وصوت هدير محركها. لكن كلّ ما كانت تدركه هو انكفاء كيث إلى داخله بعمق، وظل صوت القرقعة والهدير هو وحده المسموع.

لقد انتهى السحر، قال.

سيدرك المجلس أهمية ما تقوله، قالت أيمي، مشيرة إلى حديث كان دار في وقت سابق في ذلك المساء.

المجلس؟ قال كيث، ورمقها كما لو كان بقالاً، وهي مجرد زبونة دخلت إلى محله وطلبت منه كيساً من الحسّ السليم. لا علاقة للمجلس بذلك، قال، وعاد ينظر إلى الطريق.

وعلى الرغم من أنها تعرف بأن عليها ألّا تفعل ذلك، قالت بابتسامة ومن له علاقة إذن؟

إنها أكذوبة صريحة. كلّ شيء أصبح مجرد أكاذيب.

لوهلة، التفت كيث إليها. لم تكن ترى بوضوح في الظلام، لكنها أحسّت بأنه يحدّق فيها، لا بغضب، وهو أمر قد يكون مفهوماً، ولا باتهام، وهو أمر قد يكون مساعداً، بل بحكم فظيع لم تتمكن من تحاشيه لأنه استمر يحدق فيها - بحنان، برعب، بألم لم تتمكن من إخفائه وقد خشيت أن يبقى معها إلى الأبد. فجأة اعتراها خوف شديد.

لم أكن أعرف، هل كنت تعرفين؟ قال. ليس حقاً.

لم تستطع أن تحبّه، قالت لنفسها. إنها لا تستطيع، يجب ألّا تحبّه، ولا يمكنها أن تحبّه أبداً.

تابع قائلاً دون أن يرفع صوته: كنت آمل أن أكون مخطئاً، وأن تبرهني لي كم أنني رجل عجوز غيور فظيع عندما أفكّر في مثل هذه الأمور الفظيعة، وأن تجعليني أشعر بالخجل من التفكير بذلك. لكني الآن أشعر بالخجل. لقد أصبح كلّ شيء... *واضحاً*.

لبضع لحظات، بدا مستغرقاً في التفكير، في الحسابات، وفي بعض حساب الخيانة، ثم قال بغموض وببطء -

وعندما تخبريني بشيء، فإن ذلك كما لو أنّ... كما لو أنّ...

ثم عاد ينظر إلى الطريق.

كان ذلك مثل سماع صوت طقطقة زند البندقية بعد إطلاقها.

أرادت أن تضمه إليها، لكنّها لم تفعل ذلك.

ربما كان عليّ أن أفعل شيئاً، أن أقول شيئاً، تابع كيث، لكنني شعرت، حسناً، ماذا يمكنني أن أقول؟ إنهما متقاربان في العمر، قلت لنفسي؛ بقدر ما، فأنا رجل أحمق بدين عجوز. كان عندي...

سكت. هل كانت عيناه مبللتين بالدموع؟ إنها تعرف أنه لن يبكي. إنه أكثر شجاعة منها، قالت لنفسها. والأفضل. لكنها لم تكن تريد الفضيلة، بل تريد دوريغو.

تساوره شكوك. نعم، قال كيث، بنبرة كأنه يكلّم الآنسة بياتريس القابعة في حضنه. وقلت لنفسي، حسناً، يا كيث، يا صديقي القديم، ليكن تواجدك نادراً عندما يأتي. قد يكونان معاً، سينتهي كل شيء، وستعود إليك. ومع ذلك لم يكن خطئي الأول.

تجاوزتهما شاحنة عسكرية. في الضوء الخافت القصير الذي أنار سيارة الكابريوليت، اختلست نظرة إليه. لكن وجهه، المظلّل، المتجهم، المحدّق بعيداً في شارع أديليد الطويل المستقيم، لم يشِ بشيء.

كان عليّ أن أدعك تحافظين على الطفل، قال.

زاد السرعة فاهتزت أرضية السيارة تحت قدمي أيمي. بدا أن اهتزازاتها تصرخ لها *دوري! دوري! دوري!*

أظن أني أظن، واصل كيث، أنّك. أنا. كان لسانه يتلعثم. كانت كلّ كلمة عبارة عن كون لانهائي لا يمكن معرفته. نحن، تابع كلامه.

أدركت في داخلها وجود تعاطف عميق تجاهه. لكن مع أن مشاعرها كانت قوية تجاهه، كان الحبّ هو الذي يغمرها.

لا يوجد شيء، يا كيث.

لا، لا، قال. طبعاً. طبعاً لا يوجد.

ماذا تريدني أن أفعل؟

تفعلين؟ تفعلين؟ ماذا يمكن عمله؟ قال. لقد تلاشى السحر.

لم يحدث شيء، كذبت مرة ثانية.

نحن، قال واستدار إليها. نحن؟ سأل. لكنّه بدا غير متيقن، خاسراً، مهزوماً مثل فرنسا. يمكننا. يمكننا أن نكون شيئاً. نعم، قال كيث.

نعم، قالت.

إننا نستطيع. لكننا لا نستطيع. أليس كذلك يا أيمي؟ لقد قتلتُ الطفل وهو قتلنا.

- ٢٦ -

في صباح يوم الإثنين كان دوريغو إيفانز يتهيأ لمشاركة الجنود في السير نحو تلال أديليد عندما دُعي إلى إدارة الكتيبة لأنه تلقى هاتفاً عاجلاً من أسرته. كان مكتب إدارة الكتيبة يتألف من كوخ ضخم من الحديد المتموّج يعمل فيه ضباط الأركان في درجات حرارة لا توجد إلا في المخابز وأفران صنع الفخار. كانت الحرارة الجهنمية محصورة، وما زادها اختناقاً تقسيم الكوخ إلى مكاتب يستحيل العمل فيها، تفصل بينها جدران مصنوعة من خشب الماسونيت المضغوط المطلي بلون الخردل الداكن. ومن شدة الإحباط، بدا أن الجميع يدخنون أكثر، وتشكلت في الهواء سحابة

لا تنافسها إلا رائحتها - مزيج من رائحة دخان التبغ ورائحة العرق ورائحة نشادر فاسدة لحيوانات مكتظة - تجعل الجميع لا يتوقفون عن السعال.

كان الهاتف الذي سيتكلم منه دوريغو مثبّتاً على جدار قبالة مكتب الضابط المناوب، يمر من أمامه جميع الذين يريدون أن يخرجوا لأيّ ذريعة. وكانت أصوات النشاز المجنونة الناجمة عن ضرب مفاتيح الآلات الكاتبة وصوت حركة ذلك الجزء من الآلة الكاتبة لإعادته إلى البداية، ورنين الهواتف، وصراخ الرجال، وسعالهم، وخرخرة المراوح الكهربائية المتناثرة هنا وهناك التي تقطع الحرارة التي لا تطاق إلى خصلات حارة غير محتملة، تزيل أي إحساس بالخصوصية.

رفع دوريغو سماعة الهاتف المصنوعة من البيكليت، وانحنى فوق السماعة المخروطية. سعل ليعلن عن وصوله. لوهلة، لم يسمع أي صوت، ثم جاءه صوتها الذي لا يمكن أن يخطئه، يقول كلمتين.

إنه يعرف.

أحسّ أنه يسقط في الكون، لا شيء يوقفه. جسمه كائن في مكان أوطأ بكثير، معلق بسماعة مرتبطة بسلك يمرّ عبر أسلاك أخرى على الطريق الممتد إلى المكان الذي تقف فيه أيمي مولفاني في فندق ملك كورنوال. كان باستطاعته أن يرى جسمه مع أنه كان يدير ظهره للرجال الآخرين. سعل مرة أخرى، هذه المرة دون قصد.

ماذا؟ قال دوريغو، ولفّ يده حول طرف السماعة ليسمع أيمي بشكل أفضل وليتأكد من أن أحداً آخر لا يستطيع أن يسمع ما يقوله.

نحن، قالت أيمي.

مرر دوريغو إصبعاً بين ياقته المبللة ورقبته. كانت الحرارة لا تطاق. كان يأخذ أنفاساً طويلة ليحصل على هواء كاف.

كيف؟

لا أعرف، قالت. كيف، ماذا، لا أعرف. لكن كيث يعرف.

حدس دوريغو أن الشيء التالي الذي ستقوله أيمي هو أنها ستهجر كيث، أو ربما أن كيث سيلقي بها خارجاً. في جميع الأحوال، سيبدأ هو وأيمي الآن حياة معاً. كان يعرف كلّ ذلك، ويعرف أنه سيقول لذلك نعم - نعم، سينهي علاقته بإيلا لانسبري، ونعم، سيبدأ فوراً بترتيب أموره ليصبح هو وأيمي زوجين حقيقيين. وبدا له كلّ ذلك أمراً حتمياً، وكما ينبغي أن يكون.

أيمي، همس دوريغو.

عد، قالت.

ماذا؟

إليها.

أحسّ دوريغو أنه يهوي، عائداً إلى المكتب الشبيه بالفرن. كان يتوق إلى أن يحدثها في أي مكان إلّا هنا - في مكتبة يعلوها الغبار، على الشاطئ، في الغرفة القابعة في الزاوية التي بدأ يعتبرها غرفتهما، بأبوابها الزجاجية الكبيرة المتقشرة، والنسمات اللطيفة والشرفة ذات الدرابزين من الحديد الملفوف الصدئ.

عد إلى إيلا، قالت أيمي.

أجاب بشكل قاطع بطريقة تخلو من العاطفة بقدر ما يستطيع، يتكلم بكلمات متقطعة كي لا يفهم الضابط المناوب الجالس وراءه ما يقول.

ماذا تعنين؟ عُد؟

إليها. هذا ما أعنيه. يجب - دوري.

إنها لا تريد ذلك، قال لنفسه. لا يعقل أن تريد ذلك. لماذا إذاً

تقول ذلك؟ لا يعرف. تضرّج وجهه. أحسّ بأن حرارة جسمه ترتفع وضاقت عليه بدلته. تملكه غضب شديد. كان عليه أن يقول أشياء كثيرة لكنه لا يستطيع أن يقول شيئاً. أحسّ بالجدران بلون الخردل تطبق عليه، ثقل قماش الكاكي من حوله، الانضباط والقواعد والسلطة. أحسّ بالاختناق.

اذهب إلى إيلا، قالت آمرة.

كان جسمه يريد أن يهرب من غرفة كوخ نيسين الشبيهة بالفرن، ليهرب إلى -

أيمي، قال.

اذهب، قالت.

أنا -

أنا ماذا؟ قالت أيمي.

ظننت، أجاب، أن -

ماذا؟ قالت أيمي.

انقلب كلّ شيء الآن رأساً على عقب. كلما أرادها أكثر، أبعدته عنها. ثمّ قالت أيمي إنها تسمع وقع خطوات كيث، وأنها آسفة، وأن عليها أن تذهب. سيكون سعيداً، قالت.

وعلى الرغم من أنه لم يحسّ بالسعادة، شعر دوريغو إيفانز براحة هائلة غير متوقّعة. بعد لحظات، خرج من فرن إدارة الكتيبة، ولن يتملكه الاضطراب الساحق الذي يشبه الشلل الذي جلبته أيمي مولفاني إلى حياته؛ ومنذ الآن، سيكون بوسعه أن يعيش حياته بطريقته، بطريقة مستقيمة وصادقة مع إيلا لانسبري. عرف أنه سيكون حرّاً، وأنه لن يضطر إلى السباحة في دوامة الأكاذيب والخداع، وأنه سيكرس نفسه بقلب كامل لكي يحبّ إيلا لانسبري. لذلك، لم يفهم

قط لماذا قال آنذاك ما كان قد قاله، وأنه كان يقصد كلّ كلمة قالها. في جملة واحدة تخلّى عن تلك الحرية ومعها تخلّى عن ذلك الأمل المعقول ببناء أواصر الحبّ.

سأعود، قال دوريغو إيفانز. عندما تنتهي. من أجلك يا أيمي. وسنتزوّج.

كان يدرك أنه درب يقود إلى التعاسة لا بل إلى اللعنة. ما لم يفكر به قبل لحظة بدا الآن حتمياً، كما لو أنه لم تكن هناك أيّ وسيلة أخرى - لقاؤهما في المكتبة حيث كانت ذرات الغبار البرّية تتطاير حولهما، غرفة النوم بطلائها المتقشر والستائر الخاملة التي كانت نسمات المحيط تجعلها ترفرف، كوخ الصفيح الحار الذي يشبه مصنعاً لتدخين اللحوم. كانت سماعة الهاتف البيكليت مبللة من العرق الذي كان ينزلق من أذنه. ومضت لحظة أو لحظتان قبل أن يدرك أنها أغلقت الهاتف، ولعلها لم تسمع كلمة واحدة مما قاله.

يجب أن يراها - هذا كلّ ما فكّر فيه. يجب أن يراها. في إحدى الليلتين اللتين سيغادر فيهما يجب أن يتسلل بطريقة ما من الثكنة ويرتّب معها لقاء ليكلّمها.

لقد أُلغيت يا إيفانز، سمع صوتاً يقول له من خلفه. استدار فرأى ضابط أركان الفرقة ٢/٧ يحمل ورقة بيده.

كان عقل دوريغو في دوامة يفكّر كيف يمكنه أن يخرج من وارادال من دون تصريح، وأين يستطيع أن يجد عربة، وأين يمكنهما أن يلتقيا سرّاً.

سوف يستقل أفراد مركز إخلاء الجرحى في الفرقة ٢/٧ القطار إلى سيدني هذه الليلة. لدى وصولكم ستُبلغّون باسم السفينة التي ستنقلكم، وسوف تُبلغّون باسم المكان الذي ستتوجهون إليه في مكان ما في وسط المحيط الهادئ اللعين. لقد صدرت أوامر بإلغاء جميع

النشاطات المقررة، ويجب أن تكون مستعداً للمغادرة عند الساعة ١٧/٠٠.

بدأ عقل دوريغو يلفّ. بدأ يستوعب أهمية ما أخبر به.

لكنّي - ظننت أن ذلك سيكون يوم الأربعاء؟

هزّ ضابط الأركان كتفيه بلا مبالاة.

من الأفضل أن تبدأ الآن، إذا سألتني، قال له. أمامك خمس ساعات. رفع ضابط الأركان رسغه ونظر إلى ساعته وأضاف، أو أقل.

أدرك دوريغو أنه قد لا يرى أيمي ثانية. وبهذه المعرفة، عرف أنه يجب أن يعمل، أن ينفذ، أن ينام ثم ينهض ويعيش ويذهب الآن إلى المكان الذي ستأخذه إليه الحرب، دون أن تعرف روح أخرى ما يكنّه في أعماق قلبه.

- ٢٧ -

في تلك الليلة، بدا أن لا نهاية للحرارة اللاهبة. لكنها لم تكن تشبه حرارة الصيف الذي كان منذ سنتين. كانت الحرب طاحنة، وأضحت معظم الأسر على الساحل بلا آباء، وحلّت البدلات العسكرية محل البدلات المدنية أو القمصان بلا أردان لرواد المشرب الآن، وامتلأت أحاديثهم بكلمات وعبارات جديدة، يذكرون أسماء أماكن لم يكونوا قد سمعوا بها من قبل: العلمين، ستالينغراد، غوادالكانال. كان اليوم الحادي عشر لموجة الحر التي حلت، وكان المشرب يضج بالحركة كما كان يحدث في يوم السباق على الكأس قبل الحرب. رجل قتل زوجته بقضيب وعزا جريمته إلى شدة الحرارة. كانت أيمي قد عادت إلى البيت في وقت مبكر عندما جرحت زجاجة

بيرة مكسورة قدمها وهي تتمشّى في المساء على الشاطئ. غسلت قدمها في الحمّام، وضمّدتها، ثم دخلت إلى الغرفة التي تستخدم ردهة استقبال فوجدت كيث مولفاني يقف بجانب المذياع فأغلقه.

كانت حلقة جيدة هذه الليلة، قال كيث عندما تلاشت خشخشة المذياع. كنتِ ستحبّينها.

كانت أيمي تحبّ ذلك قليلاً، لكنها لم تعد تتحمل طقوس زوجها المنزلية، ناهيك عن هذه. استماعه بصمت مطبق للمسلسل الإذاعي الأسبوعي الذي يحبه - لا يتخلله سوى صوت إشعال عود الثقاب وصوت مجّ الغليون، وسيلان لعاب الكلبة - وأصبحت تتحاشاه الآن بقدر ما بوسعها. كانت تكره الاستماع إلى المسلسل الإذاعي ورؤية غليونه وحركاته التي تشي بأنه رجل عجوز. وأصبحت تكره الهواء الذي يجب أن تشاطره إياه، الهواء الخانق الذي لم تعد قادرة على تنشقه، الهواء المتعفن الذي تغرق فيه كلّ يوم.

جلس كيث في الكرسي ذي المسند، وقفزت الآنسة بياتريس إلى حضنه تلهث ويسيل لعابها بينما أخذ يحشو غليونه بالتبغ. وعلى الرغم من أن جميع النوافذ كانت مشرعة فقد ألفت أيمي الغرفة خانقة بعد أن تنشقت هواء البحر المنعش على الشاطئ. جلست. كانت قدمها تؤلمها. وجد نسيم البحر المسائي طريقه إلى الغرفة، لكن بدا أنه يزيد من رائحة مرهم البرليانتين العالق على غطاء الكرسي، ورائحة تبغ الغليون العفنة المتناثر على الأريكة الخمرية التي تذكّرها بالرائحة العفنة التي تنبعث من الكلبة فتجعلها ترغب في أن تخرج وتغادر بلا رجعة.

بعد انتهاء اجتماع المجلس الليلة، قال كيث مولفاني.

نظرت أيمي إلى الأسفل إلى شعر الكلبة على السجادة، وخشيت أن تسمع حكاية أخرى عن أعمال البلدية.

الموظف في المجلس، رون، قال كيث مولفاني، تتذكّرين رون.

لا، قالت أيمي.

طبعاً تتذكّرينه. رون جارفي. تتذكّرين رون جارفي.

لا.

قال رون غارفي إنه سمع أن أخبار رجالنا في جاوة سيئة للغاية.

رفعت أيمي عينيها. لم تنم ابتسامة كيث العريضة عن شيء - أحست أنها نظرة حالمة، نصف مخبولة. ومع ذلك، أدركت في تلك اللحظة أنه يرى دائماً أبعد مما تراه.

لم أسمع قط عن رون جارفي، قالت أيمي، مع أنها لوت وجهها كما يفعل كلب سلوقي صغير عندما رددت اسمه. هل يريد كيث أن يبرّر أسوأ الأشياء بأخبار جيدة؟ أشعل غليونه، وراح يمجّه حتى أصبح التبغ فحماً ناضجاً، ثم، ومن دون أن تتلاشى ابتسامته، انحنى إلى الأمام في كرسيه. أطلقت الآنسة بياتريس التي علقت في حضنه صيحة، وعدّلت جلستها وفق طيات بطن كيث.

قال كيث مولفاني، سألته أكثر من ذلك. قلت لرون، عندي ابن أخ، يدعى دوريغو إيفانز - هل تستطيع أن تجمع معلومات عنه أو عن وحدته. أعطيته بعض التفاصيل. حسناً، عاد البارحة. إن الأخبار يا أيمي ليست جيدة جداً.

وقفت أيمي، انتفضت، ومشت وهي تعرج قليلاً إلى إطار النافذة.

لا، تابع كلامه، إنها ليست جيدة جداً على الإطلاق. إنها محبطة في حقيقة الأمر. لذلك فهي سرية. إنهم يتكتمون عليها كثيراً.

وقفت بجانب النافذة. مع أن حرارة هواء الليل في الخارج كانت أقل مما هي داخل الغرفة، فقد ظلت الحرارة الخارجية تبدو

لها فظيعة، مخيفة. كانت تستطيع سماع الأصوات الخفيفة المقلقة لأشياء تجفّ، تتكسّر، أعشاب، أخشاب، والله أعلم ماذا أيضاً. كان صوت الحديد المتموّج على السطح يتألم وهو يتقلّص من شدة الحرارة ويصدر أنيناً عالياً. ضغطت بقوة على قدمها المجروح لتشعر بمزيد من الألم.

سيئة جداً؟ قالت أيمي مولفاني. ماذا يعني سيئة جداً؟ إنهم أسرى، إننا نعرف ذلك. واليابانيون وحوش. لكنّهم في مأمن.

تستطيعين إرسال رسائل إلى الأسرى الأستراليين في ألمانيا، ويمكنهم أيضاً أن يحصلوا على عطلة. أما الأسرى في آسيا، حسناً، إنها ليست صورة جميلة. فلا أخبار عنهم، ولا شهادات موثوقة. لا يوجد خبر حقيقي عنهم منذ استسلام سنغافورة. لم يُسمع شيء عن الوحدة التي يخدم فيها منذ تسعة شهور. يعتقدون أن آلاف الأسرى قد لقوا حتفهم هناك.

ربما. لكن لا يوجد دليل بأن دوريغو قد مات.

قيل لهم -

من أخبرهم؟ من قال ذلك؟ من، كيث؟

أنا... أجهزة استخباراتهم، أظن. أقصد -

من، كيث؟

لا أستطيع أن أقول. لكن رون... حسناً، إنه يعرف. أشخاص.

أشخاص؟

أشخاص في مراتب عالية. أشخاص في وزارة الدفاع.

صمت كيث مولفاني؛ بدا أن ابتسامته التي تمثل شبه قناع توحي بشيء آخر... شفقة؟ حيرة؟ غضب؟ ثم تابع بقوة حقودة.

ويتوقّعون أن الذين سينجون ليرووا ما حدث لهم هناك لن يكونوا سوى قلة قليلة.

أدركت أيمي أنّه تخلى عن عادته في طرح سؤال ليجيب عليه في الحال. لم يكن يحاول أن ينتصر في المناقشة. كان يحاول أن يخبرها بشيء. كان كما لو أنه انتصر للتو.

لقد كتب لنا، قالت أيمي، لكن كان بوسعها أن تسمع أن صوتها أصبح حاداً.

تلك البطاقة.

البطاقة، نعم. وكتب لك أخوه توم بأن عائلته في تسمانيا تلقت بطاقة أخرى بعدنا.

عرفت أن صوتها كان رقيقاً وغير مقنع حتى بالنسبة لها.

كانت البطاقة التي أرسلت لنا يا أيمي مؤرخة في أيار ١٩٤٢، ووصلتنا في تشرين الثاني. كان ذلك قبل ثلاثة أشهر. لم ترد منه كلمة واحدة منذ قرابة سنة. ولا كلمة...

نعم، قالت أيمي مولفاني. نعم، نعم. بسرعة، بالتأكيد، كما لو أن ذلك يثبت فكرتها ولا يلغيها.

ولا كلمة منذ ذلك الحين.

نعم، قالت أيمي مولفاني. ضغطت بقوة أكبر على قدمها الذي لم يعد يؤلمها كثيراً. لم تعد العادات والظروف والطمأنينة والأمن التي يوفرها الزواج تكفيها. إنها ستتركه. لكن ما إن خطرت لها هذه الفكرة المرّة، حتى اضطربت على الفور. كيف؟ أين؟ وكيف ستكسب رزقها؟

كانت البطاقة التي تلقتها أسرته في كانون الأول مؤرخة في نيسان. نعم يا كيث، قالت أيمي مولفاني. نعم، نعم، نعم.

انتفض جسمها. كانت تبحث عن كلمات تساعدها على

المحافظة على توازنها. لم تقل له إنها كتبت أكثر من مائة رسالة لدوريغو منذ أن سمعوا أنه وقع أسيراً. بالتأكيد، قالت أيمي مولفاني لنفسها، لا بد أن تكون رسالة منها قد وصلته.

وقال رون غارفي أيضاً إن تقارير ترد من مصادر أخرى. إنها ليست جيدة. تقول تلك التقارير إن الرجال أصبحوا جلداً على عظم وأنهم يتضورون جوعاً.

لم تذكر الصحف شيئاً من هذا القبيل.

لقد ذكرت. وقوع أعمال وحشية. مذابح.

هذه دعاية يا كيث، قالت أيمي مولفاني. لكي تجعلنا نكرههم.

على الرغم من أنها وضعت كلّ ثقلها على القدم المجروحة، فلم تعد تؤلمها كثيراً.

لو كانت دعاية، قال كيث مولفاني، فإنها دعاية سيئة للغاية.

لكن لا شيء آخر، لا متابعة.

إنها حرب يا أيمي. الأخبار السيئة ليست أخباراً. إنها تتلاشى. أعلن عن فقدان أفضل جزء من خمس الجيش الأسترالي، ولم يتم تتبع إلا قلة قليلة منهم بشكل موثوق.

هذا لا يعني أنه مات يا كيث. كأنك تريد أن يكون قد مات. إنه لم يمت. أنا أعرف. أنا أعرف.

أدركت أن نسيم البحر قد توقّف. حتى العالم يبذل كل ما بوسعه ليتنفس. خُيّل إليها أنها سمعت صوت خشخشة ورقة شجرة جافة من الخارج. سعل كيث. لم ينته بعد.

أجرى رون غارفي مزيداً من التحقيقات كرمى لي، قال وهو يجفف شفتيه بمنديل. سرّبها أحد الأسرى. لم يخبروا أسرهم بعد. أظن أنها الروح المعنوية الوطنية، وأظن أنهم ينتظرون الحصول على تأكيدات من خلال قنوات أخرى. الصليب الأحمر وما إلى ذلك.

يخبرون أسرهم بماذا يا كيث؟

أعرف أنك تريدين أن تعرفي يا أيمي. لا يمكنني أن أخبر أسرته - مع أنني لست في موقع يسمح لي بذلك في جميع الأحوال. إن ذلك يعد خرقاً للثقة. هذا إن لم نقل شيئاً عن الأمن القومي. هذا سر مصون بيننا.

لا يوجد شيء يمكن إخباره يا كيث. ماذا تريد أن تقول؟

أكّد الأسير الهارب بأن دوريغو إيفانز قد مات في أحد المعسكرات.

كانت أفكار أيمي بعيدة وغريبة. خطر لها أن كيث يحبّها، وهو شيء لم يخطر لها منذ أمد بعيد.

أيمي، صدقيني، لقد مات دوريغو. مات منذ ستة شهور.

انسكبت كلمات كيث مولفاني، صوته الطفولي، فوق بلاط أرضية الممر ذي المربعات السوداء والبيضاء.

كنت أعرف أنك تريدين أن تعرفي، قال.

جرت كلماته إلى المدخل الفارغ وجرت فوق الحصيرة الرثّة المصنوعة من جوز الهند تبحث عن أيمي. لكنّها كانت قد خرجت من الغرفة.

شعر كيث مولفاني بأنه إنسان قتل شيئاً ليأكل. أراد أن يقول شيئاً آخر، شيئاً صحيحاً ليبرّر الكذبة الفظيعة التي قالها الآن. أراد أن يقول: أحبّك، لكنه بدلاً من ذلك، صفّر للآنسة بياتريس لتقفز إلى حضنه.

أظن أن هذا يكفي، قال كيث مولفاني للكلبة وهو يداعبها تحت أذنها. نعم، هذا يكفيها.

كان عزاؤه المعرفة التي لم يكذب فيها. صحيح أن الموت لم يتأكد بعد، لكن رون غارفي كان حاسماً: فقد كان من بين قائمة

أسماء الأسرى التي قدمت للسلطات اسم الميجور د. إيفانز. ظن أنهما قد يكونان سعيدين معاً. إنها مسألة عمل ووقت.

بالتأكيد، قال للآنسة بياتريس. بالتأكيد.

في وقت لاحق من ذلك المساء، وجد أيمي وحدها، تنظف المطبخ. بدت رائحة الغرفة أقوى من أي وقت مضى، لكن بلاطها المبلل الأبيض المائل إلى الأصفر والفولاذ كانا يلمعا تحت الضوء الكهربائي. إنها امرأة عديمة الإحساس، قال لنفسه، لديها أشياء كثيرة تقوم بعملها. عادت تفرك البلاط وهو يراقبها من المدخل.

عندما ذهب ألقت الخرقة التي كانت تنظف بها. جثمت على الأرضية مثل طفل. راحت تخبط بقدمها على بلاط الأرضية، لكنّها لم تشعر بشيء. أرادت أن تتضرع إلى أي شيء قد يكون موجوداً، لكنّها كانت تعرف أنه مات، وأن العالم لا يسمح بحدوث المعجزات، وأن الناس يموتون، وأنها لا تستطيع أن تمنعهم من أن يموتوا. كانت تعرف أنهم يتركونك وأنت تحبّهم أكثر، لكن مع ذلك ليس بمقدورك أن توقفهم عن أن يموتوا.

جلس على الكنبة الخمرية في غرفة الجلوس، وراح يحشو غليونه ليدخن قبل النوم، أسند رأسه إلى غطاء المسند، أحسّ كيث مولفاني بالعرق يسيل من صدغه الأيسر. لم يسمع قط الانفجار الذي حوّل، بالنيران التي تبعت ذلك الفندق الفخم المشيد من الحجارة ذي الطوابق الأربعة إلى أنقاض، وإلى عواميد خشبية متفحّمة، وواجهة ذات جانبين.

عالم من الندى
وفي داخل كلّ قطرة ندى
عالم من الكفاح.

إيسا

- ١ -

سقطت قطرة.

تايني، همس داركي غاردنر.

كانت الضجة التي تحدثها قطرات المطر الموسمي المتساقطة على سطح الملجأ الطويل المفتوح الجدران على شكل حرف A المغطى بقماش الخيش والقائم على أعواد الخيزران تعني أن داركي غاردنر لا يكاد يستطيع أن يسمع نفسه. وكانت الضجة التي يحدثها المطر في مثل هذه الليالي يجعله في حالة أسوأ وأكثر اكتئاباً وبؤساً، وكان يبذل كل ما بوسعه للبقاء حياً، لكن على الأقل لديه رفاق كذلك. كانت الغابة ترتعش في صفائح وموجات متعاقبة من الضجيج. كان أصوات خضخضة الطين لدى ارتطام المطر به وجريان الماء غير المرئي تسبب له الاكتئاب.

قطرة أخرى سقطت.

عزيزي كارن، همس داركي غاردنر، ابتعد قليلاً.

لم يعرف داركي غاردنر متى عاد إلى خيمته بعد أن ساعد في سحب شاحنة يابانية علقت في الطين، وأخذ يبحث عن المكان المخصص له بين أسرى الحرب العشرين الذين كانوا يغطون في النوم فوق مصطبتين من الخيزران يعشعش فيهما القمل. واكتشف أن تايني

مدلتون، الأسير النائم على جانبه الأيمن، قد تقلّب وشغل كلّ البقعة المخصصة له، فحُشر داركي بجانب تايني واستلقى على جانبه تحت ساق خيزران تسيل منها قطرات ماء المطر ثم تتساقط على وجهه. أحسّ تايني أن جداراً من الآجر يهوي فوقه. ولمّا كانت تكسو جسد تايني داء السعفة، فقد كان داركي يكره أن يلمسه، فهمس مرة أخرى:

اللعنة، يا تايني.

كان من الواضح أن ميدلتون تايني لم يسمع شيئاً مما كان يقوله داركي غاردنر الذي رفع رسغه وقرّبه من وجهه لينظر إلى ساعة يده. لم ير شيئاً لأنه كان قد باع ساعة يده التي تضيء في العتمة لقاء علبة سردين برتغالي منذ بضعة أشهر. أنزل ذراعه، وقال لنفسه من الجيد أن الظلام لا يزال مخيماً. كان غارقاً في الماء ومرهقاً ويمكنه أن يرتاح بضع ساعات أخرى. كان داركي يبحث باستمرار عن الشيء الجيد، مهما كان ضئيلاً، وكان يجده في معظم الأحيان. كان لا يزال مستيقظاً مع أنه كان عليه أن يستيقظ مبكراً وأن يتوجه للعمل في السكة الحديدية، لذلك كان عليه أن ينام مدة أطول. كان ذلك أمراً جيداً لأنه سيستمتع بالنوم خاصة إذا أبعد تايني عنه قليلاً. تناسى داء السعفة، ودفع الجسد النائم بجانبه بعيداً عنه.

ابتعد قليلاً، أيها الأير السمين.

بعد قليل، استسلم داركي واستلقى بجانب تايني مولياً إياه ظهره، ودسّ رأسه في جسمه بطريقة أبعدته عن قطرات الماء المتساقطة. خيّل إليه أنه يعرف بغباء بأن ظهره قد يلتقط العدوى بداء السعفة، لا صدره وبطنه. متكوراً على نفسه في عتمته، شاعراً بالأمان من المعرفة التي لن يعرفها أحد، مدّ داركي يده فوق رأسه إلى جعبته وسحبها ثم وضعها على صدره. وبعد أن فتش في داخلها

بصعوبة في الظلام، أخرج ما يُعرف بأنهما معجزتان صغيرتان: بيضة بطّة مسلوقة وعلبة حليب مكثّف.

الحليب أم البيضة؟ تساءل. أيّهما؟

في النهاية، قرّر أن بإمكانه الاحتفاظ بالحليب الذي سرقه من الشاحنة اليابانية لمدة غير محددة دون أن يفسد، فرأى أن من الأفضل أن يحافظ عليه، ولو لبضعة أيام أخرى. كان رابيت هيندريكس قد أعطاه بيضة البطّة لقاء فرشاة دهان كان داركي قد سرقها من جعبة ضابط ياباني مرّ بالمعسكر في طريقه للمشاركة في المعارك الدائرة في بورما. وكان يعتمد في سرقاته على الخفة والحذر: فلم يكن يفكّر طويلاً بل ينفذ ما يزمع القيام به بسرعة.

وكان قائد المعسكر الياباني قد أعطى رابيت هيندريكس البيضتين لقاء أن يرسم بضع بطاقات له ولبعض رفاقه - لإرسالها إلى الأصدقاء وأفراد الأسرة في اليابان. ومع أن اليابانيين استغلوا مواهب رابيت بهذه الطريقة، فإنهم سيقضون عليه إذا رأوا الرسومات التي يرسمها سراً والتي تصوّر الحياة اليومية في المعسكر - العمل الفظيع والضرب والتعذيب - لذلك كان رابيت هيندريكس يحرص على إخفائها. لكن مهمته كانت قد انتهت. فبينما كانوا على وشك إنهاء ورديتهم في العمل في الخطّ، أصيب رابيت بتشنج شديد وحاول أن يخفّف الألم عنه في الحال. كان تشام فاهي الذي كان يعمل إلى جانبه يحدّق فيه. نظر رابيت هيندريكس إلى الأسفل ورأى أمعاءه قد شكّلت بركة من البراز بلون ماء الرزّ. كان الأسرى يخشون رؤية ذلك أكثر مما يخشاه اليابانيون لأن الكوليرا بدأت تتفشى بينهم منذ تسعة أيام.

ساعد تشام فاهي وآخران داركي على حمل رابيت على نقّالة بدائية وراحوا يركضون على الدوللي، وهو الدرب في الغابة الذي

يصل الخطّ بمعسكرهم والذي يبعد ثلاثة أميال ونصف ميل. كانت مهمّة بطيئة مضنية زادها بطئاً البحث في الظلام عن طقم أسنان رابيت الذي سقط منه في نوبة تقيؤ عنيفة. وبصعوبة شديدة، شقّوا طريقهم في ليل الغابة - كانت الأخاديد الموحلة والآهات البعيدة المنبعثة من الأسرى المرضى الذين سبقوهم تشكل دليلهم الوحيد - وبلغوا أخيراً المعسكر قبل انتصاف الليل بقليل. كان يغطيه الطين والقيء السائل. كان رابيت هيندريكس قد اختفى هو ودفتر رسوماته في مجمّع الكوليرا الذي أُرسل إليه عدد كبير من الرجال ولم يعد منه سوى قلة قليلة منهم. وكان كلّ ما تبقى منه بيضة البطّة التي اسوّدت والتي قشّرها داركي غاردنر الآن بمهارة وقطعها إلى ثلاث قطع.

عاد المطر ينهمر بغزارة، وهبت نسائم رطبة منعشة للحظة في الملجأ البائس الذي كان بمثابة ثكنة لهم، وفاحت رائحة الخراء والنتن الكريهة المنبعثة من الرجال النائمين في الكوخ على مصطبتي الخيزران الطويلتين. شعر داركي أن تلك الهبات هي شكل من أشكال الأمل، وقال لنفسه قد يكون هذا شيئاً جيداً آخر، لكن المطر بدأ يسيل على وجهه مرة أخرى، وعندما حاول أن ينقلب إلى الجانب الآخر، كان تايني لا يزال هناك، وعندما دفعه مرة أخرى، لم يتحرك تايني قيد أنملة، كان يشخر، ميتاً عن العالم.

أيها اللعين تايني، ابتعد قليلاً؟

اللعنة يا داركي، صاح أحد من أسفل المصطبة.

لم يكن بمقدرة داركي أن يفعل شيئاً لتايني الذي كانت تفوح منه رائحة نتنة أيضاً. عاد المطر يهطل بغزارة. كان من الصعب أحياناً معرفة ماذا يدور داخل رأسه المحموم وماذا يقبع خارجه. تذكّر أول لقاء له بتايني، رجل يشبه الثور خلع ثيابه وراح يتبختر بجسده الرائع

وهو ينثني، ويعلو، ويصرخ مثل ديك يصيح صباح يوم الأحد، قال تشام فاهي.

كانت حصص الطعام التي تقيهم من الموت جوعاً تزيد جسد تايني قوة بدل أن تضعفه مثل الآخرين. فقد انتصر جسد تايني على كلّ شيء: الملاريا والزحار وداء البلاغرا ومرض البري بري. وبدا أن الأمراض التي أنهكت الرجال الآخرين وبدأت تقتلهم لا تؤثر عليه، كما لو كانت روعة ذلك أحد أشكال المناعة، لم تثبطه المعسكرات، ولم يتمكن اليابانيون من كسر إرادته.

كانت مهمة تايني تتمثل في إحداث ثقوب في الصخور بواسطة طرق قضيب فولاذي ببطء بمطرقة ثقيلة حتى يصل الثقب إلى العمق المطلوب. وعندما تصبح هناك ثقوب كافية، يأتي مهندس ياباني ويحشوها بمادة متفجّرة ويفجّر ذلك القسم. وكان داركي يساعد تايني، فيمسك القضيب الفولاذي ويديره بعد كلّ ضربة ربع دورة لإحداث ثقب. وكان تايني يعمل بقدرة لا تتوفر لدى أيّ أسير آخر وكان يتفاخر بأنه يستطيع أن ينهي الحصة المخصصة له قبل أي شخص آخر. كان يعتبر ذلك انتصاراً يحققه على آسريه اليابانيين.

وكان يقول دعونا نري هؤلاء القوم القصار القامة اللقطاء الصفر من هو الرجل الأبيض.

يبدو أنه لم يلاحظ أن اليابانيين كانوا قد بدأوا يطلبون من الأسرى الآخرين أن ينجزوا نفس مقدار العمل.

هذا الطرزان المنيك سيقضي علينا جميعاً، قال شيفيد مورتن.

وعندما كان تايني يحقق رقماً جديداً في العمل -كما كان يبدو أنه عازم باستمرار - كان المهندسون اليابانيون يعتبرونها الحصة اليومية الجديدة، وبدأ الآخرون الذين كانوا ينجزون قدراً أقل من العمل يعانون كثيراً.

بحق النيك، قل له، قال شيفيد مورتن لداركي.

ماذا أقول له؟

كفى منيكة. كفى. كفى. أو هذا يكفي؟ اغرب عن وجهي.

صديقي، قال داركي لتايني، هل يمكنك أن تبتعد قليلاً.

ابتسم تايني.

قليلاً فقط. ليس بمقدرة أي رجل أن يعمل مثلك، قال داركي.

كان تايني من أتباع غوسبل هوللر. وبابتسامة غريبة، قال: لقد منحنا الرب هذا الجسد لنعمل به، ونبتهج فيه.

حسناً، هناك شخص تافه آخر لا تسمع منه كثيراً هذه الأيام، لكننا سنبدأ نراه قريباً إذا لم تتراجع عما تفعله، وإلا فإنك ستتسبب في موتنا جميعاً يا تايني.

سيرانا الرب حقاً. إني أنظر إلى الأمر هكذا. ووقف تايني، المسيحي المكسو بالعضلات، مثل عدّاء عند نهاية سباق للجري لمسافة مائة وعشر ياردات، واضعاً يديه على وركيه، مسترخ قليلاً، جسده في الوسط بين الكدح والاسترخاء، مشدوداً، مثالياً، يحدّق في داركي غاردنر بابتسامته الواهية المزعجة.

رويداً رويداً، بدأ داركي يكره تايني. فقد كان تايني ينفذ كلّ حصة جديدة يطلبها المهندسون اليابانيون بالمقياس المتري الأجنبي - في البداية متر كل يوم، ثمّ مترين، ثمّ ثلاثة أمتار - في وقت أقل مما يحدده اليابانيون، وكان على جميع الآخرين- المصابين بالحمى، والمتضورين جوعاً، والمحتضرين - مجاراة العمل الذي يقوم به ذلك المجنون. كان الآخرون جميعاً يحاولون القيام بأعمالهم ببطء وبكمية أقل، ليوفروا طاقتهم المتدنية أصلاً لتحقيق المهمّة المطلوبة للبقاء أحياء. لكن ذلك لم يكن ينطبق على تايني الذي

كانت بطنه تقرقر وصدره يعلو وذراعاه الحيوانيتان تنخفضان وتعلوان. كان يعمل كأنه يعمل في حظائر جزّ الصوف التي كان يعمل فيها، كما لو كان كل ذلك منافسة غبية، وفي المساء، كان يستعيد نشاطه لكن زهوه بنفسه هذا كان يعمل لصالح اليابانيين فقط، وكان يتسبب في موت ما تبقى منهم.

حلّ السبيدو. وأصبح اليابانيون يدفعونهم بمزيد من الضرب وبقدر أقل من الطعام ليعملوا أكثر ولفترات أطول خلال اليوم. وعندما لا يتمكن الأسرى من تنفيذ الجداول التي وضعها اليابانيون، كان السبيدو يزداد ويصبح مسعوراً. وفي إحدى الليالي، بينما كان الأسرى يتهاوون من شدة الإنهاك على مصاطبهم الخيزران ويستسلمون للنوم، جاءهم الأمر بأن يعودوا لكسر الأحجار، وهكذا بدأت النوبات الليلية.

كانت عملية القطع تتمثل في إحداث شقّ في الصخرة بعرض ستة أمتار وبعمق سبعة أمتار على طول نصف كيلومتر. وبواسطة قضبان خيزران ومشاعل من قضبان خيزران محشوة بخرق مبللة بالكيروسين، أصبح العبيد القذرون العراة يعملون الآن في عالم جهنمي غريب تحت ألسنة النيران المتراقصة والظلال المنزلقة. كان رجال المطارق بحاجة إلى تركيز أكبر من أي وقت مضى لأن القضيب الفولاذي كان يختفي في الظلام عندما تسقط المطرقة. في تلك الليلة الأولى، وللمرة الأولى، عمل تايني بصعوبة. فقد بدت عليه أعراض الملاريا، وراح جسده يرتعش، ولم تعد حركته بالمطرقة الثقيلة في الصعود والهبوط متوازنة، بل أصبحت تشكل جهداً مضنياً. وكان داركي غاردنر يضطر للوثوب مرات عديدة ويمسك به عندما يفقد تايني السيطرة على المطرقة. وبعد أقل أو أكثر من ساعة - ربما كان ذلك بضع ساعات - لم يتذكر داركي كم دام ذلك بالتحديد - لم يكد

يرفع تايني المطرقة قليلاً حتى أفلتت منه وسقطت على الأرض. ورأى داركي مذهولاً تايني يترنح في نصف دائرة، ويترنح إلى الأمام والوراء، ثم يتهاوى على الأرض.

جاء حارس مربوع القامة، تكسوه عضلات بشرته ملطخة: الغونا. قال بعضهم إن الغونا مصاب بالبهاق ولهذا السبب فقد صوابه، وقال آخرون إنه مجنون أصلاً ومن الأفضل تحاشيه، وقال البعض الآخر إنه الشيطان بحد ذاته - يتعذر تفسيره وتجنبه، عديم الرحمة. وفي مناسبات غريبة، كان يبدو كأنه في عذاب نهائي، ويصبح لطيفاً على نحو يثير الحيرة. لم يعد أحد يعمل على الخطّ يؤمن بالله كثيراً، ولا بالشيطان أيضاً. لقد كان الغونا هكذا، مع أن الكثيرين منهم لم يكونوا يتمنون ذلك.

رمقهم الغونا للحظة وهم يعملون، ثم استدار ببطء شديد وراح ينظر إلى مكان آخر، كما لو أنه يمعن في التفكير، ثم استدار ببطء مرة أخرى. كانت هذه الحركات الغريبة المتصنعة تشي بانفجار عنيف. ضرب تايني بخيزرانة طويلة سميكة لدقيقة أو دقيقتين، ثم ركله عدة ركلات على رأسه وبطنه. وعندما استمرت ضربات الغونا، لم يفكر داركي بأن هذا شيئاً سيئاً، بل الشيء المختلف هو أن تايني مدلتون هو الشخص الذي يُضرب.

عندما كان هذا المتغطرس يتلقى الضربات والركلات التي تنهال عليه الذي كان يبدو أن جسده أشدّ صلابة من أيّ ضرب، راح يتدحرج الآن على الصخرة التي كان يقطعها مثل كيس مصنوع من الخرق أو القشّ. كان يمتص اللكمات والركلات مثل كيس، وعندما انتهى الضرب، كان ما فعله تايني شيئاً ملحوظاً. فقد بدأ يبكي.

اعترى الغونا الذهول، ونظر مع داركي بدهشة. لم يبك أحد قط على الخطّ. لا يمكن أن يكون سبب بكائه الألم أو المهانة، قال

داركي لنفسه، ولا يمكن أن يكون السبب هو اليأس أو الرعب، لأن الجميع يعيشون هذه الظروف.

في ظلال النيران التي كانت تلوح فوق جسمه الوسخ، المبلل بالعرق، راح تايني يهز رأسه ويصفع نفسه ويخمش صدره كأنه يحاول جاهداً إبعاد الظلال لكنه لا يستطيع. شعر داركي أن تايني ينحي باللائمة على جسمه، لأن هذا الجسم القوي كان ينتصر دائماً، يحمل ذلك العقل الصغير والقلب، أما الآن - وهو في منتصف النفق الغريب الجهنمي من اللهب والظلّ والألم - تخونه بقسوة وبشكل غير متوقع. بجسمه المترنح، ضاع تايني.

أنا! صاح وهو يضرب نفسه بقوة. أنا! أنا!

ماذا يقصد من ذلك، لم يعرف أحد حقاً.

أنا! واصل الصراخ. أنا! أنا!

ساعد داركي تايني على النهوض على قدميه. بعين على الغونا، تناول داركي المطرقة الثقيلة وأعطى تايني القضيب الفولاذي. جلس تايني القرفصاء، وثبّت القضيب في الثقب، العينان الدامعتان مثبتتان عليها، وبدأ داركي يرفع المطرقة الثقيلة وينزلها. عندما رفعها ثانية، طلب من تايني أن يديرها ربع دورة. سقطت المطرقة وارتفعت. لم يتحرك تايني الذي كان يمسك القضيب الفولاذي كأنه مرساة ضرورية، ومرة أخرى، طلب داركي من تايني أن يدير القضيب الفولاذي ربع دورة. طلب من تايني بلطف كأنه يطلب من طفل أن يمدّ يده، وبالصوت نفسه ظل يقول لتايني طوال الليل، أدره يا صديقي - أدره - وهكذا واصلا عملهما، كما لو كان كلّ شيء شيئاً معتاداً. أدره - أدره، يا صاحبي، كان داركي غاردنر ينشد.

لا أن شيئاً ما قد تغيّر.

كان داركي يعرف ذلك وفي الأسابيع القليلة التالية راح يراقب

جسد تايني القوي وهو يذوي. وقد عرف اليابانيون ذلك وبدأوا يضربون تايني باستمرار وبشدة أكثر. وبدا أن تايني لم يكن يعبأ بذلك أيضاً، لكن القمل يعرف ذلك. فقد أصيب الجميع بالقمل، ولاحظ داركي كيف أن القمل بدأ يملأ تايني منذ ذلك اليوم. لكن تايني لم يكترث بذلك، ولم يعد يهتم بالاغتسال أو بتنظيف نفسه عندما يتغوّط، ثمّ أصيب بداء السعفة. وكما لو كان الفطر يعرف ذلك، فقد أحسّ باللحظة التي يتخلّى فيها الرجل عنه، وأصبح مثل جثّة تتفسخ عادت إلى الأرض. وقد عرف تايني ذلك. كان تايني يعرف أنه لم يتبق له شيء في داخله يمكنه أن يوقف ما كان قادماً.

وقف داركي بجانب تايني، لكن ثمة شيئاً جعله يشمئز من ذلك الرجل الذي كان رجلاً ضخماً، فخوراً، وأصبح الآن مجرد هيكل عظمي يتغوط على نفسه. ثمة شيء في داركي جعله يفكر بأن الأمور قد أفلتت من يد تايني، وبأنه أصبح شخصاً فاشلاً. كان يعرف أن هذه الفكرة تجعله يشعر بأنه سيكون في حال أفضل، تجعله يظن بأنه سيعيش ولن يموت لأنه لا يزال يمتلك قوّة الاختيار. لكن في صميم قلبه، كان يعرف بأنّه لا يمتلك هذه القوّة، لأنه يستطيع أن يشمّ الحقيقة في أنفاس تايني الكريهة. ومهما كانت تلك الرائحة الكريهة، فقد كان يشعر بالقلق لأنها قوية وأراد أن يتهرب منها، لكن عليه أن يساعد تايني. لم يسأل أحد لماذا كان يفعل ذلك، لأن الجميع يعرفون. كان زميلاً له. كان داركي غاردنر يمقت تايني، وكان يرى أنه أحمق وسيبذل كلّ ما بوسعه لإبقائه على قيد الحياة. لأن الشجاعة، البقاء على قيد الحياة، الحبّ- كلّ هذه الأمور لم تكن تعيش في رجل واحد، بل تعيش فيهم جميعاً وإذا ماتت فإن الرجال جميعاً سيموتون معها، وبدأوا يعتقدون أن هجر رجل واحد يعني أنهم يهجرون أنفسهم.

- ٢ -

عندما أصبحت البيضة جاهزة - رطبة وشمعية بين أصابعه - شمّها داركي غاردنر ووجد أن كثافتها تثير شيئاً من الغثيان. قرّبها من شفتيه ثم توقّف، فكّر وتنهّد. هزّ جسد تايني النائم، ليس بقوة الآن بل بإصرار.

عندما استيقظ تايني أخيراً، قرّب داركي البيضة من أنفه وأشار إليه بأن يصمت. نخر تايني، وقطع داركي بملعقته البيضة إلى نصفين. رفع تايني يديه في شكل كوب كما لو كان يتلقى سراً مقدساً، كي لا يسقط شيء من محّ البيضة، وأضاف داركي إلى يدي تايني المكورتين نصف كرة صغيرة من الرزّ المقلّي التي كان قد احتفظ بها تحت بطانيته من وجبة طعام سابقة.

في الظلام الندي حيث لا يستطيع أحد أن يراهما أو يسمعهما فيه؛ في عزلتهما السوداء حيث لن يسألهما أحد كيف حصلا على كمية إضافية من الطعام، بدآ يأكلان خلسة. بدأ يأكل ببطء، مستمتعاً بكلّ لقمة يتناولها، يسيل لعابه، لكنه شعر بالقلق من صوت المضغ المرتفع المنبعث من فمه، لكن صوت أكلهما كان يضيع في ضوضاء الليل الماطر.

لعق الدهن الممزوج بالسخام من أصابعه. قبعت كرة الرزّ والبيضة كتلة نتنة في معدته، وبقيت في حنجرته لهباً مدهناً حامضاً. إنه لن يموت. لم يعد يكترث بأن تايني يحتل معظم المكان المخصص له. كان لا يزال يشعر بحبات الرزّ على شفتيه، لا يزال يتذوق طعم الدهن اللذيذ والمحّ الدسم في فمه. اعتراه دوار في رأسه، ثمّ شعر بالنعاس. لم يكن متيقناً إن كان يغرق أم أنه مستلق على سرير يُستخدم أيضاً طاولة مليئة بفتات جراد البحر والتفاح

والمشمش وأفخاذ حمل مشوية، وسرير جاف تكسوه بطانيات نظيفة، يوجد موقد في أسفله، والبَرَد يسقط على نافذة غرفة النوم الصغيرة.

أكل، كان يتمنّى أن يتناول المزيد. كان يغوص إلى الأعماق، كان يجلس إلى المائدة، وكان نائماً. وعندما استيقظ، كانت معدته مثل قبضة. كان الظلام لا يزال مخيّماً. كان في فمه طعم صابون. أحسّ بتشنج فظيع في بطنه الضامرة. انتصب في جلسته، وهو يئنّ ويلهث من شدة الجهد، حمل صفيحة مليئة بالماء مركونة في البقعة المخصصة لنومه، ومشى حافياً في العتمة فوق الطين وتحت المطر باتجاه البانجو، وهو الاسم الذي أطلقه اليابانيون على مرحاض المعسكر.

لم يكن البانجو يبعد كثيراً عن الخيم. والبانجو خندق يبلغ طوله عشرين ياردة بعمق ياردتين ونصف الياردة، يقرفص الرجال فوقه على ألواح رقيقة من الخيزران مترنحة لقضاء حاجتهم. كانت تعلو البراز المترجرج في الأسفل ديدان تتلوّى - مثل رقاقات جوز هند مجفف منثور فوق قطعة حلوى، كما قال تشام فاهي. كان رعباً حقيراً. وعندما كان الأسرى يتبارون لابتكار أشنع السبل لقتل الحراس الذين كانوا يمقتونهم، فقد كانوا يقولون على سبيل المزاح بأنهم سيُغرقون الغونا ذات يوم في البانجو. حتى هم، كان يصعب عليهم أن يتصوّروا ميته أكثر فظاعة وشناعة من هذه الميتة.

أطفأت الأمطار التي لم تتوقف عن الهطول المشاعل التي أمر اليابانيون بأن تظل مشتعلة طوال الليل. كان العالم مظلماً، وكانت غيوم الرياح الموسمية تحجب جزءاً كبيراً من نور النجوم والقمر، وامتصت الغابة معظم ما تبقى. شقّ داركي غاردنر طريقه وهو يثب قفزات قصيرة صعبة، قابضاً بيده الأخرى على بطنه كي لا تفلت أمعاؤه إذا أقدم على أيّ حركة كبيرة أو غير متوقعة قبل أن يصل إلى

البانجو. نصف منحنٍ على نفسه، شقّ طريقه عبر الخطوط السوداء الغامضة عبر أكواخ المعسكر المخلخلة المشيّدة من الخيزران التي تنبعث من داخلها أنات وشخير ولهاث من الأسرى الآخرين التي ربما كانت تنبعث من الألم أو الحزن أو من الذكريات أو الموت، أو كلّ ذلك. لكن الأمطار الغزيرة كانت تغطي على أصوات الإعياء والألم والأمل وتجرفها إلى الوحل.

أيقظه الألم الذي كان يعتصره أسفل بطنه، وبدأ يلهث من الجهد الكبير الذي بذله وهو يسير باذلاً جهده لكي لا يتغوط على نفسه. كان داركي قد اقترب من البانجو عندما انزلق بجانب الدرب الأملس وسقط في وسطه الموحل، وغاص حتى كاحليه في الطين القذر. تملكه الفزع للحظة. هيّج الجهد المسعور المفاجئ الذي بذله حتى ينهض ويقف على أرض صلبة أمعاءه. شعر أنه فقد السيطرة على نفسه، وبدفقة سريعة، أدرك أنه خري على نفسه وسط درب المعسكر الرئيسي.

تملكّه إعياء فظيع. كانت مؤخرته تحترق كالنار، وكان رأسه يسبح بعنف. لم يكن يريد شيئاً سوى أن يستلقي على الطين ويُفرغ أمعاءه وينام إلى الأبد، لكنه قاوم هذه الرغبة لأن معدته عادت تتقلص وتتشنج وتضغط عليه مثل أنشوطة تخنقه. ومرة أخرى أحسّ بسائل نتن يتدفق منه. ازداد لهاثه عنفاً، وما إن فرغت أمعاؤه تماماً، حتى عادت وامتلأت على الفور.

استسلم لجسده الذي أخذ يتشنج مرة أخرى. كره نفسه لأنه فعل ذلك، ولأنه لم يتمكن من الوصول إلى البانجو وبعثر قذارته في المكان الذي سيسير عليه الرجال الآخرون في الصباح. تذكّر تعليمات الأخ الكبير بالتقيد الشيدي بالنظافة، وكيف أنهم رأوا جميعاً أن النظافة - بقدر الإمكان - جوهرية من أجل بقائهم أحياء.

ومع أنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً حيال ذلك، غمره شعور بالخجل وبالهزيمة.

لم تكن هناك وسيلة تمكّنه من إزالة برازه من فوق الطين العميق، ذلك العالم الحقير الموحل اللانهائي. لقد أساله المطر وحوّله إلى شيء آخر. انحلال محتوم وقاتل. كان كلّ شيء وكلّ شخص يعيدهم جميعاً إلى الغابة. ثم قال لنفسه، مهما بلغت الأمور، فإنه سيصل إلى مكان التغوط اللعين. وأخيراً، أقدم على حركة غير مُرضية أدت إلى تدفق سائل مخاطي يتخلله شريط لزج من الدم.

عندما انتهى، اعتراه دوار شديد من الجهد الذي بذله. سحب داركي نفسه ببطء ونهض واقفاً على قدميه. ترنح بضع خطوات قصيرة بجانب الدرب، وبالماء المتبقي في الصفيحة بدأ يغسل نفسه بأفضل ما بوسعه. أحسّ كأن ردفيه مجرد حبال، وأمضى وقتاً في تنظيف شرجه، واعتراه شعور عميق بالاشمئزاز من بروزه الغريب وسط لحمه الذاوي. أحسّ ببرودة مفاجئة، فارتعش فخذاه وربلتا ساقيه بشدة عندما راح يغسلها. خنق صيحة بشهقة غريبة وهو يرشّ الماء على القرحة الاستوائية التي يبلغ حجمها حجم كوب شاي على ساقه، وواسى نفسه بأنه من الجيد الحفاظ على نظافة هذا الجرح. يجب أن يحافظ على نظافته. أحسّ أن عقله لم يكن صافياً - الملاريا، خمّن - وفجأة أصبحت أحاسيسه حادّة ومشوّشة إلى درجة كبيرة. لكنه ظل حيوياً وقوياً في داخله، كان يعرف ذلك: كان من السهل عليه أن يستسلم. لم يكن ذلك بالنسبة لعقل داركي، مهما بلغت درجة الحمى لديه، أمراً سيئاً، بل أسوأ شيء. إن السبيل لبقائه على قيد الحياة يكمن في ألّا نتخلّى قط عن الأمور الصغيرة. إن الاستسلام يكمن في عدم الوصول إلى البانجو. في المرة التالية، أقسَمَ، بأنه سيصل إليه مهما بلغت الصعوبات.

لقد قُدِّر على قدميه الغائصتين في الوحل أن تكونا في وسط القذارة. وبعد أن نظّف نفسه بقدر ما بإمكانه، عاد يسير فوق الغائط والطين متجهاً إلى خيمته وإلى المكان المخصص له على مصطبة الخيزران. انسلّ تحت بطانيته الوسخة الكريهة الرائحة، وسحب ساقه الملوثة بالخراء معه. حملته فكرته الأخيرة قبل إعيائه الموسّخ إلى النوم وأحسّ بالجوع مرة أخرى.

- ٣ -

عندما تلاشى صوت بوق جيمي بيغيلو الذي كان يعزف «نداء الإيقاظ» في ذلك الفجر الماطر، فتح روستر ماك نيس عينيه. ضوء رمادي منتشر صبغ خيمته التي لا جدار لها والتي ينام فيها فوق الطين مباشرة الذي تنبعث منه رائحة نتنة. كانت القذارة واليأس يخيمان على المعسكر في الغابة وراءه وتلوح ظلال قضبان الحديد المكسوة بالسخام. وعلى مسافة أبعد، كانت الغابة المطرية المليئة بأشجار الساج تشكّل جداراً أسود.

قبل أن يستيقظ تماماً، بدأ روستر الصباح كما يفعل كلّ صباح. ومع أول تدريب من تدريبات الانضباط الذاتي العديدة التي كان يعرف أنها تضمن بقاءه من الناحية العقلية والجسدية والأخلاقية، شرع يقرأ بصمت صفحة من كتاب ماين كامف (كفاحي) التي حفظ محتوياتها عن ظهر قلب الليلة الماضية. ووجد أن الأجزاء التي تتحدث عن اليهود - التي تشكل معظم الكتاب - هي الأسهل. فقد كان إيقاعها سريعاً مما قلل من إمكانية حفظها عن ظهر قلب لتكرر عبارة يهودي كثيراً. أما الآن فقد ضاع في تاريخ الحزب النازي

المبكّر في بافاريا. أين هم اليهود، تساءل روستر ماك نيس، عندما تكون بحاجة إليهم حقاً؟

سقطت قنبلة فوق قصر بكنغهام، قال صوت من مكان قريب. قضت على الملك وعلى الممثلة والمغنية غرايسي فيلدز.

عندما رفع نفسه إلى حافة مقعد الخيزران وحكّ فخذه، ثمّ بين فخذيه بقوة أكثر، استمر روستر ماك نيس يهمس لنفسه عن شجاعة قوات الصاعقة. أحسّ بشيء صلب يشبه الصدفة بين فخذيه فسحقها، ثمّ أحسّ بأخرى وأخرى. عندها فقط بدأ يشعر بالرغبة في الحكّ ولسعات القمل الذي يعشعش بين شقوق الخيزران.

سأقول شيئاً واحداً لليابانيين، قال رجل مسنّ لاحظه يحكّ. لقد أوصلوك إلى حد أنك أصبحت تستطيع أن تنام على الرغم من أن القمل ينهش بيضتيك عند الفطور.

أدرك روستر أن شيفيد مورتن هو الذي يتكلم. كان هزيلاً يبدو في السبعين من العمر، مع أنه لم يكن يتجاوز الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين.

أظن أن أحداً قال إن غرايسي فيلدز كانت مع شخص إيطالي، قال جيمي بيغيلو الذي كان يحمل بيده بوقاً قديماً عندما عاد إلى الخيمة. ألم ينشقّوا لصالح موسوليني؟ إنها مجرد إشاعة، قال تشام فاهي. لقد حصلت هذه المرة على زيت جيد من بعض الهولنديين الذين مروا بالمعسكر منذ فترة. إن الهولنديين، مثلي، هم نصف طائفة من الإيطاليين، معظمهم. يقولون إن الروس خسروا ستالينغراد، واحتّل الأمريكيون صقلية، وأطيح بموسوليني وإن الحكومة الإيطالية الجديدة تدعو إلى السلام.

كانت لروستر ماك نيس لحية خفيفة بنية اللون، وكان من عادته، عندما يركّز، أن يشدّها من شفته السفلى ويعلكها. عندما مضغ شعر

لحيته، تذكّر الإشاعة التي انتشرت الأسبوع الماضي بأن الروس انتصروا في ستالينغراد. لا بد من أنها دعاية بلشفية، قال لنفسه. على الأغلب أن داركي غاردنر مصدرها. فهو من يردد أشياء كهذه. كان روستر ماك نيس يكره البلاشفة، لكنه كان يكره داركي غاردنر أكثر. فهو رجل عادي وقذر، ومثل معظم الهجينين يجب عدم الوثوق به، ولا يمكنه أن يحتمل عادات غاردنر - حتى أنهى السبيدو كل شيء ليس له علاقة له بالعمل أو بالنوم - بالوقوف أحياناً فوق جذع شجرة الساج عند حافة المعسكر ويغني «بلا أغنية» بينما يعرج الأسرى في الليل بعيداً عن الخطّ. كان يبدو أن الرجال الآخرين يحبّونه، أما روستر ماك نيس فقد كان يكرهه.

كانت الكراهية تشكل دافعاً قوياً لدى روستر ماك نيس. كانت بمثابة غذاء له. إنه يكره الإيطاليين والشرق أوسطيين والغجر والإسبان. إنه يكره الصينيين واليابانيين والفيتناميين. وبما أنه رجل منصف، فهو يكره أيضاً البريطانيين والأمريكان. ولم يجد كذلك دماء كثيرة تجري في عروقه من الأستراليين الجديرين بالاحترام إلى حد أنه كان يجد نفسه أحياناً يجادل بأنهم يستحقون أن يقوم الآخرون باحتلالهم. ثم عاد إلى ترديد مقاطع من كتاب مين كامبف تحت أنفاسه.

بماذا تثرثر الآن يا روستر؟ سأله جيمي بيغيلو.

التفت روستر ماك نيس إلى البواق الذي نُقل إلى خيمتهم مؤخراً والذي لم يكن يعرف شيئاً عن الطقوس التي يمارسها في الصباح. وخيّل إلى روستر ماك نيس أن عقلية جيمي بيغيلو تعود إلى العصر الفيكتوري، فطلب منه أن يكفّ عن جموده الفكري وسط سلالة المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام، ولعب الورق، وعبادة كرة قدم، وإدمان سكان تسمانيا على سباق الخيول - الذين وجدوا جميعاً في

الخيمة ويمكن اعتبارهم أيّ شيء إلا أستراليين - وحدد لنفسه مهمّة حفظ كتاب كامل، صفحة كل يوم، عن ظهر قلب.

حسناً، قال جيمي بيغيلو الذي لم يجرؤ على إخبار روستر ماك نيس بأنه من وادي هوون، وأنه تطوع مع غاليبولي فون كسلر، لكن لاجتياز فترة الحرب هناك أشياء أسوأ من لعبة ورق الكريب التي يشارك فيها أربعة أشخاص.

العقل! قال روستر ماك نيس، العقل، يا جيمس!

سأله غاليبولي فون كيسلر هل خطر له أن يلعب لعبة الخمسمائة، وقال مع أن البعض يقولون إن لعبة الخمسمائة تتطلب ذكاء ومهارة أكثر مما تطلبه لعبة كريب، فإنه لا يوافق على ذلك، لكن لعل روستر ماك نيس يحبّها أكثر، فهي تشبه لعبة البريدج كثيراً لكن بدون أشخاص سيئين.

طبعاً، فأنا لست واثقاً إن كان هناك أيّ كتاب يمكن أن يساعدهم، قال روستر ماك نيس وهو يتطلع حوله إلى رفاقه الآخرين في الخيمة لتفادي النظر إلى فون كسلر. فلديهم وصمة عار قاتلة.

حسناً، قال جيمي بيغيلو الذي لم يكن يعرف ماذا يريد روستر ماك نيس أن يقوله، وتابع روستر كلامه وقال إنه يكره كثيراً كتاب مين كامبف، وأنه يمقت هتلر، ويكره أن يحفظ عن ظهر قلب صفحة واحدة من هراء آكل السجق هذا كلّ يوم، لكنه عندما كان في معسكر أسرى الحرب الجاويين، بدأ هذا التمرين من أجل الانضباط العقلي، وهو الكتاب الوحيد الذي عثر عليه. كانت لحيته تلمع قليلاً من اللعاب، وقال إن على المرء أن يعرف المرء حجج العدو، ولا يوجد لهذا المحتوى أي معنى لأغراض تمرينه. لم يقل إنه فوجئ إلى أي مدى وجد أن هتلر رجل عاقل.

إني أقول لك إن الإيطاليين والهولنديين يقفون وراء ذلك، قال تشام فاهي، إني أثق به، فقد بعته معطفي السميك.

وسأل روستر ماك نيس على ماذا حصل مقابل معطفه.

ثلاثة دولارات وقليل من سكر النخيل وكتاب.

إن المعطف يساوي عشرة شلنات على الأقل، قال روستر ماك نيس الذي يكره الهولنديين أيضاً مهما كان أصلهم. وسأله ما هو الكتاب؟

رواية جيدة عن رعاة البقر.

أغضب ذلك روستر ماك نيس.

قد لا ترغب في شيء أفضل من رواية «جريمة قتل في المزرعة الحمراء» أو «غروب على الحظيرة»، انفجر قائلاً، لكن ليساعد الله أستراليا إذا كانت تلك هي العقلية الأسترالية.

سأل تشام فاهي عمّا إذا كان روستر ماك نيس مستعد لمقايضة كتاب مين كامبف بكتابه. رفع نسخة وسخة مهترئة من رواية «الشمس الغاربة والنجم المشرق».

لا، قال روستر ماك نيس، لا، لا أريد.

مع أن نور الصباح كان لا يزال خافتاً، فقد تسلل إلى خيمتهم ببطء بلون أزرق داكن. فجأة توقفت الأحاديث التي كانت تدور بين الأسرى الذين استيقظوا، واتجهت نظراتهم باتجاه واحد، من فوق كتف روستر ماك نيس. ثم انطلقت ضحكة مكتومة من فوق المصاطب. واحداً تلو الآخر، فرك الأسرى عيونهم لكي يتيقنوا من أن ما يرونه هو ما يرونه حقاً. أدار روستر ماك نيس رأسه. كان أكثر الأشياء غرابة وغير متوقّعة. عاد يقضم شعر لحيته.

بدأ القلق يساور العديد من الرجال من أن قدرتهم الجنسية ستتأثر بعد الحرب لأنهم بدأوا يشعرون بأنهم فقدوا شهوتهم الجنسية بالكامل بسبب الجوع والأمراض التي أصابتهم جميعاً تقريباً. لكن الأطباء طمأنوهم وأكدوا لهم بأن الأمر كله يتعلق بنوعية الطعام، وعندما تُحل هذه المشكلة فإنهم سيعودون إلى طبيعتهم السابقة. وبالرغم من ذلك ظل الأسرى يتساءلون هل سيكونون رجالاً يتمتعون بالكفاءة بعد انتهاء محنتهم. ولم يتذكّر أحد منهم آخر مرة حدث لديه أي انتصاب. وقلق بعضهم إن كانوا سيتمكنون من مضاجعة زوجاتهم بعد رجوعهم إلى ديارهم. وقال غاليبولي فون كسلر إنه لا يعرف أحداً انتصب قضيبه منذ عدة أشهر، بينما ادعى شيفيد مورتن بأن قضيبه لم ينتصب منذ أكثر من سنة.

إذاً كان الذي رأوه أمامهم مشهداً عجائبياً للغاية لا يمكن تفويته لشدة روعته.

ها هو تايني العجوز، قال غاليبولي فون كسلر، فعلى الرغم من أنه كان يقرع باب الموت، فإن قضيبه يشبه عود خيزران تحت المطر.

نهض تايني مدلتون الذي كان لا يزال يداعبه النعاس بجسده الذي يشبه هيكلاً عظمياً - ذلك المسيحي الذي كان جسده مكسواً بالعضلات ذات يوم، والذي كان نائماً على ظهره غير عابئ بما يجري حوله، يحلم بسعادة حلماً آثماً، لم يؤثر الجوع والمرض على شهوته - منتصباً، ممتداً أمامه مثل سارية علم الكتيبة. كان انتصاباً هائلاً.

اتفق الجميع على أن ما رأوه كان أمراً مشجّعاً خاصة بعد بلغ تايني مدلتون هذا الدرك في الأسابيع الأخيرة. كان المشهد رائعاً للغاية إلى حد أن الجميع خفضوا أصواتهم وهم يوقظون الآخرين ويشيرون إليهم بأن ينظروا. وفي وسط الضحكات المنخفضة،

والنكات البذيئة، والبهجة العامة التي أحدثها هذا المشهد، أبدى رجل واحد اعتراضه.

هل هذا أفضل ما يمكننا أن نفعله؟ سأل روستر ماك نيس، أتسخرون من رجل وهو في حالة سيئة؟

لاحظ تشام فاهي أن تايني ينظر إليه.

لا توجد لديكم أي حشمة أيها الرجال، تمتم روستر ماك نيس.

لا يوجد احترام. كما كان الحال لدى الأستراليين القدماء.

سأغطيه من أجلك يا روستر، قال داركي غاردنر. التقط كسرة كبيرة من قشر بيض البطّة من فوق فخذه، وانحنى ووضعها بعناية فوق رأس القضيب المنتصب.

واصل تايني نومه. انتصب قضيبه المعتمر قبعة مثل نبتة فطر طازجة في الغابة ترتعش قليلاً مع نسائم الصباح الباكر.

من الخطأ السخرية، قال روستر ماك نيس، لا نكون أفضل من اليابانيين الحقيرين إذا فعلنا ذلك.

أشار داركي غاردنر إلى قشرة البيض التي بدت مثل قلنسوة.

لقد رُقّي إلى مرتبة البابا، يا روستر، قال داركي غاردنر.

لعنك الله يا غاردنر، قال روستر ماك نيس، اترك الرجل المسكين وشأنه واترك له شيئاً من الحشمة.

سحب روستر ماك نيس نفسه وانتصب جالساً، ثم نهض وسار إلى المكان الذي ينام فيه تايني مدلتون. انحنى بين ساقي تايني المتباعدتين، ومد يده ليزيل ما اعتبرها مزحة مهينة.

ما إن التفت أصابعه حول قشرة البيض، حتى أفاق تايني مدلتون. عندما التقت عيونهما، تجمدت يد روستر ماك نيس فوق قشرة البيض، بل ربما سحقتها قليلاً. انتصب تايني مدلتون في جلسته بغضب وبقدرة لا تتناسب مع جسده الذاوي.

إنك منحرف حقير، يا روستر.

شاعراً بالمهانة من سخرية الجميع وضحكات داركي غاردنر، عاد روستر ماك نيس إلى مكانه فوق مصطبة النوم، واكتشف اكتشافاً محزناً. فعندما راح يفتش في جعبته عن كتاب مين كامبف، اكتشف أن بيضة البطة - التي كان قد اشتراها قبل ثلاثة أيام وخبأها في جعبته - قد اختفت. فكّر بالبيضة المفقودة، وبقشرة بيض البطّة التي وضعها داركي غاردنر على قضيب تايني مدلتون، وعرف في الحال أن الأمير الأسود هو من سرق بيضته.

بالطبع لم يكن بإمكانه أن يفعل شيئاً - فلا بد أن غاردنر سينكر سرقتها، وسيسخر منه الآخرون أكثر، بل لعلهم سيستمتعون بفكرة السرقة. لكنه في تلك اللحظة أحس بكراهية تجاه غاردنر - الرجل الذي سرقه ثم استخدم هذه السرقة لإهانته - كراهية تتجاوز أيّ مشاعر سيئة نحو اليابانيين. كانت الكراهية هي كلّ شيء بالنسبة لروستر ماك نيس.

- ٤ -

ارتدى داركي غاردنر ملابسه. وبما أنه لم يكن لديه، مثل الآخرين، ملابس سوى القبعة المتهدلة التي يعتمرها والخرقة التي يستر بها قضيبه ليل نهار - خرقة وسخة يغطي بها قضيبه وشيئاً قليلاً آخر - لم يستغرق وضع ذلك طويلاً. لم يستغرق ترتيبه حشيته كثيراً أيضاً. ثم طوى بطانيته وفق تعليمات الجيش الإمبراطوري الياباني، ووضعها في المكان الذي تحدده تلك التعليمات - أسفل مكان نومه على مصطبة الخيزران. توقّف هطول المطر. وحلّ صوت طيور الغابة مكان صوت المطر في الغابة.

بينما كان يلتقط إحدى الأشياء الثمانية المتبقية التي بحوزته - طاستان مثلّمتان من الصفيح، إحداهما داخل الأخرى، يستخدمهما كصحن وكوب وعلبة طعام - وبينما كان يعلّق المقبض الرفيع كالسلك بالخرقة التي يستر بها قضيبه، سُمعت صيحة. كان بعض الحرّاس في طريقهم إلى كوخهم لإجراء تفتيش مفاجئ. انطلقت موجة مستميتة من النشاط خلال طي البطانيات وترتيب الجعب وإخفاء مواد مهربة مختلفة بقدر ما بوسعهم.

شقّ حارسان بقيادة الغونا طريقهم في الممر الأوسط للكوخ، فوقف الأسرى باستعداد أمام الأسرّة المشتركة على كلا الجانبين. قلب غونا إحدى الحقائب ورمى محتوياتها في الطين، ثم صفع رجلاً آخر لا لسبب ظاهر، ثم توقف أمام داركي غاردنر.

نزع الغونا بندقيته المعلقة على كتفه، وبحركة طويلة وبطيئة رفع بطانية داركي غاردنر بطرف سبطانة بندقيته وألقاها على الأرض الموحلة. للحظة نظر إلى البطانية الوسخة الملقاة على الأرض، ثم رفع بصره. صرخ، وبأخمص البندقية ضرب بكلّ ما أوتي من قوة أحد جانبي رأس داركي غاردنر.

سقط غاردنر على الأرض، لكنه تباطأ كثيراً في رفع ذراعه لحماية رأسه عندما ركله حارس آخر على وجهه. تلوّى على جانبه واحتمى بالمصطبة الخيزران المخصصة للنوم. لكنه لم يتمكن من عمل ذلك قبل أن يركله الغونا بقوة على رأسه. وفجأة انتهى كل ذلك كما كان قد بدأ.

واصل الغونا مشيته المتكلفة الغريبة في ممر الكوخ، وصفع تشام فاهي لا لسبب واضح، ثمّ اختفى مع حاشيته من الجانب الآخر. نهض داركي غاردنر على قدميه، مترنحاً قليلاً، رأسه لا يزال مشوّشاً، فمه مالح بالدم، جسمه يغطيه الطين الكريه.

الثنية، قال جيمي بيغيلو.

لم تكن سيئة، قال داركي.

كان يقصد الضربة. بصق دماً. كان طعم الدم شديد الملوحة وشديد الكثافة بالنسبة لجسم هزيل. بدا مضطرباً. وضع إصبعاً في فمه وتحسس الضرس الذي تلقى الركلات. كان متخلخلاً، لكن بشيء من الحظ، ظل ثابتاً في مكانه. لم يكن يشعر بأن رأسه على ما يرام.

لقد نسيتَ الثنية، قال شيفيد مورتن.

لقد طويت تلك الثنية المنيوكة، قال داركي غاردنر.

بعقب سيجارة كان قد أشعلها للتو، أمسكها بين إبهامه وسبّابته، أشار جيمي بيغيلو إلى بطانيته.

انظر، قال.

كانت الثنية نحو الخارج.

كانت الثنية التي عملتها نحو الداخل، قال شيفيد مورتن. إنها مخالفة لتعليمات اليابانيين، كما تعرف.

ظنّ الغونا أنك كنت تبول، قال جيمي بيغيلو. بعد أن نفث دخان عقب السيجارة المبلل وأعطاها لداركي.

كانت قشور متصدّعة تكسو يد جيمي بيغيلو. كانت في حالة سيئة، كلّها صفراء وحمراء. إن المرض يثير فزع داركي غاردنر. يمسك بك ولا يتركك.

هيا، قال جيمي بيغيلو، خذها.

لم يتحرك داركي غاردنر.

الموت فقط هو السائد هنا، قال جيمي بيغيلو، ولم أحظ به. صحيح؟

أخذ داركي غاردنر عقب السيجارة - ومن دون أن يدعها تلمس شفتيه - رفعها إلى فمه الفاغر.

وعلى الرغم من ذلك، قال جيمي بيغيلو.

أخذ داركي نفساً عميقاً من السيجارة. راح يراقب أربعة رجال يحملون نقّالة من الخيزران متجهين إلى المستشفى.

أظن أن هذا جيبو نولان. قال تشام فاهي.

تسلل الدخان إلى داخل فم داركي. كان حامضاً وحادّاً ولذيذاً.

لقد انتهى هذا اللاعب الرابع الذي كان يشاركنا في لعبة الكريب، قال شيفيد مورتن، ثم التفت إلى روستر ماك نيس. هل تريد أن تأخذ مكانه؟

ماذا؟ قال روستر ماك نيس الذي كان لا يزال يعتريه الألم للمهانة التي تلقاها من قشرة البيضة.

غجري. إنه... إنه -حسناً. لقد ذهب. إنه يحب لعبة الكريب. إنه يكره التفكير بها فقط -

سيموت؟

حسناً. نوعاً ما. أقصد، قد يكون غبياً، لكنّه كان يحبّ أوراق اللعب. إني أتذكّر ذلك الغجري، وأعرف أنه كان يريد أن نستمر.

لعب الكريب؟

لم لا؟ لم تكن الكريب من الألعاب التي يفضّلها جيبو.

أخذ داركي غاردنر نَفَسَاً بطيئاً وعميقاً من طرف عقب السيجارة مرة أخرى. ابتلع الدخان إلى أعماقه وأبقاه هناك. للحظة، بدا العالم هادئاً وساكناً. مع الدخان الكثيف اللزج جاء السلام، وأحسّ كأن العالم قد توقّف، وسيظل متوقّفاً طالما ظل الدخان محتبساً داخل فمه وصدره. أغمض عينيه. وعندما مدّ عقب السيجارة إلى

جيمي بيغيلو يعيدها له، استسلم إلى العدم الذي غمر جسده بالدخان الكثيف. لكن رأسه لم يكن جلياً.

أكره لعب الورق، قال روستر ماك نيس.

عاد المطر يهطل محدثاً ضوضاء شديدة. لم يكن المطر يسيل بهدوء بين أشجار الساج والخيزران التي لم تكن تصدر أنيناً، بل كانت قطرات المطر ترتطم بأعواد الخيزران الشائكة، وبدا الطوفان لداركي غاردنر أشبه بالجلبة التي تحدثها أشياء كثيرة تتكسر. كان صوت المطر صاخباً، وكان تبادل الأحاديث مستحيلاً. خرج ووقف في العاصفة ليزيل الطين العالق به. ظهرت جداول صغيرة وسخة حول قدميه بينما كان المطر يشكّل جداول وممرات عبر ممرات ودروب المعسكر. أخذ يراقب وعاء يهتزّ بالقرب من كوخهم، ثم رأى شخصاً من غرب أستراليا بساق واحدة يقفز على عكازين من الخيزران يبحث عنه.

لكن رأسه لم يكن صاحياً.

- ٥ -

اعتاد دوريغو إيفانز على حلاقة ذقنه صباح كلّ يوم لأنه كان يرى أنه يجب أن يبدو بمظهر لائق أمامهم، فإذا رأوا أنه لم يعد يبدي اهتماماً بنفسه، فلن يفعلوا هم ذلك أيضاً؟ وعندما كان يحدّق في المرآة الصغيرة، كان يرى انعكاسها الغائم يظهر وجه رجل لم يعد هو: رجل مسنّ، ناحل، ذو عظام ناتئة، فظ لا يشبهه. وأصبح يبدو ساهماً أكثر، ويعتمد دائماً على أشياء تافهة: قبعة الضابط التي يعتمرها ذات الزوايا الحادة، وشاح أحمر يعقده كمنديل حول رقبته. ربما كانت تبدو له لمسة غجرية أكثر مما كانت تبدو لهم.

منذ ثلاثة أشهر، عندما كان متجهاً إلى أحد المعسكرات أسفل النهر ليجلب أدوية، صادف عاملاً من التاميل يرتدي إزاراً أحمر مهترئاً يجلس بجانب جدول ماء، ينتظر الموت. لم يبدِ الرجل العجوز أدنى اهتمام للمساعدة التي عرضها عليه دوريغو. كان ينتظر الموت كما ينتظر مسافر حافلة. وعندما سار في الدرب نفسه منذ شهر، صادف الرجل العجوز مرّة أخرى، لكنه أصبح الآن هيكلاً عظمياً التهمته الوحوش والحشرات ولم يتبق منه شيء. رفع دوريغو الإزار الأحمر عن الهيكل العظمي، غسله، ثم مزّقه إلى نصفين، وعقد القطعة الأفضل حول رقبته. فهو يرجو أن يأتيه ملاك الموت كما أتى العامل التاميلي، مع أنه يشكّ في ذلك. فهو لا يقبل سلطة الحياة عليه، ومن المؤكد فإنه لن يقبل كذلك سلطة الموت. ولاحظ كيف أن رجاله قد تقدموا في السنّ أكثر مما لو كانوا يعيشون حياة طبيعية. في أعماقهم، هل كانوا يعرفون أن عليهم أن يعانوا كثيراً، لا أن يسببوا المعاناة؟ إنه يعرف أن أتباع المسيح يجعلون من المعاناة فضيلة. كان قد تجادل مع القس بوب حول هذا الأمر. كان يأمل في أن يكون المسيح محقّاً. لكنه لا يتفق معه. إنه لا يوافق على ذلك. فهو طبيب. المعاناة هي المعاناة، والمعاناة ليست فضيلة ولا تصنع فضيلة، وليس بالضرورة أن تنبثق منها الفضيلة. لقد مات القس بوب وهو يصيح برعب، بألم، بيأس؛ وقام على رعايته رجل قيل إنه كان مجرماً فظيعاً من عصابة دارلنغورست قبل الحرب. إن الفضيلة هي الفضيلة، وشأن المعاناة، لا يمكن تفسيرها، لا يمكن اختزالها، لا يمكن فهمهما. وفي الليلة التي مات فيها القس بوب، حلم دوريغو إيفانز بأنه مع الله في حفرة، أصلعان، يتشاجران على باروكة.

لم يكن دوريغو إيفانز غافلاً عن طبائع الأسرى الإنسانية. فهم يكذبون ويغشون ويسرقون؛ وهم يكذبون ويخدعون ويسرقون. وكان

معظمهم يتمارضون وهم الأكثر صحة من بين جميع الأسرى. وكان النبل في الغالب يتحاشاهم. وكان قد صادف البارحة رجلاً مريضاً جداً. كان منكباً على وجهه، ولم يكن خارج الطين سوى أنفه، عند أسفل وجه الصخرة التي تؤشّر على نهاية الدوللي، لم يكن بإمكانه إن يقطع مئات الياردات القليلة الأخيرة لبلوغ الكوخ. مرّ رجلان بجانبه، كانا منهكين تماماً، لا يقدران على مساعدته، يجاهدان للحفاظ على ما تبقى لديهما من الطاقة القليلة للبقاء أحياء. كان عليه أن يأمرهما بمساعدة الرجل العاري المستلقي ونقله إلى المستشفى.

وبالرغم من ذلك، فقد كان يحملهم كلّ يوم، يرعاهم، يعانقهم، يفتح جراحهم ويخيطها، ويلعب معهم الورق ليرفع معنوياتهم، وكان يتحدى الموت لإنقاذ حياة أخرى. كان هو أيضاً يكذب ويغشّ ويسرق، لكن من أجلهم. دائماً من أجلهم، لأنه أصبح يحبّهم، وفي كلّ يوم، كان يعرف بأنه يفشل في حبّه لهم، لأن عدداً أكبر وأكبر منهم كان يموت كلّ يوم.

ومع من أنه لم يفكّر بالنساء منذ زمن بعيد، فقد كان لا يزال يفكّر بها. لقد اُختزل عالمه القابع وراء هذا المكان بها. ليس إيلا. هي. صوتها، ابتسامتها، ضحكتها ذات البحة، رائحة نومها. كان يدير أحاديث معها في داخل رأسه. هل كان يحبّ كل ذلك لأنه غير قادر على نيلها؟ لا يستطيع أن ينالها. لا يستطيع أن يجيب على نفسه. إنه لا يستطيع.

لم يكن دوريغو إيفانز أسترالياً مثالياً وكذلك هم. إنهم متطوعون من الأطراف، من أحياء الصفيح والمناطق الفقيرة في بلدهم الواسع الأرجاء: رعاة، صيّادون، عمال موانئ، صائدو كنغر، عاملون في مكاتب، صائدو الكلاب الأسترالية (الدنغو)، وجزازو صوف الأغنام. وهم كذلك موظفون في المصارف، ومعلمون، ومساعدون

في دكاكين، وحطابو أشجار الصنوبر. مقامرون رخيصون، أشخاص يعيشون على المعونات الحكومية، منتهزو فرص، متسكعون، مشاكسون، رعاع، ندل، مجرمون، أغبياء، ولقطاء قساة لفظهم الكساد الاقتصادي، تربوا ونشأوا في أكواخ في الأحياء الفقيرة بدون كهرباء. آباؤهم ميتون أو مشلولون أو فقدوا صوابهم في الحرب العظمى وأمهاتهم يعشن على الأسبيرين والأمل، في مستوطنات الجنود، في معسكرات الإعانات، وأحياء الصفيح، والمدن الفقيرة، في عالم القرن التاسع عشر، دخل مترنحاً إلى منتصف القرن العشرين.

مع أن كلّ رجل يموت كان يخفض من عددهم، فإن أسرى الحرب الألف الذين كانوا قد غادروا تشانغي أولاً باعتبارهم «قوة جي إيفانز» - خليط من رجال من تسمانيا ومن غرب أستراليا استسلموا في جاوة، ورجال من جنوب أستراليا استسلموا في سنغافورة، والذين نجوا من المدمرة الغارقة «إتش إم أي إس نيوكاسل»، وحفنة من الرجال من فيكتوريا ونيو ساوث ويلز بسبب النكسات العسكرية الأخرى، وبعض الطيّارين التابعين للقوات الجوية الملكية الأسترالية - لا يزالون في «قوة جي إيفانز». هكذا كانوا عندما وصلوا، وسيظلون هكذا عندما يغادرون «قوة جي إيفانز» المؤلفة من ألف روح، لا يهم، حتى لو لم يخرج منهم من المعسكر، في النهاية، إلا رجل واحد. إنهم الناجون من عقود عصيبة كئيبة بلغوا هذا الدرك: إيمان أحدهم بالآخر، الإيمان بأن يتشبث أحدهم بالآخر بقوة أكثر عندما يأتي الموت، لأنه إذا ترك الأحياء الأموات، فلن تعود هناك أهمية لحياتهم. إن بقائهم أحياء يتطلب منهم أن يكونوا شخصاً واحداً، الآن وإلى الأبد.

وصلت من أستراليا حقيبة مليئة بالرسائل بالشاحنة التي غاصت إطاراتها في الوحل. ساد شعور نادر وغير متوقّع بالسعادة. كان الأسرى يعرفون أن اليابانيين يمنعون وصول جميع الرسائل، وسادت حماسة شديدة عندما فُتحت الحقيبة قبل انتهاء طعام الفطور ووزّعت محتوياتها. غمرت دوريغو سعادة عندما تلقى أول رسالة منذ سنة تقريباً. وحتى قبل أن يلقي نظرة على خط اليد، عرف من مغلف البطاقة الصلب أنها من إيلا. قرر أن يفضّ المغلف في المساء، ليؤجل بهجة الإحساس بأنه لا يزال هناك عالم آخر أفضل في مكان آخر، عالم له مكان فيه سيرجع إليه ذات يوم. لكن عقله ثار على الفور وفضّ المغلف، وفرد الورقتين بحماسة شديدة حتى كاد أن يمزّق جزءاً منها. بدأ يقرأ بغضب شديد.

بعد أن قرأ ثلثي الصفحة الأولى، توقف. وجد أنه غير قادر على مواصلة القراءة. أحسّ كأنه قفز إلى سيارة واندفع بها مباشرة إلى جدار. استمرت حروف الكلمات التي خطّتها إيلا بأناقة تتناثر وتخرج من الصفحة مثل ذرات غبار، وتشكل عدداً أكبر وأكبر من ذرات الغبار التي تتصادم، ووجد صعوبة في استحضار وجهها إلى ذاكرته. بدا الأمر حقيقياً للغاية، وغير واقعي تماماً، في آن معاً.

لم يكن يعرف إن كانت الملاريا التي كان لا يزال يتعافى منها، أو الإعياء، أو صدمة تلقي الرسالة الأولى منذ فترة طويلة هي السبب. قرأها ثانية لكنه ضاع في ذاكرة دقيقة وغير دقيقة في آن معاً. بدت ذرات الغبار أكثر لمعاناً وأكثر وحشية، وكانت الشمس في هذا الوقت المتأخر من اليوم تعمي الأبصار أكثر من أي وقت مضى، ومع

ذلك لم يتمكن من رؤية وجهها بوضوح. قال لنفسه: هكذا هو العالم. هكذا هو فقط.

تذكّر نفسه وهو جالس في شاحنة المخبز الصغيرة من طراز أوستن التي كان يقودها نحو الساحل. كان باستطاعته أن يشمّ رائحة المقاعد المنجّدة اللاذعة ورائحة الطحين النتن، وأن يحسّ بلسعتها الحارقة تحت حرارة أديليد اللاهبة عندما بدأ بزيارة فندق عمّه بانتظام. تشنجت معدته من شدة التوتر، وجفّ فمه، وضاق قميصه كثيراً عليه، وكان يسمع دقات قلبه الخافق بقوة. الفندق الذي تذكّره كما لو كان أمامه: الشرفات العميقة المعتمة؛ الحديد المخرّم الصدئ المتقشّر؛ أمواج البحر الزبرجدية اللون المتناثرة مع الرياح؛ صوت غناء ليزلي هتشينسن يُسمع من بعيد وهي تغني 'تلك الأشياء الحمقاء'، كأنه يطوف فوق موجة ضحلة، لكنه لم يتذكّر شيئاً عن وجه أيمي.

تساءل عن الرغبة التي كانت تدفعه لأن يكون معها، ومعها فقط، لأن يكون معها ليل نهار، بل ليسمع أكثر حكاياتها كآبة، أكثر ملاحظاتها وضوحاً. الرغبة في أن يمرر أنفه فوق ظهرها، في أن يشعر بساقيها تلتفان حوله بقوة، ويسمعها تتنهد وتلفظ اسمه. هل هذه هي الرغبة التي تغمر كلّ شيء آخر في حياته؟ كيف يمكنه أن يسمّي هذا الألم الذي يعتريه في معدته عندما يتذكرها، هذا الضيق الذي يشعر به في صدره، هذا الإحساس الساحق بالدوار؟ وكيف يمكنه أن يقول - بكلمات غير تلك الكلمات الأكثر وضوحاً - بأنّه مهووس الآن بفكرة واحدة فقط يبدو أنها تنحو أكثر إلى الغريزة: بأن عليه أن يكون بقربها. أن يكون معها ومعها فقط.

كانت تتوق إلى إظهار عواطفها وبوادر مودّتها له. كانت أتفه الهدايا تثير عواطفها باستمرار، تطمئنها بأن مشاعره تجاهها لم

تتبخر. كانت الهدايا والإفصاح عن مشاعره ضرورية لها. ماذا لديها من إثباتات عن الحب غير ذلك؟ كانت تنكر إمكانية وجود رجل وامرأة، وكان ذلك هو الدليل الوحيد الذي قد يكون بحوزتها، الآن ولاحقاً، بأنّها ذاقت ذات يوم تلك البهجة. ربما كانت أيمي، في أعماق قلبها، بخلاف دوريغو، امرأة واقعية، أو هكذا خيّل إليه. ففي أحد الأيام، عندما كانا معاً في المدينة، كاد يسحب كلّ مدّخراته ليشتري لها قلادة لؤلؤ. قلادة فيها لؤلؤة واحدة تزين سلسلة فضّية. ذكّرته بتلك اللحظة عندما نظر من فوق خصرها إلى الطريق والقمر المضيء فوق البحر. أعربت عن أسفها الشديد لحماقته، وطلبت منه مرتين أن يعيدها، لكن لم يكن بإمكانها أن تنكر بهجتها، لأنها حصلت على ما كانت تتمنى أن تحصل عليه، مع أنها لم تستطع أن ترتديها على الملأ قط: برهان عليهما. حتى الآن، يستطيع أن يرى القلادة، مع أنه لا يتذكر شيئاً عن معالم وقسمات وجهها.

عندما رأيتني أول مرة في المكتبة، قال لها وهو يقفل إبزيم القلادة المثلث الشكل، وقبّل ظاهر عنقها. أتذكرين؟

طبعاً، قالت، وهي تلمس بإصبعها اللؤلؤة.

الآن أتساءل إن كنتِ قد انضممتِ إلينا في تلك اللحظة.

ماذا تقصد؟

لكنه لم يعرف ماذا كان يقصد، وخشي إلى أين ستقوده أفكاره. وإذا كان الأمر كذلك، فهل لديه القدرة على التحكم بحياته؟ تذكّر ذات صباح عندما كان يسبح، بانتظار عودتها من البلدة. أمسك به تيار بحري وجرفه بضع مئات الياردات قبل أن يتمكنِ من تفاديه.

التيار البحري، قال، تيارنا.

ضحكت، وقالت: إنها قلادة جميلة.

حتى الآن، يمكنه أن يرى قمر القلادة الصغير يتلألئ تحت ضوء

المحل. يمكنه أن يرى الإبزيم المثلث قابعاً على ظاهر عنقها مؤطّراً ذلك الزغب الخفيف بحافته الصنوبرية، لكن ذرات الغبار ملأت المكان فجأة، وازدادت الجلبة التي كان المطر يحدثها ولم يتمكن من رؤية وجهها، لم يتمكن من سماع صوتها. كان بونوكس بيكر واقفاً بجانبه يقول له قد حان موعد إعلان الإيقاظ، ولم تكن أيمي هناك.

إذا لم نذهب الآن، قال بونوكس بيكر، فإننا سنتأخر، والمسيح وحده يعرف أي لقيط مسكين سيرسلونه إلى العمل.

للحظة، اعترى دوريغو إيفانز شعور بالاضطراب أين هو. كان لا يزال غير متيقن تماماً، وضع الرسالة بجانب سريره وخرج إلى المطر.

وقال لنفسه: هكذا هو العالم. هكذا هو فقط.

- ٧ -

تأخر روستر ماك نيس في الالتحاق بالمجموعة المنهكة التي راحت تشقّ طريقها تحت وابل المطر وتخوض في طين معسكرهم اللعينة باتجاه المطبخ. وما عدا الخرق التي كانت تستر قضبانهم، وقبعات القوات الجوية الأسترالية المتهدلة، كان معظمهم عراة. وكلما كان ما يستر أجسادهم أقل، بدت أجسامهم أكثر نحولاً وإرهاقاً، وبدا أنهم يعتمرون قبعاتهم المتهدلة مثل رجال متسكعين مشاكسين، كأنهم كانوا خارجين لقضاء ليلة لاحتساء البيرة وارتياد بيوت الدعارة في فلسطين، لكنهم لم يكونوا يرتدون بدلاتهم بأناقة كما كانوا آنذاك.

كانت رائحة دخان الخشب، والملاذ الصغير للغبار الجاف

والدافئ حول مواقد النار المصنوعة من الطين والخام، وسهولة الرجال الذين سيُقدم لهم الطعام، وهمهمة أحاديث، تضفي جميعها غالباً أجواء لطيفة على المطبخ، وتمنح لمسة ودية في عالم أجنبي غير ودي. وفي ذلك الصباح، كان المطر ينهمر بغزارة ويتسلل إلى داخل المطبخ، وكانت جداول عديدة صغيرة من الماء تتساقط من السقف المغطى بسعف نخيل شجر أتاب، لكنها سرعان ما كانت تتبخّر ما إن تلامس المواقد، وتزيّن الرزّ في قدور الطهي العريضة المصنوعة من الحديد الصبّ بالسخام الذي ينبعث من العوارض الخشبية المسودّة، وكان الماء يغطي الأرضية بارتفاع بوصتين.

تقدم روستر ماك نيس إلى الأمام وفك قصعته. وعندما جاء دوره، مدّ يده بالطاستين. سُكب في إحداهما كوب صغير من الرزّ الممزوج بالماء والطين لطعام الفطور، وسُكبت كرة رزّ وسخة في الأخرى للغداء.

هل ستتحرك أم لا؟ قال صوت خلفه.

استقام روستر ماك نيس في وقفته. خاض في الماء ثم خرج ثانية إلى مطر الرياح الموسمية. كان خياره الآن: إمّا أن يحاول العودة إلى المنحدر الزلق ويحمل الرزّ المليء بالماء إلى خيمتهم ثم يجلس ويتناول فطوره، وإما أن يفعل كما يفعل العديد من الأسرى الآخرين، فيقف تحت المطر ويزدرده بأسرع ما يستطيع. فهو ليس طعاماً بل وسيلة للبقاء على قيد الحياة.

رأى داركي غاردنر يمرّ من أمامه عائداً إلى الكوخ الذي ينامون فيه ليتناول طعامه. كانت لدى داركي غاردنر طقوس صغيرة يمارسها عندما يتناول طعامه، كأنه يعدّ العدة لا لتناول كتلة من الرزّ الفاسد بل لتناول شواء يوم الأحد. أما روستر ماك نيس، فعلى الرغم من أنه كان يحاول جاهداً كي لا يبتلع الفضلات التي يتناولها، فقد كان

يخفق دائماً. كان يرى أن الإحساس بالاستمتاع بالإبقاء على الطعام لدقيقة أو دقيقتين لمجرد معرفته بأنه يستطيع الآن أن يأكل، والاستمتاع بالتوقع بقدر استمتاعه بتناول الطعام تقريباً، في تناوله له ببطء، يتذوق اللقيمات القليلة، بل حتى مضاعفتها، يقسمها إلى عدة قطع على الملعقة، بدلاً من الثلاث أو الأربع لقيمات التي تشكّل كلّ طعامه، لكنّه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك بنفسه.

وكان روستر ماك نيس يكره اللحظة، بعد أن يكون قد تناول الحصة المخصصة له من الرزّ، التي يرفع فيها عينيه ليرى رجلاً مثل داركي غاردنر لا يزال يأكل، يأكل ببطء وبهدوء ما تبقى من الطعام. في تلك اللحظات، كان روستر ماك نيس يحاول ألّا ينظر، أن يتجاهل الغيرة التي نفخت أحشاءه الفارغة على نحو مؤلم، أن يبعد عنه الغضب الذي يمزّق عقله المسعور، ويقسم بأنه في المرة القادمة سيأكل هو أيضاً بحكمة، بحرص، ببطء؛ وأنه سيكون في المرة القادمة، هو روستر ماك نيس، واحداً من الذين ستلتفت إليه كلّ تلك الوجوه التي في شكل جماجم، كلّ تلك الأنوف الكبيرة الناتئة، والعيون الكبيرة الحالمة، وتنظر إليه بحسد، مستميتاً لتناول قليل من طعامه. وفي المرة القادمة، سيكون هو الشخص الذي ينعم بهذه الكرامة الغريبة التي جعلت من تناول فضلات طعام عملاً يتسم بالشجاعة، بل حتى بالتحدي.

لكنّه لم يتمكن من عمل ذلك قط.

كان جوعه أشبه بجوع حيوان بري. كان جوعه مستميتاً، مجنوناً، يطلب منه أن يلتهم أي طعام يعثر عليه بأسرع ما يمكنه. كل فقط، يصرخ جوعه! كل! كل! وطوال الوقت كان يعرف بأن جوعه هو الذي يأكله.

سمع روستر ماك نيس صوت صرخة. نظر إلى الأعلى فرأى

داركي غاردنر قد انزلق في الوحل وتناثرت كتلة الرز في كل مكان. التقت عيناه بعيني داركي غاردنر المذهول للحظة أطول مما كان يتمنى، وعندما نظر إلى الأسفل، رأى كيف كان الرزّ يذوب تحت الأمطار الغزيرة في الوحل ليصبح بقعة رمادية لامعة.

مشيحاً بوجهه، ومولياً ظهره لداركي، التهم روستر ماك نيس ما تبقى من الرزّ. تلاشى في لحظات قليلة. إنها لا شيء، قال لنفسه. إن المرء يحتاج إلى عشرة أضعاف هذه الكمية من الطعام من أجل الفطور.

إن الخنزير الأصفر القذر يجوّعنا جميعاً حتى الموت، همس ذلك إلى لا أحد معين.

عندما أنهى طعامه، التفت فرأى تايني مدلتون طيفاً غريباً شديد النحول إلى درجة أن ردفيه كانا ناتئين مثل أذني فيل وهو يساعد داركي غاردنر على النهوض على قدميه. وبينما لعق روستر ماك نيس كلّ ما تبقى في قصعته، راح يراقب الهيكل العظمي وهو يلتقط طاسة داركي غاردنر، وغَرَفَ نصف حصته من الرزّ ووضعها في طاسته وأعادها إليه.

أغلق روستر ماك نيس قصعته وكرة الرزّ في داخلها، وعلّقها في سرواله الجي سترينغ. لم يفهم كيف أن رجلاً مهاناً يساعد معذّبه بالتضحية بنصف طعامه. إن هؤلاء الرجال، في رأيه، لا يعرفون الخجل ولا احترام النفس. انتابه إحساس بالراحة يقارب الإحساس بالانتصار بأنه لا يتعين عليه مشاركته في طعام فطوره. سار باتجاه الاثنين ووضع يده على كتف داركي غاردنر المغطى بالوحل.

هل تحتاج إلى مساعدة يا غاردنر؟

أنا على ما يرام يا روستر.

عندما رأى الرجال الآخرين متوجّهين إلى تجمع الصباح الآن، هرع روستر ماك نيس للانضمام بموكب مهلهل يشقّ طريقه إلى حافة المعسكر الغربية. هناك، أمام كوخ مؤلف من غرفتين جدارهما من الخيزران مسقوفتين بسعف نخيل شجر الأتاب تقومان على ركائز تستخدم كمكاتب إدارة للمهندسين اليابانيين، توجد سبخة تستخدم كساحة للتجمع. هنا يقام الاستعراض الصباحي وهنا يجري عدّهم وتقسيمهم إلى مجموعات عمل لليوم.

عندما وصل، راح روستر ماك نيس يراقب الآخرين القادمين من جميع أرجاء المعسكر: بعضهم يعرج، بعضهم يمشي منتصباً بمساعدة رفاقهم، وحمُل بعضهم على الكتفين أو على الظهر، بعضهم يزحف. وجد نفسه بجانب جيمي بيغيلو الذي راح يلعن اليوم والله.

إنه يوم جميل، قال روستر ماك نيس الذي شعر أن الأفكار الأجمل هي الأفكار الملائمة الوحيدة التي يجب أن يعبّر عنها. واكتشف أن للأفكار الأجمل أحياناً تأثيراً يحبط صحبة الرجال كالرجال الواقفين بجانبه. كان الأسرى ينحون إلى التجمع مع رفاقهم في الخيمة. وفي أفضل الأوقات، لم تكن الصحبة الحميمة تعني كثيراً بالنسبة لروستر ماك نيس الذي لم تعد تعني له كثيراً الآن بعد أن تعرض للإهانة في صباح هذا اليوم. وعندما لم يتمكن من تجنّبها، حاول أن يكسرها.

إنها كاتدرائية الطبيعة، قال روستر ماك نيس، مشيراً إلى بستان من قصب الخيزران الطويل.

عندما رفع جيمي بيغيلو عينيه الغائرتين نحو السماء، لم ير إلّا السماء المظلمة في الصباح الباكر ونتوءات الغابة السوداء تحته.

صحيح، قال جيمي بيغيلو.

انظر كيف يميل أحدهم إلى الآخر لتشكيل تلك الأقواس

القوطية العظيمة، قال روستر ماك نيس، وخلفهم أشجار الساج تتبع تلك الخطوط المخرّمة مثل واجهة زجاجية.

حدّق جيمي بيغيلو في خطّ الشجر الكئيب. سأل هل يقصد روستر ماك نيس شيئاً مثل كينغ كونغ. لم تكن نبرته واثقة.

أظن أنه توجد فيتامينات في الجمال، قال روستر ماك نيس.

قال جيمي بيغيلو إنه يظن أنّ الفيتامينات توجد في الفيتامينات.

قلت الجمال، قال روستر ماك نيس.

لم يكن يؤمن بهذه الأمور لكنه سمع رابيت هيندريكس يواصل هذا الهراء. هذه المشاعر السامية، إنها سامية، حتى عندما تسرق من الآخرين، رأى شخصية أجمل تبعده عن الطبقات الأدنى وتضمن بقاءه على قيد الحياة.

غطت السماء سحابة مطرية سوداء بسرعة جنونية، وبهت الضوء المتسلل عبر قصب الخيزران فجأة، وعادت أغصان شجر الساج تذوب في لون رمادي، وتساقطت بضع قطرات كثيفة من المطر إلى الأرض، وفي ثوان تحولت إلى طوفان هادر. وسقطت الغابة إلى شيء مستبدّ واحد، وسالت مياه متجمعة ثقيلة من فوق رؤوس الأشجار ووثبت من الأرض بجانب ساحة التجمع، كأن الأرض نفسها قد مرضت من هطول المطر وتريد أن تذهب. لكنها لم تذهب. كأن المطر يريد الهيمنة على جميع الأشياء. هطلت مزيد من الأمطار، أكثر غزارة، بعنف أشدّ، بصوت صاخب فاستسلم الرجال وتوقفوا عن الصراخ حتى توقف الجانب الأسوأ منها.

كان الأسرى لا يزالون يتدفقون. كان عدد منهم أشدّ مرضاً من أي وقت مضى، وجلس الأسرى الذين لم يكن باستطاعتهم الوقوف، أو استلقوا بجانب جذع شجرة ساج ضخمة بالقرب من ساحة

التجمع، المكان الذي يُعرف باسم «حائط المبكى». ومن وراء سيول الأمطار، راح روستر ماك نيس يراقب حفاراً يزحف فوق الوحل صوب ساحة التجمع، وكان أسير آخر يسير بجانبه، يرافقه، كما لو كانا متجهين إلى ساحة سباق. وكان يبدو أن الرجل الزاحف لا يريد مساعدة، وبدا أن الرجل الذي يسير بجانبه لا يقدم له أي مساعدة. ومع ذلك، عندما جعلهما السيل الجارف يبدوان شخصاً واحداً، بدا لروستر ماك نيس أن ثمة شيئاً جمعهما معاً.

عندما ازدادا قرباً أخيراً، أدرك أن تايني مدلتون هو من كان يزحف، وأن داركي غاردنر يسير معه كأن ذلك أكثر الأمور طبيعية في العالم. ورأى مرّتين غاردنر يقدم المساعدة لرفيقه، لكن مدلتون كان يبدو أنه عازم على الوصول إلى هناك وحده.

إن مشهد الرجلين اللذين يمقتهما من أعماق قلبه، ومشهد الرجل المقعد هذا وصديقه الذي قد يسخر منه لكنه لا يتركه أبداً، هذا المشهد الذي قد يحظى به أقل الناس مرتبة، الذي فهم روستر ماك نيس أنه لا يمتلكه، لم يعن له شيئاً وملأه مؤقتاً بأشد أنواع الحقد فظاعة. التفت روستر ماك نيس إلى قصب الخيزران وحاول مرة أخرى أن يتخيّلها أقواساً قوطية، سجنه ككاتدرائية، ويملأ قلبه بالجمال.

- ٨ -

عندما تجمّع الأسرى تحت الأمطار المنهمرة، يترأسهم دوريغو إيفانز، انتظر اليابانيون في كوخ الإدارة حتى انتهى أسوأ جزء منها، فخرجوا. وفوجئ دوريغو إيفانز عندما رأى ناكامرا معهم. فقد كان الملازم فوكوهارا عادة هو الذي يشرف على عملية اختيار الرجال.

وبخلاف فوكوهارا الذي كان يحرص دائماً على أن تبدو ساحة التجمع مثالية، كانت بدلة ناكامرا متسخة وامتلأ قميصه ببقع متعفنة داكنة. توقّف ليربط شريط لفافة ساقه التي كانت تتدلى في الوحل.

بينما كان ينتظر، أحنى دوريغو إيفانز جسمه كما فعل ذات مرة في ملعب كرة القدم، ليستعد للمواجهة. كان سيجري إحصاء الأسرى. وهي عملية مضنية يتعين فيها على كلّ رجل أن يصيح رقمه الياباني بصوت مرتفع. وبما أنه كان قائد الأسرى وطبيبهم وأعلى ضابط رتبة، أبلغ دوريغو إيفانز الرائد ناكامرا بأن أربعة رجال ماتوا البارحة، رجلان في الليل، فأصبح العدد ثمانمائة وثمانية وثلاثين أسيراً. ومن بين الثمانمائة وثمانية وثلاثين أسيراً هؤلاء، هناك سبعة وستون رجلاً مصاباً بالكوليرا موجودين في مجمّع الكوليرا، وهناك مائة وتسعة وسبعون رجلاً آخر يمكثون في المستشفى مصابين بأمراض حادّة، وهناك مائة وسبعة وستون رجلاً مصابين بأمراض شديدة ولا يمكنهم القيام بأيّ عمل سوى أداء واجبات خفيفة، ثم أشار إلى الأسرى المتكئين إلى جذع الشجرة وقال إنه يوجد اثنان وستون رجلاً مريضاً هذا الصباح.

ويبقى ثلاثمائة وثلاثة وستون رجلاً يصلحون للعمل في السكة الحديدية، قال دوريغو إيفانز.

ترجم فوكوهارا.

غو هايكو، قال ناكامرا.

يقول الميجور ناكامرا إنه يجب أن يكون لديه خمسمئة رجل، ترجم فوكوهارا.

لا يوجد لدينا خمسمئة رجل لائقين صحياً، قال دوريغو إيفانز، فالكوليرا تقضي علينا. إنها . . .

يجب أن يستحمّ الأستراليون كما يفعل الجنود اليابانيون. حمّام

حار يومياً، قال فوكوهارا، كونوا نظيفين، عندها لن تتفشى بينكم الكوليرا.

لا توجد حمّامات. لا يوجد وقت لتسخين الماء حتى لو توفر لديهم ذلك. اعتبر إيفانز تعليق فوكوهارا بأنه أكثر سخرية ومرارة.

غو *هايكو*! انفجر ناكامرا.

لم يتوقع دوريغو إيفانز ذلك. ففي الأسبوع الماضي، طلب منهم أربعمئة رجل، لكنهم توصلوا أخيراً إلى حوالي ثلاثمائة وثمانين رجلاً. لكن في كلّ يوم، يزداد عدد الأموات ويقل عدد الصالحين للعمل. وها هي الكوليرا الآن. لكنّه واصل كما بدأ وكرّر أن هناك ثلاثمائة وثلاثة وستين رجلاً صالحاً للعمل.

يقول الميجور أحضر عدداً أكبر من المستشفى، قال فوكوهارا.

هؤلاء الرجال مرضى، قال دوريغو إيفانز، وسيموتون إذا اشتغلوا.

غو *هايكو*، قال ناكامرا، دون أن ينتظر الترجمة.

ثلاثمائة وثلاثة وستون رجلاً، قال دوريغو إيفانز.

غو *هايكو*!

ثلاثمائة وثمانون، قال دوريغو إيفانز، راجياً أن يتوصلا إلى اتفاق الآن.

سان هاتشي، ترجم فوكوهارا.

يون هياكو كيو جو غو؟ قال ناكامرا.

أربعمائة وخمسة وتسعون، ترجم فوكوهارا، لن تكون هناك مساومة أخرى.

استمرا في المساومة. بعد عشر دقائق أو أكثر من الجدال، قرّر دوريغو إيفانز أنه لكي يكون اختيار المرضى مفيداً، يجب أن يستند إلى معرفته الطبية، لا استناداً إلى أوامر ناكامرا المجنونة. ثم عرض

أربعمائة رجل، مكرراً أعداد المرضى، ذاكراً بالتفصيل آلامهم التي لا تعد ولا تحصى. أما في قلبه، فقد كان دوريغو إيفانز يعرف أن معلوماته الطبية لا تجدي نفعاً في النقاش ولن تحميه. أحسّ بعجز فظيع وبجوعه أيضاً الذي كان ينهشه من الداخل، وحاول ألا يفكّر بشريحة اللحم التي كان قد رفض تناولها يتهور.

لكن بعد أن توصلا إلى أربعمئة، قال إننا لن ننجز شيئاً لصالح الإمبراطور لأن الرجال سيفيدون أكثر بكثير إن كانوا في حال أفضل. أربعمائة رجل هو أقصى ما يمكننا جمعه.

قبل أن يترجم فوكوهارا، صرخ ناكامرا بعسكري برتبة عريف. بسرعة أحضر كرسياً أبيض من كوخ الإدارة. صعد ناكامرا على الكرسي، وخاطب الرجال باليابانية. كان خطاباً مقتضباً. وعندما أنهى خطابه، نزل من الكرسي وصعد فوكوهارا.

من دواعي سرور الميجور ناكامرا أن يقودكم في بناء السكة الحديدية، قال فوكوهارا. وأضاف أنه يتأسف لأن يجد خطورة في مسألة الصحة. وفي رأيه فإن ذلك يعزا إلى الافتقار إلى الإيمان الياباني الذي يقول: إن الصحة تأتي بعد الإرادة! وفي الجيش الياباني، فإن الذين لا يتمكنون من تحقيق الهدف بسبب افتقارهم إلى الصحة هم أكثر الأشخاص خزياً وعاراً. التفاني حتى الموت المشرف.

نزل فوكوهارا من على الكرسي وصعد الميجور ناكامرا وتكلّم مرة أخرى. هذه المرّة، عندما انتهى لم ينزل، بل ظل واقفاً، وراح ينظر إلى أعلى وأسفل صفوف الأسرى.

افهموا الروح اليابانية، صاح فوكوهارا من تحته. كانت رقبته التي تشبه رقبة طائر الأطيش تتموّج كما لو كان يتقيّأ. إن اليابان

مستعدة للعمل، يقول الميجور ناكامرا، على الأسترالي أن يعمل. الياباني يأكل أقل، وعلى الأسترالي أن يأكل أقل. اليابان تأسف كثيراً، الميجور ناكامرا يقول. يجب أن يموت الكثير من الرجال.

نزل ناكامرا من على الكرسي.

اللقيط السعيد، همس شيفيد مورتن لجيمي بيغيلو.

شيء ما سقط. لم يتحرك أحد. لم يتكلّم أحد.

انهار أحد الرجال في الصف الأمامي. مشى ناكامرا، وشقّ طريقه عبر صفّ الأسرى حتى وصل إلى الرجل الذي سقط.

كوررا! صاح ناكامرا.

عندما لم تظهر أي استجابة لما حدث ولم تُسمع صيحة ثانية، ركل الميجور الياباني الرجل الذي سقط في بطنه. نهض الرجل يترنح على قدميه قبل أن يقع مرة أخرى. ركله ناكامرا بقوة ثانية. مرة أخرى نهض الأسير على قدميه لكنه عاد وسقط. كانت عيناه الضخمتان المصفرتان جاحظتين مثل كرتي غولف قذرتين غريبتين. أشياء مفقودة من عالم آخر لم يحركه كلّ هذا الركل أو الصراخ من ناكامرا. وجهه الذاوي وخداه الغائران جعلوا فكّه يبدو أكبر من حجمه الطبيعي. بدا مثل خطم خنزير برّي.

سوء التغذية، قال دوريغو إيفانز لنفسه، ولحق بناكامرا. جثا الآن بينه وبين الرجل. كان الرجل مستلقياً في الوحل، لا يأتي بأي حركة. كان جسمه متصلباً ضامراً تملؤه التقرحات والدمامل والجلد المقشّر. داء البلاغرا، ومرض البري بري، والمسيح وحده يعرف أي أمراض أخرى، قال دوريغو لنفسه. لم يكن ردفا الرجل يزيدان على سلكين بائسين، فتحة شرجه ناتئة مثل عقدة عمامة قذرة، سائل لزج نتن زيتوني اللون ينزّ منه ويسيل على عظام ساقه الرفيعة. زحار

أميبي. رفع دوريغو إيفانز الرجل الغارق في غائطه بين ذراعيه، ونهض واتجه نحو ناكامرا. كان الرجل المريض يتدلّى بين ذراعيه مثل حزمة من الأعواد المكسورة الموحلة.

ثلاثمئة وتسعة وتسعون رجلاً، قال إيفانز.

كان ناكامرا طويل القامة بالمقارنة مع جندي ياباني، ربما خمسة أقدام وعشر بوصات، متين البنية. بدأ فوكوهارا يترجم، لكن ناكامرا رفع يده وأوقفه. عاد إلى دوريغو إيفانز وصفعه على وجهه بقفا يده.

هذا الرجل مريض جداً ولا يستطيع أن يعمل شيئاً في سبيل اليابان، أيها الميجور.

صفعه ناكامرا صفعة ثانية. وبينما استمر ناكامرا يصفعه، ركّز إيفانز على ألّا يسقط الرجل المريض. كان دوريغو إيفانز الذي يبلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات، طويلاً بالنسبة لشخص أسترالي. هذا الفرق في الطول ساعده في البداية على تحمل الصفعات، لكنها بدأت تحدث تأثيرها ببطء. ركّز على المحافظة على توازن قدميه، على ألّا يتأرجح، على ألّا يقبل أيّ ألم، كما لو كانت مجرد لعبة. لكنّها لم تكن لعبة. كانت أيّ شيء لكنها لم تكن لعبة، وكان يعرف ذلك أيضاً. وعلى نحو ما، شعر بأن من الصواب أن يُعاقب.

لأنه كذب.

لأن ثلاثمائة وثلاثة وستين ليس العدد الحقيقي، ولا ثلاثمائة وتسعة وتسعين. لأن العدد الحقيقي هو صفر، قال دوريغو إيفانز لنفسه. لا يوجد أسير مستعد لتنفيذ ما يتوقعه اليابانيون. فجميعهم يعانون بدرجات متفاوتة من الجوع والمرض. كان يتلاعب دائماً لأن ذلك أفضل ما يمكنه أن يفعله. وكان دوريغو إيفانز يعرف أنه يوجد عدد غير الصفر الذي هو أيضاً العدد الحقيقي، وذلك العدد هو العدد الذي يجب أن يحسبه، إضافة إلى الذين لا يرجح أن يموتوا إلى

الثلاثمائة واثنين وستين مريضاً الحاليين. كان يخطر له هذا الحساب الفظيع يومياً.

بدأ يلهث الآن. بينما استمرت صفعات ناكامرا تنهال عليه، كان يركّز على المرضى الذين سُيدخلون إلى المستشفى ثانية، وعلى الرجال الذين يتماثلون للشفاء، وعلى الرجال ذوي المهام الخفيفة. وبينما كان يصفعه ناكامرا على جانب وجهه، ثمّ على الجانب الآخر، راح يعدّ مرة أخرى عدد المرضى في المستشفى - قد يكونون اثنين وأربعين، إذا عولجوا جيداً، من الممكن تحوّيلهم إلى المهام الخفيفة، ويمكن وضع ذات عدد أفضل رجال المهام الخفيفة في مجموعات العمل، فيبلغ العدد الإجمالي أربعمائة وستة رجال. نعم، قال لنفسه، هذا هو أقصى عدد يمكن إيجاده، أربعمائة وستة رجال. ومع ذلك، كان يعرف اليوم، بينما لم يتوقف ناكامرا عن صفعه، بأنه لن يكون كافياً. عليه أن يقدم لناكامرا عدداً أكبر من الرجال.

وفجأة كما بدأ، توقّف الميجور ناكامرا عن صفعه وابتعد عنه. حكّ ناكامرا رأسه الحليق ورمق الأسترالي. حدّق فيه بقوة، وفي أعماق عينيه، بادله الأسترالي التحديق، وفي تلك النظرات المتبادلة عبّرا عن كلّ شيء لم يرد في ترجمة فوكوهارا. كان ناكامرا يقول إنه هو السيد، مهما حدث، فيجيبه دوريغو إيفانز بأنه على قدر المساواة معه وبأنه لن يستسلم له. عندما انتهى هذا الحديث الصامت أخيراً استمرت المساومة في بازار الحياة والموت الغريب هذا.

قال ناكامرا يجب أن يكون العدد أربعمائة وثلاثين رجلاً، ولم يتزحزح. هدر إيفانز، صمد، توعد أكثر. لكن ناكامرا بدأ يحكّ مرفقه بشراسة وتكلّم الآن بعنف.

هذه إرادة الإمبراطور، ترجم فوكوهارا.

أعرف، قال دوريغو إيفانز.

لم ينبس فوكوهارا بكلمة.

أربعمئة وتسعة وعشرون، قال دوريغو إيفانز وانحنى.

وهكذا عقدت صفقة اليوم وبدأ عمل اليوم. تساءل دوريغو إيفانز لبرهة هل ربح أم خسر. لقد لعب اللعبة بأفضل ما بوسعه، وفي كلّ يوم كان يخسر المزيد قليلاً، وتحسب الخسارة في حياة الآخرين.

توجه إلى حائط المبكى وأسند الرجل المريض إلى جانب جذع الشجرة مع المرضى الآخرين، وهمّ بالذهاب إلى المستشفى ليبدأ بالاختيار عندما انتابه الشعور بأنه خسر أو أضاع شيئاً.

ثم عاد.

بنفس الطريقة غطت جذوع الأشجار عوارض السكة، وغطت سوق الخيزران المتساقطة القضبان الحديدية وأيّ أشياء جامدة أخرى، كانت قطرات المطر تتلوى الآن كالأفعى فوق جثّة تايني مدلتون. ولم يتوقف المطر عن الهطول.

- ٩ -

أهذه لك؟ سأل شيفيد مورتن، مقدماً لداركي غاردنر مطرقة ثقيلة من المستودع الذي يجمع فيه الأسرى أدواتهم. كانت يداه ضخمتين مثل ملزمة، وله رأس وصفه هو نفسه بأنه أكثر صلابة من الطريق خارج روزبيري. ولم يستمد اسمه من شكله، بل من طفولته عندما نشأ في كوينز تاون - بلدة نائية لاستخراج النحاس تقع على الساحل الغربي من تسمانيا، أرض تتشكل من أجزاء متساوية من غابة أمطار استوائية ومن الأسطورة - حيث كانت عائلته معدمة ولم يكن بمقدورها شراء شيء سوى رؤوس الخراف للطعام. ولم يكن يجاري دماثته وهو صاح سوى عنفه وهو سكران. كان يحبّ الشجار. وفي

إحدى المرات، عندما كان سكراناً تحدّى حافلة محمّلة بحفارين عائدين من إجازة في القاهرة لكي تنقله. وعندما طُلب منه أن يجلس ويصمت، التفت إلى جيمي بيغيلو، وهزّ رأسه باشمئزاز، ملخّصاً عالماً من الكراهية بثمان كلمات فقط هي: لا يمكنك أن تحصل على جرذان من الفئران، يا جيمي.

إنها لتايني، قال داركي غاردنر.

كان تايني قد وضع علامة على أفضل مطرقة في مجموعة المعسكر وحفر على مقبضها الحرف T ليتمكن هو أو داركي من تمييزها صباح كلّ يوم.

إنها أفضل مطرقة، قال شيفيد مورتن الذي يهتم بهذه الأمور كثيراً. كان المقبض مشقوقاً قليلاً لكن الرأس أثقل برطل.

ولما كان تايني قوي البنية، وبما أنهم كانوا يعملون بنظام القطعة، فقد كانت أفضل مطرقة ثقيلة. فقد كان لكلّ ضربة فيها قوّة إضافية بسبب وزنها، تضرب المثقاب بقوة أكبر وأعمق، وتساعد تايني وداركي على إنهاء حصتهما في وقت مبكر. ما عليك إلا أن تكون قوي البنية ولائقاً جسدياً مثل تايني الذي كان يرفعها ويهوي بها بدقّة.

يظن أنها تساعده، قال شيفيد مورتن، منتظراً داركي غاردنر لأن يأخذ المطرقة.

أما الآن، فلم يعودوا يهتمون بإنجاز العمل، بل أصبح كل همهم هو أن يظلوا على قيد الحياة في آخر اليوم. كان داركي غاردنر ضعيفاً جداً ولا يقوى على رفع المطرقة الثقيلة. ساعة بعد ساعة، كان ينزلها في كلّ مرة بدقّة لتصيب القضيب، ضربة بعد ضربة. أما الآن فقد بدأ يبحث عن المطارق الخفيفة فقط، المطارق العديمة الفائدة، تعلو وتهبط، محاولاً ألّا يؤذي نفسه أو من يمسك القضيب،

محاولاً أن يحافظ على قوّة كافية من أجل الضربة التالية، لكي يعيش يوماً آخر.

لقد ساعدته على الذهاب إلى القبر، قال داركي غاردنر، وهو يلتقط مطرقة خفيفة رأسها مخلخل.

أصبحوا جميعاً يريدون مطرقة أخف وزناً ليتمكنوا من حملها، أخف وزناً ليتمكنوا من رفعها، أسهل للعيش يوماً آخر. كان بإمكانه أن يحشو رأسها بأعواد الخيزران، قال داركي غاردنر لنفسه. سيكون أقل إرهاقاً عندما ينتهي النهار. أسند مقبض المطرقة باتزان إلى عظم ترقوته بشكل مريح. وعندما شعر بخفّة المطرقة، كادت أن تغمره السعادة، لو لم يشعر بأن رأسه أصبح أثقل من ذي قبل.

سرت دمدمة خفيفة في صفوف الأسرى مثل هبة نسيم ثمّ سرعان ما تلاشت. فماذا يمكن قوله حقاً؟ تبددوا وساروا باتجاه الخطّ على امتداد الدوللي، يتقدمهم حارسان يابانيان، وسار خلفهم عدّة حراس. اصطفوا وشكّلوا صفاً واحداً. وقاد الطريق أقلّ الأسرى مرضاً، يتبعهم الرجال الذين يحملون سبع نقالات يحملون عليها المرضى الذين لا يستطيعون المشي، لكن اليابانيين قرروا أنهم لاثقون للعمل على الخطّ ويمكنهم تقديم المساعدة ولا يعيقون أحداً. وسار وراءهم الرجال الذين كانوا يمرون في مراحل مختلفة من الضعف والمرض، ويأتي في الخلف تماماً الرجال الذين يسيرون يتكئون على عصي كعكازات.

موكب عيد الميلاد المنيك، قال أحدهم وراء داركي غاردنر.

ركّز على السيقان أمامه. كانت وسخة وأشبه بهياكل عظمية، وقد تمزقت أوتار ربلات سيقانهم وعضلات أفخاذهم وتشققت واختفت في المكان الذي يفترض أن تكون فيه أردافهم.

حتى قبل أن يصل هذا الموكب المرهق إلى المنحدر الصغير عند

حافة المعسكر البعيدة، حيث يتعين على الأسرى أن يتسلّقوا سلّماً من قصب الخيزران مربوطاً بسلك - متداع إلى درجة أنه كان يتعين على كل واحد منهم أن يختبر كلّ درجة قبل أن يضع قدمه عليها - أراد داركي غاردنر أن يستلقي وينام إلى الأبد. وكانت توجد فوق السلّم سلسلة من الدرجات ليضعوا أقدامهم عليها، لزجة من المطر وتفوح منها رائحة عفنة، خراء موحل. لقد بذل الأسرى العراة مجهوداً كبيراً لصعود السلم.

كانوا يتعاونون، يمررون أدواتهم عبر سلسلة بشرية، يسحبون الرجال الأضعف بنية، يساعدون حاملي النقّالات على الصعود من دون أن يقع أي حادث. هذه القوّة المشتركة تركت داركي غاردنر يشعر بأنه أقل تعباً وأقوى قليلاً عندما بلغ قمة المنحدر. كان يجب أن يستجمع كلّ طاقته وقوّته لأنه الرقيب المسؤول عن المجموعة المؤلفة من ستين رجلاً في ذلك اليوم.

كان نور الصباح لا يزال خافتاً. وعندما غادروا المنحدر ودلفوا إلى الغابة، أصبح العالم أسود وبدا الدرب مظلماً ومشوشاً أكثر مما كان يتذكره داركي غاردنر. بذل داركي غاردنر كلّ ما بوسعه ليكون قائداً جيداً للمجموعة، ليتمكن من الالتفاف حول الحرّاس بقدر ما يستطيع، وإيجاد سبل للاحتيال في ما يتعلق بحصصهم، واستغلال أي فرصة تتاح لسرقة شيء ذي قيمة، طالما لا يمكن اقتفاء أثر السرقة، والتقليل من الضرب، ومساعدة رجال مجموعته على البقاء أحياء يوماً آخر. لكنه لم يكن رائق المزاج في ذلك اليوم. كان مصاباً بشيء من حمّى شديدة - حمّى الضنك والملاريا والتيفوس والملاريا المخّية - يصعب معرفة ما هي، لكن هذا لا يهم في جميع الأحوال. وبدلاً من ذلك، حاول أن يركز على مساعدة رجاله. أخذ لفافة ثقيلة من حبال القنب الرطب من تشام فاهي، الشاب ذو الساق

المتقرّحة بشدة. كان تشام قد استعار شهادة ميلاد ابن عمه ليتطوع في الجيش، وها قد مضى عليه في الجيش ثلاث سنوات ولما يبلغ الثامنة عشرة من العمر بعد. كان داركي قد رأى فتياناً مثل تشام يتكسرون مثل أعواد قصب عندما انقلبت الحياة عليهم. ألقى الحبل الملفوف على كتفه اليسرى ليوازن المطرقة الثقيلة على كتفه اليمنى.

بينما أخذوا يصعدون الدرب، ركّز داركي غاردنر على قراءة الدرب أمامه وتنظيم جسده المنهك لوضع قدم أو ساق هنا أو هناك كي لا يؤذي نفسه. كان فطناً على الدوام، حتى عندما كان يشعر بأنه على وشك أن يسقط، ولا يزال في حالته الضعيفة، كانت لديه القدرة على التماسك. كان لا يزال يحتفظ بقوّة كافية في فخذيه وربلتي ساقيه للقيام بقفزات والتفافات صغيرة بارعة لتجاوز عقبة، واستخدام صخرة أو جذع شجرة أخرى لتفادي بركة تستنزف الطاقة، أو كتلة من الخيزران الشائك الساقط. ومرة أخرى، حاول أن يقول لنفسه أن هذا اليوم جيد وأنه محظوظ لأن لديه القوّة التي ساعدته في الحفاظ على نفسه، لأن داركي غاردنر يفهم أن الضعف يخلق المزيد من الضعف، وأنّ كلّ عثرة تؤدّي إلى ألف عثرة أخرى، وأنه كلما وازن نفسه على أصابع قدميه عندما يطأ حافة جرف، كان يركّز على المكانِ الذي سيضع فيه خطوته التالية على الصخرة التالية أو على جذع الشجرة الطيني كي لا ينزلق ويسقط ويجرح نفسه، لكي يفعل الشيء ذاته يوم غد وفي الأيام التالية. لكنّه لم يصدق، كما يظن تايني مدلتون، بأنّ جسده سينقذه. فلم يكن يريد أن ينتهي به الأمر بأن يخمش صدره ويصرخ قائلاً أنا! لم يكن لدى داركي غاردنر اعتقادات كثيرة. لم يكن يعتقد بأنه مميز أو أن هذا هو قدره. وكان يشعر في أعماقه بأن كلّ هذه الأفكار ليست إلا هراء، وأن الموت قد يعثر عليه في أيّ لحظة، كما يجد الآن العديد من الرجال الآخرين. إن الحياة ليست

مجرد أفكار. ففي الحياة قدر من الحظّ، بل في معظمها. سطح سفينة تعجّ بالركاب. الحياة هي أن تعرف كيف تضع خطوتك التالية.

سمع الأسرى صوتاً يطلق لعنة فتوقّف الرتل. عندما نظروا إلى الأعلى وإلى الخلف، رأوا حذاء داركي غاردنر عالقاً في شقّ صخرة كلسية. راح داركي يحرك ساقه إلى الأمام وإلى الوراء وتمكن أخيراً من تحرير قدمه. سرت ضحكة. كان الجزء العلوي من الحذاء الطويل لا يزال عالقاً في قدم داركي، لكن النعل انفصل بالكامل، وتمزقت الدرزات العالقة في شقّ الصخرة.

مدّ داركي يده إلى الأسفل وفصل النعل الذي انقسم إلى شطرين. ألقى القطعتين. تدلّى كتفاه. ربما كان هو من أطلق اللعنات، وربما لم يكن هو. كانوا منهمكين في معاركهم الخاصة ولم يعر أحدهم بالاً له. كان عليهم جميعاً أن يواصلوا طريقهم. تابع سيره متعثّراً، مرتجفاً. كان ما تبقى من الحذاء يخفق حول كاحله. ثمّ صرخ متألّماً عندما هزّ ساقه إلى الخلف ووقع ولم يعد يستطيع النهوض.

يبدو أنه في حالة سيئة للغاية، قال تشام فاهي.

لقد اهترئ حذاؤه، قال شيفيد مورتن.

إن ذلك لن يغيّر شيئاً، قال تشام فاهي.

بلا أحذية، كان معظم الرجال يكافحون لمواصلة السير. بلا أحذية، فإنها مسألة أيام أو ساعات قبل أن تجرح أقدامهم بأشواك الخيزران أو بشظايا الصخور الناتئة الحادة اللانهائية التي تشكّل أرضية موقع العمل. في بعض الأحيان، خلال ساعات، كانت تبدأ إصابة ما وتنتشر العدوى وتتحول خلال أيام إلى خمج، وخلال أسبوع إلى تقرحات استوائية، التقرحات التي تودي بحياة رجال كثيرين. كان يبدو أن بعض الرجال الذين كانوا يعيشون في الغابات

لم يتأثّروا كثيراً، وظلوا ينعمون بصحة جيدة، بل إن بعضهم كانوا يفضّلون السير حفاة. أما داركي غاردنر فلم يكن راع من غربي أستراليا مثل بول هيربرت، أو أسود مثل روني أوين، بل كان عاملاً في ميناء هوبارت، وقدماه طريتان ضعيفتان.

توقف الرتل، انتظر الرجال، ارتاحوا قليلاً. كان داركي غاردنر يفكّر بفطيرة كان قد تناولها ذات يوم، شريحة لحم تكسوها طبقة من المعجنات وصلصة خضراء. أيّ شيء يبعده عن هذه الغابة. بدأ لعابه يسيل. كانت صلصة المشمش متبّلة، لكنّه لم يتوقّف عن اللهاث بشدة.

يا صاحبي؟ قال شيفيد مورتن.

نعم، يا صاحبي، قال داركي غاردنر.

هل تشعر بأنك أفضل حالاً يا صاحبي؟

بالتأكيد يا صاحبي.

ستصبح في حال أفضل، يا صاحبي.

نعم يا صاحبي، قال داركي غاردنر.

عندما لهث وزفر لنصف دقيقة أخرى، محاولاً التقاط أنفاسه، رأى قرداً يجلس محنياً فوق غصن شجرة واطئ على بعد بضع ياردات أسفل الدرب، يرتجف، شعره مبلّل.

انظر إلى هذا المسكين لصغير، قال داركي غاردنر أخيراً.

إنه حرّ أيها الغبي، قال شيفيد مورتن وهو يفرق شعره الرطب بأصابعه التي تشبه قطع السجق المجفف، ثم أعاد قبعته المتهدلة. عندما أصبحُ حرّاً سأعودُ إلى مسقط رأسي كوينز تاون. سأتقدّم ولن أتخلى عنها حتى أبلغ المائة سنة.

نعم، يا صاحبي.

هل زرت كويني، يا صاحبي؟

لم يتوقف المطر عن الهطول. لم ينبس أحد من الرجلين بكلمة لفترة من الوقت. تنفّس داركي غاردنر بصوت صفير.

لا يا صاحبي.

هناك هضبة كبيرة، قال شيفيد مورتن. إنه جبل في الحقيقة، من جهة تقع كويني، ومن الجهة الأخرى، تقع غورمانستون. في وسط اللا مكان. بلدتان لاستخراج المعادن. كانتا غابتي أمطار استوائية في الماضي. لقد قتلت المناجم عدداً كبيراً من الرجال. لم تبق فيها نبتة تمسح بها مؤخرتك. لا يوجد مكان في العالم يشبهها. إنها تشبه القمر المنيك. في ليلة يوم سبت يمكنك أن تسكر، أن تتسلق الهضبة، أن تتشاجر في غورمي ثم تعود إلى بيتك في كويني. لا يمكنك أن تفعل ذلك في أي مكان آخر في العالم؟

- ١٠ -

بينما كانوا ينتظرون، دارت أحاديث قليلة أخرى لأنه لم تكن هناك أمور كثيرة يمكن التحدّث عنها. كان كلّ واحد منهم يحاول أن يحظى بقسط من الراحة، وأن يمنح جسمه الراحة التي يمكنه الحصول عليها قبل أن يبدأ هجوم العمل التالي وهو لا يمتلك أي مخزون من القوّة أو الطاقة حتى يجعل العمل محتملاً. أشعل شيفيد مورتن لفافة تحتوي على كمية من التبغ المحليّ في قصاصة صفحة من دليل تعليمات الجيش الياباني، وأخذ منها نفساً عميقاً، ثم مررها على الآخرين.

ماذا ندخّن؟

الكاما سوترا.

أليست هذه صينية؟

ما الفرق؟

كيف حال قدمه؟ سأل أحدهم من الخلف.

ليست جيدة، قال شيفيد مورتن، ورفع قدم داركي وأزال بعض الوحل عنها. حرّك القدم حول وجهه كما أنها أداة ملاحية يستخدمها لتحديد الاتجاهات.

لقد تمزق الشريط بين إصبع قدمه الكبيرة والإصبع الأخرى.

هذا شيء سيء للغاية.

اقترح أحدهم بأنهم يستطيعون صنع نعل جديد لحذائه في المساء عندما يعودون إلى المعسكر.

جيد، قال داركي غاردنر، لا يزال لديه الحذاء، صحيح؟

لم ينبس أحد بكلمة.

لا أحتاج إلّا إلى لصق نعل جديد وأعود إلى العمل.

أظن ذلك يا داركي، قال تشام فاهي.

يعرفون جميعهم أنه لا يوجد في المعسكر جلد أو مطاط لصنع نعل يمكّنه من الوصول إلى الخطّ، فما بالك بيوم عمل كامل.

هناك دائماً شيء جيد إذا فكّرت في الموضوع، قال داركي غاردنر.

أتراهن يا داركي، قال شيفيد مورتن، وفتح قصعته، وقسّم كرة الرزّ المخصصة لطعام غدائه إلى نصفين ووضع لقمة في فمه.

وهكذا كان. لا يمكن عمل شيء، وكان عليهم أن يتحركوا بسرعة. أحسّ داركي غاردنر بقصعة الصفيح تضغط على خصره بقوة عندما استلقى وتذكّر كم كان جائعاً، وأنه توجد في صندوق الصفيح الصغير ذاك كرة من الرزّ تشبه كرة الغولف يمكنه أن يأكلها الآن. لقد تلوثت بالوحل بعد سقوطه، لكن بالرغم من ذلك، فهو لا يزال

طعاماً. ويوجد في المعسكر كذلك حليب مكثّف عزم على تناوله في تلك الليلة، وهذا شيء جيد أيضاً.

انتصب في جلسته بصعوبة. أشياء جيدة عديدة، حقاً، قال داركي غاردنر لنفسه. لولا ألم قدميه ووجع رأسه، وكلما فكّر بإمكانية الطعام، ازداد إحساسه بالجوع. قد تكون الأمور جيدة إذا أُخذت كلّ الأشياء في الاعتبار.

كان بإمكانه أن يسمع صوت شيفيد مورتن إلى جانبه وهو يبتلع الطعام. وحذا عدد قليل من الرجال الآخرين حذوه. تناول بعضهم بضع حبات من كرة الرزّ لديهم؛ وابتلع بعضهم الآخر الكمية كلها في لقمة واحدة.

كم هي الساعة الآن؟ سأل داركي غاردنر ليزارد برانكوسي الذي تمكن بطريقة ما من الاحتفاظ بساعة يد.

الساعة السابعة وخمسون دقيقة صباحاً، قال ليزارد برانكوسي.

لو أنه تناول كرة الرزّ حصته الآن، قال داركي غاردنر لنفسه، لما بقي لديه شيء آخر يأكله في الاثنتي عشرة ساعة القادمة. وإذا لم يأكلها فسيكون لديه خمس ساعات حتى تحين فترة استراحة الغداء القصيرة - خمس ساعات يستطيع خلالها أن يتطلّع على الأقل إلى إمكانية الحصول على طعام، أما إذا تناولها الآن فلن يكون لديه طعام ولا أمل.

كان كما لو أنه يوجد في داخله شخصان، أحدهما يحثّه على الإحساس والحذر والأمل - فما نفع تقنين الطعام إلا لبقاء الرجل على قيد الحياة؟ - ويعبّر الآخر عن نفسه بالشهوة واليأس. وإذا انتظر حتى موعد الغداء، ألن تكون هناك سبع ساعات أخرى بلا طعام؟ ما الفرق إن لم يكن لديك طعام طوال اثنتي عشرة ساعة أو سبع ساعات؟ ما الفرق بين أن تتضور جوعاً أو أن تموت جوعاً؟ وإذا أكل الآن، ألن

يزيد ذلك فرصه في العيش في ذلك اليوم، وتجنّب ضربات الحرّاس، وأن تتوفر لديه الطاقة كي لا يقدم على خطوة خاطئة، ولا يقدم على عمل غير مناسب قد يؤدي إلى إلحاق خطر حقيقي بحياته؟

لقد أصبح شيطان الشهوة الآن قوياً في داركي غاردنر. كانت يده تمتد لتمسك قصعة الطعام المتدلية من سرواله الجي سترينغ، عندما سحبه شيفيد مورتن وأنهضه على قدميه. نهض الآخرون، وأخذ ليزارد برانكوسي المطرقة الثقيلة التي كان داركي يحملها على كتفه، لا بدافع الشفقة، بل لأنهم كانوا في هذا، كما في أمور عديدة أخرى، حيواناً غريباً، كائناً حياً واحداً ليبقوا أحياء معاً. واشتعل داركي غاردنر غضباً على الفور لأنه سُلب من طعامه بقسوة، وأحسّ بالارتياح لأنه ما زال بإمكانه الحصول على كرة الرزّ للغداء، وفي هذا المزاج الغريب من الغضب والارتياح، بدأ يمشي مترنحاً.

ثمّ سقط داركي غاردنر مرة أخرى.

أمهلوني لحظة يا شباب، قال لهم عندما سارعوا لإنهاضه.

توقّفوا. أنزل بعضهم أدواتهم، وجلس بعضهم القرفصاء، وجلس بعضهم الآخر.

كما تعرف، قال داركي، وهو مستلق في عتمة الغابة الرطبة، فإني أفكّر دائماً بتلك الأسماك المسكينة اللعينة.

عمّ تتحدث الآن يا داركي؟ سأل شيفيد مورتن.

كان يتحدث عن مطعم نيكيتاريس للسمك. في هوبارت. كيف أخذ إدي إليه لتناول الطعام بعد أن شاهدا فيلماً في السينما في يوم السبت.

سمك كوتا وبطاطا مقلية، قال لهم، إن سمك الفلايك لذيذ، لكن سمك الكوتا ألذ مذاقاً. يوجد في المطعم حوض كبير مليء بالأسماك الحيّة. ليست من تلك الأسماك الذهبية اللون - بل أسماك

حقيقية: سمك البوري والسلمون والسمك المسطح - أنواع من السمك كالتي كنّا نأكلها، وكنّا نتفرج عليها، قال داركي غاردنر، حتى أن إدي قالت إنهاتشعر بالحزن لأنهم يصطادونها من البحر وينتهي بها الأمر في هذا الحوض اللعين بانتظار المقلاة.

إنه دائماً يتحدث عن مطعم نيكيتاريس للسمك، قال ليزارد برانكوسس.

لم يخطر لي قط أن هذا هو سجنها، قال داركي غاردنر، معسكرها. ويصيبني الغثيان عندما أفكّر الآن بتلك الأسماك اللعينة القابعة في حوض نيكيتاريس.

قال لهم شيفيد مورتن بأنه كان فطيرة بطاطا بدون كيس.

طلب منهم داركي غاردنر أن يواصلوا طريقهم وإلا فإن السحالي ستنال منهم، وقال إنه سيلحق بهم عندما يستطيع.

لم يتحرك أحد منهم.

هيا يا رجال، قال.

لم يتحرك أحد منهم.

قال إنه سيستلقي هناك فقط بضع دقائق أخرى ويفكّر بنهدي إدي، بأنهما رائعان وأنه بحاجة إلى قضاء وقت وحده معهما.

قالوا له إنهم لن يتركونه وحده.

قال إنه الرقيب المسؤول عنهم ويطلب منهم أن يواصلوا طريقهم.

اذهبوا! صرخ فجأة. إنه أمر منيك. هيا اذهبوا!

أمر منيك؟ سأل شيفيد مورتن. أم أنه مجرد أمر؟

نعم، هذا مضحك، قال داركي غاردنر. مضحك كما يقرأ روستر ماك نيس كتاب مين *كامبف* (كفاحي). هيا اذهبوا. اغربوا عن وجهي.

نهضوا على أقدامهم إن كانوا جالسين، أو انتصبوا في وقفتهم إن كانوا واقفين، وبدأوا يتحرّكون ببطء. وعلى الفور تقريباً غاب داركي عن الرؤية وعن العقل. وأصبح الطريق موحلاً وخادعاً أكثر، يمرون عبر شقوق موحلة زلقة من الأحجار الكلسية الناتئة، حيث يمكن أن تُجرح الأقدام جروحاً بليغة، وهذا ما كان يحدث غالباً. وبدأوا ينتشرون بسرعة. كان مكان الرجل في الرتل يتحدد بحسب مرضه. مجموعة صغيرة، لا يزيد عددها على اثني عشر رجلاً، لا يزالون أصحاء ولائقين جسدياً في المقدمة، وفي النهاية الأخرى، الرجال الذين ظلوا يسقطون ويتعثّرون ويزحفون أحياناً، وبين أولئك، يأتي الرجال الذين يتناوبون الآن على حمل نقّالات المرضى، وهناك الرجال الذين بالرغم من أنهم لائقون جسدياً، فإنهم يبقون مع رفاقهم، يساعدونهم، يحملونهم، ولا يستسلمون أبداً.

وهكذا واصل الرتل المنكود طريقه، يشقّ طريقه على امتداد الممر الضيّق الذي أقاموه عبر أشجار الساج الضخمة والخيزران الشائك في الغابة، الكثيفة جداً التي لا تترك أيّ شكل آخر من الممرات. وهكذا واصل الرجال مسيرهم وسقوطهم، وظلوا يتعثّرون وينزلقون ويشتمون ويلعنون وهم يفكّرون بالطعام، وعندما لا يفكّرون بشيء، كانوا يواصلون الزحف والتغوط، ويأملون، بلا توقّف، في أن يأتي يوم لم يبدأ بعد.

- ١١ -

دائرة دانتي الأولى، قال دوريغو إيفانز لنفسه عندما غادر كوخ المصابين بالتقرحات واجتاز الجدول ثم هبط التلة لمواصلة جولاته الصباحية في معسكر الكوليرا، وهو مجموعة مهجورة من الأكواخ

المفتوحة الجدران يغطيها قماش من الخيش المتعفّن. هنا يُعزل جميع المصابين بالكوليرا، وهنا يموت معظمهم. وهو يحمل اسماً كلاسيكياً يعبّر عن الكثير من تعاستهم: إذ يُطلق على الدرب المفضي إلى الخطّ اسم «فيا دولوروزا»، وغيّر الأسرى هذا الاسم وأطلقوا عليه اسم «دوللي روز»، ثم تحوّل إلى «دوللي». وبينما راح يشقّ طريقه، أخذ يجر قدميه العاريتين في الطين مثل طفل، رأسه منحن مثل طفل، غير مهتم مثل طفل، بالمكان المتجه إليه ولا بما يمكن أن يحدث بعد ذلك، بل كان اهتمامه منصباً على الشقّ الذي يفتحه قدمه والذي سرعان ما يتلاشى.

لكنّه لم يكن طفلاً. رفع رأسه عالياً وسار منتصب القامة. عليه أن يتوقع الهدف والحقيقة حتى إذا لم يكن يمتلك أياً منهما. لقد أُنقذ بعضهم، نعم، قال لنفسه، ربما كان يحاول إقناع نفسه بأنه شيء أكثر من ممثل رديء. إننا ننقذ بعضهم. نعم، نعم، قال لنفسه، وبعزلهم فإنهم ينقذون الآخرين. نعم! نعم! نعم! أو بعض الآخرين. الأمر كلّه نسبي. قد يعتبر نفسه ملكاً، قال لنفسه، لكنّه لن يعتبر نفسه ذلك، ولن يفكر بذلك، لأنه شمال-شمال غرب من دون جنوب. كان ذلك كلّ ما يستطيع أن يفكر به، كلمات سخيفة، حتى أفكاره لم تعد أفكاره، صقور. في الحقيقة لم يعد يعرف بمَ يفكر، فهو يعيش في مستشفى مجانين لا يمكن تخيّله، يتجاوز كلّ عقل أو فكرة. لا يمكنه أن يفعل شيئاً سوى أن يتصرّف.

عند طرف مجمّع الكوليرا الذي لا يسمح لأحد إلا للمصابين بشدة تجاوزه والذين تسمح لهم مهنتهم العبور، رأى بونوكس بيكر الذي تطوّع ليكون ممرضاً، على الرغم من انتشار خبر بأن ممرضين اثنين كانا قد قضيا نحبهما من الكوليرا. إن التطوّع كممرض ضرب من الحكم بالإعدام. ومع أن دوريغو قبل المجازفة، فإنه قبل أن يأتي

لزيارة المرضى كطبيب، لم يفهم قط لماذا يختار هذا المصير مع أنهم يستطيعون تحاشي ذلك.

منذ متى أنت موجود هنا، أيها العريف؟

ثلاثة أسابيع، أيها الكولونيل.

نهض جسد بونوكس بيكر الذي يشبه جسد طفل مراهق من حذاء مهترئ كبير عليه كان قد حصل عليه عندما كان يعمل في مجموعة عمل يابانية في ميناء سنغافورة، بالإضافة إلى صندوق كرتوني فيه علب مسحوق بونوكس كانت قد اختفت في يوم واحد، واسم جديد لازمه مدى الحياة. وبينما كان الآخرون يشيخون بعد مرور عقود في حياتهم، فقد كان الشبان الذين هم في السادسة عشرة يبدون كأنهم قد بلغوا السبعين من العمر، بعكس بونوكس بيكر الذي كان يسير في الاتجاه المعاكس. فقد كان في السابعة والعشرين ويبدو في التاسعة عشرة من العمر.

عزا بونوكس بيكر تجدد شبابه إلى إخفاق حرب اليابان. وعلى الرغم من أن هذا الإخفاق لم يكن جلياً للآخرين في ذلك المعسكر القابع في أعماق الغابة السيامية، فإنه كان شديد الوضوح بالنسبة لبونوكس بيكر الذي كان يعتبر أن الحرب حملة شخصية هائلة توجهها ألمانيا واليابان ضدّه، بهدف وحيد وهو قتله، ويعتبر بقاءه على قيد الحياة حتى الآن ربحاً. كان يرى المعسكر هذا شيئاً غريباً عديم الأهمية. كان بونوكس بيكر يثير الفضول في دوريغو إيفانز باستمرار.

منذ أن تفشت الكوليرا يا بونوكس؟ سأل.

نعم يا سيدي.

اتجهوا نحو الملجأ الأول الذي تحال إليه الحالات الحديثة الإصابة. لم ينتقل إلى الخيمة الثانية إلّا عدد قليل من الذين تماثلوا

إلى الشفاء. وخلال بضع ساعات، كان يموت عدد كبير من المصابين في الملجأ الأول. وكان إيفانز يعتبرها أكثر الخيم بؤساً، لكنّها مكان عمله الحقيقي. التفت إلى بونوكس بيكر.

يمكنك أن تعود يا بونوكس.

لم يقل بونوكس شيئاً.

عد إلى المعسكر الرئيسي. لقد أديت حصتك. بل أكثر من حصتك.

أظن أني أفضّل أن أبقى.

توقف بونوكس بيكر عند مدخل الخيمة ومعه دوريغو إيفانز.

سيدي.

لاحظ دوريغو إيفانز أنه رفع رأسه، وللمرة الأولى نظر إليه مباشرة.

إني أفضّل ذلك.

لماذا يا بونوكس؟

على أحدهم أن يفعل ذلك.

رفع طرف الخيمة المتهدل من قماش الخيش وتبعه دوريغو إيفانز وهبت عليه رائحة نتنة، رائحة مزيج من المعجون والخراء، لاذعة إلى حد أنها احترقت في أفواههم. وبدا لدوريغو إيفانز أن اللهب الأحمر المخاطي المنبعث من الفانوس يحدث قفزة من السواد واستدارة في رقصة متبخّرة غريبة؛ كما لو كان عصوي الكوليرا مخلوقاً يعيش ويتحرك داخل أمعاء المصاب. وفي طرف الملجأ الآخر، انتصب هيكل عظمي تعيس في جلسته، وابتسم.

سأعود إلى الغابة يا شباب.

كانت ابتسامته عريضة ولطيفة، وساهمت في زيادة بشاعة وجهه الذي يشبه وجه القرد.

حان الوقت لرؤية الأعزاء القدماء، قال فتى الغابة ملوحاً بذراعيه اللتين تشبهان جذع زهرة، فاتحاً فمه المتقرح الأصفر. يا إلهي. ألن تكون هناك بعض الضحكات والدموع عندما يرون أن ليني قد عاد.

كان ذلك الفتى قد بدأ نصف متسكع وانتهى به الأمر مضغة سيئة، قال بونوكس بيكر لدوريغو إيفانز.

ألن يكون هناك فقط؟ إيه؟

لم يجب أحد فتى الغابة الذي يشبه وجهه وجه قرد بابتسامته الحالمة، وإن أجابوه، فقد كان ذلك من خلال أنات وصيحات خفيضة.

لقد أخذوا كل المعتوهين، قال بونوكس بيكر. لا أعرف كيف خدعهم ليأخذوه إلى الجيش.

استلقى الفتى بسعادة كأن أمه قد وضعته في الفراش.

سيبلغ السادسة عشرة في الشهر القادم، قال بونوكس بيكر.

وسط مزيج الطين والخراء كانت هناك مصطبة طويلة من الخيزران يستلقي عليها ثمانية وأربعون رجلاً آخر في مراحل مختلفة من المعاناة، أو هكذا كان يبدو. وواحداً تلو الآخر، تفحص دوريغو إيفانز القشور المتيبسة التي انكمشت على نحو غريب، والجلد المكسو باللحاء، بلون الطين، المظلّل بالأسود، وكان يمسك بيده عظاماً ملتوية. قال دوريغو إيفانز لنفسه، أجسام تشبه جذور شجر المنغروف. وللحظة، عامت خيمة الكوليرا كلها في لهب الفانوس أمامه، وكان كلّ ما رآه مستنقعاً نتناً من المنغروف مليئاً بجذور شجر المنغروف المتلوية التي تئن وهي تبحث عن الوحل إلى الأبد لتعيش فيه. أغمض دوريغو إيفانز عينيه وفتحهما مرة، مرتين، واعتراه القلق

بأن ذلك قد يكون هلوسة تسببها المراحل المبكّرة لحمّى الضنك. مسح أنفه الذي سال بظاهر يده، وواصل فحصه.

بدا له أن الرجل الأول يتماثل للشفاء؛ أما الثاني فقد مات. لفوه في بطانيته الوسخة وتركوه حتى تأتي مفرزة الجنازات لأخذه وحرق جثمانه. وتماثل الشخص الثالث، راي هايل، إلى الشفاء تماماً وأخبره دوريغو أن باستطاعته المغادرة في تلك الليلة والذهاب لأداء الواجبات الخفيفة الموكلة إليه في الغد. وأعلن دوريغو إيفانز عن وفاة الشخصين الرابع والخامس أيضاً، ولفّ هو وبونوكس بيكر جثمانيهما ببطانيات تفوح منها روائح عطنة بنفس الطريقة. لا أهمية للموت هنا. كان هناك، قال دوريغو لنفسه -مع أنه حارب الشعور بأنه شكل غادر من الشفقة - نوع من الراحة فيها. أن تعيش يعني أن تكافح في رعب وألم، لكنّه قال لنفسه، يجب على المرء أن يعيش.

ولكي يتأكد من أنه لا يوجد نبض هنا أيضاً، مدّ يده ورفع الرسغ المتغضن للهيكل العظمي المتكور التالي، كومة ساكنة من العظام والقرح الجلدية النتنة. عندها سرت رعشة قوية في الهيكل العظمي واستدار رأسه الشاحب. عينان غريبتان، جاحظتان كابيتان لا تكادان تريان، لا تريان إلا غبشاً، ليثبتهما على دوريغو إيفانز. كان الصوت حاداً بعض الشيء، صوت فتى ضائع في مكان ما يقبع في جسد رجل عجوز يحتضر.

آسف يا دكتور. ليس هذا الصباح. إني أكره أن أخيب أملك. أعاد دوريغو إيفانز برقة الرسغ ووضعه فوق الجلد الوسخ لصدر تهدل فوق أضلاعه البارزة كأنها عُلِّقت بمشابك حتى تجف.

هكذا تسير الأمور، أيها العريف، قال بصوت واطئ.

نظرت عينا دوريغو إلى الأعلى للحظة والتقتا بعيني بونوكس

بيكر. وبعينيه المتفوقتين الجريئتين، خيّل إلى الممرض بأنه رأى نظرة تشي بعجز غريب تقتربان للحظة من الخوف. وبغتة، أطرق إيفانز.

لا تقل نعم، قال للرجل المحتضر.

أمال الهيكل العظمي رأسه ببطء، وعاد إلى سكونه الغريب. لقد أفرغته الكلمات القليلة. وبأطراف أصابعه تتبّع دوريغو إيفانز الشعر الرطب الخفيف على جبهته المجعّدة، وأبعده عن عينيه.

ليس لي أو لأيّ أي أحد.

وهكذا تابع الهيكلان العظميان - الطبيب الطويل القامة، والحارس القصير القامة اللذان كانا عاريين تقريباً - الممرض بالحذاء الضخم والقبعة العسكرية المتهدلة ذات الحافة العريضة على وجهه النحيل. الطبيب بمنديله الأحمر الملوث ببقع دهنية والقبعة المائلة التي يعتمرها كأنه على وشك أن يتوجه إلى المدينة ليبحث عن نساء. وبدا للطبيب أن كلّ شيء ما هو إلا تمثيلية كبيرة، مع شخصيته الأقسى: الرجل الذي يعد بالأمل حيث لا يوجد أمل، في هذا المستشفى الذي ليس مستشفى، بل ملجأ يتسرب إليه الماء، مكوّن من خرق معلقة فوق قصب خيزران، الأسرّة التي هي ليست أسرّة، بل شرائح من الخيزران الموبوءة بالآفات، الأرضية الوسخة، وهو الطبيب الذي لا توجد لديه الأدوات واللوازم الضرورية التي يحتاج إليها أي طبيب لمعالجة مرضاه. لا يوجد لديه سوى منديل أحمر مبقع بالدهون، وقبعة وسلطة مريبة ليشفي بها.

وعلى الرغم من ذلك، فقد كان يعرف بأنه إذا لم يواصل عمله، إذا لم يقم بجولاته اليومية، إذا لم يواصل محاولة إيجاد بعض السبل المستميتة لمساعدتهم، فإن الأمر سيكون أسوأ بكثير. ومن دون سبب، عادت إليه صورة جاك رينبو المريض عندما كان يؤدي دور فيفيان لاي عندما التقت بحبيبها بعد فراق دام عمراً فوق جسر. فكّر

بالعروض المسرحية التي قدمها الرجال في الماضي - والتي صنعوا من أجلها -بإبداع هائل، الديكور والملابس من قصب الخيزران وأكياس الرزّ القديمة لكي تصبح شبيهة بالأفلام والعروض الموسيقية - التي لم تكن سوى تمثيل سخيف للواقع مثل مستشفياته وعلاجه. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان مثل المسرح، حقيقياً بشكل ما. مثل المسرح، كان مفيداً. ففي بعض الأحيان لم يكن الرجال يموتون، وقد رفض أن يتوقّف عن محاولة مساعدتهم ليعيشوا. لم يكن جرّاحاً جيداً، لم يكن طبيباً جيداً، كان يؤمن في أعماق قلبه، رجل طيب، لكنه رفض أن يكفّ عن المحاولة.

كان أحد الممرضين يحاول جاهداً صنع محقنة للأوردة - أنبوب قسطرة بسيط مصنوع من قصب خيزران أخضر موصول بأنبوب مطاطي كان داركي غاردنر قد سرقه من الشاحنة اليابانية في الليلة الماضية - جرى وصله بقارورة قديمة مليئة بمحلول ملحي أُعدّ من ماء معقّم في مرشّحات صنعت من علب صفيح كيروسين وقصب خيزران، يدعى الميجور جون مينادو، ويأتي في المرتبة الثالثة في قيادة المعسكر. وقَرَنَ نظرات معبود الشاشة بحديث أحد رهبان ترابيست الذي كان يتلعثم عندما يُرغم على الكلام في كثير من الأحيان. كانت تغمره سعادة كبيرة كممرض، عندما يُطلب منه ماذا يفعل.

وبينما كان اليابانيون الذين يحترمون التراتبية يرغمون جميع الأشخاص من ذوي الرتب الأدنى على العمل، فإنهم لم يفرضوا ذلك على الضباط الذين ظلوا في المعسكر، والذين كان الجيش الإمبراطوري الياباني يدفع لهم، على نحو غريب، رواتب ضئيلة. أما إيفانز فلم يكن يحترم التراتبية العسكرية إلا إذا كانت تهدف إلى تقديم المساعدة. وبالإضافة إلى أنه فرض ضريبة على رواتب الضباط، فقد

أرغمهم على العمل حول المعسكر، وعلى مساعدة المرضى وتطبيق النظام الصحي، يقيمون مراحيض جديدة ومجاري وأجهزة نقل الماء، بالإضافة إلى العناية بالصيانة العامة للمعسكر.

كان جون مينادو يحاول إيجاد وريد في الكاحل ليدخل فيه القسطرة المصنوعة من الخيزران. وبدلاً من المبضع، استخدم مدية حادة من نوع جوزيف روجرز. لم يكن الكاحل يزيد على كتلة عظمية، وراح الممرض يتتبّع خطّاً إلى الأعلى والأسفل فوق الجلد المشدود.

لا تخشى من إيلامه، قال دوريغو إيفانز، هنا.

أخذ السكين وقلّد عملية قطع دقيق ومحدد، ثمّ كرّر الحركة بحذق، وراح يقطع اللحم إلى شرائح فوق النتوء العظمي مباشرة، وفتح الوريد، وبسرعة أدخل القسطرة المحلية الصنع. نكصت الكوليرا، لكن السرعة والثقة تعنيان أنها انتهت حالما بدأت.

سيصمد الآن، قال دوريغو إيفانز.

كانت إعادة الإماهة، بالإضافة إلى إصراره القوي على النظافة الشخصية، أعظم نجاحاته. فقد أنقذت حياة عدة أشخاص في اليومين الماضيين وحدها، وبدأ بضعة رجال يخرجون الآن من مجمّع الكوليرا أحياء، بدلاً من حملهم إلى المحارق. كان ذلك، كما أحسّ، أمل الجميع.

هنا إمّا أن تموت أو تصمد وتتحمل، همس حفار آخر.

أنا لست ميتاً، نعق الرجل الذي أُدخلت القسطرة في وريده.

بدا أن الكوليرا بدأت تنكمش وتبتعد عنهم بينما ظلوا على جانب مصطبة الخيزران، يفحصون ويدقّقون مستوى السوائل الملحية، يثبّتون القطرات، ينقلون أحياناً عدداً قليلاً من المحظوظين

إلى الملجأ الأصغر الذي يستخدم مركزاً للنقاهة. كانوا جميعاً يبدون أقل من الرجال عندما يقترب دوريغو إيفانز منهم، لأن المرض الفظيع أهدر معظم أجسادهم خلال الساعات القليلة التي يصيبهم فيها وغالباً ما كان يودي بحياتهم. كان بعضهم يئنون من الألم مع التشنجات التي تذيب أجسامهم وتنهش حياتهم، وكان آخرون يتوسلون للحصول على ماء بهمهمات رتيبة واطئة، وكان بعضهم يحدّقون مثل أحجار من محاجر عيون غائرة ومظلّلة. وعندما وصلوا إلى الرجل الذي يشبه وجهه وجه قرد والذي سيذهب إلى بيته لرؤية أمّه وأبيه، كان قد مات.

إنهم يفعلون ذلك أحياناً، قال بونوكس بيكر، كن سعيداً. إنك تريد أن تستقل الحافلة وتعود إلى البيت لترى والديك. وهذا عندما تعرف أنها النهاية.

سأساعدك، قال دوريغو إيفانز، عندما وصل ممرض يعرفه الجميع باسم شاغس - الذي يعرف بأنه حمل إلى قلب الغابة السيامية نسخة مهترئة يعلوها العفن من كتاب السيدة بيتون لفن الطهي - حاملاً نقالة مصنوعة من قضيبين كبيرين من الخيزران، فرشت بينهما أكياس رزّ قديمة.

بعد أن أنهى عمله الآن، راح دوريغو إيفانز يساعد شاغس وبونوكس بيكر في جسد ليني المتيّبس. قال دوريغو لنفسه إن وزنه يبدو أنه لا يزيد على وزن طائر ميت. لا شيء. ومع ذلك فقد بدا أنه يقدم مساعدة، كان يبدو بأنه يفعل شيئاً. فلم تكن هناك أعداد كافية من أكياس الرزّ لفرشها على النقّالة - هل يوجد ما يكفي من أيّ شيء هنا؟ تساءل دوريغو إيفانز - وجُرت ساقا ليني.

عندما شقّوا طريقهم إلى خارج بيت الملعونين ذاك، ظلت جثّة ليني تنزلق إلى الأسفل، ولكي لا تسقط من النقّالة قلبوا الجثّة على

بطنها وباعدوا بين ساقيه الهزيلتين لتتدليا فوق قضيبي الخيزران. كانت عظام الساق قد ضمرت وبرزت فتحة الشرج على نحو فاحش.

آمل ألّا يحتاج إلى حقنة أخيرة، قال شاغس، الذي كان يرفع ظهر النقّالة.

- ١٢ -

منذ أن تفشت الكوليرا، أُعفي جيمي بيغيلو من مهام المعسكر لأداء واجبه كعازف بوق في مراسم الجنازات التي باتت يومية الآن. استُدعي وراح ينتظر عند طرف مجمّع الكوليرا عندما جاؤوا بالنقّالات. وصل دوريغو إيفانز حاملاً آخر نقالة، معتمراً قبعته الأنيقة، عاقداً منديله الأحمر حول عنقه، وبونوكس بيكر، بحذائه المضحك الذي كان يذكّر جيمي بيغيلو دائماً بميكي ماوس، في المقدمة، وسار شاغس في الخلف مائلاً رأسه إلى الوراء بطريقة غريبة.

تبع جيمي الموكب الجنائزي المثير للشفقة في الظلام، في الغابة المطيرة، مثبّتاً بوقه على كتفه بخرقة معقودة كان قد استبدلها بشريطها الجلدي عندما تعفن. كان يفكّر إلى أي مدى يحبّ بوقه، الذي بسبب كلّ الأشياء في الغابة - قضبان الخيزران والملابس والجلد والطعام واللحم - كان الشيء الوحيد الذي بدا محصناً من الاهتراء والتعفن. كان رجلاً عادياً مملاً يشعر بأن هناك شيئاً خالداً يتعلق ببوقه النحاسي البسيط الذي عزفه لعدد كبير من الموتى.

كان القائمون على المحرقة في المعسكر المنتظرين في باحة شديدة الرطوبة يعرفون أن حرق جثة يستغرق وقتاً طويلاً. كانت محرقتهم عبارة عن كومة مستطيلة ضخمة من قضبان الخيزران. كانت

إحدى جثث الكوليرا قد وضعت في الأعلى مع الأغراض القليلة التي بحوزته بالإضافة إلى بطانيته. عرف جيمي بيغيلو أنها جثة رابيت هيندريكس. كان يُدهش دائماً كم كان يشعر بضآلته.

لا يجوز لأحد أن يلمس شيئاً لمسته الكوليرا - ما عدا القائمين على المحرقة - وكلّ شيء تمتلكه الكوليرا يجب أن يُحرق لعدم انتشار العدوى. عندما رفعوا الجثث الثلاث الجديدة وممتلكاتهم إلى أعلى المحرقة، اتجه أحد القائمين على المحرقة نحو دوريغو إيفانز حاملاً دفتر رسوم رابيت هيندريكس.

أحرقه، قال دوريغو إيفانز، ملوّحاً به بعيداً.

سعل القائم على المحرقة.

لسنا متأكّدين، يا سيدي.

لماذا؟

إنه دفتر، قال بونوكس بيكر. دفتره. لكي يعرف الناس في المستقبل، حتى يتذكّرون. هذا ما كان رابيت يريده. أن يتذكر الناس ما حدث هنا. لنا.

يتذكّرون؟

نعم يا سيدي.

إنه سينسى كلّ شيء في النهاية يا بونوكس. من الأفضل أن نعيش الآن.

بدا أن بونوكس بيكر لم يقتنع.

لكي ننسى، نقول، قال بونوكس بيكر. أليس هذا ما نقوله، يا سيدي؟

نعم، يا بونوكس. أو أنشودة. ربما ليس الشيء نفسه تماماً.

لهذا السبب يجب انقاذه. كي لا ينسى. هل تعرف القصيدة، يا

بونوكس؟ إنها لكيبلنغ. إنها ليست عن التذكر. إنها عن النسيان. - كيف يُنسى كلّ شيء.

بعيداً، تتوارى سفننا بعيداً؛
على الكثيب والرأس البحري تغوص النار:
عجباً، كلّ أمجادنا الماضية
واحدة مع نينوى وصورا
قاضي الأمم، انقذنا،
كي لا ننسى - كي لا ننسى!

أومأ دوريغو إيفانز إلى القائم على المحرقة طالباً منه أن يضرم النار في قضبان الخيزران.

نينوى، صور، خطّ حديدي مهجور في سيام، قال دوريغو إيفانز، ظلال ألسنة النار تشكل خطوطاً على وجهه. إذا لم نتمكن من تذكر أن قصيدة كيبلنغ تتحدث عن أن كلّ شيء يطويه النسيان، فكيف سنتذكّر أي شيء آخر؟

القصيدة ليست قانوناً. إنها ليست قدراً يا سيدي.

لا، قال دوريغو إيفانز، مع أنه أدرك مصدوماً أنها كذلك إلى درجة ما.

الرسوم، قال بونوكس بيكر، الرسوم يا سيدي.

ماذا عنها يا بونوكس؟

اقتنع رابيت هيندريكس بأنه مهما حدث له، فإن الرسوم ستبقى، قال بونوكس بيكر، وأن العالم سيعرف.

حقاً؟

إن الذاكرة هي العدالة الحقيقية يا سيدي.

أو خالقة الأهوال الجديدة. إن الذاكرة تشبه العدالة فقط، يا بونوكس، لأنها فكرة خاطئة أخرى تجعل الناس يشعرون بأنهم على ما يرام.

طلب بونوكس بيكر من القائم على المحرقة أن يفتح الدفتر على الصفحة التي تُظهر رسماً بالحبر الهندي لصفّ من الرؤوس الصينية المقطوعة على مسامير في سنغافورة بعد الاحتلال الياباني.

وهنا توجد رسوم عن الأعمال الوحشية، أترى؟

التفت دوريغو إيفانز ونظر إلى بونوكس بيكر. لكن دوريغو إيفانز لم ير شيئاً سوى دخان، ألسنة لهب. لم يتمكن من رؤية وجهها. كانت تظهر رؤوس مقطوعة تبدو حيّة من خلال الدخان لكنها كانت ميتة وقد ولت. كانت النار تتصاعد عند ظهورهم، نيرانها الشيء الحيّ الوحيد، وفكّر برأسها وبوجهها وبجسدها، وزهرة الكامليا الحمراء المثبتة في شعرها، لكنه مهما بذل من محاولات الآن، فلم يتذكّر وجهها.

لا شيء يستمر. ألا ترى، يا بونوكس؟ هذا ما قصده كيبلنغ. لا إمبراطوريات، لا ذكريات. إننا لا نتذكّر شيئاً. ربما لسنة أو لسنتين. ربما معظم الحياة، إذا عشنا. ربما. لكننا سنموت بعد ذلك، ومن سيفهم أي شيء من هذا؟ وربما لا نتذكّر شيئاً خاصة عندما نضع أيدينا على قلوبنا ونستمر في عدم النسيان.

التعذيب موجود هنا أيضاً، ألا ترى؟ قال بونوكس بيكر. قلب الصفحة إلى رسم بالحبر والقلم عن أسترالي يضربه حارسان. إلى لوحة بالألوان المائية لقسم المصابين بالتقرحات. إلى رسم بقلم الرصاص لرجال أشبه بهياكل عظمية يعملون، يكسرون الصخر إلى قطع صغيرة. وجد دوريغو إيفانز نفسه يزداد غضباً.

أفضل من آلة تصوير براوني، كان رابيت العجوز، ابتسم بونوكس بيكر. كيف عثر على تلك الألوان، لن أعرف أبداً.

من سيعرف ماذا ستعني هذه الرسومات؟ قال دوريغو إيفانز باقتضاب. من سيقول عمَّ تتحدث؟ قد يفسرها أحدهم بأنها دليل على العبودية، ويفسرها آخر بأنها دعاية. ماذا تخبرنا الحروف الهيروغليفية كيف كانت الحياة تحت السوط من أجل بناء الأهرامات؟ هل نتحدث عن ذلك؟ لا، إننا نتحدث عن عظمة المصريين، عن الرومان، عن سانت بطرسبرغ، ولا يتحدث أحد شيئاً عن عظام مئات آلاف العبيد التي شيدت فوقهم. لعلهم سيتذكّرون اليابانيين بهذه الطريقة، لعل كلّ رسمة تهدف إلى ذلك - لتبرير عظمة هؤلاء الوحوش.

حتى لو متنا، قال بونوكس بيكر، فإنها ستُري ما حصل لنا.

يجب أن تعيش إذن، قال دوريغو إيفانز.

اعتراه الغضب الآن، لا بل استشاط غضباً لأنه سمح أن يراه أحد الرجال يفقد هدوء أعصابه. لأنه، بعد أن بدأت ألسنة اللهب تزداد، عرف أنه قد بدأ ينساها للتو، بأنه حتى في تلك اللحظة، كان يعاني من محاولة استعادة وجهها، شعرها، الشامة التي تعلو شفتها. كان يتذكّر قطعاً، جمرات مشتعلة، شرارات راقصة، لكنها لم تكن هي - ضحكتها، شحمتا أذنيها، ابتسامتها تتحول إلى زهرة كامليا حمراء -

هيا، قال دوريغو إيفانز، لنخرجه قبل أن تلتهمه النيران.

- ١٣ -

حملوا رابيت هيندريكس ببطانيته الوسخة الملطّخة بالخراء، ووضعوه بجانب الجثث الأخرى، ووضعوا حقيبته - التي لم تكن

تحتوي على شيء سوى قصعة وملعقة وثلاث فراشي رسم وعدّة أقلام رصاص ومجموعة ألوان مائية للأطفال، بالإضافة إلى طقم أسنانه وكمية قليلة من التبغ المحلي البائت - بجانبه دفتر الرسم. كانت الكوليرا خفيفة. ومنذ أن مات القس بوب، بدأ ليندساي توفين، وهو قسّ أنغليكاني سابق طُرد من الكنيسة لارتكابه عملاً أخلاقياً شائناً غير محدد يقود صلاة الجنازة. لكن لم تكن هناك أي إشارة على أنه سيأتي وبدأت النار تلتهم الجثث.

كولونيل؟ قال شاغس.

وبسبب ضيق الوقت، وبدافع الواجب وعلى النحو الذي تفرضه رتبته العسكرية، ارتجل دوريغو إيفانز صلاة الموتى. لم يكن يتذكر الصلاة الرسمية جيداً لأنها كانت تشعره بالملل على الدوام، وفعل ما كان يأمل أنه يؤدي الواجب. وقبل أن يبدأ، كان عليه أن يسأل عن أسماء أصحاب الجثمانين الأخيرين.

ميك غرين. رامي مدفع، من غرب أستراليا، قال شاغس، وجاكي ميرورسكي، ملّقم من نيوكاسل.

ألصق دوريغو إيفانز هذين الاسمين في ذاكرة منيعة لم يتذكّرهما إلا في مناسبتين هامتين، هما أثناء الصلاة التي أداها، وفي حلم اليقظة عندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد سنوات عديدة. وقد أنهى صلاة الموتى بالقول إن الله استودع هؤلاء الرجال الأربعة الطيبين، لكنه لم يكن يعرف ما علاقة الله بذلك. فلم يعد أحد يتكلّم عنه كثيراً، حتى ليندساي توفين. وعندما أطرق دوريغو إيفانز برأسه، وخطا بعيداً عن النار المشتعلة، تقدّم جيمي بيغيلو، وهزّ بوقه ليزيل عنه العقارب أو حشرات أم أربع وأربعين التي قد تكون قد وجدت فيه ملاذاً، ثم رفعه إلى شفتيه. كان فمه في حالة تعيسة، فقد تقشّر جلد حنكه وترهلّ مثل خرقة، وتورّمت شفتاه أيضاً، وتورّم لسانه

وتقرّح فأصبح طعم الرزّ مثل طعم قنبلة عنقودية - استقر في فمه مثل لوح خشبي فظيع لن يؤدي عمله جيداً. كان الأخ الكبير قد قال له إنه مصاب بداء البلاغرا للافتقار إلى الفيتامينات في غذائهم، وكان كلّ ما يعرفه هو أن لسانه قد سدّ مجرى الهواء الممتد من فمه إلى البوق.

عندما قرّب البوق من شفتيه ليعزف اللحن الذي أصبح يعرفه جيداً، كان بمقدوره أن يستغرق في غرابة اللحن. في البداية، كان يعزف نغمات بطيئة فقط، ثم، عندما يسرع اللحن، تكتسب تلك اللحظة التي يعتقد أنها «الوداع الأخير» قوّتها الفظيعة. كان عليه أن يحارب جسمه كله بجهد هائل لكي يتوقف عند التوقّفات القصيرة الضرورية في النوته مع تصاعد اللحن ثم يتلاشى. وبينما يعزف، كان يشعر أن لسانه قد تلاشى، وأنه أصبح ينقر بدلاً منه على فوهة البوق بقطعة خشبية، راجياً على نحو يائس بأن يؤدي ذلك إلى إيقاف النوتة ويعزف اللحن بلسانه، لإضافة السحر على المعزوفة.

وكما هو حال كلّ شيء آخر في عالم الغابة الكئيب المظلم، كان على جيمي بيغيلو أن يرتجل، أن يتحايل على لسانه بتمرير أنفاسه حول شكله الذي يشبه شكل الحوت، خادعاً نهايات أعصابه الصارخة بالتركيز على عزف تلك النوتات فقط، جامعاً إياها مرة أخرى لجميع الذين سيبقون في تلك الغابة ولن يجدوا طريق العودة أبداً. وفي النهاية، محرجاً من الدموع التي لم تكن تنهمر بدافع أيّ عاطفة - لأنه لم يعد يشعر بها في تلك اللحظة بعد الجنازات الخمس التي عزف فيها يوم البارحة أو قبل البارحة - بل من الألم الجسدي الناجم عن العزف، فاستدار بسرعة حتى لا يرى أحد المحنة التي يعاني منها من مجرد عزف لحن بسيط.

ومع أن جسده كلّه يلتهب عندما يعزف موسيقى الموت هذه، ظل يعزف، وكان يسمعها كلها من جديد، لم يكن يفهم ماذا تعني،

يكره أنهم ماتوا، وكان يعرف أن عليه أن يستمر في عزف هذا اللحن الذي يكرهه أكثر من أي لحن آخر، لكنه كان عازماً على ألّا يتوقّف عن العزف. لم تكن تعني تلك الأشياء التي قيل له أنها تعنيها، وأن الجندي يمكنه أن يرتاح الآن، وأن عمله قد أُنجز. أيّ عمل؟ لماذا؟ كيف يمكن لأحد أن يرتاح؟ هذا ما كان يعزفه الآن، ولن يتوقّف عن عزف تلك الأسئلة ما تبقى من حياته، في *أيام أنزاك*، أثناء تجمّع أسرى الحرب، وخلال أداء المهام الرسمية، وفي البيت أحياناً وفي وقت متأخر من المساء عندما تجتاحه تلك الذكرى. كان يأمل في أن يُفهم ما يعزفه كما هو. لكن الناس يفهمون منه أشياء أخرى ولا يمكنه أن يفعل شيئاً حيال ذلك. وطرحت الموسيقى أسئلة من الأسئلة، ولم تكن هناك نهاية لهذه الأسئلة، فقد تضخم كلّ نَفَسٍ من أنفَاس جيمي في مخروط نحاسي كان يخرج ملتوياً نحو حلم مشترك للتفوّق الإنساني الذي كان يُهلك في نفس الصوت الذي كان بعيد المنال، إلى أن يأتي اللحن التالي، العبارة التالية، المرة التالية...

بعد الحرب مباشرة، سرعان ما بدا له كأن الحرب لم تحدث، تنهض أحياناً مثل نتوء مؤلم في الفراش عند منتصف الليل فتعيده إلى وعي غير سار. وكما قال شاغس لاحقاً، فإنها لم تكن طويلة قط، بل بدا أنها لن تنتهي أبداً. لكنها انتهت، وكان من الصعب لفترة من الزمن تذكّر أشياء كثيرة عنها. فلدى كلّ شخص حكايات أخرى لا تصدق - القتال في العلمين وطبرق وبورنيو، الإبحار في قافلة في بحر الشمال. والآن، بالإضافة إلى ذلك، هناك حياة يجب أن تعاش. كانت الحرب تشكل فترة انقطاع للعالم الحقيقي والحياة الحقيقية - الوظائف، النساء، البيوت، الأصدقاء الجدد، الأسرة القديمة، الحيوات الجديدة، الأطفال، الترقيات، الطرد من العمل، الأمراض، الوفيّات، التقاعد - أصبح يصعب عليه أن يتذكر جيمي

بيغيلو وهل جاء هوبارت قبل المعسكر والخطّ أو بعدهما، هكذا هي الحرب. أصبح يصعب عليه تصديق أن جميع الأشياء التي حدثت له قد حدثت فعلاً، وبأنه رأى كلّ الأشياء التي رآها. وفي بعض الأحيان كان من الصعب أن يصدّق بأنه ذهب إلى الحرب أصلاً.

مرت سنوات جيدة، أحفاد، ثمّ بدأ الانحدار البطيء، ثم بدأت الحرب تراوده أكثر فأكثر، وتلاشت السنوات التسعون الأخرى من حياته ببطء. وفي النهاية، بدأ يفكّر ويتحدّث عن أشياء قليلة أخرى - لأنه بدأ يفكّر بأن أشياء قليلة أخرى قد حدثت في الأصل. لفترة من الزمن، كان بوسعه أن يعزف معزوفة «الوداع الأخير» كما كان يعزفها أثناء الحرب، بإحساس لا علاقة له به، كواجب، كعمله كجندي. ثمّ، لعدة سنوات، ثمّ لعقود، لم يعد يعزف هذا اللحن إلّا بعد أن بلغ الثانية والتسعين، عندما كان مستلقياً في المستشفى يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن أصيب بسكتة دماغية للمرة الثالثة، فوضع البوق على شفتيه بذراعه السليمة، ومرة أخرى رأى الدخان، وشمّ رائحة احتراق اللحم، وعلى حين غرة، عرف أنه الشيء الوحيد الذي حدث له في حياته.

أنا لست على خصام مع الله، قال دوريغو إيفانز لبونوكس بيكر وهما يدفعان ويحركان المحرقة لكي تبقى النار محيطة بالجثث، ولن أجادل الآخرين هل هو موجود أم لا. ليس هو مشكلتي، بل مشكلتي أنا. منتهياً بهذه الطريقة.

أيّ طريقة؟

طريقة الله. التحدّث بأن الله هذا والله ذاك.

تباً لله، أراد أن يقول حقاً. تباً لله لأنه خلق هذا العالم، تباً لاسمه، الآن وإلى الأبد، تباً لله لأنه يهدر حياتنا، تباً له لأنه لا

ينقذنا، تباً لله لأنه ليس هنا ولأنه لا ينقذ الرجال الذين يحترقون فوق قضبان على الخيزران المنيوكة.

لكن لكونه رجلاً، وكرجل، فقد كان أكثر الرجال التقليديين غير التقليديين، راح يهرف الله الله الله خلال الصلاة على الأموات عندما لم يكن لديه شيء آخر يقوله، وعن الموت العبثي الذي يأتي في غير أوانه، عندما وجد أنه لا توجد أشياء كثيرة يمكن أن يقولها عنه. كان يبدو أن الرجال راضين، لكن دوريغو إيفانز لم يتمكن من ابتلاع ضفدع الاشمئزاز الذي التف حول فمه بعد ذلك. لم يكن يريد الله، لم يكن يريد هذه النيران، كان يريد أيمي، ومع ذلك، فلم يكن يرى سوى لهب النيران.

ألا تزال تؤمن بالله يا بونوكس؟

لا أعرف يا كولونيل. البشر هم الذين بدأت أتساءل عنهم.

بينما راحت الأجساد تحترق، تطقطق وتفرقع، رفع أحدهم ذراعاً عندما شُدَّت الأعصاب في الحرارة.

لوّح أحد القائمين على المحرقة بيده.

من حظك يا جاكي. إنك خارج هذا المكان الآن يا صاحبي.

أظن أن الأمور تسير هكذا، قال بونوكس بيكر.

لست متيقناً من أن الأمور يجب أن تسير هكذا، قال دوريغو إيفانز.

إنه يعني شيئاً للرجال، كما أظن، حتى لو لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لك.

صحيح؟ قال دوريغو إيفانز.

تذكّر نكتة كان قد سمعها في أحد المقاهي في القاهرة. قال نبي في وسط الصحراء لمسافر يموت من العطش إن كلّ ما يحتاج إليه هو الماء، فأجابه المسافر بأنه لا يوجد ماء. نعم، قال النبي موافقاً،

لكن لو كان هناك ماء لما عطشت ولما كنت ستموت. إذاً سأموت، قال المسافر، فأجاب النبي إلا إذا شربت ماء.

عندما تصاعدت ألسنة النار وامتلأ الهواء بالدخان والرماد المشتعل، خطا دوريغو إيفانز خطوة إلى الوراء. كانت الرائحة لطيفة ومثيرة للغثيان. أحسّ بالاشمئزاز من نفسه عندما أدرك أنه لعابه قد بدأ يسيل.

انتصب رابيت هيندريكس في جلسته ورفع كلتا ذراعيه كأنه يعانق ألسنة اللهب التي بدأت تُفحّم وجهه، ثمّ انبثق شيء من داخله بقوة فوثبوا جميعاً إلى الخلف تحاشياً لأعواد الخيزران المحترقة والجمرات المنهمرة. ثم تحوّلت محرقة الخيزران إلى حريق متوحش، فسقط رابيت هيندريكس أخيراً على جانبه وضاع بين ألسنة اللهب. سُمع صوت ضربة عالية عندما انفجرت جثة أخرى، وانحنى الجميع خشية أن يصيبهم شيء.

نهض الأخ الكبير، وأمسك عود خيزران، وساعد القائمين على المحرقة على دفع الجثث وإعادتها إلى وسط النار لتحترق بالكامل وبسرعة. وعملوا جميعاً على رفع وتحريك وإعادة الخيزران لتلقيم النار المتصاعدة إلى الأعلى، يتعرّقون، يلهثون، لا يتوقّفون، لا يريدون أن يتوقّفوا، وكانوا يضيعون في ألسنة النيران للحظات أخرى.

عندما انتهوا وهمّوا بالمغادرة، لاحظ دوريغو إيفانز شيئاً ملقى في الطين. كان دفتر رسم رابيت هيندريكس الذي تفحّم قليلاً، لكنه بقي سليماً. خمّن أن قوة الانفجار الصغير قد ألقت به. اختفى الغلاف بالإضافة إلى الصفحات الأولى. أصبحت صفحته الأولى لوحة لداركي غاردنر وهو جالس في كرسي وثير ذي مسند تغطيه أسماك صغيرة، يحتسي القهوة في شارع مهدم في قرية سورية، وحفنة

أشخاص آخرين يقفون وراءه، بمن فيهم يابي بورروز وهو يحمل علبه الساخنة. لا بدّ أن رابيت هيندريكس كان قد رسم يابي بعد أن فُجّر، قال دوريغو لنفسه. كانت الصورة هي كلّ ما تبقّى منه. التقط دوريغو إيفانز دفتر الرسم وعاد ليلقي به في النار، لكنه غيّر رأيه.

- ١٤ -

بدأ عدد أكبر من الرجال يتجاوزون داركي غاردنر. عصي فارغة عديمة الشكل، أفواههم مزمومة أو فاغرة، وعيونهم مثل وحل جاف، لا يتحركون بسهولة، بل يتمايلون ويرتعشون، ورويداً رويداً أصبح في آخر الرتل. لقد ذهب منه كلّ شيء، وعرف أن ما تبقى، قوياً ومحترقاً في رأسه وجسده، هو المرض. كان على ساقيه المتقرّحتين أن تلامسا أوراق الأشجار ليندفع في معاناة ليفصل جسده في تذبذبات غريبة من الألم الخالص.

وبالرغم من ذلك، كان داركي غاردنر يعتبر نفسه محظوظاً: فهو يمتلك حذاء، قال لنفسه، وإن كان بلا نعل الآن، وسيصلحه هذه الليلة بطريقة ما. لا ريب في ذلك، قال داركي غاردينر لنفسه، حتى عندما يُعذَّبون فمن الأفضل أن تكون لديهم أحذية. مدعماً بفكرة الحظّ السعيد هذه في هذه اللحظة الكئيبة، شدّ لفّة حبل القنب السميك على عظم ترقوته كي لا تسقط، وهزّ كتفيه لتصبح في وضع أفضل على رقبته، وواصل سيره.

وعلى الرغم من أنه ظل يسقط ويتعثر ويتخلّف إلى الوراء، فقد شقّ طريقه إلى أعماق الغابة. كان يعرف أن يومه سلسلة من المعارك المنيعة التي يجب أن يتغلب عليها، لكي يصل إلى الخطّ، ولكي يعمل عند الخطّ حتى فترة الغداء، ثمّ بعد الغداء - وهكذا دواليك.

وأُختزلت كلّ معركة إلى الخطوة المستحيلة التالية التي سيجعلها تحدث الآن.

سقط في دغل من عيدان الخيزران الشائكة. جُرحت يده عندما مدّها أمامه محاولاً ألّا يسقط، لكن عندما استوى واقفاً على قدميه، لم يعد يمتلك الحركة والقوّة الكافيتين لكي يتمكن من الوقوف على صخرة ويقفز منها إلى صخرة أخرى، ليأخذ الخطوة الطويلة تلك. بدأ كلّ شيء يسير في المسار الخطأ. تعثّر عدة مرات. ترنح وفقد ما تبقى من الطاقة التي كان قد ادخرّها للحفاظ على توازنه. راح يسقط ويسقط، وكان في كلّ مرة يجد صعوبة في النهوض على قدميه.

عندما رفع عينيه وهو يترنّح إلى الأمام باتجاه الخضرة الكثيبة، أدرك أنه أصبح وحيداً. فقد اختفى الرجال الذين كانوا يسيرون أمامه وصعدوا إلى التلة، أما الشخص الذي كان وراءه، مهما كان، فقد كان لا يزال بعيداً عنه. تشرّب حبل القنب كمية أكبر من مياه المطر فازداد ثقله على كتفه، وظلّ يفلت منه وينغرز في الجذور مما جعله يتعثّر. وكان كلما توقف قليلاً، أعاد لفّ الحبل حتى تتوازن اللفة على كتفه التي ازدادت ثقلاً وصعوبة.

ترنحّ. أحسّ بوهن شديد، وأحسّ برأسه مشوشاً وغير متوازن. انقطع الحبل مرة أخرى وتعثّر فسقط منكباً على وجهه في الوحل. انقلب ببطء على جانبه واستلقى هناك. قال لنفسه إنه بحاجة إلى استراحة إلى دقيقة أو دقيقتين، ويصبح في حال أفضل. لكن أغمي عليه على الفور.

عندما أفاق، وجد نفسه في غابة مظلمة وإلى جانبه كتلة من الحبال. ترنّح واقفاً على قدميه، ثم أدخل إصبعاً في منخاره وأخرج سائلاً مخاطياً ممزوجاً بالوحل، وهزّ رأسه المترنّح. خطا خطوة مترنّحة إلى الأمام، وسقط فوق صخرة ناتئة، وسقطت على كتفه

قطعة حجر كلسي. يجب أن أواصل طريقي، قال لنفسه - أو خيّل إليه أنه قال لنفسه، فقد أصبح عقله منهكاً ومهترئاً الآن، وأحسّ أنه أصبح شيئاً منفصلاً، ثقلاً، صخرة. وكان كلّ ما يعرفه بكل ثقة بأن أصيب بالفزع وأغمي عليه للحظات.

استجمع توازنه. غاضباً من قطعة الحجر الكلسي التي سقطت، ومن العالم، ومن حياته. انحنى والتقط الحجرة، وقذفها إلى الغابة بكل ما أوتي من قوّة غضبه المتبقية من جسمه المحموم.

سُمع صوت ارتطام مكتوم خفيف، وفي الوقت نفسه لعنة. تشنجّ جسمه.

اللعنة عليك يا غاردنر، هسهس صوت مألوف.

تطلع داركي غاردنر حوله. خرج روستر ماك نيس من بستان أعواد الخيزران، واضعاً يده على رأسه.

هل ستأتي معنا أم ستتركنا؟

ظهر وراء روستر ماك نيس ستّة أسرى آخرين لا يعرفهم، وكان يمشي وراءهم غاليبولي فون كسلر الذي حيّا داركي تحية نازية.

ظننا أنك ستلحق بنا، قال كِس.

ألحق بكم إلى أين؟ سأل داركي غاردنر.

ظننا أنك تعرف الطريق وأنك كنت تمشي بحذر، قال روستر ماك نيس.

أعرف ماذا؟ قال داركي غاردنر.

يوم راحتنا. لن يمنحنا اليابانيون يوم عطلة، لذلك سنأخذه نحن نفسنا.

نظر داركي غاردنر إلى الوراء إلى أعلى الدرب.

لقد أحصونا هذا الصباح، ولا يعدّ اليابانيون الأسرى مرة أخرى، حتى خلال التجمع المسائي في المعسكر، تابع روستر ماك

نيس قائلاً، إنهم لا يحصوننا على الخطّ ولا يلاحظون شيئاً. إننا نتوارى عن الأنظار، نرتاح، ثم نعود ونلتحق بالآخرين عندما يعودون إلى المعسكر. التحق بالرتل، ويحصونك، عمّك تاجو.

لا تتوقّع أن يغطي عليك الآخرون، قال داركي غاردنر. لن يجدي ذلك نفعاً.

فعلنا ذلك في الأسبوع الماضي، ولم يلاحظ أولئك اللقطاء ذوي العيون الحولاء غيابنا، وسنعيد الكرة اليوم.

لكنكم في مجموعتي اليوم، قال داركي غاردنر.

وماذا في ذلك؟ قال روستر ماك نيس.

لن يكون ذلك منصفاً للأشخاص الآخرين؟

قال كِس إنهم سيجدون منحدراً على مسافة نصف ميل، يقيهم من المطر. لا يمكن لأحد أن يسمعهم أو يراهم، ولديه مجموعة ورق لعب جيدة، لا يوجد فيها ورقة «الشاب الديناري». كيف هي لعبة الخمسمائة؟

سيسلخون جلدك، قال داركي غاردنر.

كيف سيعرفون؟ قال روستر ماك نيس.

سيكتشفون أمرك وسيجلدونك.

إنك ستغطي علينا، قال روستر ماك نيس، فأنت الرقيب المسؤول عن المجموعة اليوم. لقد فعل ميكي ذلك آخر مرة. لم يقل شيئاً. لقد تدبر الأمر ليظل هناك عدد كاف من الرجال في كلّ مهمة. رجل واحد فقط أقل من كلّ مجموعة.

قال كِس إن عدم وجود ورقة الشاب الديناري يجعل لعبة الخمسمائة أهم بكثير، و...

لا تكمن المشكلة هنا، قاطعه روستر ماك نيس، أبداً. بل تكمن

المشكلة في رفض التعاون في المجهود الحربي الياباني. يجب أن نتّخذ موقفاً في مكان ما، في وقت ما. هنا يكمن الأمر.

فكّر داركي غاردنر في الأمر، لكن ليس كثيراً.

لا أحبّ لعبة الخمسمائة، قال داركي غاردنر.

قال كِس ذلك بصدق، فلا يوجد شيء آخر يمكن عمله. إما لعبة الخمسمائة أو النوم. ربما الصبر، لكن من رأى أهمية ذلك؟

إلى الجحيم، قال داركي غاردنر الذي يعتبر النوم جيداً والذي بدأ رأسه يخبط مرة أخرى. إني منهك ولا يمكنني أن أجادل، لكن ذلك أمر. لا يهمني أن تتهربوا من العمل، لكن يهمني أن يعاني الآخرون من تهربكم من العمل.

لن يعاني أحد، قال روستر ماك نيس.

ستعاني أنت، قال داركي، إذا لم تطع أوامري. هيا لنذهب.

لكنه عندما التقط الحبل، ولفّه ووضعه على كتفه، واستأنف سيره المنكود حتى بلغ تقاطع السكة الحديدية. لم يذهب معه أحد إلا غاليبولي فون كسلر.

إن غاردنر رقيب ضعيف ولا يمكنه أن يشي بنا، قال روستر ماك للرجال عندما استداروا وساروا مبتعدين عن الدرب وتوغلوا في الغابة. إنه ليس قائداً جيداً كالآخرين.

- ١٥ -

لم يفاجئ الكولونيل كوتا كثيراً لأن مخاوفه تحققت. فلا يمكن الوثوق بالتايلانديين كمجموعة، أما كأفراد فهم لصوص يثيرون الدهشة. فخلال ساعات الليل الأربع الفاصلة بين مغادرته مع سائقه في شاحنتهما العالقة في وسط الغابة وطاقم الإنقاذ المؤلف من أسرى

الحرب الذين وصلوا لسحبها إلى المعسكر، سرق عدد من قطاع الطرق التايلانديين عدّة خراطيم، فلم يعد بالإمكان قيادة الشاحنة، مما اضطره إلى البقاء في المعسكر ريثما يقوم أحد الحراس - الذي كان يتوقّع وصوله عند الغروب - بجلب بعض الخراطيم الجديدة من أقرب معسكر.

عندما تأخّر الكولونيل كوتا هذا اليوم، قرّر أن يجري تفتيشاً على العمل الجاري في السكة الحديدية. وبينما كان متوجهاً إلى الخطّ يرافقه الغونا كدليل له، صادفا أسيرين، أحدهما جالس، والآخر مستلق على الطين. وثب السجين الجالس ونهض واقفاً على قدميه، أما الرجل المستلقي على مسار السكة، فلم يتحرك. كان يبدو أنه لم يكن يدري بما يجري حوله. ظنّا أنه ميت. لكن عندما قلبه الحارس بقدمه، أدركا أنه حي فراحا يصرخان به. عندما لم يجد ذلك نفعاً، ركله الغونا بقوة، لكن الرجل لم يفعل شيئاً سوى أن أطلق أنيناً. وتبين لهما أنه لم يأبه للتهديدات واللكمات التي كانا يوجهانها له.

وجد الكولونيل كوتا أن ذلك يدعو إلى اليأس. وتساءل كيف يمكننا أن نمدّ الخطّ وهم لا يستطيعون حتى أن يسيروا إلى موقع العمل؟ ثم لاحظ رقبة داركي غاردنر.

طلب الكولونيل كوتا من الغونا أن يُجلس داركي غاردنر في وضعية الركوع، مطرق الرأس. تفحص رقبة الأسير الأسترالي بدقة. كانت نحيلة تملأ الأوساخ طياتها.

نعم، قال الكولونيل كوتا لنفسه. كان اللحم ملطخاً بالوحل، رمادياً، مثل الأوساخ التي تبول عليها. نعم، نعم، دمدم الكولونيل كوتا. ثمة شيء في تجاعيد هذه الرقبة يشبه تجاعيد الحيوانات الزاحفة بشكل غريب. هذه الأشكال الداكنة أعادت له ذاكرة تحفزّه على تكرارها. نعم! نعم! عرف الكولونيل كوتا أنه يمتلك قوّة

مجنونة، لا إنسانية، تركت فيه آثاراً في آسيا. وكان كلما قتل عدداً أكبر، عرضاً وبيهجة شديدة، كان يدرك أن نهايته الموت الذي سيكون خارج سيطرته. إن التحكم بموت الآخرين - متى وأين، فن التأكد بأن ينتهي بقطع الرقبة بإتقان ونظافة - كان ممكناً. وعلى نحو غريب، فإن هذا القتل هو بمثابة التحكم بما تبقى من حياته.

في جميع الأحوال، قال الكولونيل كوتا لنفسه، فإن حمل المريض وإعادته إلى المعسكر سيؤدي إلى هدر طاقة الأسرى الآخرين الثمينة، وفي المعسكر سيُهدر من أجله الطعام الثمين، بينما يرجح أن يموت قريباً.

استلّ سيفه. أومأ إلى الغونا بأن يعطيه قنينة الماء. رأى الكولونيل كوتا يديه ترتعشان، وهذا أمر غريب. لم يعتره أي شعور بالخوف أو بالضمير.

القمر وأنا فقط،
على جسر لقائنا،
وحيداً، ازداد شعوراً بالبرد.

ردد الكولونيل كوتا قصيدة الهايكو للشاعرة كيكوشا-ني مرتين. لكن كان يجب أن يتوقف ارتعاش يديه. نزع غطاء قنينة الماء، وعندما ارتعشت يداه في الهواء أمامه، صبّ الماء على سيفه. أخذ يراقب قطرات الماء تتدحرج معاً فوق سطحه اللامع، والأفاعي تنسلّ بعيداً. جمالها ثبّت يديه.

رفع رأسه. ركّز على أن يتنفس ببطء قبل أن يهوي بنصل سيفه بدقة ليستقر على رقبة داركي. أمسكه هناك، جاعلاً عزمه واضحاً، موازناً جسده.

أغمض عينيك! قال الغونا لداركي غاردنر، أغمض عينيك!

وعندما أشعل سيجارة، رمش الغونا مرتين ليوضح قصده.

باعد الكولونيل كوتا بين ساقيه، حافظ على توازنه، وبصرخة عالية رفع السيف عالياً في الهواء، وظل يردد قصيدة الهايكو للشاعرة كيكوشا-ني للمرّة الأخيرة، لكنه لم يتذكّر التسلسل الصحيح للمقاطع الوسطى. في عقله، ظل يخلط بين أبيات القصيدة.

كان الجميع ينتظرون - الكولونيل كوتا بسيفه المسلّط فوق أسير الحرب الجاثي على ركبتيه، والغونا الذي يضع سيجارة بين شفتيه، وغاليبولي فون كيسلر المتسمّر في مكانه يراقب ما يحدث بذهول. كان داركي غاردنر الشخص الوحيد الغير قادر على رؤية أي شيء مما يجري، ولم يكن يحسّ إلّا بالحرارة الرطبة مثل بطانية والعرق يسيل على عينيه المغمضتين. كان كلّ ما يمكن أن يشعر به بجسده التعس المرتخي مثل خرقة، يلفّه الرعب، هو السيف المسلّط عليه بينه وبين الشمس.

لم يجرؤ على أن ابتلاع ريقه.

كان بإمكانه أن يشمّ رائحة الكولونيل كوتا، رائحة قوية من سمك متعفن. كان بإمكانه أن يشعر بجوع نصل السيف المرفوع فوقه. كان يستطيع أن يسمع الدم. دمه. دمهم. يزداد ويرتفع.

ازداد الكولونيل كوتا، الرجل الذي يؤمن بالتناظر والنظام في كلّ الأمور، اضطراباً وتشوشاً، بينما راح عقله يوبخّ ضعفه. كان مرتبكاً. لقد فقد السيطرة على سلسلة الأشياء، وبفقدانها، يكون قد فقد السيطرة على هذه النهاية، وعلى نحو غريب، كانت تبدو له أنها منطقيّة أيضاً، حياته، وأنه لا يستطيع أن يسمح حدوث ذلك.

بدا لداركي غاردنر أن رقبته تصرخ، تتوق إلى ضربة السيف لكي ينتهي كل شيء. تساءل عمّا إذا كان السيف يهوي، إن كان رأسه...

لقد ذهب، سمع كِس يقول.

تناهت إليه أصوات شخص يبتعد. سادت فترة صمت قصيرة، وكانت الخطوات نفسها تعود.

لقد ذهب إلى الجحيم، قال كِس. لقد تأكدت من ذلك. يمكنك أن تنظر يا داركي.

عندها فتح داركي غاردنر عينيه.

اختفى كوتا وسيفه، وذهب الغونا. لم يبق إلا كِس، يحدّق به. تطلع داركي حوله إلى خطّ قضبان الخيزران الأسود فوق منحدر قريب، وخلفه صورة ظليلة لأشجار الساج الضخمة.

انظر إلى هؤلاء المتلصصين، قال كِس، سمع صراخ القرود.

شمّ رائحة الطين العابقة في الغابة.

في كلّ هذه الحياة المحيطة به، أحسّ داركي غاردنر لأول مرة بموته، وفهم أنّ ذلك كلّه سيستمرّ، وأنه لن يبقى منه شيء، حتى ذاكرته التي لا تحوي إلّا بضعة أفراد الأسرة وبعض الأصدقاء منذ بضع سنوات، بل ربما منذ عقود، وأنه سينساهم في نهاية المطاف، ولن يكونوا أكثر من عيدان خيزران ساقطة على الأرض، لا أكثر من طين محتوم. عندما رمق داركي غاردنر الدرب، وفكّر بالعبيد العراة الذين يكدحون على بعد ميل، تملكّه أشدّ الغضب فظاعة. سيستمر كلّ ذلك ويستمر، أما هو فسيذهب. وفي كل مكان كان ينظر إليه، كان يرى العالم الأكثر حيوية من الحياة التي لا تحتاج إليه، التي لن تفكر للحظة واحدة بتلاشيه، ولن تتذكره. سيستمر العالم بدونه.

هل أنت على ما يرام يا صاحبي. سأله كِس.

كانت عينا داركي غاردنر تدوران في جميع الأماكن، وفي كل مكان، كان كلّ ما يستطيع أن يراه مجرد عالم لا يحمل أي معنى بالنسبة له، لا شيء، لا حاجة فيه إليه. سيلقون به في النار التي

وقودها عيدان الخيزران. سيقول شيئاً أو لن يقول شيئاً، وسيعزف جيمي بيغيلو معزوفة «الوداع الأخير»، وبعد عشر سنوات أو عشرين سنة، من الممكن أن يصبح الذين ظلوا على أحياء عبيداً في إمبراطورية يابانية جديدة، وبعد خمسين أو مئة سنة، سيقبل الجميع أن ما جرى كان أمراً طبيعي تماماً، ولن يبقى منها شيء أفضل أو أسوأ من أيّ شيء الآن، وسيكون الفرق الوحيد هو أنه لن يكون موجوداً آنذاك. وبغتة أحسّ بالحاجة إلى النوم. كان كلّ ما يحتاج إليه هو أن ينام فقط. تدحرج على ظهره واستلقى هناك. أحسّ كأن جسده يذوب ويعود إلى الطين.

يجب أن نمضي، قال كِس، إنهم سيقتلونك إن بقيت هنا.

عندما انحنى ليرفع داركي غاردنر على قدميه، سمع كِس صرخة عالية، ولفزعه رأى الغونا يسير بسرعة في الدرب. دفع الغونا كِس جانباً، وركل غاردنر وراح يصرخ: إلى بيت بيوكي، إلى بيت بيوكي، وأشار إلى أسفل الدرب نحو المعسكر. حتى في حالة هذيانه، بدا أن الأسير لم يصدق شيئاً كهذا.

بيت بيوكي؟ داركي غاردينر لهث، غير مصدق، مكرّراً العبارة التي تعني بلغة المعسكر «المستشفى».

بيت بيوكي! صرخ الغونا ثانية، وركله مرة أخرى للتأكيد على ما يقوله.

بالطاقة التي تمكن من استجماعها، سحب داركي غاردنر نفسه إلى ركبتيه ويديه، ومثل كلب مرهق، استدار وراح يزحف عائداً إلى المعسكر قبل أن يغيّر الغونا رأيه. وسار كِس بسرعة في الاتجاه المعاكس متوجّهاً إلى مقطع السكة الحديدية. سار الغونا بسرعة وتجاوزه ليلحق بالكولونيل الزائر. وعندما اختفى عن الأنظار، توقف كِس.

كان يراقب مندهشاً عندما تشنّجت ساقه اليسرى بلا سبب، وراح يقفز كما لو أنه كان مربوطاً بخطّ كهربائي، ثم ارتجف جسمه بعنف لبضع دقائق. وأخيراً، توقّفت الرجفة، وأصبح قادراً على مواصلة السير إلى الخطّ.

- ١٦ -

حدث ذلك بعد الظهر. تناول شاغس كرة الرزّ الرمادية الملوثة المخصصة لطعام الغداء، واتجه إلى المطبخ ليأخذ خلسة غلاية كيروسين من الصفيح ليستبدلها بالغلاية المكسورة لديه، وكان يأمل أيضاً في أن يقدم له الطاهي قليلاً من القشور أو بقايا الرزّ.

كان شاغس يكبر الكثيرين سناً. لعله كان في الثلاثين من العمر. وجعلت عيناه اللتان تذكّران الجميع بمنافض سجائر طافحة، فضلاً عن طبيعته الكتومة الغريبة، البعض يشكّون في أنه رجل ممسوس. قبل الحرب كان يعمل صيّاداً، بدوياً في جبال تسمانيا، ولم يكن يحمل شيئاً، ولا حتى جعبة يحمل فيها أغراضه. وكانت المرة الأولى التي ارتدى فيها ملابس داخلية عندما تطوع في الجيش فأعطوه غيارين من الألبسة الداخلية بين ملابسه الأخرى. ولم يتمكن قط من التأقلم مع ترف حياة الجيش، والغريب في أنها كانت تلخّص كتاب فن الطهي الذي ربحه في لعبة الورق عندما كان في جاوة. فقد قال شاغس إنه يحلم بإحدى وصفات السيدة بيتون لفطيرة لحم الخنزير عندما وقع داركي غاردنر منهاراً في الطين في وسط ساحة التجمع.

المسيح يعرف كيف استطاع أن يعود إلى الدوللي، قال شاغس لأسرى آخرين لاحقاً، لكنه بالرغم من كلّ شيء استطاع أن يعود.

وتساءلوا أيضاً كيف تمكّن داركي غاردنر من العودة زاحفاً على يديه وركبتيه فوق الصخور والجذور وفوق الأوحال وبرك الماء، وأسفل المنحدر، وتظاهروا بالدهشة، لكنهم كانوا في حقيقة الأمر خائفين، لأن ذلك قد يحدث لأي منهم في الغد، في الأسبوع القادم، وما عليهم إلّا أن يجدوا داخل أنفسهم ما كان يوجد داخل داركي غاردنر.

لقد أفلتت أمعاؤه وكان الخراء يغطيه، ذلك المسكين، قال لهم شاغس وأضاف، أظن أنه زحف إلى أعلى ذلك الدرب البائس المنيك وتدفّق منه الخراء في كل مكان.

جذب شاغس انتباههم.

هذا المنيك المسكين، لا تعرفون كم بقي هناك. كانت الحمّى تغمره مثل ورقة شجر أكلها الدود في يوم عاصف. ظننت أنه مات. كان في حالة سيئة للغاية، ثمّ رأيت أنه يتنفّس. قلت لنفسي عليّ أن أخفيه عن عيون اليابانيين، لأنك حتى لو مت، فإنك تظل تُعتبر متهرباً من العمل في نظر اليابانيين إذا لم يكن اسمك مدرجاً في قوائم المرضى اللعينة. أنهضته على قدميه، هذا الهيكل العظمي المليء بالخراء، وكان ينحني عليّ وأنا أنحني عليه، ونصف مترنحٍ رحت أسحب داركي مثل مكنسة قديمة وسخة إلى الحمّام. أحضرتُ قليلاً من الماء، وجلبت بعض الخرق، وغسلته. نظّفته ثم غسلت وجهه ونظّفت طيزه الوسخة.

لقد رأوا شاغس وهو يُنهض داركي على قدميه تحت الحمّام. كانوا يعرفون أنه سيكون مشهداً أخرق. الرجلان عاريان مثل شجرتين انهارت واحدة فوق الأخرى. رأوا جدول الماء ذاك يسقط من أنابيب الخيزران التي مددوها من الجدول. يقول شاغس من الجيد أن يكون المرء نظيفاً يا شباب. رأوا داركي يترنح بين ذراعي شاغس في كلّ

مكان. رأوا الماء يجري مثل جذور فوق فتحات كتفي داركي وصدره الذي تشبه أضلاعه أضلاع دجاجة، يقول شاغس، تخلص من تلك الرائحة النتنة المنيوكة. وتساءلوا هل توجد لدى أيّ منهم نصف حشمة شاغس البذيء اللسان، النصف مجنون.

حكى لهم شاغس كيف أن داركي صحا قليلاً عندما جاء نائب الأخ الأكبر، سكويزي تايلور، مندفعاً، وحدّثه داركي كيف أن الضابط الياباني كان سيقطع رأسه لكنه لم يفعل، وكيف أن الغونا أعاده بعد ذلك. لا يمكنك أن تتهم اليابانيين بالتشبث بمبدئهم، قال سكويزي تايلور وهو يهزّ رأسه الكبير، ثم مدّ يديه وبدأ يفحصه. كان داركي فاقد الوعي آنذاك، واصل شاغس كلامه، وراح يهذي ويثرثر كيف أنه كان، قبل الحرب، يأخذ زوجته إلى مطعم نيكيتاريس للسمك شمال هوبارت ليتناولا السمك والبطاطا المقلية، وتابع كيف أنه لا يستطيع أن يكفّ عن التفكير بالأسماك العائمة في حوض السمك الكبير في واجهة المحل. السمك المفلطح الرأس، وسمك البوري، والسلمون. لا شيء خاص، قال داركي، عندما لكزه سكويزي قليلاً، ورفع جفنيه قليلاً. راح ينقر على صدره. كان يفعل كلّ ما كان يفعله الدكتور بيزو.

سمك فقط؟ سأل سكويزي.

نعم، قال داركي، سمك فقط. تلك المخلوقات المسكينة العالقة في ذلك الحوض الزجاجي وهي تنظر إلى الخارج.

مدّ لسانك يا داركي، قال سكويزي.

بعد صباح ذلك اليوم في أفالون، تابع داركي ثرثرته. دائماً مطعم نيكيتاريس للسمك. رقائق البطاطا، محارات، خبز مدهون بالزبدة.

أولاً، إنهم يطلبون من كلّ شخص يقف على أبواب الموت أن يعمل، قال سكويزي، ثم يعيدون ذلك اللقيط المسكين. مدّ لسانك يا داركي.

وحكى داركي كيف أن إدي كانت تحبّ ذلك. مشاهدة فيلم ثمّ تناول السمك.

ثم؟ أردت أن أسأل، قال شاغس، لكنّه واصل كلامه وقال إنه لا يستطيع أن يتوقف عن التفكير بتلك الأسماك التي تسبح في حوض السمك في مطعم نيكيتاريس، وقال إن هذا الأمر ليس طبيعياً، وقال إنها أسرى حرب أيضاً، وقال إنه عندما سيعود، سيذهب إلى مطعم نيكيتاريس، وسيغرف كلّ تلك الأسماك ويأخذها ويلقيها في ماء البحر ويحرّرها. لا يهمني بماذا يفكّر نيكيتاريس العجوز، قال داركي، سأشتريها، سأسرق ذلك المطعم اللعين. سأبذل كل ما بوسعي لأخرج تلك الأسماك وأعيدها إلى البحر، مكانها الطبيعي.

وقال له سكويزي ألّا يتحمّس كثيراً، وقال له إنه مصاب بجميع الأمراض، وأنه سيُنقل إلى المستشفى ويمكث فيه مهما طالت فترة شفائه، وبعد أن يخرج فلن يكون السمك ولا زوجته في مأمن.

كان داركي يتمايل مثل نصل عشب، قال شاغس، كان من الصعب أن تعرف بمَ يفكّر، أو حتى إن كان يعرف أين هو. ربما كان يتخيّل أنه هناك في المطعم مع إدي يتناولان الطعام بعد أن أمضيا أمسية في أفالون، قال شاغس، ربما كان يسخر من الأسماك العائمة في الحوض. ربما لم يكن يراها، ربما كان ينظر إلى ثديي إدي فقط، وربما كانت إدي تطلب منه أن يتوقف عن النظر إلى الأسماك وأن يوليها اهتماماً أكبر. أو ربما لا. ربما كانت تقول له إلى ماذا تنظر؟ فيخجل داركي وينظر إلى الأسماك. لعله كان يتصور نفسه إحدى تلك الأسماك التي تعوم في الحوض. ربما كان أسير حرب عار في

الغابة يلف ذراعيه حولي، بينما يطلب مني سكويزي تايلور أن أنقله إلى المستشفى.

قال: دعهم يداوونه بأي قدر من الكينين الذي يمكن أن يحصلوا عليه، وبعض الإيميتين لمعالجة الزحار، ثم التفت إليه بعينيه الواسعتين الشقيتين، ثم التفت إليّ وقال تحت أنفاسه، لا يوجد كينين ولا يوجد إيميتين، ولا يوجد طعام، لكنه يستطيع على الأقل أن يرتاح.

ثم، قال شاغس، لن تصدقوني، لكن داركي بدأ يضحك كأنه لم يكن معنا هنا في وسط الغابة اللعينة الدامية، بل عاد إلى مطعم نيكيتاريس قبل الحرب. قال: لا يوجد كينين، ولا يوجد إيميتين. سمكتا كوتا واثنتا عشرة محارة، وخبزاً مدهوناً بالزبدة. قال سكويزي، ماذا يقول؟ أقول سمكتين من نوع كوتا واثنتي عشرة محارة، وخبز مدهون بالزبدة يا سيدي.

ثم راح سكويزي يضحك، قال شاغس، وضحكت أنا أيضاً، وضحك داركي. لم يتوقّف عن الضحك. سمكتان من نوع كوتا، قال داركي، واثنتي عشرة محارة وخبز مدهون بالزبدة. كان أحدنا يمسك الآخر في وسط ذلك الطين المنيك، ويجعلنا نغشى من الضحك. لا أعرف ما طعم فطيرة لحم الخنزير. بل أعرف طعم سمك ساخن، مالح، مدهون، مخفوق؟ أي منيك يمكنه أن ينسى ذلك.

- ١٧ -

عندما اقترب من كوخ المصابين بالتقرحات، غلّفت دوريغو روائح كريهة من اللحم المتعفن. كانت رائحة اللحم الكريهة نفاذة إلى حد أن جيمي بيغيلو الذي يرافق إيفانز في جولاته خارج مجمّع

الكوليرا لمساعدته كممرض - كان عليه أحياناً أن يتركه، ويخرج ويتقيّأ.

ما إن دخلا كوخ التقرحات حتى ازدادت الرائحة الكريهة النتنة حدة. رفع دوريغو إيفانز يداً إلى أنفه لكنه سرعان ما أنزلها لأنه اعتبر هذه الحركة إهانة أخرى للرجال الذين عانوا الكثير. مشى في ممر بين مصطبتين من الخيزران حُشر فوقهما مرضى التقرحات. أصبحت الرائحة الكريهة مختلفة الآن، لكنها ازدادت قوة وحدّة، كريهة جداً، لاذعة إلى حد أن عيني دوريغو راحتا تدمعان. صفوف من الرجال العراة مستلقين مثل حشرات عصوية يحتضرون، ومثل حشرة الزيز، كانوا يرتفعون ويهبطون فوق عيدان الخيزران المضفورة. لم يكونوا مستلقين بالتوازي بل كانوا مستلقين بزوايا غريبة باتجاه أحدهم الآخر، وكانت عيونهم تشبه عيون حشرة خنفساء كابية، واسعة وغائرة، دجاجات مذبوحة تعلو صدورها وتهبط، الدلالة الخارجية الوحيدة على الحياة. في بعض الأحيان، كان يشعر بأنه يرى شيئاً في عيونهم، لكنّهم كانوا أشياء فظيعة - حسد أو جبرية مخيفة، أو رعب مشوّش الذهن، يسقطون فيه إلى أعماق سحيقة. كان النظر صعباً، والأصعب منه عدم النظر. كان العديد منهم غائبين عن الوعي ومعظمهم لم يكن يولي أي انتباه. بعضهم صامت، وبعضهم يهذي، رؤوسهم تتمايل من جانب إلى آخر، وبعضهم يهمهم ويدمدم، ولم يتوقف بعضهم الآخر عن الأنين بينما يسري الألم في أجسادهم كما يسري المطر عبر عيدان الخيزران.

شقّ دوريغو إيفانز طريقه بين المصطبتين، مهذاراً كما لو كان في حانة في الريف بعد ظهر يوم السبت يلتقي بأصدقاء قدامى، لكن سرعان ما تلاشت روحه المعنوية، وأحسّ بتقلص في معدته عندما رأى ممرضين اثنين يحملان جاك رينبو إلى الكوخ. كان أحد

الممرضين يحمل بعض الخرق الوسخة، محاولاً إيقاف الدم النازف من الجدعة الصغيرة التي كانت كلّ ما تبقّى من ساق جاك رينبو اليمنى. كان دوريغو إيفانز قد أجرى له عمليتين قبل الآن، المرة الأولى عندما بتر ساقه من أسفل الركبة عندما التهمت التقرحات ساقه حتى قصبة الساق وعظم الكاحل، والمرة الثانية عندما تركّزت الغنغرينا حول الجدعة فاضطر إلى البتر حتى الفخذ. كان ذلك قبل ثلاثة أسابيع، وها هو الآن مرة أخرى. وضعه الممرضان على طاولة خيزران معدة للمرضى لتطهير تقرحاتهم وإزالتها بملاعق مدببة. اقترب دوريغو إيفانز لفحص الساق.

لكنه قبل أن ينظر، شمّها.

كلّ ما كان بوسعه أن يفعله هو ألّا يتقيأ.

حدث الشيء نفسه مرة أخرى، فإذا شفيت فمن الممكن أن يحدث تعفن أسود والتهاب، ويندفع الدم من الجدع الذي يشبه عوداً صغيراً. أدرك دوريغو إيفانز أن القطب التي كان قد خاطها على الشريان الفخذي قد تفتقت.

الغنغرينا، لم يقل ذلك لأحد، لأن لكلّ واحد منهم أنف يمكنه أن يعرف ذلك. ضاغط لوقف النزف.

لم يجب أحد.

ضاغط لوقف النزف؟ أوه، يا إلهي، لا، قال دوريغو إيفانز، مدركاً بأنه موجود في خيمة التقرحات ولا يوجد الضاغط أو أيّ أداة من هذا النوع هنا. فكّ إبزيم حزامه بسرعة، وسحبه من بنطلونه القصير ولفّه حول ما تبقى من فخذ جاك رينبو. شيء رفيع لا تزيد سماكته على سماكة أنبوب تصريف. بدا مثل كأس ورقي مملوء بالقار الكريه الرائحة. لفّ الحزام بإحكام. أطلق جاك رينبو أنيناً منخفضاً. بدأ النزيف يتباطأ.

أنهضه.

سحب الممرضان جاك رينبو وأجلساه. قدم له أحدهما ماء في علبة صفيح، لكنه لم يستطع أن يلامس حافة الصفيحة بفمه المرتعش، فانسكب الماء.

سنأخذك إلى غرفة العمليات، أيها العريف رينبو، قال دوريغو إيفانز. وعندما توقف أحد الممرضين لوهلة ليحك أنفه، قال دوريغو إيفانز بصوت منخفض، بسرعة.

كان الممرضان يعرفان أنه كلما تكلّم بصوت أوطأ، كان الأمر أكثر إلحاحاً واستعجالاً. أسرعا بالنقّالة، عندما التفت إيفانز إلى ممرض آخر.

ابحث عن الميجور تايلور. قل له إني بحاجة إليه الآن في غرفة العمليات، وهل يمكنك أن تجلب لي خيطاً، حبلاً، أو أي شيء أربط به سروالي؟

جرى الكولونيل والممرض معاً إلى غرفة العمليات. بذل جيمي بيغيلو قصارى جهده لمجاراة الكولونيل الذي بدا أن سرعته لم تتأثر باستخدام يد واحدة لرفع سرواله القصير بينما غاصت ساقاه الطويلتان في الطين.

كانت غرفة العمليات مكونة من كوخ صغير، تكمن مزيّته الرئيسية في موقعه: إذ يقع في منتصف الطريق بين الكوخ المستشفى وجناح معالجة التقرحات، لذلك، كان منفصلاً عن المرضى وعن مشاكل النظافة الشخصية المستعصية القريبة المصاحبة لهم، ويغطي سقفه سعف نخيل شجر أتاب وليس قماش الخيش، مما يعني أنه يكاد يكون جافاً. وكانت المعدات المتوفرة فيه تشبه فكرة طفل عن غرفة عمليات: فهي مؤلفة من عيدان خيزران وعلب طعام وصفائح

كيروسين فارغة، وأشياء متنوعة مسروقة من اليابانيين - قناني وسكاكين وأنابيب مسروقة من الشاحنات - تعد انتصاراً للتفكير السحري. وكانت هناك شموع وضعت في عاكسات ضوء من صفائح كيروسين فارغة، ومعقّم، وطاولة عمليات من الخيزران، وأدوات جراحية صنعت من فولاذ مسروق من محرّكات يُحتفظ بها في حقيبة وضعت على طاولة لكي لا تزحف إليها الجرذان والفئران أو أيّ شيء آخر.

ماذا بوسعه أن يفعل؟ تساءل دوريغو عندما بدأ يجهّز أدواته للتعقيم. لم يكن يعرف. ماذا يدور في رأسك بحق السماء؟ سأله سكويزي تايلور بعد أن لعب دوريغو الورق على أسير أراد ناكامرا معاقبته. فقال دوريغو إن فكرتي الوحيدة هي أن أمضي قدماً وأشحن الطاحونة. ضحك تايلور، لكن دوريغو كان يقصد ما يقوله. إن إيماننا بالأوهام فقط هو الذي يجعل الحياة محتملة يا سكويزي، قال موضحاً، بقدر ما أمكنه من التوضيح. إن الإيمان بالواقع هو الذي يحبطنا في كلّ مرّة.

كان يختلق الحياة كلّ يوم، وكلما وثق بمخيلته، أحبّها أكثر، لكن كيف يمكنه أن يمضي الآن قدماً؟ وفي الجانب الآخر من الكوخ، بعيداً عن طاولة العمليات، بدأ يفرك يديه، يزيل الدم اللزج عنهما تحت سيل الماء المتواصل الذي انتهى من أنبوب الخيزران، وهي قطعة مؤقتة أخرى صنعها الرجال لجرّ الماء من جدول قريب، بدأ يشكّ الآن بأنه ينقل الكوليرا. كان كلّ شيء يبدو مسمّماً، وكان يبدو في بعض الأحيان أن كلّ جهد يُبذل يزيد الحالة سوءاً، ويؤدي دائماً إلى حدوث وفيّات. طلب دوريغو إيفانز من جيمي بيغيلو أن يأتي إلى الطاولة ويحضر معه الصفيحة المليئة بماء مقطّر ثمين، وطلب منه أن يصبّ الماء على يديه ببطء.

عندما غسل دوريغو إيفانز يديه، حاول أن يتماسك، أن يستجمع قدراته العقلية والجسدية.

أحسّ بالفزع. كان يعرف ذلك. تماسك وحاول أن يعود إلى روتين ما قبل العملية المتمثل في تنظيف يديه، والتأكد من أن كلّ أصبع قد أصبح نظيفاً تماماً. بوسعه أن يفعل ذلك، قال لنفسه. الأظافر - تأكّد من عدم وجود شيء تحت الأظافر. لم يكن متيقناً من أنه يستطيع أن يفعل ذلك، لكن آخرين يظنون أن بوسعهم عمل ذلك. وإذا آمن بأنهم يؤمنون به، فمن الممكن أن يتماسك. الرسغان - لا تنس الرسغين. الأمر كله في غاية السخافة، وقال لنفسه لكي تعيش، فإن ذلك يتطلب قبل كل شيء، الإيمان السخيف بأنك تستطيع أن تعيش.

وصل الممرضان برفقة جاك رينبو الذين كان هادئاً الآن. عندما وضعاه على طاولة العمليات، دخل سكويزي تايلور. كان الممرض الذي وجده قد حصل على بضع خرق ملوّنة عُقدت معاً لصنع حبل من نوع ما. أعطاها للكولونيل.

هل هذا حزامي؟

يبدو أنه رداء ساري قديم.

ابتسم الكولونيل.

من الجيد أنه يساعد على تثبيت بنطلوني، هنا، قال، مشيراً إلى سرواله القصير بمرفقيه وهو لا يزال يغسل يديه.

لفّ الممرض الخرق التي أصبحت تشكّل حبلاً حول سرواله القصير وعقده عند أحد الجانبين، وشدّه حول الورك الضيّق للجرّاح الطويل القامة.

كان قد سُمّي تيمناً باسم المجرم الشهير في ملبورن، بسبب كنيته والسحر الأسود - وهذا ما تؤكده العينان الدامعتان اللتان تشبهان

جراب الكنغر، اليقظتان والضعيفتان، وذلك الشارب الرفيع - أصبح سكويزي تايلور نحيفاً جداً الآن، وأصبح يبدو شريراً لم يكن يبدو كذلك قط، مما يؤكد اسم كنيته. كانت خلفيته كطبيب في الضواحي في أديليد بسيطة كما كانت ملامح وجهه تبدو غريبة.

وبالإضافة إلى ما تعلّمه من مساعدة إيفانز، لم يكن يعرف شيئاً سوى الجراحة من دراسته للطب ومن قراءة القصص.

كولونيل؟

ابتر، قال دوريغو إيفانز دون أن يرفع عينيه عن يديه. مرة أخرى.

دوريغو، قال سكويزي تايلور، هل نظرت إلى الجَدَعَة؟

أعرف.

لم يتبق شيء يمكن بتره.

أحسّ دوريغو بيديه تسحق إحداهما الأخرى. يجب أن تكونا نظيفتين.

أعرف. تستطيع - بدأ دوريغو إيفانز، ثم تردّد.

عصر يديه بقوة أكبر. هل يستطيع؟

ثم قال بحق المسيح، جيمي، هذا الماء المنيك أثمن من البيرة. إنه ليس للسقاية. صبّه ببطء، قلت.

إنه سيموت من الصدمة يا دوريغو.

إنه سيموت إذا لم نفعل ذلك. إنها الغنغرينا. هناك. هناك فرصة إذا بترنا عند الورك.

هل هي موجودة حقاً؟ قال سكويزي تايلور. حتى في أكثر المستشفيات حداثة، فقد يؤدي خلع الورك إلى الوفاة. إنك تبتر كثيراً من الجسم. هنا، إنها عديمة الجدوى.

كم بقي لدينا من المخدّر؟

كمية كافية.

كنت قد ساعدتُ في خلع ورك في إحدى المرات، قال دوريغو، في سيدني، في عام ستة وثلاثين. أنغوس العجوز، لقد أجرى العملية ماك نامي. إنه الأفضل.

هل عاش؟

كانت امرأة من الشعوب الأصلية. يوماً واحداً. ربما يومين. لا أتذكر ذلك تماماً.

لماذا لا تبتر من أعلى الفخذ؟ عندها تتوفر فرصة.

الغنغرينا مرتفعة جداً.

أنا لست جرّاحاً، لكنها ليست مرتفعة كثيراً. أزل الساق من المكان الذي يوجد فيه ضاغط وقف النزيف.

إما هذه أو تلك، عالياً فوق الفخذ أو عند الورك، لم يبق مكان لوضع الضاغط وإلا فإنه سينزف حتى الموت. لم تبق هناك ساق منيوكة يا سكويزي. هنا تكمن المشكلة.

إذا استطعت أن أضغط بقوة بشيء مستدير ومنبسط حول هذا المكان، قال تايلور وهو يضغط حول أريبته بأصابعه، يتحسس الشرايين، اللحم، شدة المعضلة. هنا، قال، ودفع أصبعين إلى أريبته. هنا - على الشريان الفخذي، هذا قد يوقف الدم بما يكفي.

قد لا يوقفه.

قد لا يوقفه.

أي شيء مثل ملعقة ثُني مقبضها؟ من الممكن...

من الممكن...

من الممكن...

سيكون ذلك مفيداً. نأمل أن يتوقف التدفق لتتمكن من العمل. سيظل ينزف. لكنك تستطيع أن تبتر الجَدَعَة، ثم تثبّت الشرايين، ثم

تخيطها. سيظل ينزف لكن ليس بتلك الدرجة من السوء، إنه سيموت.

يجب أن أفعل ذلك بسرعة.

لم تكن قط رجلاً يتسكّع.

بدأ جسد جاك رينبو المضنى يرتجف قليلاً. انطلقت هسهسة واطئة من فمه.

حسناً، قال دوريغو إيفانز، وهو يهز يديه لتجفيفهما. أرسل جيمي بيغيلو ليحضر ملعقة طعام وعاد إلى طاولة الخيزران.

سنكشط كمية أكبر من تلك الساق، يا جاك، استئصل تلك الغنغرينا النتنة و...

أشعر بالبرد، قال جاك رينبو.

- ١٨ -

نظر دوريغو إيفانز إلى الوجه الضامر، الرمادي مثل دهن لحم العجل، والشعر الأبيض القصير الخشن النابت على ذقنه الذي يشبه أسلاك صهر، والعينين الواسعتين مثل عيني حيوان الأبوسوم، والأنف الأفطس، والنمش الوسخ.

اجلب بطانية، قال دوريغو إيفانز، هل لديك سجائر بول مول يا دكتور؟

لا يا جاك. لكن بعد أن ننتهي، سأضمن لك أن تدخن بمتعة.

لا يوجد شيء مثل سيجارة بول مول لتدفئك يا دكتور.

ضحك جاك، سعل، واهتز، مرة أخرى.

وصل فان درووِد بالمخدر المعدّ محلياً. عاد جيمي بيغيلو ومعه ملعقة طعام من المطبخ ومغرفة حساء. كانت الشموع ومصباحا

الكيروسين مشتعلة، لكن بدا أنها تزيد من إبراز عتمة الكوخ. أضاء أحد الممرضين مصباحاً.

ليس بعد، قال دوريغو إيفانز. لا توجد لدينا بطاريات احتياطية. انتظر حتى أطلب منك ذلك.

أشار إلى جيمي بيغيلو وسكويزي تايلور بأن يقفا معه بجانب الطاولة، وأن يزلقا أيديهما تحت جاك رينبو.

عندما أعدّ إلى ثلاثة أيها السادة.

قلبوا جاك رينبو. عندما أدخل سكويزي تايلور الإبرة في عمود جاك الفقري، ندت عنه أنّات هابطة مثل بالوعة أُفرغت فجأة. بدأوا يعطونه المخدّر بالتقطير. وصل وات كوني، الطباخ الضئيل الجسم ذو الأذنين اللتين تبدوان كأنهما مسروقتان من كيس من براعم الكرنب، حاملاً منشار تقطيع اللحم من المطبخ.

كانت خلطة فان ديروود جيدة، لكنها متباينة من حيث القوّة. غاب جاك رينبو عن الوعي بسرعة، واستعدوا لعملية البتر. غلوا المنشار والمعدات الجراحية القليلة المتاحة لهم في الماء، وعندما أصبح كلّ شيء جاهزاً أخيراً، أعطى دوريغو إيفانز الإشارة بالبدء. فأوقف التخدير بالتقطير وقُلب جاك رينبو.

سنعمل بأسرع ما بوسعنا، قال دوريغو إيفانز. إنها عملية اعتيادية. الأمر الرئيسي هنا هو أن نخفف النزف إلى أدنى حدّ. ثم التفت نحو جيمي بيغيلو ووات كوني، وقال لهما: ثبتّاه. هل الملعقة جاهزة؟ سأل سكويزي تايلور. رفع تايلور الملعقة المثنية الآن في تحية وهمية.

اشحن الطاحونة، قال دوريغو إيفانز.

أخذ نفساً عميقاً. دفع تايلور طرف الملعقة بلطف، لكن بثبات متزايد، داخل قاعدة بطن جاك رينبو المضنى.

المصباح، قال دوريغو إيفانز، تقدّم جيمي بيغيلو وأضاء المصباح على الجَدَعَة.

انبعثت ضوضاء من أكواخ المستشفى العام لكن صراخ جاك غطى عليها على الفور عندما بدأ دوريغو إيفانز يقطع جَدَعَة ساقه. كانت رائحة اللحم الميت الكريهة نفاذة جداً، وكان كلّ ما أمكنه عمله هو ألّا يتقيأ. لكن صرخات جاك رينبو أكّدت لدوريغو إيفانز بأنه يفعل ما يتعين عليه أن يفعله: قطع في اللحم الحيّ.

دخل ممرض يجري إلى الكوخ.

ماذا تريد؟ سأله دوريغو إيفانز، دون أن يرفع عينيه.

لقد أخرج الغونا داركي غاردنر من المستشفى.

ماذا؟

لم نتمكن من منعه. لقد جرّوه إلى الخارج من ذراعيه. لأن بعض الرجال لم يكونوا حاضرين على الخطّ. إنهم يحصون الأسرى الآن. إنهم سيعاقبونه.

ليس الآن، قال دوريغو إيفانز، مطرقاً بوجهه إلى مستوى ما تبقى من ساق جاك رينبو المتعفنة، مركزاً على عمله.

قال الميجور مينادو إنك الوحيد الذي يمكنه إيقافهم.

ليس الآن.

عندما قطع الشريان الفخذي نزف كثيراً، لكن ليس بشدة.

المشابك، قال دوريغو إيفانز. لا يمكنني أن أفعل شيئاً إزاء ذلك الآن. اللقطاء الصفر المنايك. المشابك؟ اللقطاء. المشابك!

ثبّت الشريان الفخذي بالمشبك، لكن النسيج تهتك ولفظ الأنبوب اللحمي الدم على الطاولة واستمر يضخّ الدم.

ادفع بقوة أكثر، قال لتايلور. كان يفكّر كيف يمكنه أن يكون هناك ليوقف هذا الغضب، وكان يفكّر أيضاً بالمِقْطَرة التي تعطلت،

وبالحاجة إلى شراء كمية أكبر من المخدّر من التجار التايلانديين، وكيف أن عليه في المستقبل أن يجري البتر الأول في الأسفل بقدر الإمكان لكي لا يسبب رعباً كهذا.

ثبّت الشريان الفخذي بالمشبك للمرّة الثانية، وللمرّة الثانية تهاوى. كان عليه أن يدفع إلى الأعلى نحو اللحم الميت النتن ويثبّته بالمشبك مرة أخرى. توقّف، انتظر. لقد ثبتت هذه المرة.

حسناً، قال، حسناً.

قطع مزيداً من اللحم. وفي دقيقة قطع ما تبقى من اللحم المتعفن. كان هناك نزيف، لكن تايلور كان محقّاً. لم يكن كثيراً، فقد تبقى قدر كاف من الساق لبتره. للمرة الأولى خلال ساعة، استرخى قليلاً.

هل الملعقة بعيدة؟ سأل تايلور.

ليس بعد، قال دوريغو إيفانز، مشيراً إلى اللحم المتعفن على الطاولة، قال لجيمي بيغيلو، أزله بحق المسيح.

ثم سلخ إيفانز كمية كافية من اللحم ليشكّل غطاء لتغطية الجرح النهائي، ثمّ قطع إلى شرائح عضلات الساق الحيّة بمهارة من العظم ليتمكن من إزالة العظم في الأعلى لكي يلتئم اللحم بسرعة من تحته ومن حوله ليشكل جَدَعَة يمكن احتمالها.

المنشار، قال.

أعطاه أحد الممرضين منشار قص اللحم. كان يصعب عليه أن يتحكم بالجرّ الذي يحتاج إليه، فبدأ يعمل بضربات صغيرة لطيفة، مثْلِماً عظم الفخذ الأعلى، ساعياً إلى تفادي تفتيت العظام وإحداث أيّ ضرر آخر قد يصيب اللحم. بعد قليل سقطت قطعة عظم بطول إصبع.

كان الرجال الثلاثة يركّزون الآن بقوة على العملية. شرع دوريغو إيفانز في رتق الشريان الفخذي بخيط من الأمعاء كان فان ديروود قد صنعه من غلاف أمعاء خنزير، جرى تنظيفه وغليه ونسله إلى خيوط، ثمّ نُظّف وغُلي مرة أخرى، ثمّ غُلي مرّة ثالثة قبل بدء العملية. وبالمقارنة مع الأربطة الجراحية، فهي خشنة، لكنها تثبت. هذه المرة لم يكن يخيط شيئاً. مجرد بلل، غباش من النسيج والدم. بدأ ضوء المصباح يخفت، وركّز بكلّ كيانه أن تأتي كلّ قطبة في مكانها الصحيح تماماً.

ثم توقّف النزيف.

لقد فعلها. لقد تمكّن من خياطة الشريان، وسيعيش جاك رينبو. أدرك أنه كان يتنفّس بصعوبة. ابتسم. بدأ يجهز العضلات المتبقية ويسلخ طية لربط الجَدَعَة العظمية. نظر إلى سكويزي.

اسحب الملعقة يا ميجور. بلطف.

رفع سكويزي تايلور الملعقة. واصل دوريغو إيفانز عمله، ببطء أكثر الآن، وبدقة أكبر. جاك سيعيش. إنه سينقذ حياة هذا الرجل. يجب أن يتجاوز فترة النقاهة وهي الفرصة لحدوث التهابات. لكنها فرصه جيدة الآن. إنها ليست كبيرة، ربما، لكنها لا تزال جيدة. ركّز على أن يبذل أفضل ما يمكن أن يفعله الآن، وتخيّل جاك رينبو وهو في متوسط العمر مع أطفال، الجَدَعَة مستندة إلى وسادة، حيّاً، محبوباً. كان يعرف أن ما يفعله لم يكن بلا جدوى، بلا عقلانية. بأنه لم يفشل.

اطفئ المصباح، قال. انتهينا.

نهض واقفاً، فرك ظهره، غمز جيمي بيغيلو وعاد ونظر إلى الجَدَعَة. كان عملاً نظيفاً على نحو مدهش. أحسّ بالفخر للعمل اليدوي الذي أنجزه. لاحظ نقطة صغيرة من الدم تتسرّب من المكان

الذي رتق فيه طيات اللحم معاً، لكن الممرض كان ينظّف الجَدَعَة ويجففها.

أشعل دوريغو سيجارة وابتلع بعمق الدخان اللذيذ، ثم ضحك.

ملعقة، قال.

ملعقة مثنية لعينة، قال سكويزي.

لاستخدامها كمبضع.

عندما نظر إلى جاك في الخلف، ظهرت بضع نقاط جديدة من الدم على الجَدَعَة.

لماذا لا تضمّد الجَدَعَة؟ سأل دوريغو وات كوني، وهو يمسح نقاط الدم مرة أخرى.

كما لو كان رداً على ذلك، ظهر الدم على الفور تقريباً ثانية. بدأت الطيات المخاطة تنتفخ، بدأ التسرب القليل يتحوّل إلى نضح دائم، ثم بدأ الدمّ يقطر من جميع أطراف الجرح. نظر وات كوني إلى دوريغو مذعوراً.

لا بدّ أن القُطب التي تضم الشريان الفخذي معاً قد تهتكت، قال سكويزي تايلور، مردداً الكلمات التي لم يكن دوريغو يتمنى أن تخطر له. تجمّد للحظة.

الملعقة! صرخ فجأة.

ماذا؟ سأل جيمي بيغيلو الذي كان واقفاً على الطرف الآخر من الكوخ.

لقد انتقلت الأربطة إلى الشريان الفخذي. يجب أن نعيد فتحها.

ركض سكويزي تايلور عائداً بالملعقة.

المصباح! جيمي، المصباح! لدينا نصف دقيقة.

لأنه كان يعرف أنه بعد نصف دقيقة، سيكون قلب جاك رينبو قد

أفرغ جسمه من الدم، قبل أن يتمكن من إعادة الملعقة إلى مكانها، ارتجّ جسد جاك رينبو.

الملعقة!

بدأ جسد جاك رينبو ينتفض من التشنّجات.

الملعقة! صرخ دوريغو إيفانز.

دفع سكويزي تايلور الملعقة إلى الأسفل، لكنه لم يتمكن من إبقائها مضغوطة على الجسد المنتفض. أشعل جيمي بيغيلو المصباح وعاد إلى مكانه، لكن ضوء المصباح خفت أكثر، ثم انطفأ تماماً.

المصباح! صاح دوريغو إيفانز. أين الضوء المنيك؟

كان الجسد ينتفض بعنف.

امسكه! ثبّته! بقوة. الملعقة! بشدّة! امسكوا المنيك!

إني أدفع بقدر ما أستطيع لكن المنيك لن يتوقّف، صاح سكويزي تايلور.

تناثر الدم في كل مكان، دم فوق قضبان الخيزران، دم فوقهم، دم يقطر خطوطاً زيتية فوق الطين المعتم في الأسفل. استغرق ذلك بضع لحظات أخرى حتى تمكن جيمي بيغيلو ووات كوني من الإمساك بجاك رينبو وتثبيته، لكن على الرغم من ذلك، ظل ذلك الجسم الضئيل ينتفض إلى الأعلى وإلى الأسفل كأن تياراً كهربائياً يسري في جسده، وانزلقت قبضاتهم في الدم الذي بدأ الآن يملأ كلّ شيء.

الساق، قال دوريغو إيفانز، امسكوا الساق!

لكن لم تبق هناك ساق حقاً، بل مجرد شيء مؤثّر ودامٍ على نحو غريب يريد أن يبقى وحده. أصبحت قطعة الفخذ الصغيرة التي بقيت زلقة جداً من الدم، فأصبح من الصعوبة بمكان العمل فيها. وفي الضوء الخافت والاضطراب الذي أحدثه الدم، بدأ دوريغو إيفانز يصادف مشكلة في عدم رؤية الأشياء بوضوح. لقد خفّت حدة

التشنجات، ثمّ توقّفت، وتمكّن من إيجاد القطب التي تضم اللحم معاً ليتمكن من العودة إلى الشريان الفخذي، لكن عندما قطعه، انتفض جاك رينبو مرة أخرى. انزلقت ملعقة سكويزي ووقعت في الوحل اللزج، وتدفّق الدم في قوس شديد وصل إلى قدم وساق جاك رينبو السليمة.

بأصابعه راح يفتّش بشكل مسعور لإيجاد جَدَعَة جاك، محاولاً أن يجد شيئاً يخيطه، يضغط على اللزوجة، يتلمّس مكان تدفق الدم. لا يوجد شيء، لا يوجد شيء يمكن خياطته، ولا يوجد شيء يمكن أن يمسكه الخيط. كانت جدران الشريان مبلّلة مثل ورقة نشاف. وبدأ ينتاب دوريغو إيفانز فزع متزايد بينما استمر الدم يتدفق، بينما دخل جسم جاك رينبو في سلسلة فظيعة من التشنجات العنيفة، لا يمكنه أن يفعل شيئاً. لكن لا بد من أن يكون هناك شيء، قال لنفسه. فكّر! فكّر! انظر!

مع كلّ هزة مثل تيار كهربائي، كان الدم يتدفق في نافورة صغيرة. كما لو كان جسم جاك رينبو يُفرغ نفسه من الدم من تلقاء نفسه. حاول دوريغو إيفانز أن يخيط حتى الشريان بقدر ما يستطيع، لكن الدم ظل يتدفق، لم يتمكن سكويزي تايلور من إيقافه، فتناثر الدم في كل مكان، وراح يفكّر مستميتاً بشيء يجعله يكسب الوقت، لكن لم يكن هناك شيء. كان يخيط والدم لا يزال يتدفق، لم يكن هناك ضوء، وظلت القُطَب تتمزق. لم يبق شيء متماسك.

ادفع بقوة أكبر، صاح بسكويزي تايلور. أوقف التدفق المنيك.

لكن مهما ضغط سكويزي تايلور بقوة، لم يتوقف الدم عن التدفق بعنف، يتدفق فوق يد وذراع دوريغو إيفانز، ثم يسيل فوق الطين الآسيوي والمستنقع الآسيوي اللذين لم يتمكنوا من النجاة منهما، ذلك الجحيم الآسيوي الذي يجرهم كلّهم إليه.

حلّت الرعشات محل التشنّجات. كان دوريغو إيفانز يدفع أعمق في الجَدَعَة، كان اللحم يتهتك ويتمزق بينما يعمل. أصابت إبرته نقطة ما في العظم. كان يحاول أن يفكّر، كان يحاول أن يجد وسيلة، وكان يحاول ألّا يفقد الأمل عندما سمع جاك بضع كلمات بصوت خفيض لا تعدو شهقات وأنفاس متقطعة.

الأخ الأكبر؟

جاك؟

هل سأموت؟

أظن ذلك.

برد، قال. برد منيك.

ظل دوريغو إيفانز يعمل بثبات على جَدَعَة جاك، وقد غاص كاحلا قدميه الحافيتين في الوحل المدمى تحت طاولة العمليات المصنوعة من الخيزران. كان هدوؤه الخارجي غريباً يعرف أنه يحتفظ به لأشدّ لحظات الاضطراب الداخلي. ظل يبحث عن قطعة الشريان تلك، محاولاً إيجاد شيء يمكنه أن يتمسّك به، يخمش الطين بأصابع قدمه بلا وعي.

ثم وجدها أخيراً، وعمل بأقصى عناية ودقة لكي ينجح في عمله ويعيش جاك، وعندما انتهى، رفع رأسه وهو يعرف أن جاك قد مات منذ بضع دقائق، ولم يعرف أحد كيف يخبره بذلك.

- ١٩ -

وجد الكولونيل كوتا أن الرقيب الكوري أصبح مزعجاً أكثر من أي وقت مضى. وأصبح الغونا يبدو رجلاً لا يمكن الوثوق به أو

الاعتماد عليه. حتى أن طريقته المتكلفة في المشي وطريقته البطيئة في الالتفات كانتا تبدوان زائفتين على نحو ما. وعندما راح يرمق النائمين المتشابكين والصخور والأوساخ والحديد والعبيد العراة الذين يعملون مثل الصراصير، فهم الكولونيل كوتا لماذا لا يمكن استخدام الكوريين كجنود يحاربون على الجبهات.

عندما أخذ يفتّش الأعمال الجارية في مدّ السكة الحديدية - الحواجز الترابية والتحويلات والكسارات الضخمة عبر التلال الصخرية والمنحدرات الكلسية الرمادية التي تعلوها سحب سوداء، والجسور المقامة من أشجار الساج الضخمة التي تنتشر في وديان الغابة وتنحني مثل أقواس قزح أثناء الطوفان عند هبوب الرياح الموسمية - كان كلّ ما يمكنه لأن يفكّر به هو أنه لم يقتل الأسير الذي رآه عند الدرب، وكيف أن الرقيب الكوري كان شاهداً على سلوكه الغريب. وبالرغم من ذلك، لم يتمكن حتى الآن من تذكّر ترتيب مقاطع قصيدة الهايكو بدقة. لقد أزعجه الرقيب الكوري الذي كان يريد إرضاءه بابتسامته المتكلفة، وموافقته السخيفة على كلّ ما يعلّق عليه كوتا، وتبجّحه بمدى كفاءة عمليتهم. كان الكولونيل كوتا مقتنعاً بأنه يوجد وراء كلّ إطراء يبديه هذا الرقيب الكوري شيء من الاحتقار، ووراء كلّ موافقة تقبع سخرية، وتحت كلّ تفاخر يثوي شعور وقح بالزهو. وقال لنفسه إنه في أفضل الأحوال قد يُحرج الرقيب الكوري، وفي أسوأ الأحوال، قد يزعجه، فأمر بإحصاء الأسرى، لا لسبب إلّا لأنه يمكنه عمل ذلك.

ولدهشة الحرّاس، تبين لهم بعد إحصاء الأسرى غياب تسعة منهم. لكن الاكتشاف المريع هو أن ثمانية رجال كانوا غائبين في الإحصاء الثاني الذي أجري بعد نصف ساعة. وطلب الكولونيل الياباني الذي يشبه وجهه الفأس أن يتقدم الرجال الثمانية الذين كانوا

غائبين لمعاقبتهم، وطلب منهم الكشف عن هوية الرجل التاسع الذي لا يزال غائباً وعن مكان اختبائه.

عندما لم يتقدم أحد، أمر بالبحث عن الرقيب المسؤول عن المجموعة وإنزال عقوبة شديدة به لجعله عبرة للآخرين. وبعد شيء من الاضطراب والبلبلة، تبين أن الرجل التاسع هو الرقيب المسؤول نفسه وأنه ليس موجوداً على الخطّ، بل هو موجود في المعسكر.

عندما عاد إلى المعسكر بعد ظهر ذلك اليوم، وبخّ الكولونيل كوتا ناكامرا بشدة، وكان السبب الحقيقي لغضبه شعوره بالخجل لأنه نسي قصيدة الهايكو فلم يتمكن من قطع رأس الأسير - وقد جرى كلّ ذلك أمام الغونا الكوري. واستدعى الميجور الياباني بدوره الرقيب الكوري الذي لم يتذكّر اسمه قط، وصفعه بقوة عدة صفعات، وعرف اسم الأسير الذي كان يبدو - من بين كلّ الأشياء - متوارياً في المستشفى، ودعا إلى عقد اجتماع عام ومعاقبة الأسير أمام جميع الأسرى المتجمّعين.

أما الغونا فلم يعبأ بالصفعات التي كان يتلقاها، ولم يزعجه الأمر كثيراً: فقد أحسن صنعاً مع الأسير غاردنر، ولم تكن التهمة الموجهة إليه مجدية. وعلى الرغم من أن غاردنر كان يزعجه لأنه كان يغنّي ويصفّر أحياناً، فقد كان هذا الأسير مفيداً له في بعض الأحيان. فمنذ بضعة أيام، أعطى غاردنر الغونا قطعة لحم بقر طازجة من أجل جميع ضباط الصف. لكن هكذا تجري الأمور. إنه لأمر مؤسف، لكنّه كان يفترض، حتى بعد أن ضربه، أن غاردنر سيظل بحاجة إليه وسيكون هو بحاجة إلى غاردنر. هكذا تجري الأمور ولن تتوقّف عن كونها كذلك. يمكنك أن تدخل في حرب مع العالم، لكن العالم سيربح دائماً. ماذا بوسعه أن يفعل؟

وهكذا تم العثور على غاردنر في المكان الذي أرسله إليه

الغونا، في المستشفى. وبما أنه لم يكن قادراً على السير، أمر الغونا الحارسين اللذين كانا برفقته أن يجرّا الأسير إلى ساحة التجمع ومعاقبته.

- ٢٠ -

كان اليوم يمضي، وبدأ البرد يزداد حدة، وكان الرجال يفكّرون بوسيلة تمكّنهم، هنا على الأقل، من ألّا يعملوا. فقد كان بإمكانهم أن يرتاحوا لبضع دقائق، أو لأي فترة يمكنهم القيام بذلك. كانوا يرحبون بالراحة دائماً، أكثر الأشياء التي يرحبون بها في عالمهم بالإضافة إلى الطعام، لكنّهم لم يكونوا يريدون أن يكونوا هنا.

وقفوا وسط ساحة التجمع. فقد تم جمع مئة أسير أو نحو ذلك من الأسرى الذين يُكلفون عادة بمهام خفيفة، في ذلك الوقت المبكّر من المساء، تحت الأمطار الهاطل مع هبوب الرياح الموسمية ليشاهدوا داركي غاردنر، الرجل اللطيف الذي سيضربه الغونا من أجل جريمة لم يرتكبها. ورويداً رويداً بدأت أعدادهم تزداد عندما طلب الحرّاس من الأسرى العائدين من الخطّ الالتحاق بهذا الاجتماع البائس.

عندما تعب الغونا، تقدّم حارسان آخران لمواصلة ما كان يفعله. للحظة هبّت رائحة عطر فاكهة رطبة من الغابة، ذكّرت بعض الأسرى برائحة الشيري التي ذكّرتهم بعيد الميلاد بصحبة العائلة وبقالب حلوى الفاكهة التي كانت تعدّها لهم أمهاتهم. وبينما راح أحد الحرّاس يصفع وجه داركي صفعات عديدة كان الحارس الآخر يلكمه على صدره. حاول بعض السجناء استعادة ذكرياتهم السعيدة فتذكروا اليقطينة المشوية والحمل المشوي وفطيرة الخوخ ثم يغسلون كلّ ذلك بجرعة

من البيرة. ومع أنّهم سيحملون ذكرى ضرب داركي حتى اليوم الذي سيموتون فيه بعد ستّة أيام أو بعد سبعين سنة، وعندما لا يعود هذا الحدث في حدود سيطرتهم، فلن يعود ضمن وعيهم أكثر من صخرة تسقط أو عاصفة تهب. كانت تلك ببساطة أفضل وسيلة للتعامل مع أحداث كهذه، وهي البحث عن أشياء أخرى لتذكّرها والتفكير بها.

غرز شيفيد مورتن - ببطء وبحرص شديدين لكي لا يلفت الانتباه إلى حركته الممنوعة، أصابع قدميه في الطين مرة أخرى، كما كان يفعل قبل الحرب عندما كان عاملاً يحفر أساس أحد البيوت؛ ومرر جيمي بيغيلو طرف إبهامه فوق طرف سبابته. هذه اللمسات اللطيفة أعادته إلى سرير همست فيه أصابع امرأة سطراً على امتداد ردفه، وتذكّر روعة الشارب من الزغب عندما شدّته إليها لتقبّله.

بعد عشر دقائق أخرى، أمر الغونا الذي أنهى فترة الاستراحة والذي ربما أحسّ بعدم انتباههم، بأن يتقدم جميع الأسرى ستّ خطوات إلى الأمام. أصبح بإمكان الرجال المتجمعين الآن سماع صوت الضربات والصفعات واللكمات، المكتومة والصامتة. الآن، لم يعد بإمكانهم ألّا ينظروا إلى الرجل الشبه عار الذي كان الحرّاس ينهالون عليه بالضرب. كانت تغلف وجهه المبلل المتورم نظرة غريبة مفعمة بالدهشة كلّما كال له الحرّاس لكماتهم بقبضاتهم أو بضربه بأعواد الخيزران.

ساعدوني! راح داركي غاردنر يئن. ساعدوني!

أو ربما بدت صيحاته المثقوبة هكذا. كان كلّ نَفَسٍ غريب ينبعث من داركي بمشقة - لهاث والبصاق دماً، وأحياناً نخير -، وبينما كان جسمه يتحمل ذلك أيضاً - لم يعد بإمكانه حجب الصوت تماماً الآن، ومع ذلك فقد تمكنوا من حجبه.

كان ليزارد برانكوسي يحاول أن يرى وجه مايسي. فقد كان ينظر

كل يوم بمودّة إلى الرسم الذي كان رابيت هيندريكس قد رسمه بقلم الرصاص، لكنه عندما حاول أن يرى ما وراءه - عندما حاول أن يتذكرها -أصبح كلّ شيء ضبابياً، وبدأ تخيّل ماي ويست يزداد قوة، بينما كانت صورة مايسي تبهت أكثر فأكثر. وعلى الرغم من ذلك، ومع استمرار الضرب، ظل يحاول، لأنه بدأ يفهم أن مدى حياته الآن يكمن في قدرته على الإيمان بشيء - أي شيء - إلا الشيء الذي يجري أمامه.

وهكذا فقد رأوا، لكنّهم لم يروا؛ وهكذا فقد سمعوا، لكنّهم لم يسمعوا؛ وقد عرفوا، عرفوا كلّ شيء، ومع ذلك، كانوا يحاولون ألّا يعرفوا. وعلى الرغم من ذلك، كان الأسرى يُخدعون ويعودون لرؤية الضرب بشيء من الجدة، مثل غصن شجرة ساج صغيرة وجده الغونا وهوى به على رأس داركي غاردنر، أو عندما أخذ يجلد جسد داركي غاردنر بقضيب خيزران بسماكة ذراعه، كما لو كان الأسير سجادة وسخة ينفضها. كان يكيل له ضربة إثر ضربة - على وجه وحش، قناع وحش. كان الأسرى جائعون، وبدأت أفكارهم تتركز بشكل متزايد على وجبة الطعام المسائية التي، بالرغم من ضآلتها، فإنها لا تزال حقيقية، ولا تزال بانتظارهم، وكان الضرب يحرمهم من متعة تناولها. فهم يعملون طوال النهار دون أن يقيم أودهم شيء أكثر من مجرد كتلة صغيرة من الرزّ اللزج. كانوا يعملون تحت الحرارة والمطر. يكسرون الصخور، ويحملون التراب، ويقطعون أشجار الساج الضخمة وأعواد الخيزران ويجرونها. لقد قطعوا سبعة أميال للوصول إلى مكان العمل والعودة منه. لكنهم لن يتمكنوا من تناول طعامهم إلا بعد أن ينتهي الضرب، أو بعد أن يلفظ داركي أنفاسه الأخيرة، وكانوا يأملون في سريرتهم، سواء أكانت هذه أو تلك، في أن ينتهي ذلك آجلاً أم عاجلاً.

بدأ المزيد من الرجال يصلون مترنحين من الخطّ، فقد تجاوز عدد الأسرى القادمين المائتين ثم ازداد إلى أكثر من ثلاثمائة أسير. وكانوا مرغمين على مشاهدة رجال آخرين يضربون في الوحل رجلاً مثل الرجال الآخرين، ولا يستطيع أحد منهم أن يقول أو يفعل شيئاً يمكن أن يغيّر سير الأحداث.

كانوا يرغبون في الاندفاع نحو الحرّاس، والإمساك بالغونا الكوري والحارسين الآخرين، وضربهم ضرباً مبرحاً، وتهشيم جماجمهم حتى يندلق منها ماء الدماغ، وتقييدهم بجذع شجرة، وغرز حرابهم في أحشائهم، ولفّ رؤوسهم بقلائد من أمعائهم الزرقاء والحمراء وهم أحياء ليعرف الحرّاس قدراً ضئيلاً من الكراهية التي يكنونها لهم. خطرت هذه الأفكار للأسرى، ثم فكّروا أنّهم لا يستطيعون حتى مجرد التفكير بذلك، وازدادت وجوههم الهزيلة والخاوية هزالاً وخواء كلما استمر الضرب. ثمّ سمع هؤلاء الرجال الذين لم يكونوا رجالاً، هؤلاء البشر الذين لا يستطيعون أن يكونوا بشراً، صوتاً مألوفاً يصرخ...

بيوكي!

ارتفعت روحهم المعنوية للحظة عندما التفتوا ورأوا دوريغو إيفانز يجري نحوهم. وعندما لامس كاحل قدمه المتقرّح أجمة من عيدان الخيزران، صاح دوريغو إيفانز بصوت أعلى...

بيوكي! بيوكي!

لكن الغونا تجاهل الضابط قائد الأستراليين تجاهلاً تاماً. دفعه حارس آخر إلى الخطّ الأمامي للأسرى عندما تقدم الميجور ناكامرا إلى ساحة التجمع، باتجاههم، وكان الملازم فوكوهارا يسير وراءه، جاء ليطلع على العقاب بنفسه.

خرج دوريغو إيفانز من الرتل وتوسل للضابطين اليابانيين أن

يوقفا العقاب. لاحظ بعض الرجال كيف انحنى ناكامرا قليلاً، احتراماً لرتبة الكولونيل الأعلى منه، وكيف أن الكولونيل الأسترالي، بشيء من الانزعاج من الياباني، لم يبادله الانحناءة.

سمعه الرجال يقول: هذا الرجل مريض جداً، إنه بحاجة إلى الاستراحة وإلى الدواء، لا إلى الضرب.

لكن الضرب استمر وراءه.

- ٢١ -

كان ناكامرا يهتزّ على كعبي حذائه وهو يستمع. يهرش جسمه. فمه جاف. يتميز غضباً. كان بحاجة إلى شابو، حبة واحدة فقط. لم تكن رؤية الأسير وهو يُضرب تمنحه أي بهجة. لكن ماذا يمكنك أن تفعل مع أشخاص كهؤلاء؟ ماذا؟ لقد ربّاه والدان طيبان لطيفان ليصبح رجلاً طيباً لطيفاً. إن الألم الذي انتابه من هذه المعاناة عندما أصدر أمره قد أثبت له مدى كونه رجلاً طيباً ولطيفاً. وإذا كان الأمر كذلك، فلمَ يشعر بكل هذا الألم؟ لكن نظراً لكونه رجلاً طيباً - يفهم طيبته بأنها طاعة ووقار وواجب مؤلم - فقد كان قادراً على إصدار أمر لتنفيذ العقاب.

لأن الضرب يقدم خدمة أكبر. فبين عشية وضحاها، ازدادت مهمّة إكمال القسم المخصص لهم من الخطّ بمراحل كثيرة. ولأن الأسرى أصبحوا الآن صعبي المراس، ولأن الحرّاس شعروا بذلك، فقد أصبحوا بدورهم مرتبكين. إن العقاب الذي يُنزل بأحد الأسرى هو وسيلة لإعادة تكريس سلطة الحرّاس، وتذكير جميع الأسرى بواجبهم المقدّس.

وهناك أيضاً المسألة الأخرى المتعلقة بالكولونيل كوتا الذي

اكتشف غياب الأسرى - فجلب العار عليه وعلى ناكامرا وعلى جميع المهندسين والحرّاس تحت قيادته. فالعقاب لا يرتبط بالذنب بل بالشرف. لا خيار في هذا أو في ذاك: فالمرء موجود في سبيل الإمبراطور وفي سبيل السكة الحديدية - وهو، بعد كل شيء، تجسيد لإرادة الإمبراطور - وإلا فلا يوجد للمرء أي سبب للعيش أو حتى للموت.

أخبره فوكوهارا بأن الكولونيل الأسترالي تحدث مرة أخرى عن الدواء. أيّ دواء؟ قال ناكامرا لنفسه. فلم ترسل القيادة المركزية شيئاً لهم - لا آلات ولا طعام ولا دواء، ولم ترسل سوى بضع أدوات يدوية معطلة قديمة وأوامر مستحيلة لبناء معجزة من الصفر في هذه الصحراء الخضراء. والكوريون، الكوريون الذين لا فائدة ترجى منهم. ولا عجب أنهم لم يُستخدموا كمحاربين في الخطوط الأمامية، حتى لا يمكنك أن تأتمنهم على حراسة الأسرى الأستراليين. وهو يحتاج إلى دواء أيضاً. إنه يحتاج إلى شابو، لأنه إذا لم يتمكن من إكمال القسم المخصص له من الخطّ في الوقت المحدد، فلا يوجد أمامه من خيار سوى أن ينتحر ليغسل العار الذي لحق به. لكنه لا يريد أن يقتل نفسه، ولن يستطيع أن يعود إلى وطنه إذا خذل الإمبراطور. إنه رجل أفضل من ذلك. ولكي ينهي ما يجب أن ينهيه خلال الساعات القليلة القادمة، فهو يحتاج إلى كمية من شابو.

ومع مواصلة الضرب، لاحظ ناكامرا أن الرقيب الكوري لا يستخدم قوة كبيرة في ضربه للأسير. لكن ما أزعج ناكامرا هو عدم وجود الهدف. الكوريون، حسناً، الكوريون. ببساطة إنه لا يؤدي مهمته بصورة صحيحة. ربما كان متعباً، لكن هذا ليس عذراً. لقد أمر ناكامرا بإنزال العقاب، وهذا الأمر ضروري ومبرّر، لكن الحارس يبدو أنه لم يأخذ الأمر بجدية.

عندما واصل فوكوهارا ترجمة ادعاءات الكولونيل الأسترالي بأن الأسير لم يكن مذنباً وأن الغونا قد طلب منه أن يعود إلى المستشفى لشدة مرضه، ظل ناكامرا واقفاً هناك، يحكّ جسمه بشدّة، يضيّع وقته، يراقب الكوري وهو ينفض الغبار عن الأسير. بدا الأسير مترنّحاً لكنه كان لا يزال قادراً على تحمّل ضربات الحارس الضعيفة. عندما ترنح الأسير، خيّل إلى ناكامرا بأنه يستخدم الترنح لكي يتمايل مع وقع الضربات التي تنهال عليه بقضيب الخيزران ولم يكن الغونا يفعل شيئاً لإنهاء هذه المهزلة. كان الأسير يسخر من العقوبة. لقد أفقد ذلك صواب ناكامرا، فراح يهرش جلده بقوة أكثر - إنه لا يحتاج إلّا إلى حبة شابو، لكن إلى متى عليه أن ينتظر، أن يظل يراقب هذه الحماقة، هذا الغباء؟

غيّر الكولونيل الأسترالي أسلوبه، وبدا أنه يقدم حجّة تنطوي على إساءة السلطة ليوقف الضرب. وأخبر فوكوهارا ناكامرا بأن الكولونيل الأسترالي يدعّي بأن الرقيب الكوري تجاهله تماماً - وهو الكولونيل والضابط القائد - عندما كلّمه، وحطّ من مكانة وقدر رتبته وشرفه العسكري.

التفت ناكامرا إلى فوكوهارا. سينهي العقاب الآن وينتهي الأمر - وعلى الرغم من أنها كانت مسرحية رديئة فقد أدّت الغرض. لكن عندما استدار ناكامرا، داست قدمه اليسرى فوق شريط لفافة ساقه المنفلتة باستمرار، فالتوى حذاؤه الأيمن، وبطريقة ما، عندما حاول أن يرفع قدمه اليسرى، تعثّر فوق حذائه الأيمن وسقط منبطحاً في الوحل.

لم ينبس أحد بكلمة. توقّف الضرب للحظة، لكنه استؤنف بسرعة عندما نهض الميجور الياباني واستوى واقفاً على قدميه. كان طرف أحد ساقي بنطاله ملطّخاً بالطين، وكان قميصه قذراً.

عندما جالت نظراته على وجوه الأعداء والحلفاء على حدّ سواء، أدرك ناكامرا أنهم شاهدوا جميعاً سقوطه المهين. الأسرى والكوريون وزملاؤه الضباط اليابانيين. لقد ناله ما يكفي. كان متعباً، فقد استيقظ منذ الثالثة صباحاً، ولديه أشياء كثيرة عليه أن ينفذها. لقد شارف اليوم على نهايته، وتأخر إنجاز الخطّ عن الموعد المحدد. رأى ناكامرا - المهان، الغاضب، المكسو بالوحل - كدسة من الأدوات التي ألقاها الأسرى. فجأة أصبح عقله جلياً. فهم قضية الكولونيل الأسترالي الذي لا يطاق - كضابط، أحسّ بأنه أُهين، ورأى كيف يمكنه أن يحلّ مشكلة الكولونيل الأسترالي ومشكلته هو.

اتجه صوب الأدوات، اختار منها مقبض معول. وزَنَها بين يديه، ولوّح بها مثل مضرب بيسبول، ثم سار أمام الكولونيل الأسترالي إلى المكان الذي يقوم فيه الرقيب الكوري بجلد الأسير. أمر الغونا بأن يقف باستعداد. ثبّت ناكامرا قدميه، ورفع مقبض المعول، ومثل سيف ساموراي ضربه بقوة على كليته اليسرى.

أخذ الكوري يئن ويترنح وكاد يقع، لكنه توقف بصعوبة باستعداد مرة أخرى. رفع ناكامرا مقبض المعول فوق رأسه وهوى به بقوة على رقبة الكوري، وأنهى ذلك بضربة بقفا مقبض المعول على جانب رأسه، فسقط الحارس على إحدى ركبتيه. صرخ ناكامرا باليابانية، ثم رمى مقبض المعول فوق رأسه، واتجه نحو دوريغو إيفانز وانحنى. ومن دون أن يقصد، بادله دوريغو إيفانز الانحناء.

تكلّم ناكامرا بهدوء. ترجم فوكوهارا للكولونيل الأسترالي، وقال إنه عاقب الغونا للوقاحة التي أبداها للكولونيل الأسترالي، وأصبح الآن بالإمكان مواصلة عقوبة الأسير.

وقف الغونا على قدميه أمامهما، وأمسك مقبض المعول، صُعق وسار مترنحاً بضع خطوات باتجاه داركي غاردنر. استعاد توازنه، ثم

رفع مقبض المعول عالياً قبل أن يهوي به على ظهر الأسير بحماسة جديدة. سقط داركي غاردنر على ركبتيه، وبينما كان يستجمع قواه للوقوف ثانية، ركله الغونا بقوة على وجهه.

عندما احتج الكولونيل الأسترالي مرة أخرى، لوّح ناكامرا لمترجمه بأن يبتعد.

إنها ليست مسألة ذنب، قال متعباً.

لم تعد حركات داركي غاردنر متماسكة بينما كان يحاول جسده العاري الضامر استعادة توازنه، ينسّق ويتحرّك ثانية في الوقت المناسب ليدافع عن نفسه من الضربة التالية. لم يعد توقيته منتظماً. عندما نهض، انهالت ضربة على طرف وجهه من قضيب الخيزران من الغونا. تمايل رأسه على الجانبين، لهث وتراجع إلى الخلف، محاولاً ألّا يسقط، لكن جسمه لم يعد يحتمل. تعثّر ثم تهاوى على الأرض.

بينما تناوب الحرّاس على ركل غاردنر، دمدم ناكامرا قصيدة هايكو للشاعر إيسا. نظر فوكوهارا إليه متسائلاً.

نعم، قال ناكامرا. قل له.

ظل فوكوهارا يحدّق.

إنه يحبّ الشعر، قال ناكامرا.

إنها جميلة جداً باليابانية، أجاب فوكوهارا.

قل له.

بالإنكليزية، لا أظن ذلك.

قل له.

ممسداً جانب بنطاله بيده، التفت فوكوهارا إلى الأسترالي. استقام في وقفته، حتى بدت رقبته أطول، وتلا ترجمته هو:

عالم من الألم. . .
إذا تفتّحت براعم الكرز،
إنها تتبرعم.

- ٢٢ -

نظر دوريغو إيفانز إلى ناكامرا الذي كان يحكّ فخذه بقسوة. فهم دوريغو إيفانز أنه من أجل مدّ السكة الحديدية التي هي السبب الوحيد للمعاناة الهائلة لمئات آلاف البشر حينذاك - من أجل تلك السكة الحديدية الخرقاء من الحواجز الترابية والقطوع والجثث والأراضي المحفورة والأتربة المتكومة والصخور المتفجّرة، والمزيد من الجثث والجسور المتأرجحة القائمة على دعائم من الخيزران والعوارض من خشب الساج، ومزيد من الجثث، والمسامير التي لا تعد ولا تحصى، والخطوط الحديدية الصلبة، من جثّة بعد جثّة بعد جثّة بعد جثّة - ومن أجل بناء السكة الحديدية، كان يجب معاقبة داركي غاردنر. في تلك اللحظة، أُعجب دوريغو بإرادة ناكامرا القوية - أُعجب بها إلى درجة تفوق حزنه على ضرب داركي غاردنر - القوّة المتجهمة، الطاعة العمياء لقوانين الشرف التي لا تدع مجالاً للشكّ، لأن دوريغو إيفانز لم يجد في نفسه قوة حياة موازية يمكن أن تتحدّاها.

بوجهه الذي يخلو من أي تعابير وسترته المهترئة، وضربه للغونا، والأوامر التي أصدرها للتو، لم يعد ناكامرا يبدو بالنسبة لدوريغو إيفانز ذلك الضابط الغريب بل الإنساني الذي لعب معه الورق في الليلة الماضية؛ لا القائد القاسي، بل القائد الواقعي الذي قايض الحياة بذلك الصباح، بل القوة المرعبة التي تتملك الأفراد

والجماعات والأمم، وتحنيها وتلفها ضد طبيعة كل منها، ضد أحكامها، وتدمرها كلّها أمامها بقدرية لا مبالية.

انحنى الغونا ورفع داركي غاردنر على قدميه وحمله كما يفعل رجل إطفاء. ألقى به على كتفه ثم جعله يقف. مرت لحظة توقف غريبة، كما لو أن الضرب قد انتهى، لكن ما إن استعاد داركي توازنه حتى بدأ الحرّاس الثلاثة يكيلون له الضربات بعيدان الخيزران وبمقبض المعول حتى سقط مرة أخرى. وهكذا بدأ نمط من الضرب والركل والسقوط، ثم إنهاضه لضربه ثانية.

عندما رأى دوريغو إيفانز ذلك - عندما أوقف الغونا داركي غاردنر مرة أخرى على قدميه لينهال عليه بالضرب، وضربه بقفا يده بسرعة مرّتين - أحسّ كأن رجة فظيعة تهزّ الأرض، وأنه لا يمكن لكيانهم كله إلّا أن يهتز معها، وأن هذا الاهتزاز المشؤوم هو حقيقة هذه الحياة. يجب أن يتوقّف هذا، قال دوريغو إيفانز، هذا غير معقول.

إنه مريض. إنه رجل مريض جداً.

لم يكن ذلك جدالاً. رفع ناكامرا أحدى يديه، وكلّمه بصوت لطيف جديد.

الميجور ناكامرا يقول إن لديه كمية إضافية من الكينين، قال فوكوهارا، لمساعدة المرضى على القيام بعملهم. إرادة الإمبراطور تأمر بذلك، والسكة الحديدية بحاجة إليها.

واستمر الاهتزاز، أكثر فأكثر.

فهم دوريغو إيفانز أن ناكامرا يحاول أن يقدم مساعدة، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً إزاء الضرب الذي أمر به. إن الكينين يساعد الآخرين. يستطيع ناكامرا أن يساعد من يساعده، ويساعده الكينين على مساعدتهم، لكنّه لا يستطيع أن يوقف الضرب، لا يستطيع أن

يساعد داركي غاردنر. السكة الحديدية تقتضي ذلك. فهم ناكامرا ذلك. يجب على دوريغو إيفانز أن يتقبّل الأمر. فلديه هو أيضاً جزء في السكة الحديدية، ولدى ناكامرا أيضاً. ولدى داركي غاردنر جزء فيها، ويجب أن يُضرب بقسوة، وعلى كلّ واحد منهم -كلّ بطريقته - أن يستجيب إلى الارتجاج الفظيع.

الاختلاجات والارتعاشات المنبعثة من جسد داركي غاردنر ومن ذراعيه ورجليه وهو يحاول حماية نفسه - أصبح كلّ ذلك بالنسبة لهؤلاء الحرّاس عقبات طبيعية مثل المطر أو الخيزران أو الصخور، يجب تجاهلها أو قطعها أو كسرها. وعندما توقّف عن المقاومة، توقّفوا عن إنهاضه، وحل محل صرخاته لهاث طويل، بطيء، مثل منفاخ نار ممزّق، وتباطأت وتيرة عملهم الشنيع، وأخذت طبيعة العمل اليدوي.

كان ثمة شيء يحدث داخل دوريغو إيفانز وهو يرى ما يحدث. هناك ثلاثمائة رجل يشاهدون ثلاثة رجال يحطّمون رجلاً يعرفونه، وعلى الرغم من ذلك، لم يفعلوا شيئاً، وسيستمرون في التفرج عليه، ولن يفعلوا شيئاً. وبشكل ما، فقد كانوا موافقين على ما يجري، وعلى رأسهم دوريغو الذي وصل متأخراً جداً، ولم يفعل كثيراً، بل وافق الآن بطريقة ما على ما يحدث. لم يفهم كيف حدث ذلك، لكنه حدث فقط.

لوهلة خيّل إليه أنه أدرك حقيقة عالم مرعب لا يستطيع المرء فيه أن ينجو من الرعب، عالم العنف فيه أبديٌّ، وهو الحقيقة العظيمة والوحيدة، أعظم من الحضارات التي أحدثها، أعظم من أي إله يعبده البشر، لأنه هو الإله الحقيقي الوحيد. كما لو أن الإنسان خُلق لينقل العنف ليضمن أن نطاقه أبدي. لأن العالم لم يتغيّر، وأن هذا العنف قد وجد على الدوام ولن يُستأصل، وسيموت رجال تحت

أحذية وقبضات ورعب رجال آخرين إلى الأبد، وأن التاريخ الإنساني كله تاريخ عنف.

لكن هذه المشاعر كانت غريبة جداً وعارمة لا يمكنه أن يمسك بها، تخبّطت للحظة في عقل دوريغو إيفانز ثم تلاشت. وراءه، كان ناكامرا يهمّ بالذهاب. كانت أفكار الضابط الياباني مشوشة ومقلقة أيضاً لا يفهمها، حتى أنه لا يستطيع أن يدركها. أفكار أخرى، مطمئنة، مريحة أكثر، عن الواجب وعن الإمبراطور وعن الأمة اليابانية، والمخاوف العملية الآنية لبناء السكة الحديدية التي حلت محلها. ومرة أخرى، مثل فأر مسرع، عاد عقل ناكامرا ليحقق ذلك الدور الذي أُسند له بطاعة.

بعد عشر دقائق، نسي الضرب تماماً. كانت قد مضت ساعة واحدة فقط على ذلك، عندما عاد إلى ساحة التجمع ورأى الأسرى لا يزالون في وضعية الاستعداد، أدرك أن الضرب لم ينته. حمل حارسان آخران فانوسين لإضاءة المشهد بعد أن حلّ الظلام، وفقد الأسير تقريباً الأسمال التي كانت تستر جسده فأضحى عارياً، واسودت بدلات الحرّاس الثلاثة الذين كانوا ينفذون العقاب من المطر والطين والدم. لم يعد الأسير يقاوم أو يتحاشى الضربات التي تنهال عليه، بل امتصها بسلبية مثل كيس من القش. وعندما كان الحرّاس يتوقفون عن ضربه بعيدان الخيزران، كانوا يركلونه مثل كرة قديمة مهترئة. لم يعد يبدو مثل رجل، بل شيء غير صحيح وغير طبيعي.

كان ناكامرا يرغب في أن يكون الضرب قد توقّف، لكن بدا له أنه من الأفضل ألّا يتدخّل.

مدعماً بثلاثة أقراص شابو، ذهب يبحث عن العريف توموكاوا ليطلب منه أن يذهب إلى المعسكر النهري لشراء زجاجة ويسكي

ميكونج من تاجر تايلاندي. قليل من الويسكي وحبة شابو، قال ناكامرا لنفسه، هو كلّ ما أحتاج إليه.

لم يتوقف الضرب، وعندما تعب الحارسان الآخران وتوقّفا، واصل الغونا ضرب داركي غاردنر بمقبض المعول بهمة، بطاعة، بانتظام.

ونتيجة لضربه، لا يمكن أن تكون هناك إلا نهاية واحدة.

- ٢٣ -

فتح داركي غاردنر عينيه ورمش. سقطت قطرات المطر على وجهه. دفع يديه في الطين لكنهما غاصتا أكثر. كان يسبح في الخراء. حاول أن يقف على قدميه لكن ذلك كان مستحيلاً. إنه يسبح في مزيد من الخراء. حاول أن يكّور جسمه ليحمي نفسه. لم يُجدِ ذلك نفعاً، بل غاص أكثر داخل الفتحة الكريهة. إذا أغمض عينيه، فإن الضرب سيعود، وإذا فتح عينيه، فإنه سيغرق في الخراء. حاول أن يظل عائماً، حاول أن يصعد إلى السطح، لكن الأرض كانت زلقة جداً والظلام حالك ولم يجد قبضة أو شيئاً يمكنه أن يتمسك به. وعندما فعل ذلك، لم تكن لديه القوّة الكافية لينهض ويخرج. لم يقو جسده على مساعدته. كان يستجيب للركلات واللكمات التي جعلته يتلوى. لم يكن يعرف منذ متى هو هناك. أحياناً كان يبدو أنه موجود هناك منذ الأزل، وفي أحيان أخرى، كان يبدو أنه لم يكن هناك أي زمن. وفي لحظة ما، تناهى إليه صوت أمّه. كان يجد صعوبة بالغة في التنفّس. أحسّ بقطرات مطر أكثر نعومة. رأى نقاط زيت أحمر تلمع فوق الطين البني، سمع أمّه تناديه مرة أخرى، لكن ما تقوله لم يكن واضحاً، هل كانت تدعوه إلى البيت أم هل هو البحر؟ كان

هناك عالم، وكان هناك هو، والخيط الذي يربط الاثنين يتمدد ويتمدد، كان يحاول أن يشدّ نفسه ليجاري ذلك الخيط. كان يحاول أن يسحب نفسه ليعود إلى البيت إلى حيث تناديه أمّه. حاول أن يناديها، لكن عقله كان يخرج من فمه في نهر طويل، طويل نحو البحر. رمش مرة أخرى. زعق قرد أبيض كاشفاً عن أسنانه. فوق الحافة، القمر الباسم. لم يبق شيء، وكان لا يزال يغرق. سمع صوت البحر. لا ، قال، أو خيّل إليه أنه قال ذلك. لا ، ليس البحر. لا! لا!

- ٢٤ -

عثروا عليه في وقت متأخر من تلك الليلة. كان رأسه مكنباً إلى الأسفل في البينجو، الخندق الطويل العميق من الغائط الممزوج بماء المطر الذي يستخدم كمرحاض عمومي. بطريقة ما زحف إلى البينجو من المستشفى الذي كانوا قد نقلوا جسمه المحطم إليه عندما توقفوا عن ضربه أخيراً. ساد الظن بأن عندما كان مقرفصاً، اختل توازنه ووقع، وبما أنه لم يكن يمتلك القوّة التي تمكّنه من الخروج من الحفرة، فقد غرق.

الخراء دائماً في بيت الخلاء، قال جيمي بيغيلو الذي تطوّع بإنزاله على حبل إلى جورة الماء المليئة بالخراء ليُخرج الجثّة. *رايتيو*، صاح للذين يمسكون الحبل في الأعلى عندما أصبح على مستوى فخذيه في القذارة. *رايتيو*!

وعندما ربط حبلاً ثانياً حول الجثّة، خاطبها قائلاً:

أيها اللقيط الغبي المنيك يا داركي. ألم يكن بإمكانك أن تخرا

على السرير مثل جميع الأغبياء المنايك الآخرين؟ ألم يكن بإمكانك أن تطوي بطانيتهم المنيوكة إلى الخارج كما يريدون؟

عندما رفعوا جثة داركي غاردنر، رآها جيمي بيغيلو على ضوء فانوس الكيروسين. كانت الديدان تكسو جسده، مليئاً بالكدمات على نحو غريب، مهشماً، موسّخاً، قذراً، ومكسراً إلى درجة كبيرة، وخيّل إليه لوهلة أنه قد لا يكون هو.

حملوا الجثة إلى المستشفى. وبصفيحة الكيروسين المليئة بالماء، قام عامل المنجم شيفيد مورتن بتنظيف الجثة المسوّدة من الأوساخ العالقة بعنف شديد، وبرقة شديدة، وجهزه للدفن في اليوم التالي.

كان يوماً للموت، لا لأنه كان يوماً خاصاً، بل لأنه لم يكن كذلك. فقد أصبح الآن كلّ يوم هو يوم للموت، وقد أجيب عن السؤال الوحيد الذي كان يلحّ عليهم، وهو دور من التالي، والشعور بالامتنان بأن شخصاً آخر يقضم في أحشائهم، مع الجوع والخوف والوحدة، حتى يعود السؤال، منعشاً، متجدّداً، ويستحيل نكرانه، والجواب الوحيد الذي يمكنهم تقديمه هو: أن أحدهم سيعيش من أجل لأخر إلى الأبد، ولا يمكن أن يكون هناك أنا، بل نحن فقط.

- ٢٥ -

في صباح اليوم التالي، فتش روستر ماك نيس في حقيبته عن نسخته من كتاب «مين كامبف» (كفاحي) ليبدأ يومه بالدقائق العشر من الحفظ عن ظهر قلب. استيقظ في منتصف الليل، لا تشغله سوى فكرة واحدة - بأنه لو كان قد تقدم خطوة إلى الأمام وقال إنه هو من خرج بفكرة التهرب من العمل، لما مات غاردنر. لكنه قال لنفسه،

إنه لو فعل ذلك، لكان من الممكن أن يموت هو بدلاً منه. أم لا. أو ربما ماتا كلاهما. قال لنفسه من المستحيل أن تعرف ماذا يمكن أن يفعل اليابانيون، وأكدّ لنفسه بأن الموت مقدّر على غاردنر لأنه كان الرقيب المسؤول عن مجموعتهم، ولأنه كان مريضاً.

عندما وقف روستر ماك نيس عند التقاطع البارحة، وعندما أمر الياباني الأسرى المتهمين بأن يتقدّموا خطوة إلى الأمام، لم يكن الهدير الياباني الأعلى صوتاً يدور في عقله، بل ضحكة غاردنر عندما أمسك به ويده حول قشرة البيضة. في تلك اللحظة، عندما كان بإمكان روستر أن يتقدّم من الصف، كان كلّ ما أمكنه أن يفكّر به هو بيضة البطّة المسودّة التي سرقها منه غاردنر، قشرة البيضة التي استخدمها آنذاك للسخرية منه. الإهانة التي وجهها له غاردنر البارحة صباحاً لازمته كعاطفة أكثر ألماً من الذاكرة التالية لضرب غاردنر. لا، قال روستر ماك نيس، إنه لن يساعد هذا الرجل، لكنه لم يكن ينوي أن يقتله.

لا. لم أكن أنوي ذلك، تمتم لنفسه، لا، لم أكن أنوي ذلك.

عندما لعق لحيته بلون الزنجبيل، تحسس قعر حقيبته، ثمّ الغلاف الرطب لكتابه «مين كامبف». وعندما كان يهمّ بإخراجها، لامست يده قميص بدلة رسمية احتفظ به طوال فترة أعماله الشاقة. كان يحرص على أن يكون مطوياً وممسداً دائماً، لكنه انتفخ الآن. ترك كتابه وتابع البحث، ثم أخرج بيضة بطّة. تدلّت شفته السفلى من فمه. لكنه عندما وجد البيضة، حل شعور برعب لا يمكن التعبير عنه بكلمات محل شعوره بالارتياح. أعاد بيضة البطّة إلى حقيبته وبسرعة، وكما لو كانت عاراً هائلاً يجب إخفاؤه، أخرج كتاب «مين كامبف».

وعلى الرغم من محاولاته الكثيرة، لم يتمكن من حفظ شيء منه.

- ٢٦ -

بعد مضي عشرات السنين، كان جيمي بيغيلو يصرّ على أن يقوم أطفاله بطي ثيابهم وعلى أن تكون الثنية دائماً إلى الخارج، وكان يدأب على فتح أدراج خزانتهم في بيتهم المشيّد من ألواح متراكبة في ضواحي هوبارت ليتأكد من أن ثيابهم مطوية وأن الطيّات متجهة إلى الخارج. ولم يضربهم أو يصفعهم قط لأنهم لم يفعلوا ذلك. كان يرجو ويتوسل، يأمر ويطلب، وفي النهاية، يعيد، ساخطاً، طي وترتيب ثيابهم بنفسه وهم واقفون بجانبه ينتظرون متوترين. كان يتملكه رعب لا اسم له ولا يمكنه إيضاحه - اضطراب سيحملونه هم أيضاً طوال حياتهم يشكل مزيجاً من الحبّ والخوف. كان ذلك يتجاوز أدراج الخزانة وهي تفتح وتغلق، تتجاوز إحباط والدهم وغمغمته. كان يعرف أنهم لم يفهموا، لكن أليس بإمكانهم أن يروا؟ كيف يمكنهم ألّا يعرفوا؟ ما يجب أن يفهموه يجب أن يكون واضحاً جداً. لا يمكنك أن تعرف متى يمكن أن يتغير كلّ شيء - المزاج، القرار، البطانية.

حياة.

إنهم لا يعرفون أياً من ذلك. إنهم يعرفون فقط، مهما فعلوا، أن هذا لن يضرهم. وفي أسوأ الأحوال، كان يلقي بهم على ركبتيه، يرفع يده إلى الأعلى، يثبتها في الهواء، ثم تهوي على مؤخراتهم. وفي بعض الأحيان، كانوا يشعرون به وهو يرتجف عند ركبتيه وفخذيه. كانوا يختلسون نظرة إلى الأعلى فيرون يده ترتجف، عيناه تدمعان. كيف يمكنهم أن يعرفوا أن والدهم يحاول يائساً أن يحميهم من ضربة غير متوقعة بأخمص بندقية على خدودهم الناعمة، ويحذرهم من أهوال هذا العالم القاسي الجاهز للغافلين ولغير المتعقّلين، وغير

المستعدين - لتهيئتهم لكلّ تلك الأشياء التي لا يمكن لأحد أن يكون مستعدّاً لها؟ كانوا يعرفون شيئاً وحيداً فقط وهو أنه لن يؤذيهم.

عندما بدأ جسمه يرتجف ويهتز إلى الأمام والوراء مع مرور الوقت، أصبحوا يعرفون ماذا يقصد عندما يقول: *رايتيو*، وفجأة، كان يلقي بهم من على حضنه فيقفون على أقدامهم. مشيحاً بعينيه، يلوّح لهم بيده المدودة بأن ينصرفوا.

هكذا. *رايتيو*؟ فقط. فقط اجعلوا الثنية باتجاه الخارج في المرة القادمة.

إلى الخارج. دائماً إلى الخارج. *رايتيو*؟

ويجرون إلى الخارج إلى الشمس.

كان يتساءل أنه ربما لم يوفر الوقت أو الفضاء اللازمين للحبّ. كان يخبئه، وكان يرفرف بعيداً. لعله اختار بطريقة ما - لماذا، لا يعرف - عبارات العمل المتوقّعة على إحاطتهم بالحب، طيّ بطانية على أن يفتح ذراعين مشبوكتين.

لكن أحياناً كانت هناك: كان يحدّق من النافذة المفتوحة ورأى جودي الصغيرة ترفع عينيها وتلوّح له وابتسامة عريضة على شفتيها، صُدم لرؤية الحبّ يلعب في فناء خلفي مكسو بالعشب البني تحت رذاذ ماء ماسي - صُدم عندما عرف بأنه محظوظ ليعيش ويعرف الحبّ، لأن يحبّ وأن يكون محبوباً، ويراقب أطفاله يلعبون في الخارج في الشمس. خجلاً. مندهشاً. كانت الشمس مشرقة دائماً.

- ٢٧ -

وماذا عن الخطّ؟ مع فقدان حلم الإمبراطورية اليابانية العالمي بعد القنبلة، لم يعد للسكة الحديدية هدف أو أحد يدعمها. وسُجن

المهندسون والحرّاس اليابانيون المسؤولين عن ذلك أو أُعيدوا إلى بلادهم، وحُرّر العبيد الذين بقوا على قيد الحياة والذين كانوا يعملون على صيانة الخطّ. وبعد أسابيع عديدة من انتهاء الحرب، بدأ الخطّ يرحب بنهايته، فهجره التايلنديون، وفكّكه الإنكليز، وانتزعه أهالي القبائل وباعوه.

وبعد فترة، بدأ الخطّ ينحني ويتلوى، وتهدمت دعائمه، وتآكلت جسوره، وامتلأت فجواته. وأُختزل إلى مسخ. وحيث خيّم الموت ذات يوم، عادت الحياة الآن.

ورحّب الخطّ بالمطر والشمس، وتبرعمت البذور في القبور الجماعية، وبين الجماجم وعظام الفخذ، ومقابض المعاول المكسورة، وتسلقت النباتات إلى جانب المسامير والقضبان، ودفعت حول عوارض خشب الساج وألواح الكتف، والفقرات، وعظام الفخذ.

رحّب الخطّ بالأعشاب التي نبتت فوق الحواجز والسدود التي كان العبيد قد حملوها كتراب وصخور في قصائدهم، ورحّب بالنمل الأبيض لينهش أخشاب الجسر الساقطة التي كان العبيد قد قطعوها وحملوها ورفعوها، ورحّب بالصدأ الذي غطى حديد السكة الذي كان العبيد قد حملوه على أكتافهم في صفوف طويلة، ورحّب بالتعفن وبالخراب.

وفي النهاية، كان كلّ ما تبقى هو الحرارة، وسحب المطر، والحشرات والطيور والحيوانات والنباتات التي لم تعرفها ولا تهتم بها. إن البشر ليسوا إلا واحداً من أشياء كثيرة، وكلّ هذه الأشياء تتوق لأن تعيش، وأن أعلى شكل من أشكال الحياة هو الحرية: الحرية في أن يكون الرجل رجلاً، وفي أن تكون الغيمة غيمة، وفي أن يكون الخيزران خيزراناً.

مضت عقود، وأزيلت أقسام قصيرة من الخطّ على يد الذين يعتبرون أن هناك أهمية للذاكرة، وتحولت مع الوقت إلى انبثاق سيقان لا جذوع لها بشكل غريب - مواقع سياحية، مواقع مقدّسة، مواقع وطنية.

لأن الخطّ تحطم، مثل كلّ الخطوط في نهاية الأمر. كان كلّ ذلك في سبيل لا شيء، ولم يبق منه شيء. وظل الناس يتوقون إلى المعنى والأمل، لكن سجلات الماضي ليست سوى مجرد قصّة موحلة من الفوضى.

وعن ذلك الخراب الهائل، اللا محدود والمدفون، الغابة الوحيدة والمستوية الممتدة إلى مسافات بعيدة، وعن أحلام إمبراطورية ورجال موتى، لم يبق من كلّ ذلك إلا أعشاب طويلة.

عالم الندى هذا
ليس إلا عالم الندى
ومع ذلك، فإنه. . .

إيسا

- ١ -

مبعثرة مثل بذور السمسم فوق قمة شينجوكو راشومون الشديدة الانحدار، حلّقت الغربان - التي أصابها الذعر عندما ألقى عليها أحدهم حجراً - فوق سماء طوكيو التي لم تلملم رماد ماضيها بعد. وتحت أجنحتها الخافقة، المدينة التي لم تكن قد وُجدت بعد. وكانت تلك الغربان ذاتها، منذ فترة قريبة، تنهش الجثث المتفحمة المتناثرة في أرجاء مدينة التهمتها النيران. وراحت تحلّق الآن فوق سهل واسع متفحم، وفوق المتاهات الغريبة التي تهيم فيها الأرامل والأيتام، والجحور التي يأوي إليها الجنود السابقون المحطمون، والمشلولون، والمجانين، والمحتضرون اليائسون، والذين تعبر دروبهم، بين الحين والآخر، سيارة جيب تابعة للجيش الأمريكي. وفي ذلك الشتاء القارس من عام ١٩٤٦، لم تكن إعادة الإعمار تتعدّى نصب خيم، وإقامة أكواخ وملاجئ من الصفيح يتكدس فيها الأشخاص الأوفر حظاً، بينما يعيش الآخرون في ممرات تحت الأرض أو في محطات القطارات أو في الحجور والكهوف المدفونة تحت الأنقاض.

كان الرجل الذي ألقى الحجر، تينجي ناكامرا، الضابط السابق برتبة ميجور في فرقة خطّ السكة الحديدية التابعة للجيش الإمبراطوري

الياباني، يقف تحت مجاز مقنطر تسنده أعمدة متداعية وفوق ركام أبنية دمرتها القنابل، شكّلت من الدمار وبعض الحفر شارعاً خلفياً، يتقي المطر المنهمر بغزارة. وكانت أكوام الأنقاض تلك تشكل البوابة الرئيسية لمدينتهم العظيمة التي أطلق عليها السكان الذين يضطرون إلى عبور هذا النفق المتداعي إلى المتعة المدمّرة، منطقة شينجوكو، التي استمد منها اسم شينجوكو راشومون. وكانت الثعالب والجرذان والعاهرات واللصوص جلّ السكّان في شينجوكو راشومون، ويعيشون في ملاجئها، وفي أعشاشها، وفي الغرف نصف المنهارة فيها. ومرة أخرى، انتصب جبل فوجي الذي استطاع ناكامرا رؤيته حتى من هذه البوّابة المتداعية، فوق عالمهم الذي كان هوكوسي العظيم قد رسمه منذ قرن ونصف القرن. ومرة أخرى كان مرئياً تماماً، متغيّراً وثابتاً، راسخاً وخالداً.

أما الآن فقد أضحى جبل فوجي العالمي المنتصب مميتاً بشراسة، يموت فيه الناس كلّ يوم، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان عليهم أن يواصلوا العيش. كانت الشوارع تعجّ بأناس غائبين عن الوعي نتيجة شربهم *كاسوتوري*، المشروب الرخيص القاتل الذي يشربه الذين يتضورون جوعاً واليائسون، أو يتعاطون عقار شابو المنهوب من مخازن الجيش، أو كليهما. لكن فقر ناكامرا أرغمه على التخلّي عن عادته في تناول حبوب شابو وصمم على ألّا يعود إلى تناولها. وكانت الكلاب الجائعة تجوب الأزقة الغائرة التي كانت تشكل ذات يوم طرقاً وشوارع في مجموعات وأسراب كبيرة ومهدّدة، وكان الأطفال الجائعين يظهرون في الشوارع ويعملون نشالين وشحاذين وقوادين.

ذئاب، كلّهم، قال ناكامرا لنفسه.

بعيونهم الكسولة وحركاتهم المفاجئة، كان ثمة شيء فيهم يراه

ناكامرا غريباً، ضعيفاً ومهدّداً. كانوا يبدون ضامرين في السادسة أو السابعة من العمر، لكنهم كانوا في الغالب مراهقين. وكانت النساء تعرضن أنفسهن للبيع في كل مكان، وكانت قلة قليلة منهن يحظين بشرف نادر ودخل منخفض جداً لرفضهن خدمة الأميركيين الشياطين. لكن معظمهن كن يستمتعن بالوفرة التي يجلبها العمل كفتيات بان بان(*). وفي إحدى الليالي، غضب غضباً شديداً من إحدى تلك الفتيات لأنها كانت تمارس هذه المهنة التي رأى فيها انعكاساً لحياته الآن، وسألها مندهشاً كيف يمكنها مرافقة الأميركيين. كانت تضع بين شفتيها الباسمتين الحمراوين سيجارة أشعلتها للتو، وسألته:

ألم نصبح جميعاً فتيات بان بان الآن؟

منذ أن سُرّح من الجيش منذ شهرين ونصف الشهر، عاش ناكامرا في وسط هذا الخراب من الناس والمكان، ولم يكن بينه وبينهم شيئاً، وكان سعيداً بذلك. وكان سلاحه الوحيد عتلة يستخدمها كوسيلة لكسب رزقه بين الحين والآخر، وكسلاح للدفاع عن نفسه يسحق بها، كلّ بضع دقائق، مزيداً من القمل الذي كان ينهش جسده والذي لم يكن يتوقف عن حكّه بشدة، وكان يستخرج بها قطع الخشب المكسورة من الأبنية المهدمة، ومن الطمي والطين والرماد الذي كان يشكّل طوكيو ذات يوم، يفصلها بقدر ما يستطيع، ثم يبيعها إلى حارق فحم. وبعد أن يسلّم البقايا المتفحّمة التي كانت تشكّل يوماً عاصمة عظيمة للإمبراطورية، كانت أفكار ناكامرا تتجّه إلى حيث يمكنه الحصول على قليل من حساء الميزو أو طاسة من الرزّ. وبين الحين والآخر، كان هذا الاستجداء يؤدي إلى نتائج غير

(*) تطلق عبارة «فتيات بان بان» على عاهرات الشوارع اللاتي كن يخدمن (في الغالب) جنود قوات الاحتلال في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية.

متوقّعة: فقد اكتشف البارحة بضع ثمار بلوط فاسدة لم تتمكن حتى الجرذان من العثور عليها، مدفونة في مكان عميق تحت الأنقاض. ومنذ أن تناولها، لم يتبق لديه شيء يتناوله.

ولكي يبعد تفكيره عن الجوع، التقط جريدة مجعّدة ملقاة على الأرض. كان تاريخها يعود إلى عدّة أيام سابقة، وقرأ بضع مقالات لم يفهم منها شيئاً، إلى أن استرعت انتباهه فجأة إحدى تلك المقالات، فقرأها بإمعان شديد. كانت تتحدث عن مذكرات أصدرها الأمريكيون لإلقاء القبض على الضباط الذين خدموا في معسكرات أسرى الحرب السابقة لارتكابهم جرائم حرب محتملة. وأوردت المقالة في نهايتها أسماء المشتبه فيهم والمطلوبين، وفي وسط القائمة وقعت عيناه على ما كان يخشاه منذ فترة - فقد ورد اسمه كمجرم حرب محتمل من الفئة باء.

عاد ناكامرا يحكّ جسمه. إنه ليس مجرم حرب، لكن الأميركيين الذين هم مجرمو الحرب الحقيقيون سيقتلونه إذا تمكّنوا منه، وسيختلقون أكاذيب عن حياته. بدأ الغضب يعتمل في نفسه. وكان يكمن وراء غضبه الذي كان يتخلل أفكاره اليومية للبقاء حياً، الخوف المملّ لكن الدائم لحيوان يعرف أن القدر يبحث عنه. وبما أن ناكامرا كان قد سمع كيف أن الأميركيين ذوي الأجساد الضخمة الصاخبة الذين بدأوا ينتشرون في كل مكان، يتعقّبون الذين يعتبرونهم مجرمي حرب بدأب شرس، وتتصدر قوائمهم أسماء الذين لديهم علاقة بأسرى الحرب. فقد صمم على أن ينجو بروحه وألّا يقبض عليه وألّا يُعدم لأن شرفه يقتضي ذلك. راح يهرش جسمه بشدّة وبعنف، ثم دسّ يده داخل بنطلونه وراح يحكّ بقوة بين فخذيه، واقتلع مزيجاً أجرب من الجلد والشعر والقمل، وألقى به إلى الأرض.

بينما كان ينتظر ريثما يتحسّن الطقس، مررّ ناكامرا أصبعه فوق

الطلاء الأخضر المتقشّر للعتلة وسحق مجموعة من القمل الذي ظل عالقاً على يده بين ظفره وقطعة الحديد. بدأ يفكّر بوضعه: فلم يعد البحث عن الأخشاب وسيلة للعيش لأن العتلة التي يستخدمها فقدت نصف سنّ فيها بسبب اقتلاع المسامير، ولأن طرف وجهه كان يخفق بقوة بعد أن سقط عليه عامود ناتئ منذ يومين، كما فاقمت شدة البرد من شدة جوعه، وها هم الأميركيون يطاردونه. عندما عاد ونظر إلى اسمه الوارد في الجريدة، أدرك ناكامرا بذعر أن الأمريكيين يتعقّبونه منذ أيام على الأقل - يقتفون أثر القادة الكبار، ويزيلون الآثار الزائفة، ويلاحقون الآخرين - كان في كلّ ساعة تقترب منه، يقترب فيها إلى حتفه، إلى حبل المشنقة. ولكي ينجو بروحه، أدرك ناكامرا أن عليه أن يفعل شيئاً، وهذا يعنى أن عليه أن يفكر الآن بأن يفعل أيّ شيء. لكن الشعور بالتحدي حل مكان الشعور باليأس والهزيمة المطلقة. ماذا يمكنه أن يفعل؟ ماذا؟ الشيء المشرّف، قال ناكامرا لنفسه، هو أن يفعل كما فعل الآخرون ويقتل نفسه.

عندما قرر ناكامرا أن يأخذ مصيره بيده ويموت بشرف، تناهى إليه صوت صيحات مكتومة من الأعلى. وجد كيانه كلّه مفعماً بفضول نهم ليعرف مصدر تلك الصيحات، وأدرك أنه إذا فعل شيئاً، أيّ شيء، أفضل من أن يظل جالساً يفكر بمصيره التعس.

فزحف خارجاً من الحفرة، ووقف تحت المطر، ثم أدار رأسه ببطء، وأصاخ السمع. بعد قليل، سمع هسهسة امرأة. أتاه الصوت من مكان ما في الأعلى، في كومة أنقاض تشكّل الجهة اليسرى من بوابة راشومون.

حريصاً على ألّا يصدر أي صوت، زحف ناكامرا فوق الأنقاض نحو التلة الكبيرة المكونة من ركام الحجارة والأبنية المهدمة التي كانت تشكّل الجناح الأيسر للمدخل المقنطر، ممسكاً بعتلته بإحكام.

وجد فتحة صغيرة في الأنقاض لا يزيد حجمها على قبضة يد. نظر من خلالها ورأى بقايا غرفة دمرتها القنابل، مضاءة من فتحة لا بد أن النصف الأعلى منها كان جداراً. خمّن ناكامرا أن هذه الغرفة كانت مكاناً أنيقاً ولطيفاً، لكن ورق الجدران الأقحواني لم يكن يُرى إلا من خلال كتلة كثيفة من الغبار والسخام، وبدا لناكامرا أنها حُوّلت إلى وكر لأحد الحيوانات. وشكّلت بقايا بساط تاتامي نتن وبعض الوسائد سريراً، تنتصب بجانبه منضدة بثلاثة أرجل تسندها عدة أحجار مكسورة، عليها مرآة وسخة.

سمع هسهسة المرأة. هذه المرة كانت قريبة جداً. عندما استدار باتجاه صوت المرأة، تمكن ناكامرا من أن ينظر إلى الزاوية البعيدة للغرفة.

كانت فتاة بان بان وفتى شاب، ربما كان في السادسة أو السابعة عشرة من العمر، يمسك بيده سكين مطبخ طويلة، يستلقي تحتهما جسد جندي أميركي حُزّت حنجرته منذ فترة بسيطة لأن الدم كان لا يزال يسيل منها قليلاً. كانت الفتاة تبدي احتجاجها وكانت تجادله وتسأله لماذا قتل الأميركي، لكنّها لم تكن حزينة، بل غاضبة فقط.

رأى ناكامرا كلّ ذلك بسرعة من مكانه المخفي، لكن لم يكن ما يجري هو الذي لفت انتباهه - الذي لم يبد أدنى اهتمام به - بل أن ما استرعى انتباهه هو ما كان يوجد على منضدة الزينة: فطيرتا غيوزا ولوح شوكولاتة أميركية.

- ٢ -

زحف ناكامرا بهدوء وبحرص شديدين من الفتحة التي كان يسترق منها النظر وزحف صاعداً إلى قمة راشومون، ثم زحف حولها

صوب الفتحة في الجدار. عندما رفع رأسه ببطء فوق لوح مهلهل من سقف حديدي، رأى فتاة بان بان تفتش في جيوب الأميركي المقتول. عندما قلبت الجثة إلى جانبها، همهمت بصوت خفيض، ووثبت إلى الخلف. لكن عندما أدركت أن الصوت الذي انبعث منه لم يكن سوى هواء انطلق من رئتيه، عادت تفتش في ثيابه. ثم أخرجت من جيبه الخلفي رزمة من الدولارات الأميركية.

لكن تركيز ناكامرا كان منصباً على فطيرتي الغيوزا. وتذكّر كيف كانوا يتناولونها دائماً أثناء خدمته في مانتشوكوو، ولم يكن يفكّر بشيء آخر. سال لعابه عندما تذكّرها وإمكانية تناولهما الآن. لم يعد قادراً على التفكير بأيّ شيء آخر سوى بالرغبة في تناول فطيرتي الغيوزا. استجمع ناكامرا قوته وألقى بنفسه عبر الفتحة، وتدحرج إلى الغرفة، ثم وثب واقفاً على قدميه وراح يلوّح بالعتلة. لوهلة، راح كلّ منهما يحدق في الآخر من فوق جثة الأميركي - فتاة بان بان التي ترتدي قميصاً غالي الثمن موشّى بالزهور، وسروالاً عريضاً وصندل غيتا أسود لماعاً، وتحمل في يدها رزمة دولارات أميركية، والفتى الذي يحمل السكين، وناكامرا الذي يحمل العتلة.

وثب الفتى على ناكامرا بسكينه وهو يجأر. قرفص ناكامرا الذي تملكه في الوقت نفسه شعور متصاعد بالذعر وبالهدوء، قليلاً ليحافظ على توازنه، ثم أخذ يلوّح بالعتلة كما لو كانت سيفاً، ورسم في الهواء شكل قوس عريض إلى الأعلى انتهى بصوت ناعم يخبط رأس الفتى. وبدا لناكامرا ذلك الصوت - صوت مطرقة تغوص في بطيخة حمراء - بأنه ظل في الهواء لفترة طويلة، طويلة. وفي ذلك الخلود الغريب الذي لم يتجاوز برهة، انتهى زخم الفتى العنيف، وبدا لناكامرا أن هناك فاصلاً غريباً مع الوقت قبل أن يسقط الفتى وسكينه على الأرض.

لم ينبس ناكامرا والفتاة بكلمة. ومع أن جسد الفتى أخذ ينتفض بقوة، فقد عرفا كلاهما أنه مات. وعندما بدأ الدم يسيل منه، تباطأت التشنّجات، ثمّ توقّفت نهائياً، ولاحظ ناكامرا ظهور قمل كثيف بشكل مفاجئ ومرعب حول شعر الفتى الطويل القذر، وبدأ يشم رائحة الغبار الرطب النفاذة التي ملأت الغرفة.

بدأت الفتاة تنشج. خطا ناكامرا خطوتين نحو المنضدة ذات الأرجل الثلاث، وحشا الفطيرتين في فمه المبلل. عندما التهمهما، ظلت عيناه مثبّتتين على الفتاة. خطرت له فكرة جديدة.

مستخدماً العتلة عوض الكلام، أشار إلى رزمة الدولارات التي كانت تمسكها بيدها، وبيد مرتعشة أعطته إياها. دسّ النقود في جيبه، ثمّ بطرف عتلته الممدودة رفع حافة قميصها الموشّى بالأزهار. رويداً رويداً رفعت عينيها من العتلة إلى عينيه، ثم انحنت وخطت خطوة إلى الوراء، وبدأت تنزع ثيابها.

كانت عارية، مقوسة الساقين، تكسو فخذيها الهزيلتين تقرحات جلدية صغيرة، صفراء على نحو كريه، وكان لون الشعر الحريري بين فخذيها بخلاف لون الجلد الأبيض المتقشّر في الأسفل. وكان نهداها أكثر انتفاخاً من الأثداء العادية، ولون بشرتها سقيماً. شمّ ناكامرا رائحتها الآن. كانت وسخة تفوح منها رائحة عرق زنخة، مثل بقرة في إسطبل في أواخر الشتاء.

سارت نحو منضدة الزينة ذات الأرجل الثلاث، واستلقت على حصيرة التاتامي الوسخة. كانت قدماها تتجهان نحوه. كان بوسعه أن يسمع صوت أنفاسها، لهاثها القصير. أثارت اشمئزازه. إنها تبيع نفسها للشياطين الأميركيين وها هي تقدم له الآن جسدها القذر. التقط ملابس فتاة بان بان، ووضع لوح الشوكولاتة في جيبه، وهمّ بالخروج من الكهف. توقف لحظة ورمق الجثّتين.

لم يكن الأميركي شيئاً، وكان وجه الفتى الياباني مليئاً بالبثور. إن القتل شيء فظيع، قال ناكامرا لنفسه. ربما يتعين على المرء أن يشعر بالندم، بالإثم، وأحسّ بذلك للمرة الأولى في مانتشوكوو. لكن الأموات يفقدون وجوههم بسرعة. بذل جهداً ليتذكّر أياً منهم. إن الأموات هم أموات، قال لنفسه، وهكذا تسير الأمور. ها هنا جثّتان، إحداهما جثة أميركي... وهذا يعني أنها ستسبب له مشكلة إذا لم يكن حذراً، وهو الرجل المطلوب للتو.

محاولاً تفادي السير فوق بركة الدم الداكنة الكبيرة، جثا ناكامرا أمام جثة الأميركي. شمّ رائحة مادة الدي دي تي التي رشّوا بها ناكامرا عندما سُرِّح من الجيش للقضاء على القمل. أحسّ أن الأميركي ينتمي إلى نوع آخر من البشر، فقد بدا له ضخماً جداً وغريب الشكل. لم يكن الأستراليون في الغابة يبدون مثل هذا الأميركي الضخم الجثة والذي شبع موتاً.

حريصاً على ألّا يلمس الجثّة، وضع طرف العتلة بمهارة في قبضة الأمريكي النصف مغلقة ووضعها إلى صدره. وبعد التفكير بالأمر، فركَ القضيب الحديدي على يد الرجل، ثم دفعه بقوة بين أصابعه، ثمّ ألقاه وسط بركة الدم. فإذا اختفت فتاة بان بان وصمتت، فإن الأميركيين والشرطة سيعتقدون أن قواداً حاول سرقة الأميركي، وأعقب ذلك شجار، وقتل أحدهما الآخر.

بعد أن فرغ من ذلك، استدار ليخرج من الفتحة التي وصل ارتفاعها إلى صدره والتي تشكل المدخل إلى هذا الوكر، عندما سمع خلفه الفتاة تنهض على قدميها. لم يعرها ناكامرا أي اهتمام حتى أحسّ بها تحاول أن تتمسك بكاحليه. ولكي يحرّر نفسه منها، ركلها بقوة مرتين فسقطت على ظهرها فوق جثّة الأميركي.

عندما انزلق إلى أسفل الركام، سمع صراخاً وراءه. التفت فرأى

فتاة بان بان، ذراعها فوق نهديها الصغيرين الملطخين بالدم، منحنية خارج الحفرة، تقول شيئاً بأن الأميركي كان يغتصبها عندما وصل شقيقها وحاول أن يحميها. لم يستمع ناكامرا إلى قصّتها ولم يهتم بأن يحاول ذلك. حاول جاهداً العودة إلى الحفرة، وأمسكها من كتفها بقوة، ورفع حجرة وقرّبها من رأسها وهي تنشج.

إنسِ الأمر، قال ناكامرا. إنسِيه، إنسِ شقيقك وانسني.

ناحت الفتاة بصوت أعلى. دفع الحجرة أمام فمها.

ستعيشين إذا نسيتِ، قال لها بغضب.

دفعها إلى حفرتها، ثم هبط إلى شينجوكو راشومون، وسار نحو المدينة.

بالخمسين دولاراً أميركياً التي سرقها من الفتاة اشترى أوراق هوية مزورة. وبالمبلغ الذي حصل عليه من بيع ثيابها إلى فتاة بان بان أخرى، اشترى تذكرة قطار إلى كوبي. وفي ليلة شتوية قاسية، سافر في عربة قطار بالدرجة الثالثة، نوافذها مهشمة، مبتعداً عن ماضيه كضابط سابق برتبة ميجور في فرقة السكة الحديدية باسم تينجي ناكامرا، إلى مستقبله كجندي سابق باسم يوشيو كيمورا.

لم تكن الأمور في كوبي أفضل مما كانت عليه في طوكيو. فلم تكن هذه المدينة أيضاً سوى حفر وأوحال وتلال من الآجر والفولاذ الملتوي مثل أسلاك، وكان اليابانيون يزحفون في وسط هذه الفوضى مثل الصراصير. لكن ناكامورا أحسّ بأنه وضع المسافة اللازمة بينه وبين الأميركي القتيل والفتى المقتول. لقد عاش منذ عدّة شهور عيشة كفاف يقيم أوده من تلك السرقات الصغيرة التافهة، وعمليات البيع والشراء في السوق السوداء عندما كان يستطيع ذلك، لكنّه لم يشعر بالأمان قط. ففي إحدى المرات، خيّل إليه أنه رأى من مسافة بعيدة ضابطاً أسترالياً طويل القامة كان في معسكر أسرى الحرب. ومن

شدة خوف ناكامورا، لم يعد يخرج إلى الشارع إلا بعد أن يخيم الظلام طوال أسبوع كامل.

بدأ يتابع محاكمات جرائم الحرب بدقة، وقرأ كيف أن جندياً يابانياً كان قد ضرب أسير حرب وهرب عدّة مرات، وأدين كمجرم حرب وشُنق. وجد ناكامورا استحالة في فهم ذلك.

ضربة واحدة؟

عندما كان في الجيش الياباني كان يُضرب باستمرار، وكان من واجبه أن يضرب الجنود الآخرين. لماذا، أثناء التدريب ضُرب مرّتين، تمزقت طبلة أذنه في إحداهما. لقد ضُرب بمضرب بيسبول على ردفيه لأنه لم يبد حماسة كافية عندما كان يغسل الملابس الداخلية للضابط الأعلى منه رتبة. وقد ضربه ثلاثة ضبّاط ضرباً مبرحاً حتى أُغمي عليه عندما لم يسمع الأمر جيداً عندما كان مجنداً. وأُمر بأن يقف طوال النهار في ساحة التجمع، وعندما انهار، انقضّوا عليه لعصيانه الأمر وضربوه حتى غاب عن الوعي.

إذاً كيف يمكن إدانة أحد واعتباره مجرم حرب لمجرد ضربة واحدة؟ من هو أسير الحرب؟ ألم ينص قانون الخدمة الميدانية بشكل محدد وصريح بأنه يجب على الضابط الذي يقع في الأسر أن ينتحر؟ من هو أسير الحرب؟ لا شيء، إنه هكذا. رجل لا يخجل من نفسه، رجل بلا شرف. إنه ليس رجلاً.

ضربة واحدة؟

كان ضابطاً جيداً، وقد وبخّه بعض الضبّاط الآخرين لأنه كان يكتفي بالصفع على الوجه إزاء أكثر المخالفات والانتهاكات المتعلقة بالانضباط.

أنت طيّب للغاية، تذكّر الكولونيل كوتا يقول له بعد أن صفع ناكامورا العريف توموكاوا من أجل مخالفة ارتكبها. أتصفع الرجل

فقط من أجل ذلك؟ لو كنت مكانك لجلدته بقوة لكي لا ينساها طوال عمره.

بعد ذلك، أراد ناكامورا أن يصرخ في سماء كوبي الصافية، من هو سجين الحرب؟ من هو؟

- ٣ -

كان تشوي سانغ-مين جالساً في العتمة على مقعد خيزران، وهو ترف قُدم له باعتباره شخصاً متهماً. وكان قد سمع أن بعض أسرى الحرب السابقين قد ألقوا بكيم لي من الطابق العلوي في أحد دور الدعارة في بانكوك عندما وجدوه هناك. بدا له ذلك أمراً معقولاً ومقبولاً. وكان يأمل في أن يكون كيم لي قد بصق عليهم عندما ألقوا به إلى حتفه. كان كيم لي حارساً مثله، وقتل أسرى حرب. وعندما انتهت الحرب قتلوه. بدا له الأمر مفهوماً تماماً، بخلاف حالته. إنه يكره نفاق الأستراليين الذين يغلّفون ثأرهم بطقوس العدالة. كان يعرف في أعماق قلبه بأنهم يريدون أن يقتلوه أيضاً. إذاً لماذا كلّ هذه الذرائع والمظاهر الكاذبة؟

لم تكن لديه ساعة يد ولا ساعة حائط. وباستثناء حدسه، لم تكن لديه وسيلة لمعرفة إلى متى سيدوم الليل، لكن يبدو أن حدسه قد توقف ولم يعد يعمل. فقد بدا له أن الليلة لن تنتهي أبداً ومع ذلك كانت تبتعد عنه بسرعة. لقد أُغلقت بوابات سجن تشانجي هذا المساء، ربما قبل الموعد المحدد لإغلاقه بساعتين. ولو فكّر قليلاً، لأدرك أن الوقت يشارف على منتصف الليل. لكنّه لم يفكّر في الأمر، أو في أيّ شيء حقاً. كان تشوي سانغ-مين ضائعاً في مكان يتجاوز تفكيره. لقد هزم عقله الزمن بين عاطفتين. واحدة هي الرعب

الذي يتملكه مثل سعال ملحّ مجنون ويجعله يذرع الزنزانة في سجن تشانجي بشكل مسعور محاولاً أن يجد وسيلة للهرب، ليكتشف فقط أن الهرب غير ممكن، سواء من الزنزانة أو من موته الوشيك.

وكان عقله يشتعل غضباً، لا لمصيره أو لاستحالة هربه، بل من أجل حقيقة وجدها مؤلمة. فبما أنه سُجن لأنه عسكري في الجيش الياباني، فلا بد أنه لا يزال مديناً لهم بخمسين يناً، راتبه الشهري الذي لم ير منه شيئاً قبل سنتين من انتهاء الحرب. وبدا له أن غضبه لم يكن ناجماً عن الحساب أو الطمع، بل نابعاً من فكرة تنطوي أيضاً على شعور بالظلم. إن الخمسين يناً هي السبب الوحيد لوجوده هنا. إذاً لماذا لم يعطونها له؟

وبما أنه كان يعرف في أعماقه بأنه لن يحصل على أيّ مبلغ أبداً، ومع أن الخمسين يناً مبلغ تافه، لكنهم سلبوه إياه، فيعود عقله يقفز فجأة، ثم يتملكه الرعب ثانية، فيذرع زنزانته، ويمرر أصابعه فوق الجدران، ويضع يديه على قضبان نافذة الزنزانة وعلى الباب. يدفع، يتلّمس، يبحث عن مخرج لكنه سرعان ما يدرك ثانية استحالة الهرب، فيعود عقله إلى الاشتعال غضباً لأنه حُرم من الخمسين يناً.

استمرت محاكمته أمام محكمة عسكرية أسترالية مدة يومين. وباستثناء الجلسة التي اسُتجوب فيها مباشرة، جرت جميع إجراءات المحكمة باللغة الإنكليزية التي لم يكد يفهم منها شيئاً. وعندما انتهت المحاكمة، نظر القاضي - الذي يشبه وجهه شمعة في مهبّ الريح وصوته يشبه صوت حفّار قبور - لأول مرة مباشرة إلى وجه تشوي سانغ-مين وتكلّم. وهمس مترجم، كانت عيناه مركّزتين بشدة على شفتيْ القاضي، في أذن تشوي سانغ-مين أغصاناً متكسرة من جمل باللغة اليابانية.

بسبب - بسبب تناقض، قال المترجم، الأدلة المقدّمة - شكل

من أشكال الشهادات المكتوبة - فقد رُفضت تهمة تورطك في قتل الرقيب فرانك غاردنر من القوات الأسترالية الإمبراطورية، ثم تحدث المترجم بنبرة غير رسمية أكثر وأضاف قائلاً: هذا خبر جيد جداً، جيد جداً.

ثم عاد إلى ترجمته الركيكة.

أما التهمة بأنك أصدرت أمراً بقتل الجندي وات كوني فهي تهمة ثابتة، مثل عدة تهم أخرى أقل شأناً - وإساءة المعاملة، بما في ذلك منع الطعام والإمدادات الطبيّة التي أدت إلى الكثير من المعاناة والموت التي كان من الممكن تحاشيها. وبعد - بعد الإثبات بأنك مذنب بكونك مجرم حرب من الفئة باء - فإنك ستُعدم شنقاً.

لم يضف المترجم هذه المرة أي تعليقات أخرى منه.

قيلت كلمات أخرى، لكن تشوي سانغ - مين لم يعد يسمع شيئاً منها. فعند استجوابه في المحكمة، حاول تشوي سانغ - مين أن يوضح الحقيقة بأنه كان جندياً كورياً برتبة رقيب، ولم يكن بإمكانه إصدار أمر بقتل الأسير، لكن المحامين الأستراليين استشهدوا بإفادات ضابط ياباني يُدعى الكولونيل كوتا كان قد تم استجوابه قال إن الرقيب تشوي سانغ - مين هو الذي فعل ذلك، وساعدت الأدلة التي قدمها الكولونيل كوتا على إدانة عدد من الحراس الكوريين والتايوانيين. وسمع تشوي سانغ - مين أيضاً أن الكولونيل كوتا قد أُطلق سراحه لاحقاً من دون أن توجّه إليه أي تهمة. وقال تشوي سانغ - مين إن كوني لم يكن موجوداً في المعسكر عندما صدر أمر إعدامه المفترض، لكن سجلات المعسكر التي كانت في حالة فوضى شديدة وغير كاملة، فلم تقدم أي دليل إثبات على أنه أصدر الأمر.

بعد أن صدر حكم الإعدام، رجاه محاميه الأسترالي - وهو رجل مترهل ذو عينين دامعتين لامعتين ذكّرتا الكوري المدان بنصل

مبضع - أن يتقدم بالتماس بالعفو، لكن تشوي سانغ - مين صمم على أن يموت في أرض أجنبية ولم ير سبباً لإطالة معاناته. ولم تفت تشوي سانغ - مين والكوريون والتايوانيون الآخرون في سجن تشانجي كمجرمي حرب من الفئتين باء وجيم، الملاحظة بأن الحلفاء المنتصرين كانوا يطلقون في معظم الأحيان سراح الضبّاط الذين لديهم صلات بطبقة النبلاء اليابانية، وجعل الآخرين الذين ينتمون إلى الطبقات الأدنى، مثلهم، كبش فداء، ويشنقونهم. فكّر تشوي سانغ - مين بالميجور ناكامرا الذي لم يُقبض عليه قط، ولا ريب في أنه لن يقبض عليه أبداً، وتذكّر الكولونيل كوتا الذي أُطلق سُراحه، لعلهما كانا يعملان لصالح الأميركيين في مكان ما.

لا يهم، قال تشوي سانغ - مين.

ماذا؟ سأله محاميه الذي كانت عيناه المبللتان تتأرجحان.

لا يهم، قال تشوي سانغ - مين، وهو تعليق للتعبير عن قبوله القدري بالحياة، لكن محاميه فهم ذلك بأنه موافق على محاولة إلغاء الحكم بإعدامه أو تخفيف الحكم، فقدّم المحامي التماساً بذلك، ومُددت حياة تشوي سانغ - مين وعذابه لمدة أربعة أشهر أخرى.

ولاحظ تشوي سانغ - مين كيف أن كلّ سجين في تشانجي يرى قَدَرَه بطريقة مختلفة ويختلق ماضيه وفقاً لذلك. فقد أنكر بعض الرجال التهم الموجّهة إليهم إنكاراً تاماً، لكن، على الرغم من ذلك، فقد شُنقوا أو سُجنوا لفترات طويلة. وقَبِل بعضهم المسؤولية لكنهم رفضوا الاعتراف بسلطة المحاكمات الأسترالية، ومع ذلك فقد أُعدموا أيضاً أو سُجنوا لفترات أطول أو أقصر. وأنكر آخرون المسؤولية وذكروا أن من المستحيل أن يرفض حارس أو جندي برتبة متدنية الاعتراف بسلطة النظام العسكري الياباني، أو رفض إرادة الإمبراطور. وتساءلوا في سريرتهم: إن كانوا هم وجميع الأعمال

التي قاموا بها تشكل تجسيداً لإرادة الإمبراطور، فلماذا لا يزال الإمبراطور حراً طليقاً؟ ولماذا يدعم الأميركيون الإمبراطور، ويشنقون هؤلاء الذين ليسوا سوى أدوات بيد الإمبراطور؟ لكنهم كانوا يعرفون في أعماق قلوبهم بأن الإمبراطور لن يُشنق، بل هم الذين سيُشنقون. وكما ضُربوا وعُذّبوا وقُتلوا في سبيل الإمبراطور، فإن الرجال الذين لم يقبلوا تحمل المسؤولية، سيُشنقون الآن في سبيل الإمبراطور. وسيُشنقون أيضاً، وعلى نحو سيء تماماً مثل الرجال الذين تحمّلوا المسؤولية أو الرجال الذين ادعّوا بأنهم لم يفعلوا شيئاً، لأنهم ما إن وقعوا، الواحد تلو الآخر، في المصيدة حتى ارتعشت سيقانهم، وخريت أطيازهم، وقذفت أيورهم المنتفخة مزيجاً من البول والمني.

وخلال محاكمته، بدأ تشوي سانغ - مين يدرك أشياء كثيرة - اتفاقية جنيف، وتسلسل القيادة، والهيكلية العسكرية اليابانية، وما إلى ذلك - التي لم تكن لديه حولها سوى فكرة مبهمة جداً. واكتشف أن الأستراليين الذين كان يخشاهم ويكرهم، كانوا يحترمونه، على نحو غريب، باعتباره شخصاً مختلفاً: وحشاً أطلقوا عليه اسم غونا. ولم يغضب تشوي سانغ - مين عندما عرف بأنّه يكنّ لهم كراهية شديدة، لأنه كان يشعر بأن الأستراليين يكنّون له نفس مشاعر الاحتقار التي كان اليابانيون يكنّونها له. وأدرك مرة أخرى أنه ليس إلا نكرة، لا شيء، كما كان في كوريا، عندما كان طفلاً، يُعاقب بالوقوف في الجزء الخلفي من صفّه المدرسي عندما يكتشف بأنه يتحدث همساً باللغة الكورية بدلاً من اليابانية؛ وعندما كانت الأسرة اليابانية التي يعمل عندها تعامل الكلب لديها معاملة أفضل منه بكثير؛ وعندما كان في الجيش الياباني حارساً برتبة أدنى من أدنى جندي ياباني. كان مصير كيم لي أفضل من مصيره الآن. لكنه يعرف أن

حياة بعض الرجال الذين أقدموا على أعمال أسوأ مما فعله أو مما فعله كيم لي بكثير. كيف؟ لماذا؟ لا يوجد جواب على كلّ ذلك.

أما ضرب الأسرى الأستراليين فكان له هدف محدد. حتى لو كان ذلك يتم بسرعة. فعندما كان يضرب الجنود الأستراليين الأضخم منه بكثير، كان يعرف تماماً أنه يستطيع أن يصفعهم كما يشاء، وأنّه كان باستطاعته أن يضربهم بقبضتيه أو بقضيب خيزران أو بمقبض معول أو بقضبان فولاذية. كان ذلك يجعل منه شيئاً، شخصاً هاماً، لمجرد رؤية الأستراليين يتلوون ألماً ويئنون. وكان يعرف أن بعضهم ماتوا من شدة ضربه لهم. ربما كانوا سيلقون حتفهم في جميع الأحوال. في ذلك المكان وفي ذلك الزمان، ومهما فكّر فإنه لن يتمكن من تغيير ما حدث. وكان أسفه الوحيد الآن هو أنه لم يقتل عدداً أكبر منهم، وكان يتمنّى لو أنه استمتع أكثر في قتلهم والعيش الذي كان يشكل جزءاً هاماً من القتل.

عندما كان الأستراليون يكلّمون بعضهم بعضاً أثناء المحاكمة، كان تشوي سانغ - مين يظن أن هذا الشيء يتجاوز حدود الكراهية. أن ذلك حقيقة حياة لم يعشها قط، بل كان اليابانيون الأعلى منه مرتبة ومقاماً يعيشونها دائماً. وعندما توفرت له السلطة ليتحكم بحياة الأستراليين وموتهم، راح يضربهم أولاً لأنه رُبي بأسلوب اليابانيين، وكان يجد متعة كبيرة في ضرب الرجال الذين يتباطؤون في العمل أو يتهربون منه.

في مدينة بوسان، خضع لنفس التدريب العسكري الصارم الذي يخضع له جنود الجيش الإمبراطوري الياباني. لكن الفارق الوحيد هو أنهم لم يكونوا يابانيين، بل كانوا جميعاً كوريين، ولن يكونوا جنوداً محاربين أبداً: بل كانت توكل إليهم مهام حراسة جنود العدو الذين يستسلمون لأنهم جبناء ولا ينتحرون عندما يتم أسرهم.

وبالإضافة إلى أساليب الهجوم والرمي والطعن بالحراب، فقد دُرِّب على *البينتا*، أي الصفع على الوجه الذي كان اليابانيون يصرّون عليه لأدنى وأبسط خطأ يمكن ارتكابه. وحتى لو ارتكب أحدهم أي خطأ مهما كان بسيطاً، فكان الجميع يتعرضون للصفع. وفي كلّ يوم، كانوا يصفّون الحرّاس المتدربين الكوريين في صفّين قبالة أحدهما الآخر، وكان على كلّ متدرب أن يصفع المتدرب الواقف أمامه، اليد اليمنى على الخدّ الأيسر، واليد اليسرى على الخدّ الأيمن، يتبادلون الصفعات ولا يتوقفون إلا عندما يتورم وجه الجندي الذي يُصفع. وكان عليهم إطاعة جميع الأوامر. كانت *البينتا* وإطاعة الأوامر هما عماد حياة تشوي سانغ - مين. اليد اليمنى على الخدّ الأيسر، واليد اليسرى على الخدّ الأيمن. كان يتوق إلى الهرب والعودة إلى بلده، لكنّه كان يعرف أن أسرته ستعاني الأمرين من السلطات اليابانية لو أنه فعل ذلك، وبالإضافة إلى ذلك، فإنه سيكسب مبلغ خمسين ينّاً في الشهر.

تذكّر كيف أنه همس للمتدرب الواقف قبالته بأنه لن يصفعه بقوة إذا بادله الجميل. لكن الضابط الياباني سرعان ما اكتشف حيلتهما. كان الضابط وسيماً يحظى باحترام المجنّدين. حتى أن تشوي سانغ - مين كان يقلّد طريقته في المشي وحركته البطيئة والدقيقة عندما كان يستدير إذا كلّمه أحد. لكن الضابط راح يصيح الآن في وجه تشوي سانغ - مين.

أتريد أن تتظاهر؟ صرخ، تتظاهر بأن هذا لا يؤلم. وبقضيب فولاذي قصير راح يضرب تشوي سانغ - مين على كليتيه وعلى خاصرتيه بقوة إلى حدّ أنه بال دماً لأيام عديدة بعد ذلك. وفي صباح اليوم التالي، عندما اصطف المجنّدون قبالة بعضهم ليصفع أحدهم الآخر، راح تشوي سانغ - مين يصفع نظيره بقوة وبغضب شديدين

لازماه بعد ذلك: اليد اليمنى على الخدّ الأيسر، واليد اليسرى على الخدّ الأيمن.

في البداية، عندما أُرسل إلى الغابة في أرض بعيدة عندما كان طفلاً كورياً نحيلاً لا يتجاوز السادسة عشرة من العمر، خاف من الرجال الأستراليين الأكبر سنّاً، والأطول قامة، والأضخم جثة. إنسان الغابة، بظهورهم العريضة، وأذرعهم الغليظة، وأفخاذهم المكسوة بالشعر. لم يكونوا يتوقفون عن التصفير والغناء. ومن خبرته، لم يكن الكوريون أو اليابانيون يفعلون ذلك على الملأ، وكان يمقت هذا السلوك البهيج الغريب. لذلك تجاوز كلّ ما كان يحتاج إليه بصرامة من خلال عقوباته - ليعطيهم الانطباع بأنه يتمتع برجولة أكثر منهم، ويوضح لهم بجلاء أنهم يجب أن يتوقفوا عن إبداء بهجتهم. وبعد فترة قصيرة، بدأ الرجال ينكمشون ويتقلصون، وبدأت أذرعهم تذوي، وسيقانهم تضمر، وخفّ صفيرهم وغناؤهم.

في الواقع كان الأسرى يستحقون ما حصل لهم. فقد كانوا يحاولون التهرب من العمل، وعندما لم يتمكنوا من التهرب منه، كانوا يؤدون عملهم بشكل سيء وبتكاسل شديد. ومع أنهم لم يكونوا يؤدون عملهم على أكمل وجه، كانوا لا يزالون يصفرّون في بعض الأحيان، أو يغنّون عندما يكون معهم. وكانوا يسرقون أيّ شيء وكلّ شيء - طعام وأدوات ونقود، وإذا لم يؤدوا عملهم جيداً، فقد كانوا يعدون ذلك انتصاراً لهم. كانوا جلداً على عظم، ولا يستسلمون إلا عندما يعملون، ويموتون على السكة الحديدية. كانوا يموتون وهم متجهون إلى العمل، ويموتون وهم عائدون من العمل. كانوا يموتون وهم نائمون، ويموتون وهم ينتظرون الطعام، وكانوا يموتون أحياناً عندما يُضربون.

عندما كانوا يموتون، كان ذلك يجعل تشوي سانغ - مين يحنق

من العالم ومنهم. كان ذلك يثير غضبه لأنه لا ذنب له إذا لم يتوفر الطعام أو الدواء، ولا ذنب له إذا تفشت الملاريا والكوليرا، ولا ذنب له لأنهم أصبحوا عبيداً. إنه القَدَر، وقدرهم وقدره أن يكونوا في ذلك المكان. قدرهم أن يموتوا هناك، وقدره أن يموت هنا. كان عليه أن يوفر للمهندسين اليابانيين العدد الذي يحتاجون إليه كل يوم، وأن يحرص على أن يأتوا إلى العمل، ويقوموا بالعمل الذي يطلبه منهم المهندسون اليابانيون. كان ينفذ ما يكلف به. فلم يكن هناك طعام أو دواء، وكان يتعين مدّ الخطّ، وكان يجب تنفيذ العمل، وكان يجب أن تنتهي الأمور كما يجب أن تنتهي بالنسبة لهم وله. لكنه كان ينفذ الأوامر، كان يؤدي عمله وأُنجز القسم المخصص لهم من الخطّ. كان تشوي سانغ- مين فخوراً بهذا الإنجاز، الإنجاز الوحيد الذي عرفه في حياته القصيرة. لقد أدى كلّ هذه الأشياء، وكان يشعر بارتياح شديد لأنه نفذها.

كانت اللحظات التي يفقد فيها أعصابه من أكثر اللحظات بهجة في حياته. في عالمه الذي يسوده الظلام والجهل، كان يشعر بالحرية - والأهم من كل ذلك، كان يشعر بأنه حيّ لأول مرة في حياته. كانت كراهيته وخوفه، غضبه وافتخاره، انتصاره ومجده، تلتقي كلها عندما يلحق الأذى بالآخرين، أو هكذا كان يبدو له الآن. كانت حياته في تلك الفترة القصيرة ذات معنى. وفي تلك اللحظات، كان يهرب من كراهيته.

ومع أن الضغط كان يأتي من المهندسين لمدّ السكة الحديدية، كان كذلك يجد متعة في ملاحظة كيف أنه كلما ازداد ضربه لهم، قلّت رجولتهم، وقلّ تصفيرهم وغناؤهم، وكان يصبح رجلاً. وكلما واصل ضربهم وتوجيه الركلات واللكمات لهم، غمره شعور بأنه يتحرّر. كان قد سمع قصصاً عن أفراد من الجيش الياباني

الإمبراطوري يأكلون الأسرى الأستراليين والأمريكيين في غينيا الجديدة، وأدرك أن ذلك كان يتعدى مسألة الجوع، وعرف أن لا علاقة لكل ذلك بالدفاع، وأن لا شيء من ذلك كان يعني شيئاً للأستراليين ولمحاميهم الذي تشبه عيناه نصل المبضع، وقضاتهم الذين يشبهون الشموع التي تقطر. لأنه عندما كان حارساً، كان يعيش مثل حيوان، يتصرّف مثل حيوان، يفهم مثل حيوان، يفكر مثل حيوان. وأدرك أن هذا الحيوان هو الشيء الإنساني الوحيد الذي سُمح له بأن يكونه.

لم يشعر بالخجل عندما اكتشف إنسانيته في أنه حيوان، لكن الحيرة اعترته لأنه لم يعرف إلى أين قادته. وعندما تُرجم له الحكم عليه بالموت شنقاً، حمله كحيوان، دون فهم بل بوعي بليد بأنه حصل على حريته، وأن نهايته قد اقتربت الآن.

نظرت عينا القاضي اللتان تشبهان فتيلة شمعة يتأرجح لهبها إليه إلى الأسفل، ونظر إلى الأعلى بعينين كان يعرف أنهما قد ماتتا للتو، وهزّ رأسه إلى الوراء وإلى الأمام، وأحسّ بشيء ضخم وفظيع يسقط عليه. أراد أن يسأل عن البنّات الخمسين، لكنه لم يقل شيئاً. وها هو الآن يذرع زنزانته مرة أخرى، يبحث عن وسيلة تمكّنه من الهرب، لكن لم تعد هناك أيّ وسيلة للهرب، ولن تكون هناك وسيلة أبداً.

- ٤ -

تلاشوا بسرعة بشكل غريب، في حوادث اصطدام سيارات، وفي حوادث انتحار، وبعد إصابتهم بأمراض جلدية. وبدا أن معظم أطفالهم قد ولدوا ولديهم مشاكل واضطرابات نفسية، أو كانوا معاقين أو متخلفين عقلياً. وتعثرت الكثير من زيجاتهم، وإذا ما

استمرت، فقد كان ذلك يعزا أحياناً إلى القوانين والعادات السائدة، أكثر مما يعزا إلى قدرتهم على تحويل الباطل إلى حقّ، وما كان باطلاً، فقد كان هائلاً بالنسبة لبعضهم. وقد رحلوا إلى الغابات وحدهم، أو أنهم ظلوا في المدينة مع آخرين وأدمنوا على احتساء المشروبات الكحولية، وفقد عدد قليل منهم صوابهم مثل بول هيربيرت الذي انتزعت منه رخصة قيادة السيارة لأنه كان يقود وهو ثمل، وبدأ يمتطي حصاناً إلى المدينة عندما كان يريد أن يشرب، وكان يكثر من الشراب بعد أن عقد اتفاق انتحار مع زوجته التي شاركها في تجرع السمّ لكنه استيقظ وقد ماتت زوجته بينما ظل هو حياً يرزق. كانوا صامتين أو ثرثارين، مثل روستر ماك نيس الذي أصبح بديناً وكان يُري الندبة التي خلّفتها عملية استئصال الزائدة الدودية ولم يكن يتوقف عن التحدث عن اليابانيين الذين طعنوه بالحراب. كأنهم يتضاجعون يا روستر، قال غاليبولي فون كسلر، عندما شاهد العرض على مسرح بروادميدوس.

لا تقلق، قال روستر ماك نيس. هذا كِس. كان شيوعياً على الدوام، لكنّه على ما يرام. كان حارساً يدعى *أسد الجبل*. لقد شهدتُ لصالح هذا اللقيط بعد الحرب.

وعلى الرغم من ذلك، فقد كانوا يشربون. كانوا يشربون ويشربون، لكنهم لم يسكروا قط مهما شربوا. وعندما سُرّحوا، طلب منهم المسؤولون الدجالون في الجيش ومن عائلاتهم ألّا يتحدّثوا عن ذلك، لأنها لم تكن مشرفة وليس من الجيد التحدث عنها. فهي ليست قصصاً بطولية، وليست قصصاً عن كوكودا أو لانكاستر فوق وادي روهر، ولاتشبه قصة المدمرة الحربية تيربيتز، أو قصر كولديز أو طبرق. ما هي إذاً؟ إنها قصة استعباد على يد الرجل الأصفر. هذا ما قاله تشام فاهي عندما التقيا في مطعم *الأمل والمرساة*.

أليس ذلك شيء يمكن التفاخر به، قال شيفيد مورتن.

كان الأشخاص ظرفاء. اختفى بعضهم. وقد تزوّج روني أوين امرأة إيطالية قالت لزوجة شيفيد مورتن، سالي، بأنّها لم تعرف بأنه كان جندياً إلا منذ سنتين. هكذا هي الأمور.

لم يقل بونوكس بيكر شيئاً لسنوات عديدة. وفي إحدى الليالي، وجّه بندقيته إلى الفرن، قال جيمي بيغيلو، وأطلق عليه النار. أصبح يبدو مثل مبشرة جبن لعينة. ثمّ صمت. هكذا هي الأمور أيضاً.

العجوز المسكين ليزارد برانكوسي، قال شيفيد مورتن. وتلك القصّة حزينة جداً بالنسبة لأي شخص يكررها. لقد حمل رسم زوجته بقلم الرصاص إلى المعسكرات التي نُقل إليها، وعندما سافر على متن سفينة الجحيم إلى اليابان، وتشبث بها عندما عمل عامل سخرة في حوض متسوبيشي للسفن في ناغازاكي، ثم اختفى عندما ألقيت القنبلة الذرية لكنه نجا بأعجوبة، ولجأ إلى التلال وراح يمشي بين جثث الأموات التي كانت تملأ النهر كأنها ألواح خشب عائمة، ولاذ الناجون بالفرار وجلدهم يتساقط في شرائط طويلة مثل أعشاب بحرية، وراح يمشي مترنحاً فوق كائنات بشرية كأنها منحوتات من الكربون، تسير، تركب دراجات، أو تجري؛ وكان يتجاوز كلّ هؤلاء اليابانيين الذين يعانون في ذلك الجحيم اللاهب من النار الزرقاء والمطر الأسود، والذي، شأن أسرى الحرب الذين تذكّرهم، كانوا ينادون أمّهاتهم وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة. وحاول طوال الوقت أن يرى مايسي كما رسمها رابيت هيندريكس في ذلك الصباح في قرية سورية تعبق منها رائحة كائنات بشرية في محنة.

حاول أن يتخيّل أنها الشيء الوحيد في العالم الذي لم يكن هكذا، وأنها طالما كانت هناك، فلن يموت أو يجنّ، وأنها طالما كانت هناك، فإن العالم على ما يرام. وعندما كان متجهاً إلى مانيلا

على حاملة طائرات أمريكية، كان يُري البطاقة البريدية إلى البحّارة الأميركيين الذين أجمعوا على أنه رجل محظوظ جداً. ووصل أخيراً إلى فريمانتل على متن سفينة كانت متوجهة إلى ملبورن، ومن هناك اتصل بالبيت بالهاتف.

هذا هاتف ديف ومايسي، أجاب صوت رجل. ديف يتكلم.

أغلق ليزارد برانكوسي الهاتف. عندما انطلقت السفينة التي يستقلها إلى خارج فريمانتل، شوهد وهو ينزلق من أحد جوانب السفينة في أول ليلة، ولم يُعثر عليه بعدئذ قط.

وفجأة أصبحت البيرة مثل وقود للنار. كانوا يشربون ليجعلوا أنفسهم يشعرون كما ينبغي أن يشعروا عندما لا يشربون، وهكذا كانوا يشعرون عندما لم يكونوا يشربون قبل الحرب. وفي تلك الليلة أحسّوا أنهم شرسون وكاملون ولم يُكسروا بعد، وراحوا يسخرون من كلّ ما حدث. وعندما كانوا يضحكون لم تكن الحرب شيئاً، وكان كلّ ميت لا يزال حيّاً في داخلهم، وكان كلّ ما حدث لهم هو ذلك الشيء القافز النابض الخافق في داخلهم بقوة لذلك كانوا بحاجة إلى احتساء كأس أخرى من الشراب بسرعة للتخفيف من حدة ذلك الشعور.

وفي تلك الليلة، كان ليزارد برانكوسي حيّاً فيهم، وكان وات كوني الضئيل حيّاً فيهم، وكان يابي بوروز وجاك ريبنبو وتايني مدلتون أحياء فيهم، العدد الكبير من الأموات جميعاً، وقال شيفيد مورتن إنه يتذكّر أحياناً بمودة ذلك اللقيط الوسخ البائس روستر ماك نيس الذي لا بد أنه مات. وغاليبولي فون كسلر - الذي ظهر وهو يرتدي بنطلوناً صوفياً مهترئاً يبدو أنه اشتراه من فزّاعة - ذكر داركي غاردنر، ثم بدأ جيمي بيغيلو يغني:

كلّ يوم تتحسن الأحوال قليلاً بشتى الطرق.

كانوا يقفون حول موقد حانة *الأمل والمرساة* في تلك الليلة، حتى غدت مؤخرة سراويلهم حارة جداً، مما دفعهم ذلك إلى تناول كأس بيرة أخرى. كان ذلك في عام ثمانية وأربعين أو ربما في عام سبعة وأربعين. مهما كان، فلم تكن ليلة ذات شأن، وكان من الجيد أن يمكث المرء في الداخل، دافئاً. لم يجتمعوا معاً منذ أن سُرّحوا. لم يقل جيمي بيغيلو الكثير، فالزواج الذي عاد إليه لم يكن الزواج الذي كان قد تركه. أم أنه عاد شخصاً مختلفاً.

إني أبذل قصارى ما بوسعي، قال ذات مرة.

كان هناك أطفال. كان لديه أربعة منهم في النهاية وأصبح يطلق عليه ربّ أسرة. لم يكن. كان رجلاً لديه أربعة أطفال. لم يقل أحد أكثر من ذلك عن داركي غاردنر، باستثناء غاليبولي فون كسلر الذي قال: مطعم نيكيتاريس للسمك.

نعم، قال شيفيد مورتن. مطعم نيكيتاريس للسمك اللعين. لم يتوقف عن التكلم عنه، أليس كذلك؟

- ٥ -

لم يقل جيمي بيغيلو شيئاً. كان يحاول، تلك هي المسألة، بالتأكيد؟ لكنه لم يقل شيئاً. لم تفلح آماله في أن يصبح عازفاً، شخصاً ذا أهمية، شيئاً ما. فقد كان يعمل أمين مخزن في ورشات الزنك. لم تعد الفرقة الموسيقية الكبيرة دارجة آنذاك. لم يكن يعتبر الموسيقى الجديدة، موسيقى البيبوب وموسيقى الجاز الحديثة، موسيقى حقيقية، بل ضوضاء صاخبة مثل جلبة وضوضاء هدير السيارات. لا يمكنك أن ترقص على أنغامها، أو أن تقع في

غرامها، قال جيمي لنفسه. ليس أل بولي. ليس بيني غودمان أو الدوق. إنها نهاية الموسيقى، ونهاية الأمل بالنسبة لشخص مثل بيغيلو. بدأت الفرق الكبيرة تضمحل، إن لم تتلاشى.

كانت الأشياء التي يؤمن بها تتجّه نحو البحر، تتلاشى، تضيع إلى الأبد. الأشياء التي كان يخيّل إليه أنه يعود إليها. الأشياء التي كان يتمنّى أن يصبح جزءاً منها ويبدأ حياته. لكن تبين له أنها لا تساوي رازو نحاسي. لم يعد يتلاءم مع حياته. كانت حياته تتهدم، وكان كلّ ما يناسبه - عمله، أسرته - يبدو أنه يتبدد. كان يريد أن يضع الأمور في نصابها مع دولسي، مع حياته، مع البيبوب، لكن كل ذلك قد انتهى. كان يريد أن يضع الأمور في نصابها، قال لنفسه، لكنّ ذلك لم يكن ممكناً.

لكن ذلك لم يكن السبب الذي جعلهم يغادرون الحانة ويجوبون شارع إليزابيث نحو مطعم نيكيتاريس للسمك. لجعل الباطل حقاً. غادروا لأن الوقت كان قد اقترب من منتصف الليل، وقد حان وقت الإغلاق، وكانوا سكارى ولم يكن لديهم شيء أفضل يمكنهم القيام به.

كانت واحدة من تلك الليالي الربيعية في هوبارت. كان البرد شديداً، وكان الثلج يهطل بغزارة فوق الجبل، وكانت الأمواج ترتطم برصيف الميناء بقوة، وكانت قطرات المطر الممزوجة بالثلج تضرب النوافذ وأسطح الصفيح مثل سكير متوحش علق في الخارج.

ساروا في شارع إليزابيث متجهين إلى مطعم نيكيتاريس للسمك، يتبعون بنطلون غاليبولي فون كسلر المهترئ الذي كان يقودهم. كان بوسعك إطلاق قذيفة هاون في الشارع دون أن يصاب أحد. لم يكن مطعم السمك كما كانوا يتخيّلونه عندما كانوا في المعسكر، يعجّ بالرواد ويملأه البخار ورائحة قلي الطعام وصديقة داركي جالسة هناك

بانتظارهم، وأن يفعلوا ما يجب أن يفعلوه. لا، لم يكن الأمر كذلك.

إنه مغلق مثل راهبة، قال شيفيد مورتن، عندما وصلوا.

كان مطعم نيكيتاريس مغلقاً - الأبواب موصدة، لا توجد حياة في داخله، جميع الأضواء مطفأة ما عدا الأضواء التي تنير حوض السمك الطويل في الواجهة الزجاجية. كانت الأسماك تسبح وتدور حول الحوض. سمكتان من نوع الرأس المفلطح وسمكة من نوع بروجي وسمكتان فضّيتان، وسترة جلدية. لم يكن هناك أحد غيرهم يحدّق في حوض السمك. كان الشارع الأملس في الليل خاوياً.

حسناً، قال شيفيد مورتن، لا يمكنك القول إنها تبدو غير سعيدة تماماً.

ربما في المعسكرات لم نكن كذلك أيضاً في أي لحظة، قال جيمي بيغيلو.

وقفوا هناك، أيديهم في جيوبهم، يهزون أكتافهم لتدفئتها، يثبون من ساق إلى أخرى، كما لو كانوا ينتظرون وصول قطار منتصف الليل، أو مغادرته.

لا يوجد شيء جاهل مثل مجموعة من الغوغاء السكارى، قال غاليبولي فون كسلر، حتى الدجاجات تفعل شيئاً.

أحسّ جيمي بيغيلو بأنه مجرد شكل خارجي لا يوجد شيء في داخله. كان يعتريه اضطراب في الشعور. كان يتمنّى أن يشعر، لكنّه لم يكن شيئاً يمكن أن يتمنى المرء أن يحدث. التقط حجرة ودحرجها في راحة كفه. نظر إلى واجهة المحل الزجاجية. كانت هناك لوحة زجاجية كبيرة مكتوب عليها بخط جميل ***مطعم نيكيتاريس للسمك***. كانت براقة وجميلة. رفع يده خلف كتفه، ومن دون تحذير، رمى الحجرة بكل قوته إلى الواجهة الزجاجية.

سمعوا صوت الزجاج يتشقق. ليس كله فجأة. بل، مثل الزمن، فُتح شق طويل ببطء مع أنين. كان جيمي بيغيلو يبتسم كما لو أن أحداً قطع فمه إلى شرائح في طرفه.

ثمّ بدأوا جميعاً يلقون الحجارة، تفككت النافذة وتناثرت وتهشمت، ودخلوا إلى المطعم. أمسك غاليبولي فون كسلر، وبخبرة بستاني سريع البديهة، أخرج السمك بمقلاة رقائق البطاطا، وبعد عدة حوادث مزعجة، وضعوا الأسماك كلها في دلوين مخصصين لمسح الأرضية، ثم عادوا إلى حوض السفن، وحرصوا على ألّا يندلق الماء من الدلوين.

كانت هناك بضعة قوارب صيد تتمايل فوق الأمواج الطويلة التي اخترقت كل هذه المسافة من الميناء، وهبت رياح شديدة قاسية وراء الخليج الصغير. عندما وقفوا عند حافة حوض كونستيتوشن للسفن، أدخل شيفيد مورتن رأسه في الدلو وصاح:

إنكم أحرار!

وقلب الدلو.

وسقط السمك وغاب في صوت الماء.

- ٦ -

في الليلة التالية، حُكيت القصّة في حانة *الأمل والمرساة* بحماسة شديدة، حتى لو كان يكتنفها إحساس بالخزي. وأخيراً، قال جيمي بيغيلو إنهم يجب أن يذهبوا لرؤية نيكيتاريس لإصلاح الواجهة الزجاجية. كان الوقت لا يزال مبكّراً، وكانت أضواء المطعم مضاءة. كانت قد أُصلحت الواجهة للتو، لكنها لم تكن قد طُليت بعد.

كان في المطعم نساء عجائز ينظفن الصحون والمقالي، وفتى في قسم بيع السمك يفرك بالفرشاة. سأله شيفيد مورتن هل السيد نيكيتاريس موجود. اختفى الفتى ثم عاد من الجزء الخلفي يرافقه رجل عجوز، ضئيل الجسم، حافظ على سلامة جسده الهرم كما كان عندما كان عامل بناء في شبابه. كان شعره أشيب، ولون بشرته بلون بقعة حاول أحدهم أن يبيّضها لكنه لم يفلح. كان ثمة فراغ رطب حول عينيه السوداوين، وكانت تفوح منه رائحة تبغ ويانسون.

السيد نيكيتاريس، قال جيمي بيغيلو.

ماذا تريدون يا شباب؟ قال الرجل العجوز. كانت نبرته ثقيلة. بدا صوته مرهقاً ومنزعجاً، وأضاف، لقد أمضيت يوماً مريعاً. ماذا تريدون؟

السيد نيكيتاريس، قال جيمي بيغيلو، إننا...

سجلوا طلباتكم عند السيدة هناك.

إننا...

السيدة بافيتيس هناك، قال، مشيراً بإصبع متورمة، إنها ستهتم بطلباتكم.

لقد جئنا لنعبّر عن أسفنا، قال جيمي بيغيلو.

لدينا صديق، قال شيفيد مورتن. هذه المرة، لم يقل اليوناني العجوز شيئاً. كان محني الظهر ومن الصعب رؤية عينيه اللتين كانتا تنظران إلى الأرضية المبلطة ببلاط ملون بالأبيض والأسود، بينما راح شيفيد مورتن يحكي له قصتهم.

عندما أنهى حكايته، قال جيمي بيغيلو إنهم جاؤوا لتعويض نيكيتاريس العجوز لإصلاح الواجهة الزجاجية المهشمة ودفع ثمن السمك وتعويضه عن أيّ أضرار أخرى.

حان الوقت ليرد اليوناني العجوز. رفع عينيه وتطلّع حوله.

وبينما جال بنظره عليهم، متفرساً كلّ واحد منهم، هزّ رأسه قليلاً وقال: هل كان صديقكم؟

مثل جميع المهاجرين، كان يمتلك غريزة صائبة في اختيار الكلمات الصحيحة والأكثر دقة في لغته الجديدة.

بدت الطريقة التي نطق فيها تلك العبارة متحررة من الثقل الغادر لصديق.

نعم، قال شيفيد مورتن، إنه صديقنا.

أخرج شيفيد مورتن محفظته. ما هو المبلغ الذي ندينه لك يا سيد نيكيتاريس؟

فقال: اسمي ماركوس، لكن ادعوني ماركو.

سيد نيكيتاريس. إنها واجهة مطعمك التي كسرناها.

مدّ يداً مسنّة مرتعشة وهزها.

لا، قال، أعدها.

سألهم عمّا إذا كانوا جائعين، ودون أن ينتظر سماع ردهم، قال إنهم يجب أن يتناولوا الطعام لأنهم ضيوفه.

اجلسوا وكلوا، قال اليوناني العجوز، من الجيد أن تأكلوا يا شباب.

نظر الرجال إلى بعضهم بعضاً، غير عارفين ماذا يجب أن يفعلوا.

إنكم ضيوفي، قال، وسحب كرسياً ووضع يده على كتف جيمي بيغيلو، وقال: أرجوكم، اجلسوا. يجب أن تأكلوا.

وهكذا جلس الرجال.

أتحبّون النبيذ؟ لديّ نبيذ أحمر قد يعجبكم. ليس من المفترض أن أقدمه لكم، لذلك لا تعترضوا، واشربوا كما تشاؤون، يا شباب.

توجّه إلى المطبخ وملأ المصفاة الشبكية برقائق البطاطا، ثم عاد.

هل تحبّون سمك الفلايك أم الكوتا؟ البعض يفضّلون سمك القرش، لكن ثقوا بي. مع أن سمك الكوتا مليء بالحسك، فهو لذيذ. لذيذ جداً. وأضاف يجب أن تأكلوا. من الجيد أن تأكلوا. أحضر السمك ورقائق البطاطا المقلية إلى طاولتهم، ثمّ ملأ عدة كؤوس صغيرة بالنبيذ الأحمر وأحضرها أيضاً. ثمّ جلس معهم. بينما انهمكوا في الأكل، تركهم يتكلّمون. ثم أنصتوا له عندما راح يتحدث كيف أن شتاء كهذا يعني أن صيفاً جيداً سيعقبه، نعم. ثمّ أخذ يتحدث عن حياته، عن جزيرة ليبسوس، مسقط رأسه، وعن الحياة الجميلة، لكن القاسية هناك، وتحدّث عن زوجته المرحومة، وكيف كانت هناك حياة في شبابهم. حياة ثرية. حياة مرفّهة. نعم. وحدثهم كيف أن الناس يعبّرون له عن مدى سعادتهم عندما يرتادون مطعمه، وأنه يأمل في أن يكون ما يقولونه صحيحاً.

إني سعيد حقاً، قال، هكذا هي الحياة.

هل عندك أطفال؟ سأله جيمي بيغيلو.

فأجاب، ثلاث فتيات. فتيات صالحات. عندهن أسر جيدة. والصبي. صبي جيد. جيد...

هنا تلعثم اليوناني العجوز للحظة. ثمة شيء غير مفهوم، وبدا وجهه يسترخي من تجهمه. رفع يداً بأصابع ذات عقد متورمة إلى وجهه، مثل فروع شجرة مشمش مشذبة ترتعش في عاصفة خريفية، كأنه كان يحاول أن يعيد وجهه إلى صورته الحقيقة.

ثم قال: لقد قُتل في غينيا الجديدة في عام ١٩٤٣ في بوغاينفيل.

بدأ المطعم يفرغ رويداً رويداً، وباشر العمال عملية التنظيف، ثم أغلقوا المطعم وغادروا واختفوا في الشارع بين السيارات العابرة. وظلوا يتحدثون مع اليوناني العجوز في شتى المواضيع حتى وقت متأخّر من الليل عندما أُغلقت جميع الحانات. لكنّهم لم يعبأوا بذلك، فظلوا جالسين، وتحدّثوا عن السمك، وعن الطعام والرياح والحجارة وزراعة البندورة وتربية الدواجن، وتحدثوا عن شواء لحم الضأن، وعن صيد جراد البحر والمحارات، وحكوا حكايات وتبادلوا نكاتاً، وكانت حكاياتهم خالية من أي معنى، ولم يتركوا شيئاً لم يتحدثوا عنه. الحلم الهشّ والجميل.

كان من الصعب شرح كيف كانوا يشعرون بالسمك المقلي والبطاطا المقلية والنبيذ الأحمر الرخيص في داخلهم. كانت لذيذة جداً. أعدّ اليوناني العجوز القهوة لهم بنفسه - فناجين صغيرة، سميكة، سوداء، وحلوة - وقدم لهم حلويات محشوة بالجوز صنعتها ابنته. كان كلّ شيء غريباً وجميلاً في الوقت نفسه. كانت الكراسي البسيطة مريحة، وكذلك كان المكان مريحاً وجيداً. ومهما طالت تلك الليلة، قال جيمي بيغيلو لنفسه، لا يوجد مكان في العالم يتمنّى أن يكون فيه غير هذا.

- ٧ -

عندما هبط دوريغو إيفانز من طائرة دوغلاس دي سي -٣ في سيدني في خريف عام ١٩٤٨، تملكه شعور بالخوف والإثارة عندما رآها تنتظره. قد يكون اليابانيون والألمان قد استسلموا في عام ١٩٤٥، أما دوريغو إيفانز فلم يستسلم ولن يستسلم لفترة من الزمن. وحاول مواصلة معاركه بكل شجاعة، منتهزاً أيّ فرصة لإثارة

الكراهية، وبث الدسائس، وسياسة الوصول إلى حافة الهاوية، والمغامرة كلما برزت أمامه. لكن كلّ ذلك بدأ يتناقص. وبعد عدة سنوات، وجد من الصعوبة الاعتراف بأنه كان خلال الحرب، بالرغم من أنه كان أسير حرب طوال ثلاث سنوات ونصف السنة، حراً من حيث الجوهر.

لذلك حرص دوريغو إيفانز على تأجيل عودته لأطول فترة ممكنة، لكن بعد تسعة عشر شهراً من العمل مع مختلف الهيئات العسكرية في أنحاء جنوب شرق آسيا - كان يقوم بأعمال شتى بدءاً من إعادة الأسرى إلى أوطانهم والإشراف على مقابر القتلى في الحرب وإعادة الإعمار بعد الحرب - فقد استنفذ كل هذه الأعذار، وكان عليه أن يعمل في وظيفة تقليدية في الجيش أو أن يعود ليعيش حياته المدنية. ولم يكن يعرف ما هي تلك الاحتمالات، لكنّها بدأت تبدو جذّابة له، ولم يعد الجيش تلك الرحلة المسعورة بهزائمها وانتصاراتها والعيش - العيش - الذي يمزق باستمرار كل شيء راسخ إلى شرائط، يذيب كلّ شيء صلب في الهواء. والثروة والشهرة والنجاح والتملق - أتى كلّ ذلك لاحقاً وبدا أنه لم يساهم إلّا في تعقيد الشعور بالخواء الذي وجده في الحياة المدنية. ولم يستطع أن يعترف لنفسه قط بأن الموت هو الذي منح حياته معنى.

إن المحن تُبرز أفضل ما فينا، قال رئيس لجنة مقابر الحرب، البدين الجالس إلى جانبه، عندما اهتزت الطائرة دي سي -٣ على نحو يثير القلق عندما تعرضت لعاصفة لدى اقترابها من سيدني. إن كل يوم نعيش فيه يقتلنا.

عندما سار باتجاه حفنة من أشخاص لا يعرفهم، صمم على أن يواجه حياته المدنية الجديدة كما كان قد واجه عقبات عديدة أخرى وتغلب عليها خلال السنوات السبع منذ أن التقيا آخر مرة - بروعة

وجرأة، وبمعرفة أن الزمن سيغسل حماقات الزمن الماضي، كما كان يبدو أنه يفعل ذلك، أو هكذا خيّل إليه، مع كلّ الأشياء تقريباً.

تقدّم، همس لنفسه، مستجمعاً ابتسامة على وجهه ظن أنها فاتنة. اشحن الطاحونة.

رأى امرأة جميلة لطيفة تلوّح له بيد مكسوة بقفاز، وبإيماءة تقليدية عرف أنها مشحونة بكتلة من العاطفة والمجد التقليدي: البهجة، النشوة، الارتياح، الحبّ، وخشي أن يكون ذلك تبريراً للوفاء. لم يكن أي منها يعني الكثير بالنسبة له، لأنه كان خارج كلّ ذلك. ومع أنه ميّز صوتها بعد الكلمات الأولى القليلة التي تفوهت بها، بدا الهواء الصيفي معتدلاً وخاوياً ومخيّباً على نحو ما، بعد العفونة المشبّعة بالبخار في آسيا، وحتى بعد أن قبّل أحدهما الآخر لم يتمكن من تذكّر اسمها. بدت شفتاها جافتين ومخيّبتين - كأنه يقبّل التراب - وأخيراً، حمداً لله، تذكّر اسمها.

إيلا، قال.

نعم، قال لنفسه، إنه هو. أحسّ أن الوضع أكثر من صدئ.

أوه - إيلا.

أوه، إيلا، قال برقة أكثر، راجياً أن تأتي على لسانه كلمات عقلانية أخرى عن ذلك الاسم وعنه وعنهما لو أنه نطق اسمها بشكل صحيح. لم تحضره تلك الكلمات. لم تفعل إيلا لانسبري شيئاً إلا أن تبدي ابتسامة.

قالت: لا تقل شيئاً يا عزيزي. فقط لا تقل أيّ شيء زائف. إني لا أحتمل الرجال الزائفين.

فقال: لكنني رجل زائف تماماً. هكذا أنا.

كانت تبتسم، تلك الابتسامة الجامدة، التي تعرف كل شيء، والتي لا تعرف شيئاً. الابتسامة التي كان يجدها بغيضة دائماً. هاتان

الشفتان الجافتان على نحو غير متوقع توحيان له أنّ كلّ شيء قد رُتِّب مسبقاً، وأن عليه ألّا يقلق حول أي شيء. تذكّر الآن بأنّه عرض عليها الزواج في عام ١٩٤١ كطريقة لتقبيل ثدييها. وبقدر ما كان يتذكّر، كانت آخر ليلة من آخر إجازة له مع إيلا أن قبل أن يذهب إلى الحرب، ولم يتمكن من التوقّف عن التفكير بأيمي. ولكي يتخلص قليلاً من إلحاف إيلا بسؤاله لماذا لا يتقدم لخطوبتها، ولكي يتخلص من أفكاره عن أيمي التي لم تتوقف والشعور بالذنب الذي تملكه نتيجة ذلك، كان عليه أن يجد وسيلة عبر المتاهة المعقّدة التي أفضت إلى شقّ ثديي إيلا، وتعين عليه أن يطرح عليها اللغز النهائي: إيلا، هل تتزوّجينني؟

ألم تكن تعرف بمَ كان يفكّر حقاً؟

لا يوجد نسيان في ثدييها. فكلّ شيء في إيلا لم يذكّره إلا بأيمي على نحو ممض. كان يشعر بالخجل آنذاك، وعلى نحو أسوأ الآن.

لهذا السبب أحبّك يا ألوين، قالت.

ألوين؟ لوهلة، لم يعرف من تقصد. ثم تذكّر أنه هو المقصود. وبدا هذا أيضاً أنه أكثر من صدئ.

لأنك قد تكون أيّ شيء لكنك لا يمكن أن تكون زائفاً.

وفي الطريق عانقته، بطريقة خانقة بدا أن لا مناص منها، وكان جميع من التقى بهم خلال الأيام القليلة التالية يؤمنون بشكل قاطع بأن عليهما أن يتزوّجا - وأنه لا يوجد شك في أن حفلة خطوبة أقيمت على عجل خلال الفترة التي لاحت فيها ظلال الحرب منذ سبع سنوات، ومغادرته إلى ما وراء البحار، لكن يجب الإسراع بها لتحقيق خاتمة دون أي تفكير. وفي السنوات التي تخللت ذلك،

عاش عدّة حيوات، بينما كُرست الحياة الوحيدة - أو هكذا بدت لدوريغو إيفانز - التي عاشتها لفكرة رسمتها عنه نادراً ما يدركها. وبين الحين والآخر، كان يعتريه شعور بالغضب والتحدي في داخله، لكن تملكه شعور بالضجر لم يعهده من قبل، وبدا أن من الأسهل بكثير أن يسمح لإرادة عامة أوسع أن ترتب له حياته بدلاً من أن ترتبها مخاوفه الفردية اللا عقلانية، التي لا ريب أنها مجرد مخاوف في غير محلها. وفي جميع الأحوال، كان يشعر بأن عقله سجن لمخاوفه وقلقه. ولم يشأ أن يمنحها أهمية أكثر مما تستحق. وأدرك أن الأشخاص الكثيرين المبتهجين بزواجه الوشيك المتحلقين حوله هم أكثر رصانة وتعقلاً منه، لذلك استسلم لرصانتهم وعقلانيتهم - بخلاف أفكاره الغريبة دائماً - آملاً بأن يجذبونه إلى مكان جديد وأفضل. وبتلك الطريقة الطفولية التي كانت أيضا جزءاً من طبيعته، لا بد أنه انجذب إلى الإثارة التي تنطوي على أيّ شيء جديد ومجهول، لا سيما عندما يكون مخيفاً. وبما أن شيئاً لم يكن يخيفه أكثر من احتمال الزواج من إيلا لانسبري، فإن هذا ما فعله بعد ثلاثة أسابيع، في سديم كحولي، وبدلة جديدة اختارتها له، وشعر بعد ذلك أنه أصبح يبدو متكلفاً كما كان زفافهما في كاتدرائية القديس بولس.

وحتى قبل أن يقبّل أحدهما الآخر، نسي اسمه مرة أخرى - فقد أحس بالضياع في رائحة مسحوقها - ثم تذكّره أخيراً. ألوين، نعم، هذا هو - أنا، ألوين، قال. استدار ونظر إليها. كانت محاطة بإطار من أشرطة الزينة وأزهار البرتقال، لكنّه لم ير إلّا الوجه الضيّق وذلك الأنف الغريب الذي كان يراه منفراً بعض الشيء، والحاجبين الرفيعين المقوّسين إلى الأعلى، ولم يجد شيئاً جذّاباً فيها. إني أقبلك زوجة يا إيلا، قال برقة شديدة، وابتسمت إيلا لانسبري التي

سرعان ما أصبحت إيلا إيفانز، ابتسمت فقط، وافترت شفتاها قليلاً لكنهما لم تنبسا ببنت شفة.

أنا لستُ ألوين، أراد أن يقول لها في حفل الاستقبال، وأنا زائف تماماً. لكنّه كذب وراح يتحدث عن حبّ عاش سبع سنوات من الفراق، فترة أسطورية من الزمن جديرة بأوليسيس ورجاله. ومع أن البطل الكلاسيكي الوحيد الذي يشبهه حقاً هو الكبش - الكثير من الضحك - فقد كانت إيلا حقاً حبيبته بينيلوب، وكان سعيداً بوصوله أخيراً إلى إيثيكاه - الكثير من التصفيق.

وفي الفترة المتبقية من حياته، استسلم للظروف والتوقعات، وبدأ يطلق على تلك الأعباء الغريبة واجباً. وكلما أحسّ بالذنب أكثر تجاه زواجه، وفشله كزوج أولاً ثم كأب، حاول يائساً أن لا يفعل إلا الأمور الجيدة في حياته العامّة. وما كان جيداً، وما كان واجباً، هو الذي كان يعتبره الهروب الملائم الذي لا يمكن تفاديه، وهو الذي كان يتوقعه الآخرون. والشيء السيء والشرّير هو ذاته، وتذكر المرة الأولى التي نام فيها مع امرأة غير زوجته، أقرب صديقة لها، جوان نيوستيد، المرأة ذات الشفتين النديتين الساحرتين، وذات الابتسامة الماكرة، ولم يمض شهر واحد على شهر العسل. كان قد جرى ذلك في كوخ في سورينتو في ظهيرة يوم بعد أن ذهب الآخرون جميعاً.

التجربة كلها قوس إلى حيث
يضيء العالم غير المسافر...

همس لها بعد ذلك، ممرراً إصبعاً إلى أعلى وأسفل الناموسية قبل أن يستدير نحوها، مخفضاً رأسه وممسكاً بحلمتها الداكنة بحافة

شفته السفلى بينما واصل تلاوة قصيدة تينيسن بأنفاس ناعمة فوق ثديها:

. . . الذي يتلاشى هامشه
إلى الأبد وإلى الأبد عندما أتحرّك.

في ذلك المساء، أقاموا حفل شواء لأن اللحم الذي تُرك معلقاً بأمان في كولغاردي قد بدأ يفسد في الحرارة، وعلى الرغم من أن تقنين اللحم كان قد انتهى منذ فترة، فقد شعروا بأنه ليس من الملائم إهدار اللحم الصالح. لعله أكثر من الشراب، لعله لم يشرب ما يكفي، قال لنفسه بعد ذلك، لكن رأسه كان يدور بسرعة، وأحسّ أن معدته مليئة بالمسامير. شعر بأنه منتفخ بشيء ضخم وخاطئ وخفي حال بينه وبين إيلا، إيلا التي لم يعد يرغب في أن يخفي عنها شيئاً بعد الآن، بعد أن أصبحت جوان نيوستيد تغار من الاهتمام الذي يبديه دوريغو لأعزّ صديقاتها، زوجته. ماذا يفعل؟ تساءل. هل يأمل في أن يُكشف أمره؟

شويت شريحة لحم البقر فوق طبقة شديدة الحرارة من فحم شجر الصمغ، لكن عندما قُطع اللحم إلى شرائح تبين أنه لم ينضج جيداً، ولوهلة عاد إلى هناك، وهو يتجّه في المعسكر خلال الجزء الثاني من جولاته اليومية في ذلك اليوم وسط الرياح الموسمية *والسبيدو*. وعندما اقترب من كوخ مرضى المصابين بالتقرحات، هبّت على دوريغو رائحة لحم متعفن كريه، وتذكّر كيف كانت رائحة اللحم الفاسد سيئة إلى حد أن جيمي بيغيلو كان يضطر للخروج أحياناً ليتقيأ.

بعد أن صدر حكم الإعدام على تشوي سانغ-مين، نُقل إلى القاعة بي في سجن تشانغي حيث يُجمع المدانون جميعاً كأشخاص متساوين: اليابانيون والكوريون والتايوانيون. أُعطي بدلة بنية اللون متسخة كُتب عليها الحرفان CD بالإنكليزية. وقالوا له له إن هذين الحرفين يعنيان أنه محكوم عليه بالموت. ولاحظ تشوي سانغ-مين أنّ جميع المحكوم عليهم بالموت يحاولون يائسين ملء أيامهم بمزاولة نشاط ما، ولم يكن يبدو أنهم كانوا مكتئبين أو قلقين لما يمكن أن يحمله لهم المستقبل. وأحسّ بأن حملاً ثقيلاً قد رُفع عن كاهله، كأن شيئاً آخر يكفّنه ببطء، وكأن الإحساس بالخوف والدونية الذي كان يعتريه قد تلاشى وتبخّر. فلم يعد أي شيء يعني له شيئاً، لأن دوره في الموت قد حان.

وكان يُطلب منهم في صباح كلّ يوم أن يخرجوا من زنزاناتهم وأن يغتسلوا ليبدأ يوم آخر من الفراغ. كانوا يجلسون بدون قمصان في منتصف الزنزانة، يلعبون *الشوغي* أو يعيدون قراءة أحد الكتب أو المجلات القليلة المتوفرة، أو يجلس كل منهم بمفرده. وكلّ بضعة أسابيع، يصل ضابط هندي برتبة نقيب، يضع نظارات فضّية تسبح وراءها عينان لامعتان تشبهان فرخي ضفدع تتحركان ببطء ذات اليمين وذات اليسار، يحمل بيده إعلان إعدام أحد السجناء. فينتظر السجناء واجمين، يشلّهم الرعب، يتساءلون من منهم سيموت، ثم يعتري كلّ واحد منهم إحساس بالارتياح الشديد عندما يتأكد أنه ليس هو المطلوب، بل الرجل الجالس بجانبه.

وفي الزيارة الثالثة التي قام بها هذا النقيب، أدرك تشوي سانغ-مين أن دوره في الإعدام قد جاء، لا لأن مشاعره أوحت له بذلك،

بل لأن مشاعره كانت غائبة في تلك اللحظة، ولم يعرف ذلك أيضاً من الورقة التي أعطيت له والتي أمسكها لكنّه لم يتمكن من أن يربط نفسه وحياته بما أُبلغ بما تحتويه تلك الورقة.

جالت عيناه أرجاء القاعة بي. كانت مجرد ورقة - لا شيء - وكان هو مجرد رجل. فالرجل، قال تشوي سانغ-مين لنفسه، هو شيء ما؟ والرجل، أمل تشوي سانغ-مين في أن يقول، مليئ بأشياء كثيرة، بتغييرات ضخمة. إن الرجل، سواء أكان جيداً أم سيئاً، شيء رائع. وليس من الممكن أن يعني هذا الشيء الذي لم يكن شيئاً والذي لن يتغيّر أبداً، نهاية كلّ شيء يتحرّك ويتغيّر في داخله - الجيد، السيء، الرائع.

وعلى الرغم من ذلك، فقد كان الأمر كذلك.

عندما رأى الارتياح الشديد الذي غمر الرجال الآخرين، الارتياح الذي أحسّ كأنه لهيب متقد، فهم أخيراً بأنه سيُشنق في صباح الغد.

قُدِّمت للرجال الأربعة الذين سيُعدمون وجبة طعام وسجائر يابانية. جاء راهب بوذي. تذكّر تشوي سانغ-مين الذي لم يكن يفكّر بالدين كثيراً، أن والده الذي لم يعد يتذكّر صورته بوضوح، قال له ذات يوم بأنه يؤمن بالديانة الشندوية، ولهذا السبب أثار حضور الراهب البوذي حنقه.

نظر تشوي سانغ-مين إلى طعامه المكوّن من رزّ وحساء ميزو وتامبورا. لقد اشتاق كثيراً إلى تناول الكيميتشي الكثير التوابل الذي كانت تعدّه له أمّه، وكان يكره الطعام الياباني الذي يخلو من أي طعم. لكن الكراهية والغضب ليسا مناسبين الآن. لم يتمكن من تناول وجبة طعامه الأخيرة. فإذا تناول وجبته الأخيرة، فإنها ستكون

آخر وجبة في حياته، وإذا لم يتناول وجبة طعامه الأخيرة، فإنه لن يموت حتى يتناولها. ربما كانت هناك وجبات طعام أخرى يمكنه أن يختار أياً منها ستكون الوجبة الأخيرة. لكنّه لم يوافق على وجبة الطعام الأخيرة هذه. لأن وجبة الطعام الأخيرة تعني الموافقة على حتمية موته، وهو لا يوافق على موته.

دخّن سجائره ولم ينبس بكلمة كما راح المدانون الآخرون يتحدثون عن أحبائهم. لم يوافق على كلامهم وعلى ورقة بدت حياته إزاءها قوة كونية.

لم يفه بكلمة واحدة عندما دخل حرّاس يحملون ميزاناً ثم وضعوه على الأرض وأشاروا إليه بأن يصعد عليه. وزنوا تشوي سانغ-مين، وأخذوا طوله. كان يعرف لماذا يفعلون ذلك بعد أن أعلمه الآخرون. كيف يعرفون ذلك، إنه لغز بالنسبة له. أخبروه ذلك كما لو أنهم رضعوا معرفتهم بالمشنقة مع حليب أمهاتهم.

أخبروه أن الشانق يجهز حبل القنب حسب طول المشنوق ووزنه ليعرف المسافة التي سيهبط فيها بدقة، وأقصى قوة لكي تُطبق على رقبته عندما يسقط، ثمّ يملأ كيس رمل يعادل وزن تشوي سانغ-مين، ويربطه بحبل القنب ويتركه معلقاً حتى الصباح ليتمدد ولكي لا يرتد الحبل عندما يسقط تشوي سانغ-مين في الفتحة في الأسفل. يجب أن يطبق الحبل على رقبته لكي لا يرتد.

تذكّر ضابطا يّابانياً كان قد أظهر تماسكاً ملحوظاً في الليلة التي سبقت إعدامه. وعندما جاء الحرّاس لوزنه، قال لهم بإنكليزية ركيكة بأنه سيموت في سبيل اليابان، وبأنه لا يشعر بالعار لأنه جعل أسرى الحرب يعملون بشقاء في سبيل الإمبراطور، وبأنه، كعسكري، يدرك بأنه سيموت لأن بلاده هُزمت. كان تشوي سانغ-مين يتوق إلى مثل هذا الوضوح واليقين.

كان ذلك بالنسبة للياباني - على الأقل كان لديه هذا الانطباع بأن هذه هي مشاعر اليابانيين، ويمكنه أن يرى الآن كيف كان يشعر وهو يضرب الأسرى بقبضتيه وبحذائه - وأن لدى الأستراليين هذا الشعور أيضاً. هذا الشعور يتملك الجميع، كلّ شخص في العالم، ربما، إلّا هو.

كانت المشنقة تنتصب وراء الغرفة التي يجلس فيها تشوي سانغ-مين مع الرجال الثلاثة الآخرين بانتظار مصيرهم. وخلال أيام الإعدام، ينتظر المحكوم عليهم بالإعدام داخل هذه القاعة بصمت لتأكيد تاريخ إعدامهم، وكانوا يسمعون وقع خطوات المحكوم عليه بالإعدام وهو يسير فوق السقالة والكلمات الأخيرة التي ينطقها. لقد صاح الضابط الياباني: عاش الإمبراطور، ثم فتح باب الفتحة في الأسفل، ثم سُمع صوت ارتطام بعد ذلك مباشرة.

لكن ما جدوى هذا الموقف بالنسبة له، هو الرجل الكوري؟ قال تشوي سانغ-مين لنفسه. فهو لم يفعل شيئاً في سبيل بلده، ولم تفعل بلده شيئاً من أجله. ولم يكن يؤمن بمعتقدات محددة. فكّر بوالديه، تخيّل ألمهما عندما يصلهما خبر موته، وأدرك أنه لن يستطيع أن يقدم لهما سبباً وجيهاً واحداً عن سبب موته غير الخمسين ينّاً في الشهر.

بينما كانوا ينتظرون في غرفة انتظار الموت هذه، راح حارس محكوم عليه بالإعدام يدعى كينجي موغامي ينشد بعض الأغاني. كانا قد عملا معاً لفترة قصيرة في معسكر أسرى الحرب نفسه. وكانوا قد أطلقوا عليه اسم *أسد الجبل*، لكنه لم يؤذ أحداً قط، وبالرغم من ذلك فقد حُكم عليه بالإعدام أيضاً. تذكّر تشوي سانغ-مين أسيراً أسترالياً كان يغنّي فأمره بأن يكفّ عن الغناء، لكنه لا يستطيع الآن أن يأمر كينجي موغامي بأن يتوقف عن الغناء، وراح ضابط ياباني يرقص الفالس وحده، ثمّ نُقلوا إلى زنزاناتهم

لم يغمض له جفن. أحسّ بأنه حيّ ويقظ على نحو ممض، وأراد الآن أن يتذوق طعم كل ثانية في حياته الباقية. ولكي يوقف عقله من المراوحة بين الرعب الذي يلازمه وبين الغضب لأنه لن يعود بإمكانه أن يتلقى الخمسين ينّاً، حاول أن يتذكر بعض الرجال الآخرين المحكوم عليهم بالإعدام.

تعيش كوريا العظمى! صاح أحد الكوريين عندما خطا تلك الخطوات الحاسمة الثلاث عشرة.

ما هي كوريا العظمى؟ تساءل تشوي سانغ-مين، وماذا عن الخمسين ينّاً؟ فأنا لست كورياً، قال لنفسه، أنا لست يابانياً، بل رجلاً من المستعمرات. أين هي ينّاتي الخمسون؟ أراد أن يعرف. أين هي؟

كان والده الفلاح يرغب في أن يدرس ابنه ويتعلم، لكن الأوقات كانت عصيبة. وبعد أن درس في المدرسة الابتدائية لمدة ثلاث سنوات تعلّم فيها بعض الأساطير وشيئاً من التاريخ الياباني، ترك المدرسة ليعمل خادماً عند أسرة كورية كانت تقدم له الطعام، وينّين اثنين في الشهر، وضرب مبرح بدون توقف. لم يكن قد تجاوز الثامنة من العمر. وعندما بلغ الثانية عشرة عمل عند أسرة يابانية كانت تقدم له الطعام، وتعطيه ستة ينّات، وبعض الجلدات من حين لآخر. وعندما بلغ الخامسة عشرة، سمع أن اليابانيين يجنّدون حرّاساً للعمل في معسكرات أسرى الحرب في مكان آخر من الإمبراطورية براتب خمسين ينّاً في الشهر. وأُخذت شقيقته التي لم تكن تتجاوز ثلاثة عشر ربيعاً لتعمل عند اليابانيين في مانتشوكوو «كامرأة راحة» وبمرتب مماثل. قالت له إنها ستساعد الجنود في المستشفيات، وكانت مثله في غاية الحماسة. وبما أنها لم تكن تجيد القراءة والكتابة، فلم يسمع منها شيئاً بعد ذلك. لكنه بات يعرف ماذا تفعل

«نساء الراحة»، وحاول ألّا يفكّر بشقيقته، وعندما كان يتذكرها كان يتمنّى أن تكون قد ماتت.

ومع أنه كان يلقب بعدة أسماء: فاسمه الكوري، *تشوي سانغ-مين*، واسمه الياباني الذي أُطلق عليه وأُرغم على أن يرد عليه في بوسان، *أكيرا سانيا*، واسمه الأسترالي الذي دأب الحرّاس على مناداته به *غونا*، أدرك أنه لا يعرف من هو. وكانت لدى بعض المحكومين بالإعدام الآخرين أفكار قوية عن كوريا واليابان، وعن الحرب، وعن التاريخ، وعن الدين والعدالة. وأدرك تشوي سانغ-مين بأنه لا توجد لديه أفكار عن أيّ شيء. لكن بدا له أن الأفكار التي لدى الآخرين ليست أفضل بالنسبة له من أن لا تكون لديه أيّ أفكار، لأنها ليست أفكارهم هم، بل أفكار شعارات ترددها الإذاعات وتتردد في الخطابات والكتيبات العسكرية، نفس الأفكار التي تشرّبوها من عمليات الضرب اللانهائية التي كانوا يتلقونها أيضاً خلال تدريبهم العسكري الياباني. فعندما كان في بوسان، كانوا يصفعونه لأن صوته كان منخفضاً أو لأن وقفته ليست صحيحة، وكانوا يصفعونه لأنه كان كورياً، وكانوا يصفعونه لكي يتعلم كيف يصفع الآخرين - بكل ما أوتي من قوة. وكان تشوي سانغ-مين يكره كلّ ذلك. كان يريد أن يهرب، أن يعود إلى بلده، لكنّه كان يعرف أنه إذا فعل ذلك، فإنه سيُعاقب، والأسوأ من ذلك، فإن أسرته ستتعرض لعقاب شديد. كانوا يصفعونه، كما كانوا يقولون له، لكي يصبح جندياً يابانياً قوياً، لكنه كان يعرف تمام المعرفة بأنه لن يكون جندياً يابانياً أبداً، بل سيظل حارس سجن يقوم بحراسة رجال هم أدنى مرتبة من الرجال - رجال اختاروا الاستسلام ولم يقبلوا الموت.

منتظراً مجيء دوره في الإعدام، شعر تشوي سانغ-مين برغبة جامحة لأن تكون لديه أفكار خاصة به. وكان يأمل أن تجلب له هذه

الليلة الطويلة فكرة أخيراً، أن تجعله منفتحاً. فكرة تسمح له بأن يفهم، وفي الوقت نفسه، أن يعرف السلام. كان يأمل في أن يكون مثل الضابط الياباني الذي يؤمن بالإمبراطور، أو مثل الحارس الكوري الذي يؤمن بكوريا. ربما كان عليه أن يطلب مبلغاً أكبر من الخمسين يناً، لكن لم تخطر بباله أيّ فكرة، وحلّ الصباح بسرعة كبيرة.

عندما بدأت الزنزانة تضيء، كان يريد الهدوء. كان بحاجة إلى ذلك الشعور الذي عرفه أول مرة عندما كان طفلاً يعمل عند الأسرة اليابانية. كان والد الأسرة مهندساً درس في أسكوتلندا. وكان يرتدي بدلة من قماش التويد، ومثل البريطانيين، كان لديه كلب يطعمه طعاماً أفضل بكثير مما يتناوله تشوي سانغ-مين. فقد كان الكلب يأكل أفضل الطعام من على مائدة الأسرة اليابانية، وكان من مهام تشوي سانغ-مين اليومية أن يُخرج الكلب في نزهة. كانت عينا الكلب كبيرتين ورأسه يهتز عندما ينظر إلى تشوي سانغ-مين لكي يلقي له عصا أخرى. وفي أحد الأيام، أخذ تشوي سانغ-مين الكلب معه إلى السوق، وسلك تشوي طريقاً مختصراً عبر شوارع خلفية. لكن إصبع قدم تشوي سانغ-مين علقت بطوبة مكسورة ملقاة على الطريق فالتقطها بغضب شديد. رمقه الكلب بنظرة مليئة بالثقة، وهزّ رأسه ذات اليمين واليسار، بانتظار أن يرمي له تشوي سانغ-مين الطوبة كما لو أنها كرة أو عصا، فرمى تشوي سانغ-مين بالطوبة بكل قوته على رأس الكلب وضربه بها عدة مرات حتى تلوثت يداه بدم الكلب الداكن اللزج وغضاريفه.

ثم باع الكلب النافق إلى جزّار بمبلغ عشرة ينّات وعاد إلى بيت الأسرة اليابانية. كانت تملأ الهواء رائحة حلوة، وأحسّ بنسائم ناعمة باردة تهب على وجهه، وبدا له أن كلّ من يصادفه في الشارع يبتسم له

بمودة، وتملكّه إحساس هائل بالهدوء وبأنه حقق شيئاً. كم كان يتوق إلى ذلك الشعور مرة أخرى، إلى أن يعرف مرة أخرى تلك اللحظة البهيجة من القوّة والحرية الغريبتين اللتين تملكتاه عندما قتل شيئاً حيّاً آخر. لكن لم يكن هناك شيء في زنزانته يجعله يستعيد ذلك الشعور، بل على العكس، فإن الآخرين سيجدون قريباً متعة بموته، كما استمتع هو بقتل كلب المهندس الياباني. عندما ازدادت إنارة زنزانته - وأصبح بوسعه رؤية يديه أولاً بوضوح، ثم فخذيه، ثم قدميه - تملكه شعور مفاجئ بالرعب راح يتجمّع داخل بطنه، لأن تشوي سانغ-مين كان يعرف أنه لن يرى نفسه مرة أخرى عندما يبزغ نور الصباح.

تعارك مع الحرّاس عندما جاؤوا لأخذه إلى منصة المشنقة. رأى صرصوراً فأراد أن يسحقه. لم يكن هناك وقت. بعد أن قيدوا رسغيه معاً خلف ظهره، دُعي طبيب. وبواسطة مترجم، سُئِل تشوي سانغ-مين عمّا إذا كان يرغب في تناول جرعة مخدّر لتهدئ من روعه. أخذ تشوي سانغ-مين يصرخ. كان لا يزال يرى الصرصور. أُعطي أربعة أقراص من الفينوباربيتال لتهدئة أعصابه، لكن جسمه كان في حالة هياج شديد فتقيّأ الحبوب على الفور. وقبل أن يحقنه الطبيب حقنة مورفين، تمكن من سحق الصرصور تحت كعب حذائه. شاعراً بالغثيان وبشيء من الدوار، مشى تلك المسافة القصيرة الممتدة من القاعة بي إلى المشنقة، يسنده جندي من الجانبين. بدأ كلّ شيء يحدث بسرعة كبيرة الآن. عندما دخلوا الفناء، رأى كيسين مملوئين بالرمل بجانب الحائط. ربما كان هناك اثنا عشر رجلاً، ربما أكثر. ستة يقفون على السقالة، وعدد أكبر يقفون في الأسفل. قادوه في ممر منحدر مكسو بطبقة من القشّ حتى أعلى السقالة. دُهش عندما لاحظ أن الحبل أثخن بكثير مما كان يتوقّع. ذكّره بحبل السفينة

الضخم. أحسّ بوحشية بهيجة لعقدة الحبل القويّة الكبيرة. أعرف، تمنّى أن يقول للحبل، أنك مشتاق إليّ. كان تفكيره هادئاً، حتى أنه كان لطيفاً على نحو غامض، لكن وجهه بدأ ينقبض ويرتعش. كان هناك أشخاص آخرون، لكن أحداً منهم لم ينبس بكلمة، ولم يتوقف وجهه عن الارتعاش. كان يوجد إلى جانبه، ربما على بعد خمسة أمتار، فتحة أخرى في الأسفل، يصعد منها حبل مشدود. أدرك في نهايته، بشكل غير مرئي، جسد كينجي موغامي يتدلّى.

سُئِل عمّا إذا كان يرغب في أن يقول شيئاً. رفع عينيه. قُرع جرس في مكان ما. أراد أن يقول إن لديه فكرة. ضحك أحدهم بصوت مكتوم. نظر إلى الأسفل، إلى الجنود والصحفيين. لم تكن لديه أي فكرة. كان يقبض خمسين يناً، ولم تكن الخمسون يناً مبلغاً كبيراً، بل أقلّ بكثير من فكرة. لم تكن الخمسون يناً شيئاً. على الباب الصغير أمامه، رأى خطوط طباشير تؤشّر على ما فهم أنها المكان الذي يجب أن يضع قدميه فوقها. خمسون يناً! أراد أن يقول. كان الجنديان لا يزالان يمسكان بذراعيه من جانبيه. رأى غبار الطباشير كما لو كانت صخوراً بيضاء. أحنى رأسه، وألقيت فوقه قلنسوة. أغمض عينيه ثم فتحهما. بعد شهور مرت ببطء شديد، كان كلّ شيء يحدث بسرعة كبيرة الآن. أحسّ بقماش الخيش، وبدا سواده مخيفاً أكثر من ليل عينيه، فأغمضهما ثانية. كان الصباح حاراً، خانقاً تحت القلنسوة. أحسّ بالأنشوطة تسقط فوق رأسه، وفي الوقت نفسه، أدرك أن كاحليه مقيدتان معاً. أراد أن يطلب منهم أن يتمهلوا، أن ينتظروا. لكن بدفعة قوية، حاسمة، أحسّ بالأنشوطة تطبق بشدّة حول رقبته، وكان الصوت الوحيد الذي انبعث منه مجرد لهاث لا إرادي. وجد صعوبة في التنفس. بدأ وجهه ينتفض بعنف، حتى أنه لم يستطع أن يبصق عليهم، عندما أمل أن يفعل كما فعل

كيم لي عندما أعدموه. حمله الجنديان اللذان كانا يمسكان به من ذراعيه ودفعاه خطوتين إلى الأمام. عرف أنه أصبح يقف الآن على خطوط الطباشير فوق الفتحة في الأسفل. كانت فكرته الأخيرة هي أنه يريد أن يحكّ أنفه عندما أحسّ بالأرض تحته تنشق فجأة، وسمع جلبة الفتحة تخبط في الأسفل. توقّفوا! أراد أن يصرخ. وماذا عن الخمسين ينّاً.

- ٩ -

مضت السنوات. التقى بممرضة تدعى إكوكو كاواباتا، شابّة قُتل والداها خلال قصف مدينة كوبي بالقنابل الحارقة في شهور الحرب الأخيرة. وبعد أن عمّ السلام، مات شقيقها جوعاً. كانت قد أضحت تلك المدينة أيضاً أرض خراب مليئة بالركام والأنقاض. كانت قصّة إكوكو شائعة، لذلك، مثل آخرين كثيرين، آثرت ألّا تتحدّث عنها.

كانت بشرة إكوكو ناعمة وبراقة وتقبع على خدّها الأيمن شامة كبيرة. كان ذلك يثير ناكامورا أكثر مما كان يتوقع. وكانت ابتسامتها كسولة يراها مثيرة ومزعجة في الوقت نفسه. كانت تتفادى إثارة أي خلاف بينهما وكان ذلك يوحي له أيضاً بالغباء وبضعف في شخصيتها.

وبواسطة إكوكو، وجد ناكامورا عملاً في أحد المستشفيات، أولاً، كممرض، ثم كأمين مستودع. كان سعيداً لأنه ترك العمل في السوق السوداء لأنه لم يكن يدرّ عليه ربحاً كبيراً، ولم يكن العمل مأموناً لأنه كان يخشى باستمرار أن يُكتشف أمره ويُسلم إلى الأميركيين. ودأب في عمله الجديد على تحاشي الآخرين - وكان

عدد كبير من الأشخاص الآخرين يحذون حذوه، وبدا لناكامورا أن الجميع يتفهمون لماذا لا يريدون أن يعرفهم الآخرون، وانتقل للإقامة في بيت إكوكو ليظل منعزلاً بقدر الإمكان، والابتعاد عن صحبة البشر. كانت صحتها جيدة، ومدبرة منزل رائعة، وكان يشعر بأنه محظوظ لعثوره على امرأة تمتاز بهذه الصفات.

وبالرغم من حرصه على الانعزال عن الآخرين، بدأ يلعب لعبة «غو» مع طبيب في المستشفى يدعى كاميا ساتو. وبعد عدّة سنوات، تحوّلت هذه العادة إلى مشاعر ثقة متبادلة، ثم تحوّلت هذه الثقة إلى صداقة هادئة. وكان ساتو الذي جاء من أويتا يكرس نفسه لمرضاه، وكان رجلاً هادئاً متواضعاً، وبخلاف أطباء آخرين، لم يكن يرتدي سترة بيضاء. وكان ساتو يتفوق على ناكامورا في لعبة «غو». وفي مساء أحد الأيام، سأل الجندي السابق الجرّاح عن سرّ تفوقه في هذه اللعبة.

هكذا يا سيد كيمورا، قال ساتو. يوجد نمط وهيكلية في كلّ شيء، لكننا لا نراهما. وتكمن مهمتنا في اكتشاف هذا النمط والهيكلية، والعمل كجزء منهما.

أدرك ساتو أن الجندي القديم لم يفهم جوابه جيداً. فدفع أصبعين برقة إلى أحد جانبي بطن ناكامورا، وقال:

إذا أردتُ أن أستأصل زائدة دودية، فإني أبدأ من هنا حيث توجد أفصل العضلات من حيث نمطها وهيكليتها كما درستها في كيشو، وعندها أستطيع استئصال الزائدة الدودية المصابة بالتهاب بأدنى قدر من الخطورة والتوتر بالنسبة للمريض.

قادهما ذلك إلى التحدّث عن كيشو، إحدى أعظم الجامعات اليابانية لتخريج الأطباء. وتذكّر ناكامورا أنه كان قد قرأ مقالة في إحدى الصحف عن محاكمة بعض الأطباء وسجنهم لقيامهم، حسب

زعم الأميركيين، بتشريح طيّارين أميركيين وهم على قيد الحياة بدون تخدير. كانت هذه التقارير والاتهامات قد أثارت آنذاك غضب ناكامورا الذي أثار هذا الموضوع الآن لمناقشته بشيء من الغضب، وقال بحدة:

إنها أكاذيب أميركية.

رفع ساتو عينيه عن طاولة لعبة «غو»، ثمّ أنزلهما، ووضع قطعة حجر سوداء.

لقد كنتُ هناك يا سيد كيمورا، قال ساتو.

حدّق ناكامورا بساتو، إلى أن رفع الجرّاح المتواضع عينيه، وعاد يحدّق فيه بشدة غريبة.

كنتُ طبيباً مقيماً هناك في نهاية الحرب، أدرسُ على يد البروفسور فوكوجوري يشياما. وفي أحد الأيام، طلب مني أن أجلب طيّاراً أميركياً تحت الحراسة من أحد أقسام المستشفى. كان الطيّار طويل القامة، له أنف صغير وضيّق، وشعر أحمر مجعّد. كان لديه جرح في المكان الذي أطلق عليه جندي النار وأسره، لكنّه كان يثق بي. أحضرت له النقالة وطلبت منه أن يستلقي عليها. كان البروفسور قد طلب مني ألّا أنقله إلى غرفة العمليات بل إلى غرفة في قسم التشريح.

بُهت ناكامورا بالقصة.

وهناك؟

وهناك وثق بي مرة أخرى. أشرت له بأن يصعد إلى طاولة التشريح. كان في الغرفة عدد من الأطباء والممرضات والأطباء المقيمين، بالإضافة إلى عدد من ضبّاط الجيش. لم يكن البروفسور يشياما قد وصل بعد. نهض الأميركي من النقالة وتمدد على طاولة

التشريح وغمزني. إنك تعرف كيف يغمز الأميركيون. غمز وابتسم، كما لو كنت أمازحه.

وأضاف ناكامورا، تم تخديره، وأجرى يشياما عملية لجرحه.

أخذ ساتو قطعة «غو» أخرى ووضعها في راحة يده، وبإبهامه راح يفرك سطحها الصقيل التي يشبه جسمها الكروي عدسة، كأنه كان يفرك عيناً سوداء عمياء.

لا، قال ساتو، فقد قيّد ممرضان ذراعيه وساقيه وجذعه ورأسه إلى الطاولة ذات الأحزمة الجلدية. وأثناء ذلك جاء البروفسور يشياما وخاطب الآخرين وشرح كيف أن تشريح الأشياء قبل موتها يساعدنا في الحصول على بيانات علمية هامة تساعد جنودنا على خوض معاركهم العظيمة القادمة. وقال إن هذا العمل ليس سهلاً، لكن جميع الإنجازات العلمية العظيمة تتطلّب التضحية والالتزام، وبهذه الطريقة، فإنهم يتمكنون، كأطباء وعلماء، من إثبات بأنهم خدم مخلصون للإمبراطور.

نظر ناكامورا إلى لوحة لعبة «غو»، لكن أفكاره لم تعد تركّز على اللعبة.

أتذكّر أنني كنت أشعر بالفخر لأنني كنت هناك، قال ساتو.

بدا أن كلّ ما قاله ساتو مفهوماً لناكامرا - فقد حددت هذه الحجّة التي صيغت بطريقة مختلفة وفق الظروف المتفاوتة، حياته كلها، ومع أنه لم يفكّر بذلك، فقد أكدت الأنماط والإيقاعات المألوفة للقصّة التي حكاها ساتو لناكامورا بأن البروفسور يشياما، حتى لو لم يكن يستخدم مخدّراً، فقد كان يتصرّف بصورة صحيحة وأخلاقية.

وبالرغم من ذلك، لم يقاوم الأميركي، واصل ساتو كلامه، لم يكن يحلم بما كان سيحدث له. وقبل أن يبدأ البروفسور يشياما عمله، انحنينا جميعاً نحو المريض، كما لو كنا نجري عملية جراحية

عادية. لعل ذلك أشعره بالطمأنينة. في البداية، شقّ البروفسور يشياما بطنه، ثم اقتطع جزءاً من كبده، ثمّ خاط الجرح، وبعدها استأصل المرارة وجزءاً من معدته. وأصبح الأميركي الذي كان يبدو في البداية شاباً ذكياً مفعماً بالحيوية، يبدو عجوزاً واهناً الآن. كان فمه مكمماً، ولم يعد قادراً على الصياح. وأخيراً، استأصل البروفسور يشياما قلبه. كان لا يزال يخفق. وعندما وضعه في الميزان، اهتزت كفتا الميزان.

كانت قصّة ساتو قد جرت على ناكامورا مثل نهر يفيض فوق صخرة ناتئة. بدأت تتقاطر حوله، ثمّ غمرته، وغطّته أخيراً. لكن شيئاً فيه لم يتحرّك. وبينما كانت تلك القصة تعني أن كلّ ما قاله الأميركيون كان صحيحاً، وأنه كان، هو ناكامورا، مخطئاً، وبدت أسباب ذلك مفهومة لناكامورا، شعر أنه لا يوجد شيء مهم في هذه القصّة المتعلقة برجل يشقون جسده وهو لا يزال حياً وبكامل وعيه.

كان ذلك يبدو أمراً غريباً، لكني لم أفكّر فيه كثيراً في البداية، تابع ساتو، إنها الحرب، وفي الأيام القليلة التالية، أُجريت عمليات أخرى على طيّارين آخرين - فقد شُقّ منتصف صدر أحدهم، وقُطعت جذور العصب الوجهية لآخر. وفي آخر عمليه حضرتها، ثقبوا أربعة ثقوب في جمجمة جندي، ثم أدخلوا سكيناً داخل الدماغ لرؤية ماذا يمكن أن يحدث.

كانا يلعبان في حديقة صغيرة مخصصة للعاملين في المستشفى. كان الفصل ربيعاً، وعندما توقف ساتو، سمع ناكامورا أصوات طيور تغرد في وقت مبكّر من المساء. كانت تنتصب شجرة قيقب حوّلت إشعاعات الشمس الطويلة الأخيرة إلى خيوط وامضة من الظلام والضوء.

بعد الحرب، شنق البروفسور يشياما نفسه في السجن، قال ساتو. وألقوا القبض على عدد آخر من الأطباء، وحكموا عليهم بالموت، لكنهم خفّفوا الأحكام الصادرة بحقهم، ثم أطلقوا سراحهم جميعاً. خيّل إليّ لفترة أنني قد أُحاكم أيضاً، لكن زمناً طويلاً قد مضى على ذلك. لقد أراد الأميركيون نسيان ذلك، وكذلك نحن.

دفع ساتو الصحيفة التي كان يقرأها إلى ناكامورا.

انظر إلى هذه، قال.

أشار إلى مقالة صغيرة مصحوبة بصورة، تتحدث عن العمل الخيري الذي يقوم به السيد ريويتشي نيتو، مؤسس البنك الياباني للدم، وهي شركة ناجحة تقوم بشراء الدم وبيعه.

لديّ زملاء عملوا مع السيد نيتو في مانتشوكوو. كان السيد نيتو واحداً من كبار علمائنا في هذه الأعمال، أي تشريح الكائنات الحية، وأشياء عديدة أخرى. اختبار أسلحة بيولوجية على الأسرى. الجمرة الخبيثة وكذلك الطاعون الدبلي، كما أخبروني. فضلاً عن اختبار قاذفات اللهب والقنابل الحارقة على الأسرى. كانت عملية كبيرة بدعم من أعلى وأهم المستويات، وها هو السيد نيتو يشغل مكانة مرموقة الآن. لماذا؟ لأن حكومتنا والأميركيين لا يريدون نبش الماضي. إن الأميركيين يبدون اهتماماً كبيراً بأعمالنا في مجال الحرب البيولوجية، لأنها تساعدهم في الاستعداد للحرب ضد السوفييت. كنا قد اختبرنا هذه الأسلحة على الصينيين. وهم يريدون استخدامها على الكوريين. أقصد، أنك ستُشنق إذا كنت عاثر الحظ أو غير مهم أو إن كنت كورياً، لكن الأميركيين يريدون عقد صفقات تجارية معهم الآن.

نحن أيضاً ضحايا الحرب، قال ناكامورا.

لم يجب ساتو. أحسّ ناكامورا في أعماق كيانه بأنه، شأن

الشعب الياباني، رجل شريف طيب أُتهم زوراً. ضحيّة، نعم -هو، إكوكو، ورفاقه الذين أُعدموا، اليابان نفسها. هذا الإحساس أوضح له كلّ ما حدث له، بل أضفى عظمة معينة على حياته البائسة من الأسرار والمراوغات، والهويّات المزيفة وتباعد المسافة عن أشخاص آخرين. لكنه كان مأخوذاً بقصّة ساتو. وبدا أن أمل الاعتاق الإلهي بعيد.

هل تعرف ذلك الصوت الغريب الذي يصدر عند اقتراب نهاية زلزال، سأله ساتو. في الضوء الخافت، بدأ وجهه المرهق يخبو. وبعد أن تنتهي الاهتزازات والارتجاجات العنيفة، تابع ساتو، وكلّ تلك الأشياء - اللوحات المعلّقة، المرايا، النوافذ في إطاراتها، المفاتيح - كلّ الأشياء ترتجف وتصدر هذا الصوت الغريب؟ وفي الخارج، قد يكون كلّ شيء تعرفه قد تلاشى واختفى إلى الأبد؟

طبعاً، قال ناكامرا.

كما لو أن العالم يُحدث صوت الوميض هذا؟

نعم، قال ناكامورا.

عندما اهتز حوض الميزان في غرفة التشريح الذي وضع فيه قلب الأميركي، بدا أن العالم يرتعش.

ارتسمت على وجه ساتو ابتسامة غريبة.

أتعرف لماذا وثق بي؟

البروفسور يشياما؟

لا، الطيّار الأميركي.

لا.

لأنه ظنّ أن معطفي الأبيض يعني أنني سأساعده.

بعد ذلك، لم يتحدّث ناكامورا وساتو عن ماضي ساتو، لكن ثمة شيء في قصّته بدأ يشغل بال ناكامورا. وفي الأشهر التالية، قلّ لعبهم بلعبة «غو»، وبدأ ناكامورا يجد الجرّاح - الذي كان يراه ذلك الرفيق اللطيف - غبياً ومضجراً، وأصبح اللعب معه عبئاً لم يعد يتحمّله ولم يعد يجد متعة فيه. ولم يتمكن من تفسير شعوره هذا الذي بدأ يصبح متبادلاً بينهما. ولم يعد ساتو يأتي إلى مكتب المستودع ليدخن مع ناكامورا، ووجد ناكامورا نفسه يتحاشى الأماكن التي يتواجد فيها ساتو في المستشفى. وفي النهاية، لم يعودا يلعبان «غو» مطلقاً.

ومع ازدياد ابتعاده عن ساتو، بدأ ناكامورا يزداد قرباً من أشخاص آخرين، ووجد في داخله القوّة ليكون أكثر صدقاً كإنسان، وبدأ يدرك أن هناك الكثير من الرجال مثله - رجال فخورون طيبون أدّوا واجبهم وصمموا على ألّا يتملكهم الشعور بالعار - ويرون أنفسهم أيضاً بأنهم ضحايا الحرب. وأدرك بأن الفترة التي كان أحد يقول إنه كان كذلك، ولا يتذكّر إلّا الأمور التي يمكن الحديث عنها، قد انتهت الآن. وعندما أُطلق سراح آخر مجموعة من مجرمي الحرب المسجونين، تخلّى ناكامورا عن تخفيه وقرر أن يعيش حياة مشرّفة وأن يعترف بحقيقته، واستعاد اسمه الحقيقي، وفي السنة التالية، تزوّج إكوكو.

ثم أنجبا طفلتين تنعمان بالصحة، وعندما كبرتا، أحبتا والدهما اللطيف كثيراً. وكانت ابنتهما الصغرى فيوكو قد نجت من الموت عندما صدمتها حافلة مدرسية وهي في السادسة من عمرها. وكان كلّ ما تتذكره فيوكو عن تلك الفترة هو أن والدها كان يجلس على طرف

سريرها ليل نهار، مطرق الرأس، وكان يبدو لابنتيه أنه ينتمي إلى عالم آخر، فلم يكن يزرّر أزرار قمصانه بشكل صحي، وكان ينسى دائماً أن يضع حزاماً، وكان شديد الحرص على ألّا يؤذي العناكب التي يمسك بها، بل كان يضعها برفق خارج البيت، ولم يقتل بعوضة واحدة.

لم يشعر أحد غيره بغرابة تحوّله إلى فكرة أنه رجل طيب. هل هو نفاق؟ هل هو تكفير عن الذنب؟ إثم؟ عار؟ هل هو لا وعي متعمد؟ هل هي كذبة أم أنها الحقيقة؟ لقد رأى أشخاصاً كثيرين يموتون - ولعله كان يشعر أحياناً بافتخار وحشي وجد أنه يستحيل نكرانه ولم يكن متناقضاً بأي شكل من الأشكال. كان جزءاً من بعض تلك الوفيّات، لكنّه لم يكن يتحمل أي مسؤولية وقد أضعف الزمن ذاكرته عن الجرائم التي كان قد ارتكبها، واستحضرت ذاكرته بدلاً عنها قصصاً عن الطيبة وعن الظروف المخفّفة. ومع مرور السنين، وجد أن لا شيء يشغل اهتمامه سوى الأشياء الصغيرة.

وبدافع الفضول أكثر منه الشعور بالتفاؤل، تقدّم ناكامورا بطلب لشغل وظيفة في البنك الياباني للدم في ربيع عام ١٩٥٩. ولدهشته، فقد دُعي لإجراء مقابلة، فاستقلّ القطار إلى أوساكا في وقت مبكر من صباح يوم شتوي، وانتظر في مقر البنك الياباني للدم، حتى فترة الغداء. وبعد فترة انتظار طويلة لم يُدع إلى غرفة الاجتماعات كما كان يتوقّع، بل دُعي إلى مكتب ضخم لأحد المديرين التنفيذين، وطُلب منه أن يجلس، وطُلب منه مرة أخرى أن ينتظر. لكن أحداً لم يأت. وبعد ربع ساعة، فُتح الباب من وراءه وسمع صوتاً يطلب منه ألّا يلتفت إلى الوراء وأن يبقى جالساً في مكانه. ثم أحسّ بأصابع ترسم هلالاً على مؤخرة رقبته. ووراءه بدأ صوت رجل يتلو:

في عرض البحر، الجثث تطوف فوق الماء،
وعبر الجبال، الجثث تتمدد فوق العشب.

بالطبع، كان ناكامورا يعرف القصيدة «أومي يوكابا»، القديمة التي انتشرت وأصبحت شعبية أثناء الحرب إلى حدّ أن كلّ إعلان أو نبأ عن معركة كانت تبثه الإذاعة كان يبدأ دائماً - بالافتخار بأن الجنود اليابانيين يواجهون الموت بشرف ولا يقبلون عار الاستسلام ومذلته. ثم تلا ناكامورا الشطرين الأخيرين من القصيدة كما لو كانا كلمة السر:

نموت في سبيل إمبراطورنا،
لا ننظر إلى الوراء أبداً.

أحسّ باليد على رقبته مرة أخرى.

يا لهذه الرقبة الجيّدة، إنها رقبة عظيمة، قال الرجل وراءه.

التفت ناكامورا ونظر إلى الأعلى. لقد ابيّض شعره وأصبح مدبباً، وازداد جسده ضخامة، وظل وجهه، مع أنه تهدل قليلاً، مبتسماً يشبه زعنفة سمكة قرش.

يجب أن أرى رقبتك. يجب أن أتأكّد من أنك أنت الرجل الذي كنت أظن أنه هو. كما ترى، فأنا لا أنسى أبداً.

عندما التقط نظرة ناكوامرا المتسائلة، أوضح كوتا.

يشعر بعض رفاق مانتشوكوو القديمين بأنّني أستطيع أن أقوم بعمل جيد هنا.

مرت مقابلة ناكامورا برتابة، كما لو أن كلّ شيء قد رتب منذ زمن بعيد. وعندما همّ بالمغادرة، هنّئه كوتا على تسلمه منصبه

الجديد. وعندما عاد إلى البيت في ذلك المساء، كاد ناكامورا يبكي عندما حكى لإكوكو ما حدث.

ما الشيء الذي يمكن أن يجعلك مستعداً للطف كهذا، سألته إكوكو؟

بعد عدة عقود، توجّه صحفي وطني ياباني شاب يدعى تارو أوتومو، كان يريد تصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة التي برزت عن دور اليابان في حرب منطقة شرق آسيا الكبرى، لإجراء مقابلة مع الجندي البطل، شيرو كوتا، الذي بلغ من العمر مئة وخمس سنين. وكان الصحفي قد قرأ بعض المقالات التي نشرها كوتا في بعض أعداد مجلة زن في أواخر الخمسينات من القرن العشرين والتي تتحدث عن القاعدة الروحية العميقة لليابانيين، *البوشيدو*. جادل كوتا بأنها الوسيلة التي يستطيع فيها اليابانيون -بإلهام من زن - إدراك أنه لا يوجد في نهاية الأمر فرق بين الحياة والموت الذي جعلهم تلك القوّة العسكرية الهائلة، بالرغم من مواطن ضعفهم المادية. لكن عندما ذهب تارو أوتومو برفقة عدد من المسؤولين وطاقم تلفزيوني محليّ لتهنئة كوتا بعيد ميلاده المئة وخمس سنين، لم يجدوا أحداً في البيت.

كان تارو أوتومو شاباً متحمّساً، وأصرّ على إجراء هذا اللقاء، فتوجه لزيارة ريوكو، ابنة كوتا العجوز، ليؤكد لها نواياه الطيبة، آملاً بأن يتمكن بواسطتها من الولوج إلى حياة المحارب العجوز القديم. لكن ريوكو خذلت تارو أوتومو وقالت له إن والدها لا يكلّم غرباء، وأنه لا يتحدث بشكل خاص عن الحرب وعن خدمته التي يمكن تحريفها وتشويهها بسهولة، وأخبرته أن والدها يحاول في سنوات شيخوخته المتقدمة أن يصبح بوذا حيّاً.

رأى أوتومو بوضوح أن ريوكو لم تكن تبدي اهتماماً بوالدها. فقرّر تجاهلها وبدأ يعدّ لإقامة احتفال بمناسبة عيد ميلاد كوتا المئة وخمس سنين مع بعض الأصدقاء الوطنيين، وقال إنه سيكون احتفالاً محترماً ومبجلاً لتكريم المحاربين القدماء الذين ناضلوا في الحرب، فضلاً عن نشر القاعدة الروحية التي أسيء فهمها في العالم بشأن الحروب التي خاضتها اليابان في القرن العشرين. لكن أوتومو لم يكن يجد أحداً في البيت كلما ذهب لزيارة كوتا.

بدأ تصرف ريوكو الغريب ورفض كوتا فتح باب بيته يثير قلق تارو أوتومو. وفي إحدى الليالي خلال جلسة شراب مع زميله القديم في المدرسة تاكيشي هاشيموتو الذي أصبح الآن ضابط الشرطة برتبة ملازم، حكى تاروا أشياء كثيرة.

ارتاب هاشيموتو في الأمر. وعندما أخذ يدقق في سجلات الرعاية الاجتماعية، وجد أنه يوجد توكيل عام لريوكو لإدارة شؤون والدها، ولاحظ أن مبلغاً قدره مليوني ينّ قد سُحب من حساب كوتا منذ شهرين. وتمكن هاشيموتو من الحصول على إذن بتفتيش شقّة كوتا الواقعة في الشطر المفضل من المدينة الذي كانت المباني فيه عصرية ذات يوم، وأصبحت في حالة يرثى لها في السنوات الأخيرة. وكانت هناك أقفاص مثبّتة على الجدران الخارجية في الطابق الأول لتتساقط عليها قطع الطين المتساقطة من الأعلى. وعندما لم تُفتح أبواب المصعد، اضطر هاشيموتو ورجاله الثلاثة إلى صعود الدرج إلى الطابق السابع.

في شقّة مليئة برفوف كتب الشعر، وجد هاشيموتو جثة محنّطة لرجل عجوز ممدد على السرير. لم تكن هناك أي رائحة كريهة. إنه ميت منذ سنوات، بل ربما منذ عقود، قال هاشيموتو. مدّ تاكيشي هاشيموتو يده اليسرى ورفع غطاء الفراش الوردي ببطء شديد. كانت

سوائل الجثة المتفسخة قد خلّفت بقعة داكنة سميكة على الشراشف. وفي وسط هذه الهالة، كان شيرو كوتا ممدداً بجلده المشدود مثل رقّ كتابة فوق عظامه.

وعلى المنضدة بجانب سرير البوذا الحيّ، الميت الآن، كانت تقبع نسخة قديمة من مجلّة رحلة باشو العظيمة «الدرب الضيّق إلى مجاهل الشمال». فتحها هاشيموتو على صفحة معلّمة بورقة عشب جافّة.

وقرأ: إن الأيام والشهور هي مسافرو الخلود، وكذلك السنوات التي تمرّ.

- ١١ -

بما أنه كان الضابط الأعلى رتبة منه، فقد كان من المفروض أن تكون هذه مهمة جون مينادو. لكن جون مينادو لم يرغب في القيام بهذه المهمة، ولم تكن لديه رغبة في القيام بأيّ شيء، سواء عندما كان على الخطّ، أم عندما عاد إلى أستراليا. فقد تلقى دوريغو إيفانز رسالة من بونوكس بيكر يقول له فيها بأنه سمع بأنه لم يذهب أحد لزيارة أرملة جاك رينبو، وأنه توجد لدى جون مينادو أوسمة جاك التي يجب أن يعطيها لها، لكن يبدو أنه لم يفعل ذلك. وبعد بضعة أشهر من عودة دوريغو إيفانز من شهر العسل، وبعد أن اتضحت له حقيقة زواجه، فإنه لم يكن الزواج الذي كان يطمح إليه، استقل طائرة تابعة للخطوط الجوية الأسترالية الوطنية إلى هوبارت حيث التقى بجون مينادو في حانة قريبة من مطعم نيكيتاريس للسمك.

عندما كان في الغابة، اكتشف جون مينادو أنه لا يصلح لأن يكون قائداً على الإطلاق، كما ثبت للبعض، مثل الأخ الكبير، أن

جون ميناو لا يصلح لأن يكون قائداً. لكن جون ميناو لم يكن يرى ذلك، وهو أمر غريب - لأن والد جون ميناو كان يدأب على القول إنه قائد، وأن القيادة لا ترتبط إلا بقوة الشخصية. وفي مدرسة هتشينس، قالوا له إنه قائد لأنه لا يُقبل إلا القادة في هذه المدرسة. وقالوا له إن القيادة هي قَدَرَهُ الطبيعي لأنها القَدَر الطبيعي لجميع الذين ولدوا قادة بالفطرة، وهم جميع طلاب مدرسة هتشينس. وهكذا مضى العالم يقول له ذلك، وهكذا ذهب جون ميناو - بسبب دراسته وارتباطاته، وشخصيته التي لا يمكن تجاهلها، وقَدَره الحاسم -إلى كلية الضابط مباشرة. وآمن جون ميناو بأن كلّ ذلك صحيح وواضح بجلاء، وبأنه قائد حتى وصل إلى الخطّ. ثمّ بدأ يكتشف أن اهتمامه الأساسي لا ينصب على مساعدة الآخرين، بل على إنقاذ حياته هو، وأن والده كان محقّاً بشأن الشخصية، لكنه كان مخطئاً بشأن ابنه.

وأدرك جون ميناو ما هي حقيقة السلطة. وفي ذلك اليوم الذي جلس فيه في تلك الحانة القريبة من مطعم نيكيتاريس للسمك، يتناول رطلاً من سمك الكوتا، بكامل وسامته، وحياته التي لم تشبها شائبة، أدرك جون ميناو أنه لا يملك أياً منها. وتساءل ما الذي يجعلها توجد في رجل مثل دوريغو إيفانز - زير نساء حقير يكاد يكون قبيحاً، منعزل يتوارى بين الحشود، رجل لا يهتم بأيّ نوع من السلطة سوى السلطة التي قادها بإهانة نعمة الرب - الرجل الذي جعل جون ميناو يبدو تافهاً لا يحقق نتائج عظيمة.

أنا آسف، قال جون ميناو لدوريغو إيفانز، لقد ذهبت لرؤية السيدة ليز ويتل، ولم أستطع أن أزورها مرة أخرى. هل تتذكّر لِس؟

نعم أتذكّره. كان روبرت تايلور الرائع في جسر *واترلو*. كان نقيض جاك رينبو من بين جميع الأشخاص، أليس كذلك؟

لا أتذكّر. هل سمعت عن موته؟

لا.

لقد انتهى به الأمر في أحد المعسكرات في اليابان. عامل سخرة يعمل لدى اليابانيين في منجم فحم تحت البحر. كانوا يتضوّرون جوعاً. وعندما انتهت الحرب، أسقط الأميركيون بالمظلات إمدادات غذائية إلى معسكرات أسرى الحرب هناك. لقد أسقط المحررون الأميركيون أربعة وأربعين برميلاً من الأغذية. راحت تهبط وهي ترفرف - مثل الهندباء في الصيف، قال أحدهم. كان الجميع متحمسين للغاية، ثمّ بدأت البراميل الأربعة والأربعون تهبط، تسقط فوق الأسطح وتحطم كل شيء تسقط فوقه. وسقط أربعة وأربعون برميلاً مليئاً بألواح شوكولاتة هيرشي فوق لِس، وسحقته حتى الموت.

أعطى دوريغو إيفانز علبة أحذية فيها بضعة أشرطة وأوسمة، وأُلصقت على الغطاء ورقة عليها اسم وعنوان السيدة جاك رينبو. أي نوع من الموت ذاك؟ قال جون مينادو، عيناه مثبتتان على علبة الأحذية. رجل يتضور جوعاً قتله الطعام. بجانبنا؟ بألواح شوكولاتة هيرشي. بحق الله يا دوريغو، ألواح شوكولاتة هيرشي اللعينة. ماذا تقول؟

ماذا قلت؟

لنضع الأمور في نصابها الصحيح. إنها أكاذيب. كانت امرأة وقورة جداً. قصيرة ومكتنزة، لكنها وقورة. راحت تنصت إليّ وأنا أكذب. صمتت طويلاً، ثمّ قالت إني لا أعرفه على الإطلاق، كما تعرف. هذا هو الشيء المحزن. كنت أرغب في أن أعرفه.

كانت السيدة جاك رينبو تعيش قرب بلدة نيكا التي تبعد بضعة أميال عن القرية الصغيرة القابعة في الغابة في منتصف الطريق المتجه إلى الجبل المطل على هوبارت. وعندما سمع النادل بالصدفة دوريغو

إيفانز يسأل عن اتجاه الطريق، عرّفه على رجل ضئيل الجسم يقود شاحنة تابعة لمصنع البيرة «الشلال»، ستوجه إلى تلك المنطقة ليسلّم شحنة، وقال له إنه يستطيع أن يوصل دوريغو ويعيده معه عندما ينهي عمله بعد ساعتين.

بعد أن غادرا هوبارت بقليل، بدأ الثلج يهطل. كان للشاحنة ماسحة زجاج أمامية واحدة ترتعش، لا تمسح إلا مساحة صغيرة لتكشف أمامهما عالماً شتوياً تنحني فيه نباتات السرخس وأشجار اليوكالبتوس المثقلة بالثلج على الطريق. واختفى ما تبقى من الطريق في اللون الأبيض، ووجد دوريغو إيفانز أن أفكاره تلاحق ذلك. مدّ يداً من النافذة ودفع بأصابعه في الهواء محاولاً أن يجد وسيلة أخرى لا يعرفها يتمكن من خلالها إيقاف نزيف الشريان الفخذي. كانت أصابعه تدفع وتتحرك في الفراغ، لكن لم يكن هناك شيء في ذلك البرد والبياض.

برد قارس، إيه؟ قال سائق الشاحنة، عندما لاحظ أن دوريغو يحرّك أصابعه، ثم أضاف، لهذا السبب لديّ هذا، ورفع من على المقود يداً مكسوة بقفاز صوفي. إنه جيد، وإلا متُّ من شدة البرد. سكوت من القطب الجنوبي اللعين، هذا هو أنا يا صاحبي.

شقّا طريقهما صعوداً نحو الجبل عبر نباتات السرخس، وتجاوزا نيكا. عندما بدآ يهبطان من جانب سلسلة الجبل البعيدة، أنزل سائق الشاحنة دوريغو إيفانز عند مدخل مزرعة ينتصب أمامها عمودان تكسوهما أشنّة خضراء، وبوابة مكسورة، تمتد فوق درب مكسو بالثلج. بدت المزرعة متداعية، وجعل البياض والصمت المطبق والثلج الهاطل المكان يبدو مهجوراً. كان السياج ونباتات الجنجل منحنية وقد سقطت على الدرب في بعض الأماكن. وبدت الحظائر متهالكة، ثم ظهر بيت مشيّد من ألواح عمودية مائلة قليلاً.

وجدها في حظيرة صغيرة إسمنتية تخضّ الزبدة. كانت ترتدي تنورة قطنية موشاة برسوم نبات الخبيز الحمراء، وبلوزة صوفية قديمة مصنوعة في البيت، خيوطها منسلة عند أحد مرفقيها، وكانت ساقاها العاريتين غير حليقتين تبدو عليهما كدمات. وبدا له أن وجهها يحمل أملاً محطماً، وكان خطّ فمها يميل ويتلاشى عند طرفيه ليتحول إلى خطوط رفيعة.

عرّفها على اسمه وعلى رقم كتيبته، وقبل أن يقول أيّ شيء آخر، قادته من مطبخها الذي يدفئه موقد في وسط المطبخ، إلى صالة استقبال باردة ومعتمة. خاطبته بعبارة سيد. وعندما قال لها ليس من الضروري أن تخاطبه بهذه العبارة، قالت له سيد إيفانز. جلس على أريكة رطبة محشّوة بإفراط.

عبر القاعة ومن خلال باب مفتوح رأى لوحاً مزيناً بالخرز مطلياً بلون أبيض يرتفع حتى السقف، وفي المقدمة كان ينتصب سرير حديدي. تمنّى أن تكون قد عرفت شيئاً من السعادة عليه مع جاك. تخيّلهما معاً في مثل هذه الليلة الشتوية، كما سيحدث بعد بضع ساعات، دافئين معاً، ربما يحدقان في النار الموقدة في غرفة النوم، ثم تذوي إلى جمرات، وجاك يدخن سيجارته ماركة بول مول.

- ١٢ -

قالت: عندنا خمسة أطفال. صبيّان وثلاث بنات. غويني الصغيرة تشبه والدها شبهاً تاماً. وقد ولد تيري، الابن الأصغر، بعد أن غادر جاك، ولم ير والده قط.

ساد صمت لفترة طويلة. تعلّم دوريغو إيفانز من عمله كجراح أن ينتظر الآخرين حتى انتهاء ما يرغبون في قوله.

لم أستطع تحمّل الوحدة، قالت أخيراً. فأنا أخاف كثيراً عندما أكون وحدي. عندما ذهب إلى الحرب، كنت أنام مع الأطفال. ابتسمت عندما تذكرت ذلك. ستّة أشخاص في السرير. أليس الأمر مضحكاً؟

صفرّ إبريق الشاي فاختفت في المطبخ. أسف لأنه تركها تأخذ معطفه العسكري السميك. عادت تحمل الشاي في إبريق شاي مكسور من المينا الأخضر، وبقايا قطعة حلوى كبيرة مغطاة بطبقة من الكريما.

قالت: السكون يطبق على المكان كله بسبب الثلج. مثل بطانية كبيرة، لذلك فإني أحبّ أن يتواجد الأطفال في البيت. لقد ذهب الأطفال الصغار لقضاء اليوم عند أخت جاك، وذهب الأطفال الكبار إلى المدرسة. صمتت. كان جاك يحبّ الثلج، لكن يا إلهي، إني أحس به أحياناً.

قدمت له قطعة من الحلوى لكنه اعتذر. وضعت الصحن على منضدة جانبية، وراحت تزيح الفتات عند حافة الصحن إلى الداخل بسبابتها لبضع لحظات، ثمّ، من دون أن ترفع عينيها، قالت:

هل تؤمن بالحبّ يا سيد إيفانز؟

كان سؤالاً غير متوقّع. فهم أنه ليس عليه أن يجيب.

لأنني أظن إنك أنت من يصنعه. إنه لا يُعطى لك. أنت من يصنعه.

سكتت، علها كانت تنتظر سماع تعليق أو رأي منه، لكن عندما لم يذكر دوريغو إيفانز شيئاً، بدا أنها تشجعت وواصلت كلامها:

هذا رأيي يا سيد إيفانز.

دوريغو، أرجوكِ.

دوريغو. هذا ما أؤمن به يا دوريغو. كان يخيّل إليّ أنني سأستطيع أن نصنعه، أنا وجاك.

جلست وسألته إن كان لا يمانع في أن تدخن سيجارة، وقالت إنها لم تكن تفعل ذلك بحضور جاك وتنفث الدخان مثل قطار بخاري، أما الآن، فإن عدم وجوده هنا قد ساعد على أن تفعل ذلك.

أتريد سيجارة بول مول؟ قالت، وأخرجت سيجارة من باكيت سجائر أحمر براق. جاك لم يكن يدخن سجائر وودباينز. شيء فاخر قليلاً للتعويض عن كلّ تلك اللعنة. كان جاك يحب دائماً الاستماع إلى كوارترفلاش. كوارترفلاش وسكير مع امرأة مقيتة، كان يقول، أي أحمق ليس سعيداً؟

أخذت نَفَساً، ثم وضعت السيجارة في منفضة السجائر وحدّقت فيه. ودون أن ترفع عينيها عنه سألته، لكن هل تؤمن بالحبّ يا سيد إيفانز؟

سحقت طرف السيجارة في المنفضة.

هل تؤمن بالحبّ؟

في الخارج، قال لنفسه، وراء هذا الجبل والثلوج التي تكسوه، يوجد عالم فيه ملايين لا تحصى من البشر. يستطيع أن يراهم في مدنهم، في الحرّ والضوء. ويستطيع أن يرى هذا البيت، نائياً ومعزولاً وبعيداً جداً. شعر بأنه لا بد أنه كان يبدو لها ولجاك، ذات يوم، حتى لفترة قصيرة، بأنهما كانا في مركز الكون. وللحظة، وجد نفسه في فندق ملك كورنوال مع أيمي في الغرفة التي ظنّا أنها كانت غرفتهما - وتذكر البحر والشمس والظلال، والطلاء الأبيض المتقشّر من الأبواب الزجاجية الكبيرة ذات القفل الصدئ، وأنسام بعد الظهر، وصوت الموجات المتكسرة في الليل - وتذكّر كيف أن كلّ ذلك كان يبدو أيضاً، ذات يوم، مركز الكون.

قالت: أنا لا أؤمن. لا، لا أؤمن. إنها كلمة صغيرة، ألا تظن ذلك يا سيد إيفانز؟ عندي صديقة في فيرن تعطي دروساً في البيانو. إنها تعشق الموسيقى. أما أنا فصمّاء تجاه الأنغام. لكنها قالت لي ذات يوم إنه توجد في كلّ غرفة نغمة، وعليك أن تجدينها. بدأت تدندن. وفجأة عادت إلينا إحدى النغمات، ارتدّت إلينا من الجدران، وصعدت من الأرضية، وملأت المكان بهذه الدندنة الرائعة. هذا الصوت الجميل. كأنك رميت ثمرة خوخ وعاد إليك بستان. لن تصدق ذلك يا سيد إيفانز. هذان الشيئان المختلفان تماماً، النغمة والغرفة، يجد أحدهما الآخر. بدا ذلك. . . صحيحاً. هل أنا سخيفة؟ أتظن هذا ما نعنيه بالحبّ، يا سيد إيفانز؟ النغمة التي تعود إليك؟ إنها تجدك حتى لو كنت لا تريد أنت أن توجد؟ أن تجد ذات يوم أحداً، وكلّ ما تشكّله يعود إليك بطريقة غريبة، يدندن؟ هذا مناسب. هذا جميل. إني لا أجيد التعبير عن نفسي، أليس كذلك؟ قالت. إني لا أجيد استخدام الكلمات. لكننا كنّا هكذا، أنا وجاك. لم يكن أحدنا يعرف الآخر معرفة جيدة. لست متيقنة إن كنت قد أحببت كلّ شيء فيه. أظن أن أشياء فيّ كانت تزعجه، لكنّي كنت أنا تلك الغرفة، وكان هو تلك النغمة، وها هو قد ذهب الآن. وأصبح كلّ شيء صامتاً.

قال: لقد كنتُ مع جاك. في النهاية، أصبح يرغب في تدخين سيجارة بول مول.

- ١٣ -

كان الفراش مليئاً بالكتل، وكانت في وسطه حفرة صغيرة محشوة بقميص قديم يحمل شعار نادي نورث هوبارت القديم لكرة

القدم. استدار إلى جانبه، وراح يناور بجسمه حول تعرجات الحشية وسهولها ووديانها. وبعد أن تمكن من ملائمة جسده مع تعرجات الحشية، انحنى فوقها، ودسّ ركبتيه تحت ركبتيها، وفخذيه تحت فخذيها، وأرخى مرفقه فوق ردفها، وراح يحرك يده حوله، ثمّ ضمّها إليه. بدا أن أحدهما شعر بارتياح شديد تجاه الآخر في التحدث عن أمور كثيرة تزعج كل منهما من دون أن يشوش أحدهما على الآخر بالكلمات. إنها لا تطيق أن تكون وحيدة. ربما استلقيا معاً طلباً للدفء. ربما ضم أحدهما الآخر لمواجهة ذلك السكون، برجاء أن يعود ذلك الصوت. كانا أحدهما يعرف أن الشخص المستلقي إلى جانبه لن يعود أبداً. كان بإمكانه أن يسمع المطر الممزوج بالثلج قد بدأ يسقط فوق سطح الصفيح. كان يكفي أن ينعم بالدفء معها. ربما كان ذلك كلّ شيء. أحسّ بعمر هائل. إنه سيبلغ الرابعة والثلاثين في تموز القادم. ضم أحدهما الآخر من دون أن ينبسا ببنت شفة، إلى أن سمع بوق الشاحنة في أعلى الدرب.

بعد أن غادر، ألقت بالأوسمة في الموقد. وبعد بضعة أيام، عندما حركّت الرماد، لم تعرف للحظة ما هو ذلك المعدن الذي ذاب في قِدر الموقد عندما ألقت بمحتوياته في قنّ الدجاج. وبعد تسع عشرة سنة نشب الحريق الهائل في عام ١٩٦٧، فالتهم كلّ شيء أمامه. فقد التهمت النيران المزرعة التي كان يديرها ابنها، وبيتها الخشبي، وبيته الأحدث المشيّد من الآجر، وصورها هي وجاك. لقد التهمت النيران كلّ ذلك، وترسبت فوق بقايا المعدن نصف المدفونة التي كانت ذات يوم أوسمة في ما كان قنّ دجاج، وشكلت طبقة جديدة من الرماد. وبعد سنوات عديدة أخرى، نما فوقها نبات السرخس المائي والقرانيا والآس، حتى أصبحت حلم حياة جاك، غابة، الغابة التي تتساقط من أشجارها الأوراق واللحاء والأغصان،

ومع مرور الزمن، اختفى الرماد تحت طبقات أخرى من العفن والخثّ، وبدأت حياة جديدة.

تزوّجت رجلاً أصغر سناً عاملها معاملة جيدة وعاملته معاملة جيدة، لكنّ الحياة لم تكن تلك الحياة تشبه الحياة التي كانت قد عاشتها مع جاك رينبو. ومات في حادث بالجرّار، فعاشت بعده أيضاً سنوات عديدة.

عندما اقتربت حياتها من نهايتها، أدركت أنّها لم تعد تتذكّر شكل جاك، ولم تعد تتذكّر صوته، ولا رائحته، ولا كيف كان يضمها ويداعبها وهو ينفث ببطء سجائره البول مول والثلج يهطل في الخارج. وكان يخيّل إليها أحياناً أنها تشم رائحة سجائره من ماركة بول مول عندما كانت تغط في النوم. وكانت تتذكّر أحياناً غرفة تدندن. لكنّها لم تستطع احتمال الرائحة أو الفكرة أو الصوت، وكان النوم يأخذها إلى مكان أعمق، أعمق بكثير. كانت تحاول، لكنّها لم تعد تستطيع أن تتذكّر شيئاً سوى إلى حين قصير، لفترة قصيرة، لم تكن وحيدة وباردة.

عندما انطلقت الشاحنة في طريق عودتها أسفل الجبل، تحدث دوريغو إيفانز مع سائق الشاحنة كما يفعل الغرباء أحياناً، موضحاً سبب مجيئه.

كان لديهما شيء، قال. إنه ميت وأنا حيّ، لكن كان لديه شيء لم أعرفه قط.

ماذا يعني ذلك؟

كانا زوجين، قال دوريغو إيفانز.

زوجان، قال السائق. أمّي وأبي كانا زوجين. أنا وزوجتي، حسناً، إننا يوم النصر. في كلّ يوم.

أرخى قبضتيه، وكاد ينهض واقفاً وهو يضغط على الفرامل ليخفف من سرعة الشاحنة ويجعلها تزحف حتى تنعطف عند أحد المنحنيات الحادة التي تشكّل الطريق الكثير الالتواءات والمنحنيات عبر الغابة. وعندما أصبح الطريق مستوياً مرة أخرى، أعاد الشاحنة إلى السرعة الثانية، وواصل كلامه.

لكن زوجان؟ أقصد، لا. إنها امرأة طيبة. لكن الحبّ؟

الحبّ، قال دوريغو إيفانز. نعم، أظن الحبّ.

فكّر سائق الشاحنة بالأمر لمسافة ميل أو ميلين. ثم قال:

لعل الكثير من الناس لا يعرفون الحبّ مطلقاً.

لم تطرأ الفكرة على بال دوريغو إيفانز قط.

ربما لا.

ربما نُعطى وجوهنا وحياتنا ومصيرنا وسعادتنا وحزننا. بعضنا يحصل على الكثير منها، وبعضنا لا يحصل على شيء. والحبّ كذلك. إنه مثل أحجام كؤوس البيرة المختلفة. إما أن تحصل على الكثير، أو لا تحصل على شيء، تشربها ويذهب كل شيء. إنك تعرفها ثم لا تعرفها. لعلنا لا نتحكم بأيّ شيء منها. لا أحد يضاجع كما لو كان يشيّد حائطاً أو بيتاً. إنه يصيبهم كما يصابون بالزكام. تجعلهم بائسين ثم تمرّ، وإلا فإنهم يتظاهرون بأنه الطريق إلى الجحيم.

هكذا تسير الأمور؟

هكذا تسير الأمور، قال سائق الشاحنة. قلت من أين أنت؟

من البر الرئيسي.

حدست ذلك، قال سائق الشاحنة الذي بدا له أن هذا التوضيح يفسّر المحادثة الشخصية الصريحة.

عندما حلقت الطائرة المتجهة إلى ملبورن واستقرت على الارتفاع المحدد لها في السماء، رأى دوريغو إيفانز الجبل المكسو بالثلج إزاء السماء الزرقاء الرائعة من كوّة الطائرة. هكذا هو العالم، قال لنفسه. إنه هكذا. ثمّ اختفى في البياض ووجد أفكاره تتلاحق. مدّ يداً دفع أصابعه في الهواء، كما لو كان يحاول أن يجد ذلك الشريان الفخذي.

يمكنك أن تشعر بالبرد يأتي من هنا، قال صوت رقيق في شرنقة الألفة الملتفة داخل الضجيج الباعث على الصمم المنبعث من المحرّكات المروحية الضخمة. التفت دوريغو إيفانز وللمرة الأولى أدرك أن امرأة جذّابة تجلس إلى جانبه. بلوزتها الجاكار بلون الذرة الزرقاء تكشف عن بدايات شقّ يفصل بين كرتين منتفختين لثديين ناصعي البياض.

تستطيعين، قال.

وإلى أين أنت ذاهب؟ سألته.

ابتسم.

يداك متجمدتان، قالت.

وهكذا تمضي الأمور، قال، فجأة شاعراً بأصابعه ممدودة إلى الخارج، تدفع وتتحرك في الفراغ والبرودة والبياض لكن لم يكن هناك شيء.

في هذا العالم
نمشي فوق سطح الجحيم
ونحدق في الزهور.

إيسا

- ١ -

بُحَّت حنجرة تينجي ناكامورا بشكل غريب لأسابيع عديدة بعد المقابلة الطويلة التي أجراها لشغل منصب نائب مدير الحسابات. وعندما فرك رقبته المتصلّبة أحسّ بورم غريب. لم يعر ذلك أدنى اهتمام - فلم يكن لديه وقت كاف ليولي أيّ شيء أيّ اهتمام لانهماكه في عمله، فضلاً عن أنه كان مرشحاً أيضاً لمنصب كبير المديرين في الشركة، لذلك لم يكن بوسعه الاستسلام لأفكار المرض.

بدأت حنجرته تزداد جفافاً وألماً، وعندما بدأ بلع الطعام يزداد صعوبة وألماً، بدأ يخفف من تناول الطعام إلى أدنى حد، وباتت وجبته الرئيسية تتألف من حساء الميزو. لكنه عندما بدأ يبصق دماً أثناء السعال، ذهب إلى الطبيب وأظهر التشخيص إن ناكامورا مصاب بسرطان الحنجرة.

استؤصل الورم، ومع أن صوته لم يتأثّر كثيراً من العملية الجراحية التي أجراها، فقد تقبّل ناكامورا هذه المحنة بصبر، واعتبر أنه أُنقذ ونجا من الموت، واعتبر صوته الرفيع وسام شرف له. ودَاخَله شعور بأنه رجل مُبارك يشكل لا يصدّق. وبعد ثلاثة أشهر، عندما مرر إصبعه فوق رقبته، أحسّ بكتلة صغيرة مشدّودة غريبة

الشكل. لم يعرها أي اهتمام، لكن حجم الكتلة ازداد، فأجريت له عملية جراحية أخرى، وبدأ يعالج بالأشعة فوهن جسمه وبدا أنه تقدم في السن كثيراً. ثم استؤصلت غدد اللعاب لديه، ولم يعد بإمكانه إلّا أن يتناول طعاماً سائلاً وبشيء من الصعوبة. وخلال هذه المحنة التي أصابته، أدرك مدى روعة إكوكو التي كرّست نفسها لرعايته، وراحت تعامله بلطف ورقة شديدتين، وبدا أنها لم تكن تلقي بالاً لجسده الذي بدأ يجفّ وتفوح منه رائحة كريهة. وعندما بدأ يتماثل للشفاء من الأعراض الأخرى التي سببها علاجه، أدرك مدى نضارة رائحتها، وكيف أن بشرتها ظلت براقة وناعمة كما لو كان جسدها يجسّد الطيبة بحد ذاتها. وكان يشعر أحياناً بأنه مفتون بالصحة التي تشع منها والتي كانت تتجلى في ابتسامتها الكسولة التي لم تكن تفارقها.

كانت إكوكو تستيقظ صباح كلّ يوم قبل ساعتين من ذهابها إلى عملها لتلبي جميع احتياجاته. كان معجباً بطبيعتها العملية، وكان يحبّ حضورها ولمساتها. كان يحبّ أن تجلس إلى جانبه وتمرّر أصابعها برقة على خدّيه. ومع أنها كانت تقول إن عدم القيام بأي عمل هو هدر تام لوقتها، فقد كان ذلك من أهم الأشياء في حياة ناكامورا. ولم يعد يشعر بالخوف، وبدأ يتحمل ألمه مرة أخرى، وتساءل كيف كان غافلاً عن طيبة زوجته منذ فترة طويلة.

وأبرزت طيبة زوجته قدراً كبيراً من طيبته، وحَمَلَ مرضه برزانة وبروح مرحة، وأتاح له مرضه جزءاً من وقته لرؤية أشخاص آخرين يعانون من المرض أكثر منه، وبدأ يشارك في الأعمال الخيرية، ويوصل وجبات طعام بنفسه إلى المسنين، وبدأ يبدي مزيداً من اللطف والاهتمام بالآخرين: أسرته، أصدقاؤه، جيرانه، بل حتى الغرباء. ودُهش تينجي ناكامورا عندما اكتشف هذه الطيبة الكامنة

في نفسه، وقال أنا رجل طيب.. ومنحته هذه الفكرة شعوراً هائلاً بالراحة والطمأنينة تجاه مرض السرطان، وأدهش بذلك كلّ من يعرفونه.

- ٢ -

عندما كان تينجي ناكامورا لا يزال ضعيف الجسم، وبدأ يستعيد صحته وقوته شيئاً فشيئاً، وعندما أدرك كم كان مباركاً في حياته، وصلته رسالة من أكي توموكاوا، العريف الذي كان يعمل تحت إمرته في كتيبة السكة الحديدية، والذي كان يبحث عن قائده منذ عدة سنوات، قال له فيها إنه يأمل أن تصله هذه الرسالة وهو بخير.

كان توموكاوا يثير حنق ناكامورا لضيق أفقه وتزلّفه، أما الآن فقد أصبح يرى العريف العجوز في ضوء مختلف تماماً - رجل نبيل طيب شاطره أموراً كثيرة. وأُعجب ناكامورا كثيراً بولاء توموكاوا الذي بدا له جزءاً من طيبة زوجته، ورقة ابنتيه اللتين كانتا تجلسان معه وتبادلانه الحديث مساء كل يوم، فشعر بأن عليه أن يبدي له طيبة متبادلة. فمنذ اليوم الذي كان فيه في شينجوكو راشومون ورأى اسمه مدرجاً على قائمة مجرمي الحرب المشتبه فيهم، وضع ناكامورا لنفسه قاعدة بتجنب أيّ اتصال مع رفاقه القدامى، وما عدا الأمر الذي جعله يعمل مع كورتا - فقد التزم بتطبيق هذه القاعدة.

لكن هذا الموقف جعله يشعر الآن بأنه موقف أناني وسخيف. فلم تعد قوات الحلفاء تلاحق مجرمي الحرب وتعاقبهم منذ فترة طويلة. وبدأ توموكاوا الذي لجأ إلى جزيرة هوكيدو الشمالية، يبحث عن رفاقه السابقين القدامى ليتعرف على مصائرهم المتباينة. وكان يريد أيضاً أن يعرف ماذا حلّ بعدد من المهندسين الذين عملوا في

الخطّ في كتيبتهم السابقة والذين عادوا الآن إلى تايلند - التي كانت تدعى يومذاك سيام- وبحثوا عن هيكل القاطرة الأولى التي علاها الصدأ والتي قطعت المسافة على السكة الحديدية الممتدة بين سيام وبورما في عام ١٩٤٤. وقد بدأوا يقومون بصيانتها وترميمها لإعادتها إلى اليابان ووضعها في متحف ياسوكيوني تكريماً لإنجازهم العظيم.

عندما سمع عن هذا العمل الرائع، أدرك تينجي ناكامورا بأنه، من بين جميع البركات الأخرى التي حظي بها مع تقدمه في العمر، لم يعد عليه أن يخاف. وعندما تلاشى خوفه، بدأ يشعر بالرغبة في أن يكون فخوراً، وأن يشارك الآخرين فخرهم. فقد أثارت رسالة توموكاوا في ذاكرته اللحظة التي هرب فيها أخيراً من نير الخوف الذي عاش فيه منذ ذلك اليوم في شينجوكو راشومون. وعلى الرغم من مرضه، فقد قرر ناكامورا السفر إلى بلدة سابورو الشديدة البرودة في أقصى الشمال ليلتقي برفيقه القديم.

وصل ناكامورا في منتصف الشتاء. وكانت التحضيرات لمهرجان الثلج السنوي الذي تقيمه المدينة تجري على قدم وساق. كان ناكامورا قد شاهد في التلفزيون مهرجان الثلج لعام ١٩٦٦ الذي عرض في السينما اليابانية وعلى التلفزيون الياباني ولقي شعبية كبيرة. وفي طريقه بسيارة الأجرة من مطار سابورو إلى منزل توموكاوا، رأى جنوداً من قوة الدفاع عن النفس اليابانية يساعدون في إقامة تماثيل ضخمة من الجليد.

أصرّ السائق على أن يعدد أسماء تلك التماثيل كلما مرّا بأحدها: غاميرا، والسلحفاة التي تنفث النار، وغودزيلا، وروبو العملاق، وكوبرا الأحمر بجبهته الضخمة وأسنانه العليا البارزة، وموثرا، واليرقة العملاقة، وغيلوتين الإمبراطور برأسه الضخم

ومجساته. لم يكن أي من هذه الأسماء يعني شيئاً لناكامورا، لكنه كان مأخوذاً ببراعة وإتقان العمل الياباني، وبالروح اليابانية التي لا تقهر المتجسدة في هذا الجهد العظيم.

كان توموكاوا يقيم في وحدة سكنية حكومية في إحدى ناطحات السحاب، وتاه ناكامورا في متاهة هذا المجمّع الضخم. وعندما وجد الشقة أخيراً، كان مرهقاً من البحث وشدة البرد. إنه هو - توموكاوا! ما أروع أن أراه مرة أخرى! لقد ازداد بدانة وأصبح أصلعاً، قال ناكامورا لنفسه، وبدا له أيضاً أقصر قامة، لكنه وجد أن رأس توموكاوا نفسه كما كان من قبل، وكست وجهه بقع الكبد التي ذكّرت ناكامورا بشيء زاحف غامض. ومع أنه كان مزعجاً بعض الشيء، فقد كان توموكاوا في غاية السعادة عندما رأى قائده السابق، صريحاً وليس متصنعاً، وقرر ناكامورا أن ما كان يراه مزعجاً في توموكاوا في تلك الأيام أن يراه الآن جميلاً، بل فاتناً.

كانت زوجة توموكاوا أقصر قامة من زوجها، وأسنانها الأمامية ناتئة مما يعطي الانطباع بأنها تقضم كلماتها ولا تنطقها بالكامل. لكنها كانت تبدو امرأة واثقة من نفسها -ربما أكثر مما يحبّ ناكامورا، لكنه اعتبر ألفتها الشديدة معه دليلاً على الدفء والرقة، الصفات التي تجعل من السيدة توموكاوا امرأة متميزة.

يا لك من رجل موهوب أيها القائد، قالت السيدة توموكاوا وهي تصحبه إلى غرفة الجلوس المؤثثة بأريكتين وثيرتين ضخمتين بالأسلوب الغربي، ثم أضافت تقول: جندي ورجل أعمال ورسامنا العظيم هوكوسيا.

أخفى تينجي ناكامرا ارتباكه بابتسامة، غير واثق إن كانت لم تميّز بينه وبين الرسّام الخالد، أم أنها قضمت نصف كلمة. لكن لا، لم يلتبس عليها الأمر.

ألا تزال ترسم أيها القائد؟

كانت تحمل بيدها بطاقة بريدية عسكرية وأعطتها لناكامورا. كانت لوحة مرسومة لتوموكاوا وهو واقف على السكة الحديدية في عام ١٩٤٣. لا بد أن السيدة توموكاوا تظن أن ناكامورا هو الذي رسمها لأنه كان قد كتب على الجانب الخلفي من البطاقة تحية قصيرة تقول إن توموكاوا يتمتع بصحة رائعة.

في الخارج، كان النهار أسود تجلله السحب الثلجية.

سامحيني، قال ناكامورا، لكنّي يجب أن أرتاح قليلاً، وطلب أن يجلس. وجد أن الكنبة ذات الطراز الغربي خشنة روحياً ومزعجة جسدياً. وقد جعله الجلوس عليها يشعر بأن شيئاً بشعاً يعانقه ويخنقه. لقد أنهكته الرحلة إلى درجة أكبر مما كان يظن، وبدا أن دواء المورفين الذي قلل من تناوله بسبب الرحلة قد أثّر عليه كثيراً.

تملكّه إحساس غريب بالانجراف والفراق، لكنه لم يكن إحساساً مزعجاً كثيراً، وأصبح في الوقت نفسه يدرك بقوة كلّ صوت في الغرفة، كلّ رائحة، بل حتى كل هبة هواء. إن قطع الأثاث أشياء حيّة، حتى الأرائك التعسة يعتبرها حيّة، وشعر بأنه يفهم كلّ الأشياء، لكنه كلّما حاول أن يعبّر عن هذا الفهم بكلمات، كانت تنسلّ منه وتخونه. وفجأة أراد أن يعود إلى بيته، لكنه كان يعرف أن هذا غير ممكن ريثما تنتهي مراسم زيارته إلى أسرة توموكاوا. أغمض عينيه، وأدرك أن كلّ ما يحيط به يعيش العالم كما لم يكن يعرف هو أن يعيشه، وعندما انفتح أخيراً على هذه البهجة، أدرك أيضاً أنه يحتضر.

- ٣ -

عندما بلغ دوريغو إيفانز متوسط العمر، بدأ جسمه يزداد ضخامة وغرابة، كأنه ازداد ضخامة وأصبح سريع الغضب لأتفه الأشياء، كأن حجمه، كما كان يروق لإيلا أن تقول، قد بلغ اثنتي عشرة درجة: مُبَجَّلٌ من حيث الوجود، لكن بخطوات غريبة وعينين متسائلتين غريبتين. وكان ذلك يبلغ حد السحر بل حتى إلى درجة البهاء والأناقة بالنسبة للمعجبين به، أما بالنسبة لمنتقديه، فقد كان ذلك يشكل عنصراً آخر من عناصر الاختلاف المثيرة للغضب. وظلت فحولته كما كانت. وكان طول قامته وانحناءة متوسط العمر، يفهم في أحيان كثيرة بأنه وقار، ولم يكن ينكر الغموض الذي يضفيه هذا القناع.

وفي العقود التي أعقبت الحرب، أحسّ بأن روحه قد خلدت إلى النوم، ومع أنه حاول جاهداً أن يوقظها بالصدمات وبالمجازفات المتتالية والمتزامنة أحياناً، وبالخيانات الزوجية، وثورات الغضب، وبوادر الشفقة العديمة الجدوى، وبالعمليات الجراحية الطائشة، لم يجد ذلك نفعاً. كانت تغفو أحياناً. وكان معجباً بالواقعية ويعظ بها ويحاول أن يطبقها كطبيب. لكنه كان في حقيقة الأمر يشكّ في وجودها. ولما كان جزءاً من نظام عبودي فرعوني يتربع على قمته الملك شمس المقدس، فقد أفضى ذلك إلى أن يفهم اللا واقعية بأنها أعظم قوة في الحياة. وبدأ يشعر الآن أن حياته ليست واقعية إلى درجة كبيرة، كلّ شيء فيها غير مهم - طموحاته المهنية، وسعيه الفردي لتبوء مكانة مرموقة، ولون ورق الجدران، وحجم المكتب، أو مسألة المكان المخصص لركن سيارته - التي كان يمنحها أهمية كبيرة، أما الأشياء الهامة الأخرى - السرور، البهجة، الصداقة،

الحبّ - فقد كان يعتبرها أموراً هامشية، تفسح المجال للبلادة والخمول في معظم الأحيان، وللغرابة بشكل عام.

وتبين له أنه لم يعد يخاف من الأماكن المغلقة، ومن الحشود، ومن ركوب حافلات الترام والقطارات - جميع الأشياء التي كانت تشدّه إلى الداخل وتعزله عن الضوء - لكنّه بدأ يرى الآن أن أشياء عديدة أخرى مراوغة لذلك الضوء. كان قد رأى الكثير ولم يعد يخاف من باقي الأشياء التي تملأ الأمسيات والأيام والسنوات، وفي بعض الأحيان، أفضل جزء من الحياة، لكنّه كان يجدها تبعث على الضجر. وظل يشعر بالضجر. فقد كان يضجر من حفلات العشاء الكثيرة، وحفلات الإفطار التي تقام لجمع التبرعات، والحفلات الخيرية، وحفلات الكوكتيل. وكانت حفلات العشاء تصيبه بالدوار، ثم اجتماعات المستشفى ومجالس الجامعة والجمعيات الخيرية والنوادي والجمعيات الكثيرة التي نصبّته راعياً لها.

كان كلّ شيء يضجره. إيلا تضجره. أصدقاء إيلا يضجرونه. وكان البيت يجلب له صداعاً مرهقاً ويضجره. وبدأ يزداد ضجراً من العمليات الجراحية الروتينية التي كان يعرف أنها يجب أن تظل جراحة مسؤولة، وألّا تكون روتينية عندما تحدث مضاعفات، وعندما لا تسير الأمور على ما يرام، وعندما تتحطم حياة أناس فجأة، لكنها تُنقذ أحياناً. وبدأ يضجر من الجنس في الخيانات الزوجية الذي كان يظن أنه السبب الذي جعله يمارسه بشراهة، متخيّلاً أنه لابد أن هناك أحداً في مكان ما يمكنه إبطال سحر سبات، نوم روحه الغريب. وكانت أحياناً امرأة تسيء فهمه وتتخيّل أنها يمكن أن تقيم معه حياة في المستقبل، فيحرّرها بسرعة من داء الرومانسية، وكان يخيّل للنساء أن متع الجسد هي همّه الرئيسي، لكن في حقيقة الأمر، كانت أقل شيء يثير اهتمامه.

وكان كلما مضى قدماً، انحسرت طاحونة الهواء. وخطرت له فكرة اليونانيين عن العقاب التي تتمثل في أن تخفق دائماً في بلوغ الأشياء التي تشتهيها. لذلك كان سيزيف ينجح في دحرجة صخرته إلى قمة المنحدر، لتعود وتتدحرج إلى أسفل المنحدر، فيهبط إلى الأسفل، ويعيد دحرجتها مرات ومرات. وهكذا كان حال تنتالوس الجائع والعطش إلى الأبد الذي كان يجلب طعام الآلهة إلى البشر، والذي حُكم عليه بأن يقف في بحيرة ويرى الماء تنحسر كلما انحنى ليشرب، ويرتفع الغصن الذي ينوء بالثمار فوق رأسه ويبتعد عن متناول قبضته كلما مدّ يده ليقطف منه شيئاً ليأكله. ربما كان هذا هو الجحيم، خلص دوريغو إلى القول، تكرار أبدي للفشل نفسه. لعله يمرّ في هذه المرحلة الآن، ومثل سقراط الذي اكتشف الروح الأبديّة التي لا تفنى، وهو يموت عندما شرب سمّ الشوكران، اكتشف دوريغو الهدف الحقيقي لحبّه الذي كان غائباً باستمرار: مع نساء أخريات لم يكنّ أيمي.

عندما بدأت حماسته تخذله، عاد إلى مسرح الشهوانية التي وجدها أكثر كآبة من ممارسة الجنس العادي، البسيط. إنه أمر مضحك، هزلي، لا يصدّق، وبالتأكيد لا يمكن الحديث عنه في الأحاديث التي تدور في مجتمع ملبورن الذي أصبح بيته الآن. وكان يحبّ أن يسخر من نفسه عندما يكون مع الآخرين، لكن ذلك لم يكن ممكناً.

كان يعرف أن في داخله، في عمق أعماقه، وفي مكان بعيد، صخب هائل نائم لا يمكن أن يفهمه أو يستطيع أن يبلغه، صخب كان أيضاً خواء، عمل الأشياء التي لا تنتهي. بدأ يشرب كثيراً - ولمَ لا يشرب؟ بضع كؤوس من النبيذ عند وجبة الغداء، وأحياناً كأس ويسكي مع الشاي في الصباح، وكأس أو كأسين من كوكتيل نيغروني

قبل العشاء (عادة تعلمها من ضابط أمريكي برتبة ميجور عندما كان يعمل مع قوات الاحتلال في مدينة كوبي) ومعه كأس نبيذ، يعقبه براندي ومزيد من الويسكي بعده وبعد ذلك. وأصبح مزاجياً على نحو لا يمكن التنبؤ به أو السيطرة عليه، وكان يصبح شخصاً حقيراً في بعض الأحيان. أسد في الشتاء، يهين إيلا بكلماته، بلا مبالاته، بغضبه إزاء عواطفها تجاهه. وبعد جنازة والدها صرخ في وجهها بلا سبب وجيه، أو حتى لسبب باطل. كان يريد أن يحبّها، يتمنّى أن يستطيع أن يحبّها. كان يخاف أن يحبّها لكن ليس بالطريقة التي ينبغي للرجل أن يحبّ زوجته - كان يريد أن يجرح مشاعرها بنفس الإدراك، اعتراف بأنه لا يناسبها، لانتزاع رد قد يوقظه من سباته. كان ينتظر خاتمة لم تصل قط. وبدلاً من أن ينهي جرح مشاعرها، وألمها، ودموعها، وحزنها، وسبات روحه، كان يزيدها عمقاً.

- ٤ -

لم تكن إيلا تتصور أنها تستطيع أن تعيش بدون حبّ. فقد أحبّها والداها كثيراً، وكانت تبادلهما الحبّ. كان حبّها يجسّد كيانها، تبحث عن أشياء تصبّ نفسها فيها. كانت تنصت إلى المشاكل التي يتعرض إليها دوريغو في المستشفى، تحزن معه عندما يفقد مريضاً، تتعاطف مع صراعه مع البيروقراطيين الأغبياء الذين، كما كان يقول، لن يكونوا السبب في موته فحسب، بل في موت الرعاية الطبية في أستراليا، مع الجرّاحين الذين كانوا يرفضون الأساليب التي يتبعها.

أما الآن فقد نضجت وأصبحت امرأة متميزة، وازداد شعرها الأسود اللمّاع جمالاً بعد أن باتت تصبغه، وكانت بشرتها السمراء الداكنة وأناقتها ورزانتها تثير إعجاب النساء الأخريات، فضلاً عن

تعاطفها مع الآخرين وسلاسة طبعها. وسواء أكان ذلك بفضل قوامها الممتلئ أو بشرتها الناعمة اللامعة، فقد كان مظهرها المتين لا يشي بحقيقة عمرها. وكان الرجال يُعجبون بقوامها، وبالطريقة التي تتحرّك فيها، وبالنظر إلى ساقيها السمراوين في الصيف، وطريقة ابتسامتها التي تبدي فيها اهتماماً عندما يتحدث الرجال عن أنفسهم. وكان العيب الوحيد في جمالها يكمن في الارتفاع الطفيف عند طرف أنفها الذي يجعل وجهها يبدو من زوايا محددة كاريكاتورياً إلى حد ما. ولم يكن معظم الناس يلاحظون ذلك. ومع مضي السنوات، بدأ دوريغو يرى ذلك أكثر، وبات يرى أحياناً - أول شيء في الصباح، أو عندما يعود إلى البيت من عمله - أشياء أخرى قليلة.

وكانت إيلا تؤمن إيماناً مطلقاً بدوريغو وبحياة دوريغو، وكانت تردد آراءه كما لو كانت آراؤها هي، مما كان يثير حنقه باستمرار. فقد كانت تردد: إن هؤلاء البيروقراطيين اللعينين سيتسببون في موت المزيد من المرضى، أو أنها كانت تبدأ في التحدث بشيء من التفاصيل عن جهل بعض الجرّاحين الأغبياء بالطب.

وعندما كانت تنصت إليه، كان كلّ ما يمكن أن يراه فيها ارتفاع أنفها قليلاً، والطريقة التي تزين وجهها الذي كان يبدو ذات يوم جميلاً جداً، وليس هزلياً، وكان يقول لنفسه إنها لم تكن جميلة قط، بل غريبة الشكل بشكل ما. وكان كلما سمعها تكرر شيئاً قاله منذ شهر أو أسبوع، كان يُدهش لابتذال الفكرة ولإخلاصها في تكرار شيء بدأ يراه الآن تافهاً وغبياً. وإذا تجرأت وقالت إن ما يقوله تافهاً وسخيفاً، فقد كان يستشيط غضباً. كان يريد موافقتها على الدوام، وبعد أن يحصل عليها من دون قيد أو شرط، كان يسخر منها.

وبالنسبة لأطفالهما، فقد كانت توافقه أيضاً، بالرغم من حنق دوريغو.

وكان يقول لها إن مهمة الوالدين تتمثل في رعايتهما لأطفالهما ليعيشوا حياة جيدة.

وبعد أن كان يقول ذلك، كان يحاول إخفاء إحباطه، فيشيح بعينيه عن وجهها لكي لا يرى طرف أنفها.

لكنّي أتّفق معك، كانت تقول، لا يمكنني أن أتفق معك على أكثر من ذلك. فإذا لم يحط الوالدان أولادهما برعايتهما، فما هو سبب وجودنا؟

كان دوريغو وأطفالها وأصدقاؤها وعائلتها الأوسع - يوجدون من أجلها كوسيلة لفهم العالم. فالعالم معهم مكان أكثر رحابة ودهشة مما لو كان بدونهم. وإذا كانت تأمل في أن تحصل على ذات القدر من الحبّ من دوريغو، وإذا خاب أملها، فلم تكن تشعر بأن غيابه سبب لعدم حبّه لها. والمشكلة أنها كانت تفعل ذلك. فلم يكن حبّها بلا سبب، ولم تكن تستسلم لأي سبب. ومع أنه كان يتوق للحصول على مكافأة، فإن حبّها لم يكن يسعى إليها في نهاية الأمر.

وعندما كان يغادر البيت في الليل، كانت تستلقي وتظل صاحية، لا يغمض لها جفن، تفكّر به وبها، يغمرها حزن ساحق. ربما كانت تثق به كثيراً، لكنها ليست امرأة غبية. فلم تكن تكرّر كلماته وتردّد آراءه لأنه لم تكن لديها أفكارها الخاصة بها، بل لأن طبيعتها تريد أن تعيش من خلال الآخرين. فما هو هذا العالم الذي لا يوجد فيه حبّ؟ إنه مجرد أشياء، ضوء، ظلام.

بيروقراطيون لعينون. جرّاح غبي. أوه، ذلك الرجل المسكين، المسكين، كانت تكرر مرات ومرات. ثم، لسبب لا يمكن تفسيره، تجهش في البكاء حتى لا يعود بإمكانها أن تذرف المزيد من الدموع.

- ٥ -

لبضع دقائق، لم ينبس تينجي ناكامرا بكلمة. كان يحاول أن يتذكّر اليابان التي كان يؤمن بها قبل أن يذهب إلى الحرب. يتذكّر اليابان الجميلة، النبيلة، القوية، المفعمة بالروح التي خدمها بكل جوارحه وبكامل روحه ونقائها، لكن شيئاً في ذاكرته عن تلك الرسومات له ولرجاله في معسكر أسرى الحرب في ذلك اليوم في سيام أزعجه، لكنه لم يعرف سبب ذلك، وكان الجهد الذي بذله ليتذكّر أو تأثير المورفين كان يعني أنه نسي ما كان يفكّر به. كان كلّ ما يمكنه أن يفكّر به هو كيف لاحت، وراء رؤيته، وحوش مجمّدة فوق المدينة، الوحوش المجمّدة التي رآها وهو في طريقه إلى منزل توموكاوا، وحوش مجمّدة سيسافر من تحتها في طريق عودته إلى المطار. أدرك أن توموكاوا يكلّمه، وكان يحاول أن يركّز، لكن بدا له الآن أن الوحوش موجودة في الغرفة معه.

كما تعرف، كان توموكاوا يقول، الذي أصبح يبدو مثل الوحش غاميرا. في البداية، كنتُ مرعوباً من أن يقبضوا عليّ كمجرم حرب، وكنت أقول لنفسي: يا له من شيء مضحك! فهم لا يهتمون إلا بما فعلناه لأسرى الحلفاء.

كان ناكامرا يسمع صوت توموكاوا، لكنه كان يرى سلحفاة ضخمة تنفث اللهب.

وعندما أتذكّر كلّ ما فعلناه مع الصينين في مانتشوكوو، كانت السلحفاة التي تنفث الكبريت تقول، والمتع التي حظينا بها مع نسائهم.

كان ناكامرا حذراً جداً وأخذ يتطلع حوله بقلق، لكنه أدرك أن السيدة توموكاوا لم تكن تسمعه في المطبخ.

إني على يقين من أنك ستتذكّر كلّ شيء، تابعت السلحفاة العملاقة، التي ذكّر ناكامرا نفسه بأنها توموكاوا بالفعل. لذلك أظن أننا تعاملنا مع هؤلاء الأسرى برفق، وعليهم أن يفتخروا بما أنجزوه في السكة الحديدية وبنا، لكن أن يقوموا بشنقنا من أجل هذا وليس من أجل ما فعلناه للصينيين! حقاً - إن هذا يجافي أي عقل. هذا رأيي على كل حال.

عندما عادت السيدة توموكاوا إلى الغرفة حاملة صينية الطعام، غيّر توموكاوا، الذي عاد يبدو بغتة كائناً بشرياً، الحديث. لكن طوال الوقت، كان ناكامورا يفكّر بما قاله توموكاوا، والمنطق السليم بما قاله. لأنهم تمكّنوا من مدّ خطّ السكة الحديدية في خمسة عشر شهراً التي قال الإنكليز إنه يستحيل عمل ذلك خلال خمسة أضعاف تلك الفترة. حكّ رقبته في البقعة التي نبقت فيها كتلة جديدة في ذلك اليوم، أو هكذا كان يبدو لناكامورا، لأنه خيّل إليه بأنه يشعر بالكتلة تكبر في داخله في كلّ ساعة من كلّ يوم وفي كلّ دقيقة من كلّ ساعة، وتنهشه. بالطبع حاول ألا يتحسسها. أنه يستطيع أن يبذل جهداً لكي لا يفكّر بها وأن يركّز كلّ تفكيره على ما يعنيه أكثر: لذلك كانت الحرب أيضاً تكبر في داخله.

لقد حاربوا المرض والموت جوعاً وغارات قوّات الحلفاء. لم يكن من السهل أن تجعل رجالاً مرضى يعملون، لكن كيف كانوا سيتمكنون من إقامة السكة الحديدية لو أنهم اعتمدوا فقط على الرجال الأصحاء الذين لم يكن لهم وجود؟ كان يفهم بأنه كان من الممكن أن يتهم بموت مئات العمال وأسرى الحرب. كم عددهم؟ لا يعرف كم كان عددهم.

لكن في غابة لا نهاية لها، يصعب التنقل في أرجائها، يجتمع فيها الموت والمرض كلّ يوم، كان يعرف أنه أدّى واجبه بالكامل بلا

أنانية وبولاء وبشرف. إن السكة الحديدية انتصار الروح اليابانية. لقد أثبتوا أن الروح قد تنتصر حيث لم يجرؤ الأوربيون، بكلّ تقنياتهم المتطورة، بل إنهم لم يحاولوا. وبما أنهم لم يكونوا قادرين على صنع القضبان الحديدية لمدّ الخطّ، قاموا بتفكيك الخطوط التي اعتبروها غير مهمة من الناحية الاستراتيجية في أرجاء الإمبراطورية - في جاوة وسنغافورة وملايا - ثم نقلوها إلى سيام. وبما أنهم لم يكونوا يملكون آلات بناء ثقيلة، فقد اعتمدوا على المعجزات التي يمكن أن تحققها الروح مع الجسد. كان إيقاف الموت خارج طاقته، لأنه كان يتعين عليه مدّ السكة الحديدية في سبيل الإمبراطور، ولم تكن هناك وسيلة لمدّها بأيّ طريقة أخرى. وتذكّر بحزن بدا نبيلاً موت رفاقه ورفاق توموكاوا، أولئك الذين ماتوا من المرض في الغابة، والذين شنقهم الأميركيون بعد ذلك.

ابتعد عقله عنهم وعاد إلى طفولته، وهنا حاول أن يتذكر طفلاً عاش حياة وفق نظام طبيعي خفي. لكنه أصبح يعرف أنه لم يعد ذلك الطفل - وأنه، بطريقة ما، في مكان ما، انفصل عن فهم ذلك الطفل للعالم. ومرة أخرى، تناهى إليه صوت إكوكو، ورأى تلك الابتسامة الغبية المزعجة، وتملكّه شعور بالخجل كان أيضاً شعوراً بالرعب. فالأشياء التي كان يظن أنها صحيحة وحقيقية تبين له أنها خاطئة وزائفة، وهو معها. لكن كيف يمكن أن يكون شيئاً كهذا ممكناً؟ كيف يمكن أن تبلغ الحياة هذا المبلغ؟ وبدأ يخشى موته الوشيك، لا لأنه سيموت، بل لأنه بدأ يشعر بأنه لم يعش قط كما كان يتمنّى، ولم يفهم تينجي ناكامورا لماذا حدث ذلك.

فهم أنه في مكان ما من تلك الطيبة التي أحبتها فيه زوجته وبناته، تلك الطيبة التي أنقذت حياة بعوضة، هي نفس الطيبة الراسخة التي مكنته من تكريس حياته، مهما بلغ الألم ومهما زادت

الشكوك بشأن الإمبراطورية وبالإمبراطور. ولم تكن هذه الطيبة تشبه رعاية إكوكو الصبورة له، التي كانت تستيقظ قبل ساعتين من ذهابها إلى عملها، وتمرر أصابعها برقة على خدّه. إنها طيبة مختلفة، والإمبراطور يجسدها سواء أكان الآن أم في المستقبل. فقد أراق ناكامورا دماء آخرين في سبيلها وفي سبيله، وكان مستعداً لإراقة دمه هو. وقال لنفسه بأنه، من خلال خدمته لهذه الطيبة الكونية، اكتشف أنه لم يكن رجلاً واحداً بل عدة رجال، وأنه يستطيع أن ينفذ أشد الأشياء فظاعة التي كان من الممكن أن يفكّر بأنها، في ظروف أخرى، شريرة، لو لم يكن يعرف بأنها كانت في سبيل خدمة الطيبة النهائية. وقبل كل شيء كان يحبّ الشعر، وكان الإمبراطور قصيدة مؤلفة من كلمة واحدة - بل ربما، قال لنفسه، أعظم قصيدة - قصيدة تضم الكون وتتجاوز كلّ المبادئ الأخلاقية وكلّ ضروب المعاناة، ومثل جميع الفنون العظيمة، كانت تتجاوز الخير والشر.

وعلى الرغم من ذلك - وبطريقة حاول ألا يفكّر بها - فقد أضحت هذه القصيدة رعباً ووحوشاً وجثثاً. وعرف أنه اكتشف في نفسه قدرة لا تكاد تنضب على خنق الإحساس بالشفقة، وعلى التلاعب بالقسوة بطريقة وجدها ممتعة بصراحة، لأنه لا توجد حياة إنسانية واحدة يمكن أن تساوي شيئاً يقارب هذه الطيبة الكونية. وللحظة، بينما كانت أريكة توموكاوا الثقيلة تلتهمه، تساءل: ماذا لو كان كلّ ذلك قناعاً لأكثر الشرور فظاعة.

إن التشبث بهذه الفكرة أمر شنيع للغاية. وفي لحظة نادرة من الشفافية، أدرك ناكامورا أن ما كان وشيكاً هو معركة ليست بين الحياة والموت في جسده، بل معركة بين حلمه عن نفسه كرجل طيب وبين هذا الكابوس من الوحوش المصنوعة من الجليد والجثث الزاحفة. وبنفس الإرادة الحديدية التي خدمته كثيراً في الغابة

السيامية، وفي أطلال شينجوكو راشومون، وفي البنك الياباني للدم، صمم بأنه يجب أن يعتبر العمل الذي قام به في حياته كان نابعاً من رجل طيب.

وبغتة أحسّ بصفاء في عقله. فقد كان يستخدم سلطاته دائماً في سبيل الإمبراطورية والإمبراطور. كان يتمنّى أن يقول لأطفاله بأنه سيذهب بسلام، بكل بهاء، إلى أرض الموتى حيث ينتظره والداه ورفاقه. وبدأ التشبث بفكرة طيبته تزداد صعوبة. كان على وشك أن ينهار تماماً، عندما تلمسه إكوكو، وهو لا يزال يرى بشرتها جميلة وهي في هذا العمر، ابتسامتها الغبية قليلاً، وفهم بالغريزة بأن طيبتها شيء لا يوجد، في الواقع، في داخله. حاول أن يتذكر أشياء جيدة في حياته - منفصلة عن إرادة الإمبراطور، وعن الأوامر والسلطة - لتكوين فكرة أخرى عن الطيبة التي قد تقدم إثباتاً عن حياة جيدة. تذكّر عندما قدم للطبيب الأسترالي دواء الكينين، وإحساسه باليأس من العنف والضرب. لكن هذه الأفكار أفسحت المجال ليأس عام ممزوج بصور عن كائنات هيكلية تزحف تحت المطر وفوق الوحل، وبين الوحوش في شقّة توموكاوا بدأ يرى تلك الجثث الزاحفة في كل مكان، في وسط المطر الذي لم يكن يتوقف عن الهطول ونيران الجحيم. وكان تينجي ناكامرا يعرف أن أولئك الأموات لن يكونوا موضع ترحيب من الذين كانوا يقيمون في تلك الأجسام الشنيعة، أكثر مما سيرحّب به جسده.

أتتذكّر ذلك الأسير الرسّام؟ سأله توموكاوا. قلت لها إنه ليس أنت، لكنّها لا تسمع أبداً. كان أسترالياً. كان يتنقّل مع ذلك الرقيب. الرجل الذي كان يغني عن الليل. كلّ قصص الرعب تلك التي كانوا يحكوَنها عنا! وكان الأسرى يغنّون - لا يمكن أن تكون سيئة إلى تلك الدرجة.

كيف كنا نعيش، قال ناكامورا لنفسه.

كانت أكثر الأوقات سعادة في حياتي، قال توموكاوا.

خلف أفكار ناكامورا، كانت الثلوج تغمر العالم بغزارة، بلا هوادة، تمحو كلّ ما كان موجوداً. إنه سيموت قريباً، وسيزول معه كلّ ما هو خير وكلّ ما هو شرّ. وستذوب الوحوش وستنجرف إلى المحيط الأسود. لوهلة، خيّل إليه أن رائحة دي دي تي تفوح منه، ورأى أشياء عديدة: ساتو يرفع عينيه من لوحة لعبة «غو» ويهّم بقول شيء، والقمل يهرب من جسد صبي ميت، ورجل أقل من رجل يتهاوى فوق طين الغابة. غمره إحساس بأنه خدع القدر في حياته. انتفض جسده فجأة، واستيقظ. لم يكن يعرف منذ متى خلد إلى النوم.

أترغب في قليل من سوشي الشبوط أيها القائد؟ سألته السيدة توموكاوا بأسلوبها الغريب في مضغ نصف كلماتها.

كان ناكامورا بلا إحساس. ارتعش جسمه عندما تخيّل ميزان المستشفى يهتز بقوة عندما وضع فيه قلب الأمريكي.

لقد اشتريته من السوق. إنه مالح قليلاً، لكنّنا نحبّ سوشي الشبوط مالحاً قليلاً.

هزّ ناكامورا رأسه.

في الربيع التالي، تلقى توموكاوا وزوجته بطاقة بريدية من السيدة ناكامورا تقول فيها إن زوجها قد مات. ولم تذكر لهما هذيانه في أيامه الأخيرة، أو سوء مزاجه، أو تهجمه عليها بشراسة وعلى بناتها اللاتي كن يقمن على رعايته، حتى على أتفه الأشياء مثل مداعبة خديه أو لمجرد ابتسامة، بل كتبت لهما كيف أنه في الليلة التي

سبقت وفاته، عندما عرف أن ساعته قد أزفت وبدأت تقترب بسرعة، وبما أنه كان شاعراً هاوياً، فقد بدأ يكتب قصيدة موته حسب التقاليد.

كان رجلاً متواضعاً حتى آخر ساعة في حياته، واصلت السيدة ناكامورا، وقد كافح ليعيش بضع ساعات أخرى، لكن مرضه أوهنه، ولم يعد يقوى على إدخال أي تحسينات على قصيدة الموت *الهياكا* التي قال إنها تعبّر عمّا يجيش في نفسه، لكن بأسلوب أجمل بكثير مما يمكنه أن يفعله. وأضافت السيدة ناكامورا بأنها تشعر بأن زيارته إلى سابورو في الشتاء الماضي هي التي ألهمت السيد ناكامورا لكتابة قصيدته الأخيرة، لذلك أرسلت لهما نسخة منها، واختتمت السيدة ناكامرا رسالتها بالقول إن أسرة السيد ناكامورا كانت إلى جانبه عندما لفظ أنفاسه الأخيرة. وأنهم يعرفون أنه كان رجلاً رحيماً لا يحتمل حتى رؤية حيوانات تتألم. كان يعرف أنه رجل مبارك ومحظوظ عاش حياة جيدة.

التقطت السيدة توموكاوا الصفحة المنفصلة التي نُسخت عليها قصيدة الموت، وقرأتها لزوجها:

الجليد الشتوي
يذوب ليصبح ماء نظيفاً -
رقراقاً مثل قلبي.

- ٦ -

يخيّل إليّ أحياناً أنه أكثر الرجال وحدة وعزلة في العالم، قالت إيلا إيفانز ذات ليلة في حفل عشاء أقامته اللجنة التنفيذية لكليّة

الجرّاحين، فضحك الجميع. دوري العزيز العجوز؟ تخيّلتهم يفكّرون. أعز صديق لكلّ رجل؟ الشهوة الخفيّة لكلّ امرأة؟

لكنّه كان يعرف أنها تعرف. فقد كان وحيداً في زواجه، وحيداً مع أطفاله، وحيداً في غرفة العمليات، ووحيداً في الهيئات والمجالس الطبية والرياضية والخيرية ومجالس المحاربين القدماء الكثيرة التي كان يشارك في عضويتها. كان وحيداً وهو يخاطب اجتماعاً يضم ألف أسير حرب. كان محاطاً بفراغ مؤلم. خواء مستغلق يغلّف أكثر الرجال شهرة، كما لو كان يعيش في مكان آخر - يكشف إلى الأبد حلماً بلا حدود، أو كابوساً لا نهاية له، يصعب معرفة ذلك - لا يمكنه الإفلات منه. إنه منارة لا يمكن أن تضاء مجدداً. في أحلامه، يسمع أمّه تناديه من المطبخ: يا ولد، تعال إلى هنا يا ولد. وعندما دلف إلى المطبخ، كان معتماً وبارداً. كان المطبخ ينتصب على أعمدة متفحّمة يملأه الرماد ورائحة الغاز، ولا يوجد أحد في البيت.

لم يكن دوريغو إيفانز يعتبر زواجه أرضاً قاحلة. حاشى لله. فقد كان يشعر بقوة بأنه ليس من المجدي أن يعتبر زواجه فاشلاً، أو أن يفكّر بأنه لا يحبّ إيلا. ومثل الزيجات المرتّبة - كانا هما من رتّباه باعتراف الجميع - فقد كانا يشتغلان على الحبّ. فعندما التقى بإيلا أول مرة، لم ير إيلا إلّا من خلال موشور زوجة المستقبل لأن الزواج كان يشغل تفكير الجميع. وكان الزواج في عقله الشاب مزداناً بقصائد شعرية، وكزوجة لرجل كان من الواضح أنه سيتبوأ مكانة مرموقة، بدت له إيلا امرأة مثالية: محبّة، شغوفة، عازمة أكثر منه على رؤيته وهو يرتقي إلى مناصب أعلى. وتآلفت إيلا مع عاداته وغاصت في قراءة الأدب. كان يعتقد أن كلّ هذه الأمور هي الحبّ،

لكن على الرغم من ذلك، سرعان ما بدا أن كل ذلك لم يكن كافياً بعد زواجهما، لكنه تقبل الأمر كما هو.

وعندما بدأ جسد إيلا يتحول إلى دوائر براقة عندما حملت بأطفالهما، وأصبح ثدياها الممتلئين وحلمتاها الداكنتين بالغة الروعة، فضلاً عن أفكارها الغير متوقّعة، وهالتها الغريبة التي كان من الممكن أن تكون أي شيء إلا أن تكون مملة، فقد ازداد حبّه لها. وقبل أن يصبح حجم خياناته الزوجية يعني أنها لم تعد تستطيع احتمال أن يكون في السرير معها، كان ينحني فوق ظهرها، يشمّها ويعرف سلاماً لم يكن سيجده لولا ذلك. ولم يكترث بأن يوضح لها بأنه لا يعتبر الجنس خيانة، بل النوم مع شخص آخر هو الخيانة. وهذا ما لم يفعله قط.

وكان حبّه لأطفالهما الثلاثة - جيسيكا وماري وستيوارت - يزداد كلما ابتعد عنهم. كان موقفه يمثل إهمالاً حميداً. ولم يكن يتوقّع أن يقلدّوه في علاقته مع إيلا. فلم يكن يطيق مشاعرهم العدائية والباردة تجاه بعضهم بعضاً. كان ذلك يحطم قلبه، وكان يأمل في ألّا تستمر هذه المشاعر بينهم طوال حياتهم، وكان يرجوهم بأن لا يعامل أحدهم الآخر بقسوة وبنفس الفظاظة التي كان يعامل فيها إيلا، واعترف بأنه لا يصلح أن يكون أباً، لكن كان عليه أن يواصل مهمته، لأن مواصلة المهام كان ديدنه في كلّ ما يفعله، وتساءل هل يعد ذلك استسلاماً للرعب الذي يتملكه.

وعندما يكون هو وإيلا في صحبة آخرين، فإنهما يكونان في أفضل حالهما. ففي هذه الأوقات، يجد أحدهما الآخر رائعاً - حتى أنه عندما سمع إيلا تردد في إحدى حفلات العشاء، بديع. بديع! أُعجب بها ورثى لحالها لأنها تعيش معه. وسمعها تقول لأصدقائها بكلّ صدق بأن الحرب ومعسكرات أسرى الحرب لن تدعه وشأنه.

كان يبدو له أنها تريد أن تجعل منه مأساة، وكان هو، الذي رأى الكثير من المآسي، يغضب لشدة سذاجتها، وتضخّيمها للأمور بطريقة مسرحية لتصنع زوجها من جديد. كان يتمنّى أن تلعنه لأنه أصبح هكذا - لقيطاً. لكن ذلك أكثر مما تحتمله إيلا. لكنها كانت تحبّه بطريقتها، أي أنها كانت ترفض أن تتخلّى عنه بعد أن تخلّى هو عن نفسه منذ أمد بعيد. وراحت تقصّ شعرها وتصففه بأسلوب فرانسوا هاردي، وتدخن سجائر سوبراني الأرجوانية اللون، بأمل إغوائه. وظلت رقتها- التي كانت بالنسبة له دائماً من أجمل ملامحها - مع أنها كانت تغلّفها على نحو متزايد بدخان معطّر كان يجده مقيتاً.

ماذا تريد؟ سألته إيلا، وأخذت سيجارة السوبراني من بين شفتيها. كان هذا هو السؤال الذي لا توجد له إجابة. وعندما كان يكذب ويقول: لا شيء، أو يكذب ويقول: *الطمأنينة*، أو يكذب ويقول: *أنتِ*، أو يكذب ويقول: *نحن*، كانت تقول له: لكن ماذا تريد حقاً يا ألوين؟ قل لي، ماذا؟ ماذا؟

ماذا حقاً؟ كان يتساءل.

أهي أجسادهن فقط، الجنس، هل هذا كلّ ما تريد؟ قالت. هدوؤها كان يجرحه أكثر من أيّ غضب. لتبلل طرفك؟ سألته. هل هذا ما تريد؟

برودة أعصابها، صراحتها الدنيئة، حزنها الشديد - هل هذه الأشياء التي جعلتها كذلك؟

هل هذا كلّ ما تريد؟ قالت إيلا، ونفثت دخاناً كثيفاً من سيجارة سوبراني. هل هذا كلّ ما تريد؟

هل هذا ما يريده؟ لشدّ ما يكره ذلك الدخان. كان يخشى أنه هو الذي جعلها امرأة فظة، المرأة التي كانت بعكس ذلك تماماً. فكّر كيف ينظّم العالم أموره لكي ترتكب الحضارة كلّ يوم جرائم يُحكم

على مرتكبها بالسجن مدى الحياة. وكيف يقبل الناس ذلك إمّا بتجاهلها وتسميتها الأخبار اليومية أو الشؤون السياسية أو الحروب، أو بصنع فضاء لا علاقة له بالحضارة ويسمّون هذا الفضاء حياتهم الخاصة. وكلما ابتعدوا عن تلك الحياة الخاصة أكثر، تحولت تلك الحياة الخاصة إلى حياة سرية، وباتوا يشعرون بحرية أكبر. لكن الأمر ليس كذلك. إنك لست حراً من هذا العالم على الإطلاق. إن تقاسم الحياة هو تقاسم الإثم. لا يستطيع أي شيء أن يغسل ما يشعر به. نظر إلى إيلا.

هل هذا هو السبب؟ قالت إيلا.

ليس الأمر كذلك، قال.

بدت كلمات جوابه متكلّفة لا يمكن تصديقها. بل، الأسوأ من ذلك، بدت ضعيفة، ولم تفعل إيلا شيئاً سوى أنها هزّت رأسها. وبالرغم مما قاله، فقد كانت تفضّل دائماً أن تسمع أكاذيب قوية على أن تسمع حقائق واهية.

وبالإضافة إلى صراحتها غير المعهودة، بدأت إيلا تضع في منتصف عمرها عطراً ذا رائحة نفاذة، وكان الدخان الخانق المنبعث من سجائر سوبراني يمنحها رائحة يجدها مثيرة أحياناً، بل مثيرة جنسياً، لكنه كان يجدها في أحيان كثيرة - على نحو متزايد - نتنة وخانقة، مثل خزانة ملابس قديمة ستمنح إلى الجمعيات الخيرية. لشدّ ما كان يتمنّى ألّا تستخدم هذا العطر، وألّا تدخّن سجائر سوبراني، وألّا تصفف شعرها بأسلوب فرانسوا هاردي، لأنه كان يرى أن هذه الأشياء ما هي إلا قناع تغطي فيه شجاعتها، واعتزازها، وحزنها الهائل المؤلم الذي يخفق في أرجاء بيتهما. لشدّ ما كان يتمنّى أنه لم يجعلها امرأة قاسية.

- ٧ -

في سنواته الأولى مع إيلا، كان دوريغو يفكر بأيمي كثيراً. وكان يتساءل ما الشيء الذي عرفه مع أيمي، لكنه لم يعرف ما هو. كان يبدو له أنها قوّة تفوق الحبّ. تذكّر أن لقاءهما الأول كان لقاء عادياً، وكان قد لاحظ الشامة فوق شفتها التي حجبتها ذرات الغبار، لا لأنها كانت جميلة، بل لأن رؤيتها من خلال عواميد الضوء المغبّر كان رائعاً. تذكّر الحديث الغريب الذي دار بينهما، لا لأنه كان فاتناً، بل لأنه كان مسلّياً له بشكل غامض. وتذكّر كيف أنه عندما عاد في اليوم التالي إلى المكتبة ليشتري ديوان الشاعر اللاتيني كتولوس، كانت ذاكرته عن الكتاب أقوى من ذاكرته عنها. كان لقاؤه مع تلك الفتاة التي تضع زهرة كامليا حمراء في رأسها لقاء غريباً من نوعه، وكان يعرف أنه سينساه بسرعة.

لكنه لم ينسها في السنوات الأولى التي أعقبت الحرب، بل أضحت أيمي سبب وجوده كله لفترة من الزمن، لكنها بدأت تنحسر هي أيضاً من ذاكرته. وفي محاولة للهرب من قدر الذاكرة، اكتشف بحزن شديد أن ملاحقة الماضي لن تفضي إلّا إلى إلحاق خسارة أكبر به. إن تذكر إيماءة، رائحة، ابتسامة، يعني أنها شيء ثابت، قناع موت ملصق على وجهه ما إن يُلمس حتى يتفتت بين أصابعه ويتحول إلى ذرات من الغبار. وكما تفتت ذاكرته عن أيمي على مرّ السنين، أضحت إيلا أقوى حليف له، والناصح الذي يثق به. فقد كانت تهدئ من روعه عندما يغضب، وتشجّعه عندما تواجهه صعوبات، ورويداً رويداً، حدثاً فحدثاً، في التداعي والانهيار الطيني للحياة، بدأت ذاكرته عن أيمي تُدفن، حتى بات يجد صعوبة في تذكّر أي شيء عنها. كانت تمرّ أسابيع كاملة يدرك فيها أنه لم يعد يفكّر فيها،

ثمّ أصبحت تلك الأسابيع شهوراً، وبدأت تمرّ شهور عديدة لا تخطر فيها على باله. وبدأ يشمّ على نفسه تلك الرائحة الغريبة ذاتها، تغطي تواطأً بأشياء صغيرة مشتركة - الطعام والمناشف وأدوات المائدة والأكواب، والغرض المشترك للحياة الذي كانا يسعيان إليه معاً - الرائحة التي كان يكره أن يشمّها على كيث مولفاني.

لقد نشأ بينه وبين إيلا تواطئ في تجربتهما، كما لو أن تربية الأطفال عمل يدعم فيه أحدهما الآخر بسبل عملية رقيقة، وتلك السنوات ثم العقود من الأحاديث الخاصة والعلاقات الحميمية الصغيرة - رائحة كل منهما عندما يستيقظان، الصوت المرتعش لأنفاس كلّ منهما، عندما يكون أحد أطفالهما متوعكاً، والأمراض والأحزان والرعاية والرقة الغير المتوقّعة والمفاجئة - كما لو أن كلّ ذلك كان ملزماً أكثر، أكثر أهمية ولا يمكن تجاهله، من الحبّ، مهما كان ذلك الحبّ، لأنه كان مرتبطاً بإيلا. وبالرغم من ذلك، فقد نشأت لدى دوريغو إيفانز مشاعر بالوحدة وبالعزلة الصاخبة التي كان يريد أن يكسر رنينها الصامت مع امرأة أخرى. وحتى لو خذلته حيويته، كان يكتفي بالمغازلة الدونكشوتية، وإذا لم تكن هناك رغبة حقيقية لدى أيّ منها، فقد كان ذلك يضيف إلى عزلته. وبدلاً من أن يؤدي ذلك إلى وضع حد لصيحة خلوته، كان يضخّمها ويزيدها قوة.

وكما أن سقوط نيزك منذ أمد بعيد قد يفسّر وجود البحيرة الكبيرة الآن، فإن غياب أيمي كان يشكّل كلّ شيء، حتى عندما - وأحياناً - وخاصة عندما لم يكن يفكّر فيها. ورفض رفضاً قاطعاً زيارة أديليد، حتى لو عُقدت فيها اجتماعات مهنية رئيسية، أو احتفالات للمحاربين القدماء. وكان اهتمامه الوحيد في الحديقة - الذي يعتبر من مهام إيلا والبستاني - ينحصر في قطف زهرة كاميليا

حمراء كبيرة وجميلة، الأمر الذي كان يثير حنق إيلا عندما انتقلا إلى بيتهما الجديد في توراك. وكانت خيانته الدائمة تكمن، على نحو غريب، في الوفاء لذكرى أيمي - كما لو أنه بخيانته لإيلا، كان يكرّم أيمي. لم يكن يدرك ذلك، وكان سيصاب بالذعر إن قال له أحدهم ذلك، مع أن أيّ امرأة كان قد التقى بها طوال تلك السنوات كانت تعني له شيئاً.

ومع أن النساء كن يأتين ويذهبن، مصدومات، حائرات، غاضبات، فقد استمر زواجه، واستمر عمله، واستمرت مكانته في الارتقاء والصعود. فقد ترأس أقساماً، وأجرى مراجعات وتحقيقات وطنية في مجال الصحة، واكتشف أن نوايا الناس الحسنة غالباً ما تتناقض مع مناصبهم ومواقعهم الاجتماعية، وشُده عندما سمع أحد المتحدثين في حفل عشاء يصف التهتك في حياته بأنه *عمل متألّق*. تلاشى هذا الشعور، وتحوّل إلى خيبة أمل مربكة. وكان يضطر إلى السفر كثيراً، ويمضي فترات طويلة من الملل والانتظار، تتخللها لقاءات غير ضرورية مع أشخاص يعانون كذلك من دوار الإنجاز. وفي الليالي المؤرقة التي كان يمضيها في الغرف المحكمة الإغلاق التي تفوح منها روائح المنظفات والمواد الكيميائية الكريهة، كان يتساءل لماذا بدأ عدد الأشخاص المثيرين للاهتمام يقلّ شيئاً فشيئاً. وعلى نحو لا يمكنه تفسيره، كانت سمعته تتصاعد باضطراد. المقالات الصحيفة، والمقابلات التلفزيونية، واللجان، ومجالس الإدارة، والمناسبات الاجتماعية المملة التي كان عليه أن يحضرها والسخيفة إلى درجة لا تصدق إلى حد أنه بات يخشى أن يرى انحناء الأرض إذا أمعن النظر. هكذا هو العالم، كان يقول لنفسه. هكذا هو دائماً.

وفي مساء أحد الأيام، اسُتدعي إلى المستشفى في حالة طوارئ

في وقت متأخر لاستئصال زائدة دودية. كان اسم المريضة الشابة أيمي غاسكويجن.

أيمي، أمانتي، أمور، همهم وهو يغسل يديه.

ضحكت رئيسة الممرضات الواقفة بجانبه عند المغسلة التالية التي تعوّدت سماع الجرّاح وهو يردد أبياتاً من الشعر، وسألته عن اسم القصيدة التي يرددها. عندما دخل إلى غرفة العمليات، أدرك دوريغو إيفانز أن هذه هي المرّة الأولى التي فكّر بأيمي شعورياً بعد سنوات عديدة.

نسيت، قال.

لقد سُرق نور الشمس وسقط على الأرض. للحظة كان عليه أن يبتعد قليلاً عن الطاولة ويتمالك نفسه لكي لا يرى مساعدوه ارتعاشة مبضعه.

- ٨ -

خلال تلك السنوات جدّد دوريغو إيفانز علاقته مع أخيه، توم. فقد وجد في ذلك بلسماً للوحدة التي كان يعاني منها، حتى مع إيلا وأطفالهما. ووجد آنذاك أن بإمكانه أن يمضي وقتاً مع توم - على الهاتف مرة في الشهر، تحولت بعد فترة إلى زيارة سنوية يقوم بها إلى سيدني في منتصف الشتاء، ومع ازدياد شهرته بدأ يسافر إلى سيدني أكثر - ذلك القرب الخاص الذي يجمع الأشقاء في بعض الأحيان. إن الصحبة السهلة التي لا ترغم المرء على التحدث عن أمور كثيرة، والتي لا ينطوي الإحراج والخطأ فيها على أي أهمية، وذلك الإحساس الغريب بوجود روح مشتركة غامضة يجري التعبير عنها

بأحاديث تافهة عديمة الأهمية. ومع أنه لم يكن هناك شيء مشترك يكاد يجمعهما سوى صلة الدم، فقد كان دوريغو إيفانز يشعر بأن شقيقه توم ما هو إلا جانب من شيء أضخم، جانب مكمّل أو مختلف آخر، ولم تكن لقاءاتهما تشكل تأكيداً قوياً لفناء نفس أحدهما في الآخر.

توفي والدهما بعد سنوات من وفاة والدتهما بنوبة قلبية في عام ١٩٣٦. وكان دوريغو أصغر أشقائه السبعة، ولم تكن علاقته قوية مع أشقائه الذين تشتتوا في أرجاء أستراليا قبل سنوات الكساد الاقتصادي بحثاً عن عمل، وقد عملت أخواته الأربع في منشآت لجزّ الصوف في المقاطعات الغربية لإقليم فيكتوريا، ولم يكن يعرفهن معرفة جيدة، وحضر جنازاتهن في الخمسينات من القرن العشرين عندما توفين بعد أن حطمتهن الحياة. وكان يعتبر أطفالهن وأزواجهن غرباء، لكنه ظل يساعدهم جميعاً عندما كانوا يطلبون مساعدته. وكانت مارسي، آخر تلك الشقيقات التي كانت كذلك أكبرهن سناً، والتي كان يعيلها طوال عقد من الزمن، قد توفيت في ملبورن في عام ١٩٦٢ بعد إصابتها بسرطان لم يُكتشف من قبل. وتوفي شقيقه الأكبر، ألبرت، الذي كان يعمل في قطع قصب السكر في أقصى شمال كوينزلاند، في انفجار وقع في معمل لتكرير السكر في عام ١٩٥٦. وانتهى المطاف بتوم في سيدني بزواج لم يثمر عن أطفال، وكان يعمل في ورشات السكك الحديدية الضخمة في ريدفرن. وبعد أن أحيل على التقاعد، أمضى أيامه الباقية في زراعة الخضراوات في باحة بيته الخلفية في بالمين، وفي لعبة رمي السهام في الحانة المحلية في منطقته.

وفي شباط ١٩٦٧، قررت إيلا أن تمضي أسبوعاً في تسمانيا مع أولادها في بيت شقيقتها التي كانت قد انتقلت إليه مع زوجها مؤخراً.

وكانت هذه الزيارات التي تتم بدون دوريغو، بزعم أنها أجمل جزء في حياتهما المشتركة، تشكل ما تبقى لهما كأسرة. لذلك، كانت إيلا تخطط لها، ويوافق عليها دوريغو، وكان الأطفال يكرهونها ويعتبرونها شكلاً من أشكال العقوبة الإصلاحية التي تُعرف *بالفترة العائلية*.

في يوم السبت الذي سيسافرون فيه بالطائرة إلى هوبارت، اتصل أحدهم بدوريغو وأخبره بأن شقيقه توم أصيب بنوبة قلبية، فاعترته مشاعر مختلطة: فمن ناحية انزعج، ومن ناحية أخرى، منحه ذلك سبباً جيداً لكي لا يمضي اليوم أو اليومين الأولين على الأقل في تسمانيا، فحجز بالطائرة إلى سيدني في مساء ذلك اليوم. وبما أن توم كان قد تناول مهدئات قوية يوم الأحد، فلم يتمكن دوريغو من التحدث إليه إلّا يوم الإثنين.

أخبره توم أنه أصيب بالنوبة القلبية عندما كان في فندق كنت على وشك أن يرمي عين ثور.

عين ثور؟

إنها موجودة في الحقيبة، قال توم. كانت طريقة محرجة لعينة. في بركة بول على الأرض وفي قفازك سهم. كنت أفضّل أن يكون ذلك في مكان منعزل، مثل مزرعة بندورة.

كان شقيقه ثرثاراً كثيراً، وسرعان ما وجد دوريغو نفسه غارقاً في الذكريات عن طفولتهما في تسمانيا. كان توم يشكل دورة أغنية لانهائية من قصص كليفلند التي كان دوريغو يعرف بعضها، ولم يكن قد سمع عن بعضها الآخر. وذُكر اسم دوفي يايتس، وتذكّر توم كيف كان دوفي يتبجح بأنه يستطيع أن يسابق القطار، وعندما تحدّاه الفتيان الآخرون لإثبات ذلك، خلع ثيابه وبقي في سرواله الداخلي الأبيض

الطويل وراح يجري يسابق قطار لونسيستون المتجه إلى هوبارت وسط أشجار الصمغ والنباتات المتشابكة الرمادية التي تكسو غابات كليفلند. وعندما اختفى القطار بعد أن أطلق صافرته وانعطف نحو تقاطع كونارا، وقع دوفي على الأرض وأصيب جسمه بخدوش، منهكاً، واعترف بهزيمته.

كان مستعداً للقيام بأي شيء، قال دوريغو.

كان لا يزال يرقص وحده عندما بلغ الخامسة والثمانين من العمر، قال توم. وفي النهاية تمكن من تجميع سيارة ليلاند ٧٦ إس. سيارة رائعة. وأوصى بأن يدفن وهو مستلق على بطنه لكي يقبّل الجميع مؤخرته إلى الأبد، لكنّي أتذكّره دائماً وهو يجري في الغابة بسرواله الداخلي الأبيض الطويل. هكذا هي الحياة، أليس كذلك؟ هل تظن أنك تقدر على أن تسبق القطار، وأنك أفضل منه. إنه يسخر منك في كلّ مرّة. إنه يجعلك مرهقاً وترتمي على الأرض بينما يمضي بعيداً مطلقاً بخاره وصافرته، سعيداً بنفسه.

ضحكا.

أظن أنك تعرف أن دوفي هو ابن عم جاكي ماغوير، قال توم.

لم يكن دوريغو يعرف ذلك. راح يتحدث بولع شديد عن ذكرياته في قراءة الشعر ومقالات نصائح العمّة روز لتوم وجاكي ماغوير.

جاكي العجوز، قال توم. كان رجلاً طيباً. من أفضل الناس. كان يعرف الغابة. كانت زوجته سوداء. هل كنت تعرف ذلك؟

للحظة أو لحظتين، لم يتذكر دوريغو زوجة جاكي ماغوير. ثمّ اندفعت ذاكرة خاملة طويلة - ذاكرة أزعجته وشكّلته على نحو ما أكثر مما كان يعرف بكثير - إلى مقدمة عقله. وعلى الرغم من أن دوريغو كان قد سمع حكايات غامضة عن الدم الإسباني الأرستقراطي، أحد

الأعذار التقليدية في تسمانيا، فلم يكن يعرف أنها كانت من السكان الأصليين، وقاده ذلك إلى طرح أسئلة كان يتوق دائماً إلى أن يسألها.

آنذاك، كلّ تلك السنوات الماضية، قبل أن تختفي مباشرة. لقد رأيتك معها.

السيدة جاكي ماغوير؟

كنت تقبّلها.

أقبّلها؟ أين؟

في قنّ الدجاج القديم خلف فندق سانت أندروز.

لم أكن أقبّلها.

لقد رأيتكما. كانت تضمك إليها.

كنتُ عائداً من صيد أرانب. كانت تعلّق الغسيل. لم يكن لديّ ما أفعله فساعدتها. عندما أعود بذاكرتي، يمكنني أن أرى أنها كانت في حالة يرثى لها. لكن الأمر لم يكن سيئاً إلى تلك الدرجة. كنّا نتحدّث فقط. قصص عائلية. عن الناس. وبدأت أقول ما لم أقله لأحد. أشياء كنت قد رأيتها. أشياء عن الحرب. ثم أصبح الأمر شاقاً عليّ. إني أتذكّر ذلك، فبدأت ألهث ولم أعد قادراً على التحدّث جيداً. كنت ضائعاً. فضمتني إليها مثل طفل. هكذا كان الأمر، بشكل عام.

كنت تدسّ وجهك في عنقها.

كنت أبكي يا دوري. كنت أبكي بحق المسيح.

ماذا حلّ بها يا توم؟ لماذا اختفت؟ كنت أتساءل دائماً: ماذا حلّ بها.

كان جاكي العجوز يسافر معها أحياناً. كان يحبّها، لكنّها كانت تصغره بعشرين سنة. لم تكن سعيدة وكان يعرف ذلك. ماذا كان

بإمكانك أن تفعل؟ لم تكن العمّة روز ستساعدك. كان جاكي رجلاً طيباً، لكنه بدأ يُكثر من الشراب. هذا كلّ ما أعرفه. لكني لا أعرف إلى أين ذهبت. لسنوات كثيرة. لكني استلمت منها رسالة هنا في سيدني. قالت إنها ذهبت إلى ملبورن، ثمّ إلى نيوزيلندا، وتزوّجت عامل بناء في أوتاغو. لم تقل شيئاً آخر. لم تذكر في الرسالة شيئاً آخر. كانت في الرسالة ملاحظة كتبتها ابنتها قالت فيها إن أمّها طلبت منها أن ترسل لي هذه الرسالة بعد أن تموت. هذا كل ما في الأمر. يخيّل إليّ أنها كانت تعرف أن آخرين سيقرؤونها لذلك لم تأتِ على ذكر جاكي العجوز، ولم تذكر أسرتها هنا في تاسي.

ثم انتقلا إلى التحدث عن مباريات كرة القدم التي كانت تقام في كليفلند، وإلى عربة جو بايك، وإلى اليوم الذي دخل فيه الرجل الذي يعمل لدى الكولونيل كاميرون إلى مطبخهم يحمل بندقيته يجري وراء كلب توم وقال إن الكلب قتل خراف الكولونيل كاميرون، فخرج توم من غرفة نومه حاملاً بندقيته، وهدده قائلاً إن أطلقت النار على كلبي فإني سأطلق عليك النار.

بدا توم منهكاً. ودّع دوريغو شقيقه ليستريح، وقال يطمئنه إن بين أيد أمينة، وغادر. كان لا يزال في البهو عندما سمع صوتاً قديماً يناديه من الخلف.

روث!

توقف دوريغو إيفانز، ثم التفت. في وهج البهو الزرنيخي الأخضر، بدا شقيقه الذي كان يحاول أن يدفع نفسه إلى الوراء ويستند إلى منحدر الوسادات، فجأة أنه لم يعد يشبه توم على الإطلاق - رجل ظلت صورته في مخيّلة شقيقه الأصغر ثابتة حتى تلك اللحظة التي تمثّل حيوية الشباب وعنفوانه - بل رأى رجلاً عجوزاً سقيماً.

كان اسمها روث.

تسمّر دوريغو إيفانز في مكانه، وراح يحدّق في وجه الغريب الذي كان شقيقه، غير متأكد ماذا يقصد توم أو ماذا يريد. عاد إلى الغرفة وجلس على طرف سرير توم. امتص توم الهواء إلى الداخل ثم أخرجه، محاولاً أن يتكلم مرة أخرى. انتظر دوريغو. رفع توم جسده إلى الأعلى من بقعة مقعرة في الفراش إلى بقعة مستوية، وعندما راح يتكلّم، لم ينظر إلى أخيه، بل راح ينظر إلى الجدار البعيد.

السيدة جاكي ماغوير. كان اسمها روث يا دوري. روث. وقد أنجبت روث طفلاً.

هنا صمت. لم ينبس دوريغو بكلمة واحدة. رفع توم نفسه فوق الوسادات مرة أخرى، نخر وسعل.

نعم، طفل. في تموز ١٩٢٠. كان ثالث طفل لها. كيف أخفت ذلك، لا أعرف. لكنّها فعلت ذلك. كان جاكي مسافراً، يبحث عن عمل في وسط البلاد - أظن أنه وجد عملاً في أعالي نهر ديامانتينا، وكانت له صديقة هناك. لم يكن جاكي يعرف شيئاً عن الطفل. لم يكن أحد في كليفلند يعرف. كانت ترتدي ثياباً فضفاضة - إنك تتذكّر كيف كانت الأمور هناك. لم تكن باريس، بل كانت فترة من العصور الوسطى اللعينة. كان بإمكانك أن تفلت من أي شيء مهما كان، لذلك أظن أنها أحسنت صنعاً. لقد ولدت الطفل في لونسيستون. صبي، ثم أرسلوه إلى هوبارت. في ذلك اليوم، كنت منهاراً بسبب الحرب فضمتني إليها كما قلت لك، وأخبرتني عن الطفل. كانت قد اكتشفت ما حدث له.

لكن لماذا يا توم؟

ازدادت عينا توم الدامعتين حدة، تشنج جسده الضعيف، وشعر دوريغو بأن شيئاً عاد إلى الرجل الذي كان معجباً به.

كنتُ أنا ذلك الأب اللعين، هذا هو السبب الرهيب.

التفت توم أخيراً لينظر إلى أخيه. اخترقت عيناه عيني دوريغو. كان بؤبؤا عينيه صغيرين وخاويين بشكل غريب. كانا يبدوان مثل فتحتين في صحيفة قديمة أُحرقتا بعود ثقاب.

قامت أسرة تدعى غاردنر بتربية الصبي. كانت عائلة موسرة. لقد أزعجها ذلك، وأزعجني. لكن ماذا يمكنك أن تفعل؟ لا لأنهم كانوا يعتنون به، بل لأننا لم نكن نحن من كنا نعتني به. لم يكن سيلاحقه أحد ويطالب باستعادته ويربك حياة الجميع - حياته، حياتهم، حياتها، حياتي، حياة جاكي. لا. لم يكن هناك أحد سيفعل ذلك. كان أحد تلك الأشياء التي يجب أن تتعايش معها. بعد الحرب الأخيرة، صادفتُ شخصاً من هوبارت يعرف الأسرة. يبدو أنهم أطلقوا على الصبي اسم فرانك. لقد مات أثناء الحرب. ابني الوحيد، حتى أنني لم أره في حياتي. في أحد معسكرات أسرى الحرب الفظيعة التي كنتَ أنت فيها في تايلند.

- ٩ -

في عصر ذلك اليوم، كانت سيدني تعجّ بالجنود الأميركيين القادمين من فيتنام للاستراحة والاستجمام. وكانت الحرارة القائظة تلهب المدينة. ولكي يهرب من الحرارة اللاهبة ومن الجنود الأميركيين، ولكي يستوعب ما أخبره به توم، قرر دوريغو أيفانز الذي ينصح مرضاه عادة بأن المشي هو أفضل دواء، أن ينفذ نصيحته.

سار من المستشفى باتجاه ساحة سيركيولار كاي، ثم وجد نفسه يتهيأ للابتعاد عن الحشود الكثيفة هناك، ويعبر جسر ميناء سيدني

ليزور صديقه الجرّاح في كيريبيلي. كان من الممتع أن يضيع بين المتفرجين على معالم المدينة، ومن ممشى الجسر العريض، رأى مشاهد سيدني الممتدة على مدى البصر.

توقف عند منتصف الجسر. هبّت نسمات بحرية شرقية خفيفة، وراح يحدّق في الماء الذي كان يسعل أمواجاً بيضاء وزرقاء. وعلى مسافة غير بعيدة، كانت تنتصب رافعات برجية كأنها حراس يحيطون بالأشرعة العارية العملاقة لدار الأوبرا الجديدة التي ذكّره هيكلها العظمي المعقّد بعروق أوراق أشجار الصمغ الجافّة الرفيعة. وكانت شمس الأصيل من خلفها تطوي المدينة إلى أحزمة صلبة وبراقة من النور والظلّ. وعندما ابتعد عن السور الجانبي وواصل سيره، لمحها من بعيد تخرج للحظة من أحد تلك القضبان من الظلام المائل نحو الضوء.

بعد لحظات قليلة رآها مرة أخرى. كانت تسير باتجاهه، يؤطرها قوس البرج العظيم المشيّد من الحجر الرملي الذي يسند طرف الجسر الشمالي، رأسها يتمايل مثل بقايا سفينة تطفو فوق رؤوس المشاة المتموجة من حولها. وقف عند الجانب الخارجي من الممشى العريض، في الظلّ الذي ألقاه حديد أسوار الجسر الواسع. ركّز كيانه كله على هذه المرأة الغريبة التي راحت تدنو منه من الجانب الداخلي للممشى. شبح يسير تحت نور الشمس، ثم سرعان ما اختفت عن بصره.

عندما رآها للمرّة الثالثة بين الحشود، كانت قد اقتربت أكثر. كانت تضع نظارات شمسية عصرية، وترتدي فستاناً بلا ردنين أزرق غامقاً، وتلف حول خصرها حزاماً أبيض. كانت ترافقها فتاتان صغيرتان، تمسك كلّ منهما بيد. كان ضجيج السيارات يحدث ارتجاجات قوية في هيكل الجسر الحديدي. تمكّن من رؤية

الطفلتين: تضحكان، تدردشان، ثم تردّ عليهما. ومع أنه لم يكن يسمع شيئاً، عرف أنها ليست شبحاً.

كان يظن أنها ماتت، لكن ها هي تسير الآن باتجاهه. لاحظ أنها تقدمت في السن، لكن الزمن جعلها تبدو في نظره، أكثر، لا أقل، جمالاً، كأن العمر، بدلاً من أن يأخذ منها، كشف عن حقيقة من هي.

أيمي:

وأدرك أن هوة السنوات - بحروبها التاريخية واختراعاتها الشهيرة وفظائعها وعجائبها الإعجازية التي لا تعد ولا تحصى - كانت جميعها من أجل لا شيء. وأدرك أنه لم يكن للغبار الذري، والحرب الباردة، وكوبا، وأجهزة راديو الترانزيستور، أي تأثير على تبخترها، مشيتها المضطربة، وعلى ثدييها المتوثبين اللذين يتوقان للانطلاق والانعتاق وعلى عينيها المخفيتين. وبدا له أن شعرها المبيض يليق لها أكثر مما كان في الماضي، وجعلها جسدها الذي كان ربما أصبح أنحف قليلاً الآن، تبدو أكثر غموضاً، وبدا له أن وجهها النحيف بقسماته البارزة مليء باعتزاز ذاتي اكتسبته بشق النفس.

بعد ربع قرن من رؤيته لها أول مرة من خلال أعمدة الضوء المغبّرة في مكتبة أديليد، صُدم بأن التغيرات القليلة التي طرأت عليها لم تكن تعني له كثيراً، فقد استعاد الآن مشاعر كثيرة ظن أنه كان قد فقدها إلى الأبد، بقوّة هائلة تماماً كالتي غمرته عندما رآها في المرة الأولى.

هل يتوقّف أم يواصل سيره؟ هل يصرخ أم لا يقول شيئاً؟ يجب أن يحسم أمره بسرعة. لديه بضع لحظات فقط ليزن خلالها الحيوات

المعروفة والمجهولة، حياته الآن، حياتهما لاحقاً، حياتها التي لا يمكن تصوّرها الآن. أصبح بوسعه الآن أن يرى الطفلتين جيداً ليدرك أن لديهما ما أحسّ أنها ملامحها ذاتها. كان فيهما شيء لم يكن هي، وقد آلمه ذلك أكثر مما كان يخيّل إليه بكثير. ربما كانتا ثمرة زواجها. وجد صعوبة في التنفّس. جالت في خاطره ألف فكرة مجنونة ومثيرة للجنون وهو يسير باتجاهها. قال لنفسه إنه لا يستطيع أن يقتحم حياتها، وأن يحدث فيها شرخاً. وقال بما أنه لم يَضِع شيء، فإن بإمكانهما البدء من جديد.

بدأت تدنو منه أكثر. حاول أن يمشي ببطء بينما عقله كان في سباق. قرقعت بطنه ولم تعد خطواته متوازنة. أصبح قريباً منها الآن بما يكفي ليرى الشامة الصغيرة فوق شفتها العليا. لكنه لم يرها الآن جميلة، ولم ير أنها كانت جميلة على الإطلاق. كان يريدها هي فقط. كانت تضع قلادة أثارت تمرد ذاكرة لا يمكن السيطرة عليها. هل رأته؟ سيناديها. نعم سيناديها! وعندما أصبح نور الشمس كله وراءها، رآها تمسك بثوبها بين إبهامها وسبّابتها وترفعه قليلاً لتغطي شقّ صدرها. لوهلة، ربما، توقّع أنها في ذلك الضوء الفائق ستستقبله وتضمه بين ذراعيها، وترحب به في حياتها.

لكن يوجد ضوء واحد في بداية الأشياء.

عندما كان على وشك أن يقول شيئاً، أدرك أنهما تجاوزا بعضهما دون أن ينبس احدهما بكلمة. ظل يمشي في الظلّ، وظل يحدّق إلى الأمام. لم يفهم الأمر جيداً. كانت هي، هو، هما، الحبّ- خاصة الحبّ - مخطئين تماماً. لقد أخطأ في التوقيت. لم يصدق ذلك، لكن كان عليه أن يصدق. موتها، حياته، هما، كان كلّ شيء، كلّ شيء خاطئاً، وكانت جاذبية خطأه عظيمة جداً، ساحقة، لا يمكنه مقاومتها ليستدير ويركض عائداً إليها ويناديها.

وعندما وصل إلى الجانب الآخر من الجسر، استجمع قوته أخيراً والتفت.

لقد اختفت أيمي عن الأنظار تماماً.

توقف عند منتصف الممشى. كان الناس ينسلّون من حوله - كما لو كان عائقاً حضرياً آخر، عاموداً تُشدّ إليه حبال المراكب، صندوقاً، جسماً - وفكّر بزوجة لوط والكذبة التي تنطوي عليها تلك القصّة. أن تتحول إلى تمثال من الملح إذا التفت ونظرت إلى الوراء. أدرك أنه كان عليه أن يوقفها، وأدرك الآن بأنه لن يستطيع أن يفعل ذلك أبداً. كلّ ما كان عليه أن يفعله هو أن يواصل طريقه، وهكذا فعل.

هل اختار؟ هل اختارت؟ هل كان ثمة اختيار؟ أم أن الحياة تجرف الناس فقط، معاً وبعيداً؟

حوله، خلفه، وراءه كان هناك أناس، يتحركون في جميع الاتجاهات. جزيئات برّية تطير في الضوء ضاعت منذ عهد بعيد، كما أصبح يعرف الآن بأن كلّ شيء قد ضاع، في الفولاذ والحجارة، في البحر والشمس والحرارة الصاعدة والساقطة في السماء الزرقاء الصافية، تضيع في الرافعات والطريق السريع الهادر.

للحظة أطول، ظل متسمّراً في مكانه، طيفاً تافهاً وسط نصف الدوائر الحديدية المحلّقة، وهدير السيارات، واليوم الأزرق، والماء الفوّار. بدأ يفكّر: كم يصبح العالم خاوياً عندما تفقد من تحبّ.

ثم استدار وتابع سيره، لا درب له على جميع الدروب. كان قد ظنّ أنها ماتت، لكنه عرف أخيراً: أنها هي التي عاشت، وهو الذي مات.

بعد أن عبرن الجسر، اشترت أيمي بوظة لابنتي أختها عند رصيف الميناء الدائري، واستقللن العبّارة ليعدن إلى بيت أختها في مانلي. كانت تظن أنه مات منذ سنوات عديدة، ولم تعرف أنه لم يمت خلال الحرب إلا مؤخراً، عندما بدأ اسمه يشتهر. لماذا، لماذا، قالت لنفسها مرة أخرى عندما جلست في الجزء الخلفي من العبّارة، تراقب المياه المتلألئة وهي تنحسر، لماذا، إن لم يكن قد مات فلماذا لم يبحث عنها؟ لماذا؟ تساءلت عندما وصلت إلى بيت أختها. لماذا؟ تساءلت عندما استلقت على سريرها، منهكة. لا تستطيع أن تغفر له لأنه نكث بوعده.

لم يخطر ببالها قط أنه كان يظن أنها ماتت في الانفجار، فلا بد أنه اكتشف أنها لم تمت في صباح اليوم التالي، كما اكتشفت ذلك هي نفسها عندما كانت في طريق عودتها بسيارة الكابريوليت من الشاطئ الذي كانا قد ذهبا إليه أول مرة، والذي ذهبت إليه بعد أن أخبرها كيف أن دوريغو مات - فحزنت حزناً شديداً، ولجأت إلى هذه البقعة لتفكّر بدوريغو، ثم غفت في السيارة طوال الليل.

في السنوات الماضية شعرت بالرغبة في أن تبحث عن دوريغو، وحاولت أن تفعل ذلك عدّة مرات - حتى بعد أن عثرت على رقم هاتفه ودونته لديها - لكنّها لم تفعل. وكانت كلما فكّرت بالاتصال به، أحسّت بالحرج والارتباك. ماذا تريد منه؟ ماذا يريد منها، هل يريد أحد منهما شيئاً من الآخر؟ وكانت تتساءل في بعض الأحيان هل يتذكّرها جيداً. وإذا ما التقيا فماذا ستقول له؟ إنها كانت تظن أنه مات؟

كيف ستحدثه عن الميراث، وعن شعورها بالارتياح بعد موت كيث، وعن زواجها الثاني بعد فترة طويلة من الحرب، الزواج الذي كان بهيجاً، مرحاً، من ناشر كتب كان يفضل أن يخسر نقوده على أن يحافظ عليها، الذي بدد نقوده ثمّ اختفى. قيل إنه ذهب إلى أمريكا. هذا كلّ ما حدثِ لها. كان في حياتها شخص أو شخصان آخران، لقاءات عابرة قصيرة، قصيرة جداً. كيف أقول له إنه لم يكن حبّاً، حتى مع ناشر الكتب؟ كان شيئاً أقلّ من الحبّ بكثير. قبعة أو رداء أو غيمة. لكن من يتذكّر غيمة؟

وعندما كانت تشرع في كتابة رسالة له، أو الاتصال به بالهاتف، كانت ترى أمامها العقبة الكأداء برفضه لها لأنه لم يبحث عنها، لم يعد إليها بعد انتهاء الحرب، كما وعدها. لكن مواقعهما تغيّرت الآن تماماً: فقد أصبح دوريغو إيفانز رجلاً مشهوراً، ذائع الصيت، يرتقي إلى الأعلى باستمرار، أما هي فليست شيئاً، تغوص باستمرار إلى الأسفل. ثم جاء التشخيص. كيف تخبره بذلك؟

نادتها أختها مرة أخرى.

نعم، قالت، دقيقة أخرى.

كانت مرهقة. لقد نسيته. لكنه كان هو. لم يمت، ولم تمت هي بعد. يكفي ذلك. نزعت قلادتها وراحت تدحرج اللؤلؤة بين أصابعها. أحسّت بأشياء كثيرة. ثمّ وضعتها جانباً. لقد أصبح شخصاً مهماً، بل أكثر من شخص مهم - أصبح بإمكانها أن ترى أنه يعبر ليصبح شيئاً لا شخصاً.

أما هي فإنها ستصبح قريباً لا شيء. لقد خضعت إلى علاجات شديدة أخبرها طبيب الأورام أنها عديمة الجدوى أساساً. وكانت قد اشتغلت عاملة تنظيف مرتين، وبين هذين العملين، بذلت كل ما

بوسعها لمواصلة العمل، لكنها تركته عندما وافقت أختها على الاعتناء بها. لقد انتهت أحلامها منذ زمن بعيد.

وبدأت الآن تبحث عن المتعة في رؤية غروب الشمس، وزيارة صديقاتها وأصدقائها، على قلتهم، فقد كانت تحبهم، وفي سحر مدينتها - فترات الصباح الباكرة الدافئة، رائحة القار والمباني بعد هطول الأمطار بغزارة، والكرنفال الصيفي اليومي الذي يقام على شواطئها، ومشهدها من فوق الجسر في عصر يوم مشمس، والغرباء الذين تلتقي بهم أحياناً، وملاطفة ابنتي أختها وحبها لهما، والخلوة اللطيفة التي تتيحها لها الذاكرة في مساء يوم صيفي. كانت تشعر أحياناً بأنها سعيدة.

وبين الحين والآخر، كانت تتذكّر غرفة قريبة من البحر، وتتذكّر القمر، وتتذكّره، وتتذكّر عقرب الساعة الأخضر يتحرك في الظلام، وتتذكّر صوت الأمواج المتكسرة، وتتذكّر شعوراً لا يشبهه أيّ شعور عرفته ذات يوم ولن تعرفه مرة أخرى.

لن تتّصل به. فله حياته ولها حياتها: فمن المستحيل أن تحلم بأن يلتقيا، والشي الذي لا نستطيع أن نحلم به لا نستطيع أن نفعله قط.

بعد ثمانية عشر شهراً - أكثر بستّة أشهر مما قُدِّر لها - ستُدفن في إحدى مقابر الضواحي، مقبرة عادية وسط هكتارات من القبور العادية أيضاً. ولن يراها أحد بعد ذلك أبداً، وبعد فترة، فإن ذكريات ابنتي أختها عنها ستخفت، ومثلها أيضاً، ستتلاشى أخيراً. سيبقى كلّ ذلك مضيئاً في ليل الأرض الطويل، سيكون القلادة ذات اللؤلؤة التي أوصت بأن تدفن معها.

- ١١ -

في تلك الليلة، سافر دوريغو إيفانز بالطائرة إلى ملبورن، وفي صباح اليوم التالي استقلّ طائرة إلى هوبارت. ووجد في صوت هدير محركات الطائرة من طراز ٧٠٧، والنسيان الغريب الذي استدعاه، عالماً مريحاً من النسيان. وبسبب الرياح الشديدة والدخان الكثيف المنبعث من حرائق الغابات في جنوب الجزيرة، تعرضت الطائرة إلى صعوبات في الهبوط وراحت ترتجّ مثل حبة بازلاء في قِدر يغلي. ترجلّوا من الطائرة إلى وسط رائحة الرماد الخانقة ولسعات الريح العاصفة اللاهبة.

استقبله فريدي سيمور العجوز، الجرّاح الذي يدير فرع كليّة الجرّاحين في تسمانيا، والذي كان يقود سيارة خضراء قديمة من طراز فورد ميركوري ١٩٤٨، يحرص على المحافظة عليها، مثله، في حالة من البهاء التام إنكاراً لعمرها الحقيقي. في ذلك اليوم، أقامت كليّة الجرّاحين حفل غداء على شرف دوريغو في فندق هوبارت. ثم انطلق دوريغو إلى فيرن تري - القرية الواقعة خارج هوبارت في غابة جبلية رائعة الجمال حيث تقيم أخت إيلا - ومعها أسرته. اتصل بإيلا بالهاتف العام من المطار. قالت له زوجته إن أختها ذهبت بسيارتها وستعود بعد الظهر، وقالت له إن الحرارة لاهبة لذلك لن تتمكن من عمل أيّ شيء سوى أن تبقى مع الأطفال، وقالت له إن الجلوس في ظلّ شجرة الكاليبتوس الضخمة يمنحها برودة لطيفة، وأنها لم تجد مكاناً أفضل منه.

كان الغداء جيداً أكثر مما كان دوريغو يتوقّع. على الأقل، كان تغييراً لكلّ شيء آخر يجول في رأسه. لكنهم ما إن بدأوا يحتسون الشيري ويدخنون السيجار حتى وصل خبر بأن الحريق ازداد سوءاً،

وأن البلدات الواقعة إلى الجنوب، بما فيها فيرن تري، مهدّدة الآن بوصول الحريق إليها.

وجد دوريغو إيفانز هاتفاً في الفندق وحاول الاتصال بهاتف شقيقة إيلا، لكن الخط كان مقطوعاً، وقال له عامل الهاتف إن جميع خطوط البيوت في الجبل مقطوعة أيضاً. التفت دوريغو إيفانز إلى فريدي سيمور - الذي أشعل سيجاره والذي تهدّل خداه الورديان المرجانيان عندما ابتلع الدخان بأنفاس صغيرة سريعة - وسأله هل يمكنه أن يعيره مفتاح سيارته.

إني أحبّك يا إيفانز، قال الجرّاح العجوز، وهو ينفث الدخان من فمه مثل ريشة، وأضاف، إنك مثل ابني، ومثل ابني لن تعيد سيارتي كما كانت، ومثل أب سأغفر لك ذلك.

كانت فيرن تري تبعد عشرين دقيقة بالسيارة عن المدينة. ازدادت الريح شراسة، وأصبحت الحرارة قاهرة. عندما صعد إلى السيارة، بوغت برؤية وجهه في المرآة الخلفية مكسواً ببقع الرماد الذي كانت ذراته تدور في دوامات كثيفة مثل ندف ثلج أسود.

انطلقت سيارة الفورد ميركوري مثل دلو علاقته بالطريق مبهمة، لكن قوة محركها البالغ ٨ اسطوانات بعثت في نفسه الطمأنينة. لم يكن الجبل المهيب مرئياً، بل ضاع في سديم من الدخان الكثيف. وما هي إلا دقائق، حتى بدأت قدرة دوريغو على الرؤية تخفت رويداً رويداً ولم يعد يرى أمامه أكثر من بضع ياردات، فأشعل أضواء السيارة الأمامية. وكانت تظهر من حين لآخر سيارة من الظلام، هاربة إلى المدينة، كان ركابها ينظرون كما كان القرويون السوريون الهاربون من الحرب ينظرون. كانت هناك بعض السيارات المحترقة، ورأى سيارة كان زجاجها الأمامي قد تهشم بالكامل، وسيارة أخرى

مليئة بثقوب سوداء كبيرة. تجاوز دوريغو ضواحي هوبارت ودلف إلى غابة كثيفة طويلة أصبح طريقها يقطعه الآن خندق ملتو وعميق.

عندما انعطف عند أحد المنعطفات، رأى حاجز شرطة يمنع أيّ سيارة من المضي قدماً. أدخل الشرطي رأسه في نافذة الفورد ميركوري ١٩٤٨، وقال لدوريغو بأنه يجب أن يعود من حيث أتى.

إنها منطقة موت هناك يا صاحبي، قال الشرطي، محركاً إبهامه وراءه باتجاه فيرن تري.

وصف دوريغو إيلا وأطفاله للشرطي وسأله هل مرّوا عبر الحاجز، فأجاب الشرطي الشاب الذي لم يكن قد مضى على وقوفه عند الحاجز سوى ساعتين بأنه لم يرَ أحداً بهذه الأوصاف. لعلهم تمكنوا من الهروب قبل ذلك. وقال دوريغو إيفانز لنفسه إنه كلّم إيلا بالهاتف منذ ساعة ونصف ومن الممكن أنها تمكنت من الهرب مع الأطفال، لكن ليس من المحتمل أن تكون قد غادرت لأن البلدة لم تكن قد تعرضت للخطر بعد، فضلاً عن أنه لا توجد لديها سيارة. كان دوريغو إيفانز يأمل في قرارة نفسه في أن يكونوا قد تمكنوا من الهرب، لكنه قرر بأن يتصرّف بحسب التوقّع بأنهم لم يتمكنوا من الهرب.

وتابع الشرطي قائلاً: إن ألسنة اللهب تتصاعد من جزيرة هوون ومن الشرق. لقد سمعت قصصاً مجنونة عن انتشار الحريق من الجمرات المتناثرة من الحريق الرئيسي حتى من مسافة عشرين ميلاً. وبينما كان يتكلّم، كانت الجمرات المتوهجة تتساقط فوق الغطاء الأمامي للسيارة، كأنها دليل قاطع على ما يقوله الشرطي.

ستكون مجنوناً إذا صعدت إلى هناك، قال أخيراً.

إن أسرتي هناك، قال دوريغو إيفانز، وأنزل عامود السرعة إلى الأول، وقال سأكون مجنوناً إذا لم أصعد.

ثم طلب من الشرطي بتهذيب أن يبتعد عن السيارة. وعندما رفض الشرطي ذلك، ضغط على دواسة البنزين، واقتحم الحاجز، وهمهم عدّة اعتذارات لفريدي سيمور.

بعد حوالي نصف ميل بدأت النيران تحيط به من كل جانب، لكنّها لم تكن قوية مثل الحريق الرئيسي. لم يكن دوريغو إيفانز يعرف شيئاً عن الحريق أمامه، ولم يكن يعرف مكان بيت شقيقتها لأنه لم يزرها قط. ومع أن لديه عنوان البيت، فلم تكن هناك إشارات مرئية في الشوارع، وقد امتلأ الطريق بالأغصان المحترقة والسيارات المهجورة المحترقة، والجمرات التي كانت تتساقط كالمطر، والدخان الكثيف. اجتاز مسافة تزيد على المسافة التي كان قطعها سيراً على الأقدام منذ عشرين سنة تقريباً عندما ذهب في شاحنة مصنع البيرة «الشلال»، وحاول في ذلك اليوم أن يستعيد الحبّ في العاصفة الثلجية، وها هو الآن يبحث يائساً عن أسرته وسط الدخان الكثيف، يتفحص الدروب والمنعطفات والطرق والملاجئ ولا يتوقف عن إطلاق بوق سيارته. لكنه لم يجد أحداً. قال لنفسه إما أن الجميع قد ذهبوا أم أنهم ماتوا، ولم تعد هناك سماء، بل مجرد ومضة، بين الحين والآخر، من بين سحب سوداء زرقاء تتلاطم كأمواج يضيئها ضوء أحمر جهنمي. واصل طريقه، مركزاً على العثور على أفراد أسرته، مقرباً أذنه من النافذة التي أنزلها بما يكفي ليتمكّن من سماع صوت أيّ شخص، أيّ شيء.

ثم خيّل إليه أنه سمع صوت أحد، لكن مع كلّ تلك الضوضاء التي كان يرفضها والتي كانت تشبه صوت صفير يحدثه النسغ المتبخر بينما تتفجر الأشجار، ثمّ عادت الضوضاء، بدرجة أقلّ، لكنها كانت مختلفة هذه المرة. توقف وترجّل من السيارة.

- ١٢ -

بدأت ألسنة اللهب تتصاعد من البيت الخامس الذي يلي بيت شقيقة إيلا إيفانز، فهرعت إيلا وجمعت أطفالهما الثلاثة: جيس وماري وستيوي الصغير الذين كانوا يلعبون تحت رشاش الماء في الباحة الخلفية للبيت، وقالت إنهم يجب أن يذهبوا إلى هوبارت سيراً على الأقدام.

هوبارت؟ كم تبعد؟ سألت جيسي.

إيلا لا تعرف. سبعة أميال؟ عشرة؟ تملكّها الخوف. قالت: يجب أن نغادر فوراً.

كان الأطفال لا يزالون في ثياب الاستحمام وينتعلون صنادلهم البلاستيكية، ماعدا ستيوي الذي كان في ملابسه الداخلية. كانت النار تتصاعد في كل مكان، ولم تجادل إيلا جيس التي أصرّت على جلب الفونوغراف الذي تلقته هدية في عيد الميلاد. ثم تطور الأمر إلى إحضار مجفف شعر وقبّعة دش بلاستيكية كي لا تسفع النيران شعرها. فسمحت لها بأن تجلب الفونوغراف وأسطوانة قديمة لجين بيتني كانت قد أهدتها عمّتها لها.

أخذوا يغذون الخطى في الدرب، يبعدون أوراق الأشجار ونباتات السرخس المحترقة التي كانت تتساقط من السماء على وجوههم وشعرهم. كانوا يحدّقون بدهشة في القار المتساقط عند الحافات، والجمرات الحمر المتطايرة في الهواء كأنها أسراب فراشات، يتصاعد وهجها ويهبط مع الرياح الهائجة. مروا من أمام بيت السيدة ماك هيو العجوز، معلّمة البيانو، التي كانت أوتاد سياج بيتها تحترق. نادوها وطلبوا منها أن تأتي معهم، لكنّها كانت منهمكة

في قطع أعمدة السياج لتحول دون انتشار النيران إلى داخل بيتها، ولم تعبأ بنداءاتهم.

في البداية، كانت هناك حماسة سحرية في كلّ ذلك، وثمة شيء في ذعر أمّهم جعل الأطفال الثلاثة يشعرون بأنهم في حال أفضل، بل حتى في حالة ممتازة. فقد عبروا إلى عالم آخر - عالم الكبار الذي يوزن فيه كلّ شيء بطريقة مختلفة، العالم الذي يقولون ما يقصدونه، والذي ينطوي كلّ ما تفعله على أهمية، والذي تصبح فيه حياتك التي ليس لها معنى، هامة بالنسبة لهم ولك. ولأول مرة ذاقوا طعم الموت الذي لن ينسوه طوال حياتهم.

لا بد أنهم قطعوا قرابة ميل أسفل الجبل عندما بدأت حماستهم تفتر وبدأ خوفهم يزداد. واقتربت نيران الحريق الرئيسي التي كانت تبدو بعيدة عندما غادروا البيت، منهم كثيراً الآن. بدأ ستيوي يبكي لأن الجمرات بدأت تلسع جلده. وأخذ يبكي، ليس من دون سبب، عندما ملأ اللهب السماء والتهم الهواء، ولم تعد هناك سوى النيران. لجأوا إلى بيت مشيّد من الآجر تحيط به هالة من الصلابة والسلامة، بخلاف البيوت المبنية من ألواح خشبية متراكبة التي تجاوزوها والتي وصلتها النيران منذ فترة. كان الدخان ينبعث منها، وكانت ألسنة نيران صغيرة تلعق أفاريزها.

توجّهت إيلا إلى باب البيت وضغطت على الجرس. سُمع صوت دقّات غريبة. فُتح الباب بما يكفي لإجراء حديث. ومن خلال فتحته الضيقة، رأت إيلا سيدة مسنّة ترتدي بدلة صوفية بيضاء ذات حواف سوداء، كأنها تستعد للذهاب إلى حفل غداء خيري. كانت إيلا ترتدي ثوباً قطنيا أخضر مطبّعاً وتنتعل صندلاً كساه السخام الآن. لا بد أن السيدة المسنّة قد خمنت أن إيلا لا تنتمي إلى طبقتها الاجتماعية بعد أن رأتها ورأت أطفالها العراة تقريبا الوسخين مثل

قنافذ البحر. كانت إيلا ستطلب من المرأة أن تسمح لهم بالمكوث في بيتها، لكنها عندما فتحت فمها، سمعت نفسها تطلب ماء للأطفال فقط. طلبت مرّتين، ومن دون أن تفه بشيء، فتحت المرأة الباب وقادتهم إلى مطبخ نظيف خلف البيت، وأخرجت كوباً بلاستيكياً قديماً.

خذي، قالت، ومدّت يدها بالكوب وهي لا تزال تمسك حافته بين إبهامها وإصبعاً مقوساً، وأضافت، الحنفية هناك.

أراد الأطفال أن يغادروا: فقد عرفوا أن المرأة العجوز تريدهم أن لا يبقوا، وكان حقدهم عليها وعلى بيتها أشدّ من خوفهم من الحريق. لكن شيئاً يتعلق بغرور المرأة جعل إيلا تصمّم الآن على البقاء. كان ستيوي يبكي من الحروق التي أصابته، وسألت إيلا السيدة المسنّة عمّا إذا كان لديها ملابس أطفال قديمة يمكنها أن تعيرها لها لتحمي ابنها من الشرارات والجمرات المتساقطة.

فتحت المرأة خزانة، ورأت إيلا في داخلها رفوفاً مكدسة بملابس أطفال مكوية ومطوية بأناقة. كانت ثياباً جيدة، معظمها ثياب للصبية. شمّت رائحة كافور، رائحة تربطها دائماً بالخلود، رائحة مطمئنة للمكان والأشياء التي لا تتغيّر قط. استدارت المرأة العجوز وأعطت إيلا قطعة ثياب مطوية. فتحتها إيلا برسغيها.

كان ثوب فتاة قديماً مهترئاً أحمر اللون.

شكراً، قالت إيلا.

لم تستطع إيلا أن توافق بين فكرة المكوث بأمان في هذا البيت مع هذا الإذلال المستمر. فخرجت مع أطفالها لمواجهة النيران بعد أن ارتدى ابنها ذلك الثوب الأحمر المهترئ، وقالت إن ذلك ليس أمراً مناسباً فقط إنما حكيم أيضاً. عندما عادوا يسيرون على الدرب،

لم يعد هناك أي معنى للنار. كانت تهب رياح من خلفهم ورياح من أمامهم. وأصبحت النيران تحيط بهم من كل جانب وتثير الرياح الجمرات الحمر وتجعلها تدور في دوامات في الهواء، وحوّلت الأكواز السحرية المتوهجة المتساقطة من الأشجار كلّ شيء تلمسها إلى لهيب. راحوا يهربون من النيران التي أصبحت تحيط بهم الآن.

إننا محاصرون، قال ستيوي، وراح يبكي.

يكفي، قالت إيلا، وأمسكت به. يجب أن نصل إلى هوبارت. هيا امشوا ورائي، وامسكوا أيدي بعضكم ولا تتركوها مهما حدث.

واصل هذا الخطّ الرفيع من الأمل والرعب طريقه في مواجهة الريح والدخان واللهب. وبدأت ماري تبكي لأن بثوراً بدأت تكبر في قدميها.

سنعالج قدميك عندما نصل إلى هوبارت، قالت لها إيلا. كانت هناك أشجار وبيوت تحترق حولهم، وأضحت الآن أمامهم، واستمرت إيلا تحثّهم على الإسراع. حملت ستيوي، وكانت ماري تسير وراءها ترفع حاشية ثوبها بيد وتمسك جيس باليد الأخرى. كانوا جميعاً خائفين مما قد يحلّ بهم إذا لم يمسك أحدهم بالآخر. ومن خلال الضجيج المنبعث من النيران والرياح، تناهى إليهم صوت شيء يتحطّم. وهوت أمامهم شجرة على الطريق في كرة من اللهب. وجدت إيلا درباً لم تطاله النيران وواصلوا سيرهم فيه. مروا بجانب سيارة تحترق وعامود تلغراف يحترق تناثرت الكابلات الكهربائية من حولهم مثل خيوط صوف تحاك. لكن النار اشتعلت أمامهم على نحو أسوأ مما كانت وراءهم، وأصيبت قدما ماري ببثور شديدة، وأصبحت الحرارة لا تطاق. وفجأة توقفت إيلا واستدارت لتواجه أطفالها.

يجب أن نعود يا أولاد، بسرعة، قالت. بلا منيكة الآن.

لم تستخدم إيلا كلمات بذيئة من قبل قط. فعرفوا أن ثمة شيئاً قد تغيّر. هيا بسرعة، استمرت تقول، بسرعة!

لكن ماذا عن هوبارت؟ سألت جيس التي لم تكن قد قالت شيئاً حتى الآن. إذا وصلنا إلى هوبارت، فإننا سنكون في مأمن. كان صوتها يلهث. يجب أن نفعل ذلك!

استدارت جيس وسارت أمامهم إلى داخل النيران. أمسكتها إيلا وصفعتها بقوة على وجهها.

سنصبح شواء يوم الأحد إذا واصلنا طريقنا. علينا أن نعثر على مكان يحمينا من النيران، بدأت جيس تصرخ فصفعتها إيلا بقوة مرة أخرى. انفجرت جيس في البكاء، ووقع الفونغراف فتهشم وتناثر إلى قطع صغيرة على الطريق. احترقت حناجرهم بقطران الدخان، وأصبح التنفس شديد الصعوبة، وبدأت الدموع تسيل من عيونهم، والمخاط من أنوفهم. كان من المستحيل رؤية أكثر من بضع خطوات أمامهم، وكانوا لا يعرفون أحياناً المكان الذي يوجدون فيه إلا عندما كانوا يشاهدون درباً أو منعطفاً أو إشارة في الطريق.

وصلوا إلى بيت لا توجد فيه حديقة تنتصب بالقرب منه شجرة تفاح قديمة وكوخ من الألياف في وسط مرج لا توجد فيه أعشاب. لم يكن فيه شيء يمكن أن يحترق، لكن النار كانت تجأر بحدّة خلفهم. وكانت ألسنة لهب صغيرة تظهر فوق المرج الميت الذي لا يوجد فيه شيء يمكن أن يحترق، لكنه مع ذلك كان يحترق.

هنا، قالت إيلا، وفتحت باب الكوخ، وهي تفكّر، *هنا؟ هنا سنموت جميعاً؟*

تكوّموا في الداخل، وأمسك أحدهم بيد الآخر على الرغم من الحرارة الشرسة. كانوا يتنفسون بصعوبة شديدة. كان يبدو أن النار

تلتهم كلّ الهواء الموجود في العالم. سمعوا صوتاً يشبه صوت طائرة نفّاثة فوقهم، وتسلل لسان بذيء من اللهب من تحت الباب مثل حيوان مفترس جائع، فقفزت جيس وهي تصرخ فارتطمت برفّ ملئ بالقناني.

جيس! صرخت إيلا.

أمسكت الرفّ. كان مليئاً بزجاجات فيها فراشي يغمرها كحول التربنتين المعدني والميثيل. تعلّقت بالرفّ وطلبت منهم ألّا يتحرّكوا.

مهما فعلت، قالت، لا تلمسوا هذا الرفّ أو تلمسوني. انتبهوا إلى جين، قالت إيلا.

انتبهوا إلى جين يا أولاد، قالت إيلا. انتبهوا إلى جين فقط.

بعد بضع دقائق، اشتدت الحرارة، لكن الضوضاء خفتت ولم تعد النار تتسلل من تحت الباب. سمعوا ضجة غريبة. ببطء شديد، فتحت إيلا الباب. لم يتحرك أحد. رفعوا أبصارهم. هذا غير معقول. لقد اختفى البيت. وبجانب البقعة التي كان الدخان ينبعث مما تبقى منها، كانت شجرة التفاح لا تزال واقفة في مكانها، ولم يحترق منها سوى جزء ضئيل أما الجزء الباقي فبقي سليماً، بينما كانت الغابة على الطرف الآخر من الطريق تحترق بشراسة. سمعوا الضوضاء الغريبة مرة أخرى، وأدركوا أنه صوت بوق سيارة يخفت كلما ابتعدت السيارة عنهم. سحبت إيلا ستيوي إليها، وجرت بناتها معها وهم يصيحون بأعلى صوتهم عبر النيران، لكن السيارة ابتعدت وبدأت تختفي وسط الدخان على الطريق، فراحوا يصرخون بصوت أعلى.

ثم توقّفت السيارة. كانت سيارة فورد ميركوري ١٩٤٨ خضراء إطاراتها محاطة باللون الأبيض. لن ينسى أحد من الأطفال ذلك.

فُتح باب السائق وترجّل منها رجل. عندما التفت، رأوا أنه والدهم، لقد جاء لنجدتهم.

ركضوا نحوه وجرى نحوهم عبر الدخان والحرارة والنيران. عندما تلاقوا، أمسك دوريغو ستيوي وألقاه بذراع واحدة على وركه، وبيده الأخرى، احتوى رأس إيلا وضم وجهها إليه بقوة. ضمها إليه وضم البنات إليهما، كما لو كنّ جذوراً متشابكة تسند شجرة متهالكة. وبعد لحظة أفلتهما وهرعوا إلى السيارة. لم ير أطفاله الثلاثة لهيب العاطفة التي أبداها لأمّهم من قبل.

- ١٣ -

كانت الفكرة بأن أفضل فرصة لنجاتهم تكمن في التوغل في عمق الغابة التي احترق جزء منها للتو، بدلاً من التوجّه إلى مكان الحريق الذي بدأ يشقّ طريقه الآن نحو هوبارت، وقاد دوريغو السيارة بالاتجاه الذي كانت إيلا والأطفال قد هربوا منه. ظلت بعض البيوت وجزء من الغابة سليمة، أما المكان الذي كان يوجد فيه بيت المرأة العجوز التي رفضت استقبالهم والتي كانت تحتفظ بثياب أطفالها الجديدة، فلم يعد له وجود، ولم يتبق منه سوى صفيحة ينبعث منها الدخان والرماد، ومدخنة عارية، وكذلك البيت الذي كانت السيدة ماك هيو تقطع سياجها لتحول دون وصل النيران إلى بيتها. وفي وسط هذا الدخان كان من الصعب معرفة المكان الذي كان ينتصب فيه أي من هذين البيتين.

وجدوا أنفسهم يمضون في ليل غريب. وعندما وصلوا إلى منعطف حلّ جدار أحمر ضخم من النيران مكان السماء السوداء، وكانت ألسنة اللهب تتصاعد فوقهم، ربما على مسافة لا تبعد عنهم

أكثر من نصف ميل. إنه حريق جديد، يرتفع بحدّة من اتجاه مختلف وبدا أنه ينضمّ إلى النيران الصغيرة العديدة لتشكل جحيماً واحداً. كانت الجلبة الصادرة عنها هادرة. للحظة أطول، ظلوا يحدقون وهم يمضون في طريقهم. لقد أبطلت إيلا السحر.

إنها مقدمة الحريق، قالت.

ضغط دوريغو على الفرامل، واستدار بالسيارة إلى الوراء بحدة، ونقل غيار السرعة إلى الأول وعاد من الطريق الذي جاؤوا منه. وراح يقود السيارة متجاوزاً الأسلاك التي سقطت على الأرض والسيارات المحطمة المشتعلة، مثل رجل مهووس. وما هي إلا دقائق حتى بدأت مقدمة النيران تلاحقهم، وراح يسوق الآن بين جدران اللهب على الجانبين، وحول أطراف الأشجار الساقطة المحترقة - متجاوزاً البيوت المحترقة. كان يقود بأسرع ما يمكنه عندما يجد أمامه بقعة خالية في الطريق، وينعطف ويخفف من سرعته عندما يضطر إلى عمل ذلك. كرة نارية، بحجم حافلة كهربائية زرقاء مثل لهب الغاز ظهرت أمامه على الطريق كما بفعل سحر وتدحرجت نحوهم. انحرفت السيارة الفورد من حولها ثم عادت وانطلقت باستقامة، ووجد دوريغو أنه لا يوجد لديه خيار إلّا أن يتجاهل الحطام المحترق الذي برز من بين الدخان وقذفه نحوهم - عصي، أغصان، أوتاد أسيجة - كانت تصيب السيارة أحياناً وترتد عنها. نخر عندما نقل غيار السرعة إلى الأعلى وإلى الأسفل، وأدار مقود السيارة بقوة إلى اليسار وإلى اليمين، زعقت الإطارات المغلّفة بالأبيض فوق القار الأسود الذي كان يبقبق، وفي نشاز أزيز اللهب وزعيق الريح، كنت تسمع طقطقة الأغصان التي تشبه صوت طلقات مدفع رشاش تنفجر فوقه.

وصلوا إلى بقعة مرتفعة ورأوا شجرة ضخمة تحترق وتسقط أمامهم في عرض الطريق على مسافة لا تزيد على مئة يارد، فاندلعت

ألسنة اللهب في أعلى جذع الشجرة ثم تهاوى وسقط على الأرض واستقرت قمته المحترقة في باحة منزل أمامية نظيفة لتشعل على الفور ناراً تلاقت مع البيت المحترق. لاصقاً ركبته بالباب، ضغط دوريغو بكلّ قوّته على الفرامل، فانزلقت إطارات سيارة الفورد ميركوري الأربعة، وانحرفت إلى كلا الجانبين، وانزلقت مباشرة نحو الشجرة، ثم توقّفت على بعد ياردات قليلة من جذع الشجرة الملتهبة.

لم ينبس أحد بكلمة.

فكّر دوريغو إيفانز الذي كانت يداه المبلّلتين بالعرق لا تزالان متشبثتين بالمقود وهو يلهث بقوة، بجميع الخيارات التي كانت جميعها سيئة. كان الطريق في كلا الاتجاهين مقطوعاً تماماً - بسبب الشجرة المحترقة أمامهم، والنيران خلفهم. جفف يديه الواحدة بعد الأخرى بقميصه وبنطلونه. لقد حوصروا. التفت إلى أولاده القابعين في المقعد الخلفي. اعتراه دوار. كان يضمون بعضهم بعضاً، عيونهم بيضاء وواسعة في وجوههم المكسوة بالسخام.

تمسكوا، قال لهم.

رجع بالسيارة إلى الوراء نحو واجهة النار على مسافة قصيرة، ثمّ انطلق. كانت سرعته كافية لتحطيم السياج الخشبي المدبّب في الفناء الذي سقط فيه تاج الشجرة المحترقة. اتجهوا مباشرة باتجاه النار، وصرخ بالآخرين وأمرهم بأن يخفضوا رؤوسهم، وبدّل السرعة إلى الأول، ثم أفلت عامود تغيير السرعة وضغط بكل قوته على دواسة السرعة.

اشحن الطاحونة.

انطلقت السيارة ذات الثمانية اسطوانات تجأر باتجاه الحرش المحترق عند أقرب نقطة للبيت حيث كانت النيران على أشدها، لكن

دوريغو قامر بأن تكون الأغصان أصغر حجماً. وللحظة، أصبحت النار والضوضاء كلّ ما يحيط بهم. وزعق المحرّك بوحشية، وبدا أن حرارة بهذه الكثافة والشراسة تخترق الزجاج والفولاذ. كان كلّ شيء أحمر قاتماً، وكانت تُسمع طقطقة اللهب المنبعثة من الأغصان التي بدأت تخدش المعدن وتئن فالتوت ألواح الزجاج وتشوهت، واهترأت العجلات. ثم تهشمت النافذة الخلفية إلى جانب السائق، وبدأت الشررات والجمرات والأعواد المحترقة تتطاير إلى داخل السيارة، فراحت إيلا والأطفال يصرخون بينما انزوى الأطفال في طرف المقعد الخلفي. ولثانية أو ثانيتين مليئتين بالرعب، خفت سرعة السيارة حتى كادت تتوقّف عندما علق شيء تحت هيكلها. وسرعان ما أصبحت كتلة النار وراءهم، فاندفع دوريغو بسرعة نحو أوتاد سياج متداع آخر واخترقه أيضاً في عاصفة سريعة. وتحوّل الزجاج الأمامي إلى سحابة بيضاء من الشظايا، وصاح بإيلا بأن تدفعه بقدميها إلى الخارج، وعندما سقط الزجاج إلى الخارج وجدوا أنفسهم قد عادوا إلى الطريق، إلى وراء الشجرة الساقطة باتجاه هوبارت. كان يقود بيد واحدة، بينما انحنى ليلتقط الأعواد المحترقة من المقعد الخلفي بيده الأخرى - يدا الجرّاح اللتان كان يسعى جاهداً إلى حمايتهما - ويلقي بالأعواد المحترقة من النافذة المهشمة.

عندما اسودّ طلاء سيارة الفورد ميركوري ١٩٤٨ الخضراء، بدأت تنزلق أسفل الجبل المحترق. نظرت إيلا إلى دوريغو الذي تورمت أصابع يده اليسرى وامتلأت بالبثور وأصبحت بحجم مناطيد صغيرة، واحترقت إلى درجة أنه سيحتاج بعد ذلك إلى إجراء زراعة جلد. يا لهذا الرجل من لغز، قالت لنفسها، يا له من لغز. وأدركت أنها لم تكن تعرف عنه شيئاً، وأن زواجهما كان قد انتهى قبل أن يبدأ، وأنه لم يكن بقدرة أي منهما تغيير أيّ شيء. ثم انعطفت

السيارة التي أصبحت تسير على ثلاث عجلات وإطار عجلة متفكك، حول زاوية طويلة، وعبر الدخان؛ رأوا أمامهم أخيراً حاجز الشرطة.

أظن أن هذه هي آخر مرة يدعوك فيها فريدي سيمور إلى الغداء، قالت إيلا إيفانز.

وفي المقعد الخلفي، فهم الأطفال الثلاثة الصامتين الملطّخين بالسخام كل شيء - رائحة الطلاء الكريهة الخانقة، وهدير الريح، وأزيز اللهب، والاهتزاز الشديد لسيارة كانت تقاد بهذه الحدّة، والحرارة، وبدا الانفعال مكشوفاً مثل لحم مذبوح؛ المشاعر المعذّبة، الميئوس منها، لشخصين عاشا معاً في حبّ لم يصبح حبّاً بعد، وليس بعد، حياة مشتركة غير مشتركة؛ تواطؤ العواطف، والأمراض، والمآسي، والنكات، والعمل؛ زواج - عدم النهاية الغريبة الفظيعة للبشر.

أسرة.

- ١٤ -

المسنون يملؤهم الندم، قال والد جودي بيغيلو لها ذات يوم. والدها. لم يكن جيمي بيغيلو والد جودي بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فلم يكن يبدو أنه كان غائباً طوال حياتها فحسب، بل معظم حياته. كان يعمل في فرز الرسائل، ولم يكن يعنيه أن يترقى أكثر من ذلك. كانوا قد طلبوا منها في المدرسة الثانوية أن تعدّ مشروعاً عن يوم تكريم الجنود الأستراليين الذين شاركوا في الحرب (أنزاك)، فطلبت من أبيها أن يحدّثها عن الحرب من وجهة نظره. فقال لها إنه لا يوجد لديه أشياء كثيرة يمكنه أن يحدثها عنها. هذا وذاك. وعندما

ألحّت عليه، دخل إلى غرفة نومه وعاد يحمل بوقاً قديماً. مسح فوهة البوق وأصدر منه بضعة أصوات تشبه الضراط ليضحكها، ثمّ بدأ يعزف لها ألحاناً حقيقية. أسقط البوق وسعل ونفخ صدره، ثم رفع رأسه بطريقة عسكرية بدت غريبة تماماً لابنته وراح يعزف معزوفة «الوداع الأخير».

أهذا كلّ شيء؟

فقال: هذا كلّ ما أعرفه. هذا كلّ ما يجب أن يعرفه أي شخص.

هذا ليس مشروعاً مدرسياً يا أبي.

لا.

إنه نوع من الوحدة، قالت جودي.

فكّر جيمي بيغيلو بهذا، ثم قال إنه يظن ذلك، لكن الأمر لا يبدو كذلك. بل على العكس.

كانت جودي قد تصفّحت بعض الكتب عن أسرى الحرب.

لا بد أن الأمر كان قاسياً، قالت.

قاسياً؟ أجاب. ليس حقاً. كان علينا أن نعاني فقط. كنّا محظوظين.

ماذا تعني تلك الموسيقى؟ سألته.

إنها لغز، قال بعد فترة صمت. كلما كان اللغز أضخم، كان يعني أكثر.

كانت أمّ جودي قد ماتت بسرطان الدم عندما كانت جودي في التاسعة عشرة، وقد عاش جيمي بيغيلو أكثر منها بثمانية وعشرين عاماً. لم يكن يأخذ نفسه بجدية، وكان يعتبر العالم في أساسه هزلياً. وكان يجد متعة في صحبة الآخرين ووجد في حياته – أو

بالطريقة التي كان ينظر فيها إلى الحياة - أشياء أعجب بها كثيراً. وكان يبذل جهداً كبيراً لاستعادة ذاكرته، لكن بالرغم من ذلك بدأت ذاكرته تزداد ضعفاً. بعض النكات، بعض القصص، طعم بيضة البطة التي كان داركي غاردنر قد أعطاها له، الأمل. الطيبة. تذكّر عندما ذهبوا لدفن وات كوني الضئيل الجسم. تذكّر كيف كان وات يحبّ الجميع، كيف كان ينتظر دائماً عند المطبخ حتى يصل آخر رجل، ومهما تأخر، كان يحتفظ له بقليل من الطعام، ويحرص على توفير الطعام للجميع مهما قلّت الكمية المتاحة. وعندما وقفوا فوق قبره، لم يشأ أحد أن يكون الأول في إلقاء حفنة التراب. ولم يتذكّر أن وات كوني قد مات أثناء المسير إلى الشمال نحو ممر معبد ثري باغودا، ولم يتذكّر أياً من الوحشية التي رافقت تلك الرحلة. لم تعد هذه الأشياء حقيقة بالنسبة له.

وبدأ أبناؤه يصحّحون ذكرياته على نحو متزايد. ماذا يعرفون بحقّ الجحيم؟ لا بد أنهم يعرفون أكثر مما يعرف هو بكثير. وكان المؤرخون والصحفيون وصانعو الأفلام الوثائقية، بل حتى أفراد أسرته اللعينة يشيرون إلى الأخطاء والتناقضات والهفوات والتناقضات المباشرة في حكاياته المتباينة. ماذا يظن نفسه؟ الموسوعة بريتانيكا اللعينة؟ كان هناك. هذا كلّ ما في الأمر. وعندما استمع إلى أغنية «بدون أغنية» على جهاز التسجيل رأى أنها لغز أيضاً، لأنه رأى لوهلة رجلاً يقف فوق قرمة جذع شجرة، وأحسّ بكلّ الأشياء التي لم يكن سيشعر بها لولا ذلك. لقد فهم كلّ تلك الأشياء التي لم يكن ليفهمها لولا ذلك. لم تكن كلماته وذكرياته شيئاً هاماً. كان كلّ شيء فيه. ألم يكن بإمكانهم أن يروا ذلك؟ أليس بوسعهم أن يتركوه وشأنه؟

كان عقله يقطر ذكرياته ببطء عن معسكرات أسرى الحرب إلى

شيء جميل. كأنه كان يعتصر المهانة لأنه كان عبداً، قطرة فقطرة. أولاً، نسي الرعب الذي اكتنف كلّ ذلك، ثم القسوة التي مارسها اليابانيون عليهم. في شيخوخته، أصبح بإمكانه أن يقول بصدق بأنه لا يتذكّر أي أعمال عنف. كان يتحاشى الأشياء التي قد تعيد ذاكرته - الكتب، الأفلام الوثائقية، المؤرخون - ثمّ ذاكرته عن المرض وعن حالات الموت التعيسة، الكوليرا ومرض البري بري وداء البلاغرا، لقد ولىّ ذلك أيضاً. حتى الطين تلاشى، ثم الذكريات عن الجوع أيضاً. وأخيراً، في عصر أحد الأيام، أدرك أنه لم يعد يستطيع أن يتذكّر شيئاً عن الفترة التي كان فيها أسير حرب. كان عقله لا يزال يعمل جيداً. كان يعرف أنه كان أسير حرب ذات يوم، كما كان يعرف بأنه كان جنيناً ذات يوم. لكن لم يتبق لديه شيء من تلك التجربة. ماذا كانت تعني الفكرة المبرمة عن الطيبة الإنسانية التي يستحيل نكرانها بأنها كانت جميلة. عندما بلغ الرابعة والتسعين من العمر، أصبح أخيراً رجلاً حرّاً.

بعد ذلك، بدأ يجد بهجة كبيرة في الريح، في صوت المطر. بدأ يُعجب بالإحساس بالفجر في صبيحة يوم حار. أصبح يُعجب بابتسامات الغرباء. وراح يعمل على تطوير العادات والصداقات، ولم يعد يرى فيها إلا البديل الوحيد الذي كان يحسّ بأنها البديل. وأخذ يعتني بمجموعة من ببغاوات روزيلا الخضراء والزرقاء والحمراء الزاهية التي كانت تأتي إلى فناء بيته لتأكل وتشرب من الطعام والماء الذي كان يضعه لها، ثمّ كانت تأتي طيور النمنمة وآكلة العسل العدوانية، وطيور ذيل النار الثرثارة، وفي بعض الأحيان، طائر روبن القرمزي، وطائر النمنمة الأزرق الناصع مع حريمه الداكنة اللون، والطائر الغريب الذي يشبه ذيله البراق المروحة، وطائر النهس الوقواقي ذي العينين الفضيتين الذي يغرد. وكان يجلس أحياناً

على مقعد خشبي في شرفته لساعات طويلة يراقب الطيور وهي تأكل وتستحمّ وترتاح وتنظّف نفسها وتلعب. وفي لغز طيرانها وجمالها، في قدومها ومغادرتها التي لا يمكن تفسيرها، كان يشعر بأنه يرى حياته.

بعد أن مات في أحد دور العجزة، عندما سقط من فوق الدرج وهو يطعم الطيور، وجدت جودي بوق والدها في خزانته. كان وسخاً، قديماً، مطعوجاً. وبدلاً من أن يعقد حوله شريط ملائم، عُقدت حوله قطعة قماش حمراء، وباعته مع الأشياء العتيقة في المنزل.

كانت ضحكته تعود إليها أحياناً في لحظة غير متوقّعة - في ممر في سوبر ماركت وهي تبحث عن مسحوق غسيل الصحون، وهي تتصفّح مجلة المشاهير في غرفة انتظار طبيب الأسنان. في مثل تلك الأوقات، كانت تتذكّره عندما لا يستطيع أن يصفعها، بل كان يده ترتعش فوقها وتسمعه يقول:

هذا كلّ ما أعرفه. كلّ ما يحتاج المرء إلى معرفته.

وكانت تسأله مرة أخرى، ماذا تعني تلك الموسيقى؟

العالم حولها، ممر السوبر ماركت ورفوفه، غرفة الانتظار عند طبيب الأسنان وكراسيه التي تشبه مقاعدها الحوض، ثم بيع أغراض والدها التي وضعتها على طاولتين أمامها، وصوت يسأل: هل تأخذين خمسة لقاء هذا؟ عندما أعطته له، ارتعش البوق المجعد بلا جواب.

رايتيو، خيّل إليها أنها سمعته يقول، عندما أمسكه الشخص الغريب. أم أنها هي؟ *رايتيو*.

كان دوريغو إيفانز يقود سيارته عبر تقاطع في باراماتا في الثالثة صباحاً - مكان وزمن لم يُفسرا على الملأ، بالإضافة إلى المسألة البسيطة المتعلقة بقراءة درجة الكحول - وعندما وجد نفسه أولاً يطير، عندما وجد نفسه فجأة يُلقى به في الهواء، ولم يعد بعدها إلى الأرض قط. فقد صدمت سيارة مليئة بفتيان سكارى هاربين من الشرطة يقودون سيارة مسروقة من طراز سوبارو إمبريزا، ارتطمت بعامود إشارة مرور، وانحرفت مباشرة لتصطدم بسيارة دوريغو إيفانز القديمة من طراز «بنتلي»، فتهشمت كلا السيارتين، ولقي اثنان من الشبان حتفهما، وأصيب أحد أبطال أعظم رجال الحرب الأستراليين بجروح بالغة، وقُذف به خارج الزجاج الأمامي لسيارته.

أمضى دوريغو ثلاثة أيام وهو يحتضر، وخلال تلك الفترة، هيمن الزمن على أهم الأحلام في حياته. ضوء يغمر قاعة كنيسة يجلس فيها مع أيمي؛ ضوء جميل يبهر الأبصار وهو يتهادى ذهاباً وإياباً، إلى داخل وخارج غياهب نسيانه الفائق وإلى أحضان النساء اللاتي كن يتلقفنه؛ وهو يطير ويتشمم ظهر أيمي العاري ويحلّق إلى الأعلى. بينما كانت الأمة حوله تعدّ نفسها لإعلان الحداد، وتجادل في الوقت نفسه مسألة انحلال أخلاق الشباب، تقارن بين الأعمال البطولية النبيلة لجيل وبين الإجرام الحقير والغادر لجيل آخر، وصعق عندما أدرك أن حياته لم تكن سوى بداية، وفي غابة بعيدة من خشب الساج أزيلت أشجارها منذ أمد بعيد، في بلد كان يدعى سيام لم يعد له وجود الآن، ورجل رحل عن الحياة وغطّ أخيراً في سبات عميق.

- ١٦ -

أفاق دوريغو إيفانز من حلم فظيع عن الموت. أدرك أنه كان منهكاً جداً، وأنه غفا للحظة عندما كان الرجال يتجمعون في ساحة التجمّع. كان الوقت يقارب منتصف الليل. التفت إلى السبعمائة رجل المحتشدين أمامه وشرح لهم بأنه كُلِّف بأن يختار مئة رجل ليذهبوا سيراً على الأقدام إلى معسكر آخر يبعد حوالي مئة ميل في أعماق غابة سيام. وقال لهم إنهم سيغادرون حال انتهاء التجمع الصباحي. وجرى عدّ الرجال، ثم عدّهم مرة أخرى، لكن العدد لم يكن صحيحاً، لأن عدداً أكبر من الرجال كانوا لا يزالون يتقاطرون من الخطّ، وكانت الأمور تزداد اضطراباً وتشويشاً. وحاول الرقيب أن يذكر أسماء الحاضرين والغائبين ويبيّن سبب غيابهم. ودارت مناقشات حامية بين فوكوهارا - الذي كان يرتدي بدلة أنيقة حتى في تلك الساعة المتأخرة - والحرّاس، وضُرب أحد الأستراليين برتبة رقيب، وبعد قليل من الاضطراب، بدأ العدّ مرة أخرى.

كان الميجور ناكامرا قد جاء إليه قبل ساعة مع فوكوهارا وقدّم له الأمر بأنه يجب اختيار مئة رجل للذهاب سيراً على الأقدام إلى معسكر قريب من معبر معبد ثري باغودا.

يجب ألّا نطلب من هؤلاء الرجال القيام بأعمال أخرى، جادل دوريغو إيفانز، لأنه لا يوجد أسير واحد في هذا المعسكر قادر على السير.

أصرّ الميجور ناكامرا على إيجاد مئة رجل.

ما لم تغيّر أسلوب معاملتك تجاه الأسرى فإنهم سيموتون، قال دوريغو إيفانز.

قال الميجور ناكامرا بأنّه سيختار بنفسه إذا لم يقم بذلك الكولونيل الأسترالي.

إنهم سيموتون جميعاً، قال دوريغو إيفانز.

مرة أخرى ترجم الملازم فوكوهارا. استمع الميجور ناكامرا ثم تكلّم. التفت الملازم فوكوهارا إلى دوريغو إيفانز وقال: يقول الميجور ناكامرا بأن هذا الأمر جيد جداً لأنه يوفر كمية كبيرة من الرزّ على الجيش الياباني.

كان إيفانز يعرف بأنه إذا اختار ناكامرا فإن اختياره سيكون عشوائياً، وأنه سيكون من بين الذين سيختارهم أكثر المصابين بالمرض - ومن المرجح أنه سيختار أكثر المصابين بالأمراض لأنهم الأقلّ فائدة لناكامرا - وأنهم سيلقون حتفهم جميعاً. أما إذا اختار هو، دوريغو، فإنه يستطيع أن يختار الرجال الأصلح جسدياً، الرجال الذين يظن أن لديهم أفضل فرصة للعيش، وفي جميع الأحوال، فإن معظمهم سيموتون، وقرر أن يكون اختياره على النحو التالي: رفض مساعدة وكيل الموت، أو أن يكون خادماً له. وبينما تواصل توافد الرجال، وبينما جُمع رجال آخرون كانوا مكلفين بمهام خفيفة أو بمهام الطهي أو في المستشفى، وبينما وقفوا هناك مرضى يتضورون جوعاً، وعندما انهار أحد الرجال من شدة الإعياء، وتُرك مستلقياً فوق الطين، ظهر صف طويل من الجنود اليابانيين يسيرون على طول الدرب الوعر في الجانب الآخر من ساحة التجمّع الذي كان يُستخدم عادة، عندما لا يمكن عبوره أثناء هبوب الرياح الموسمية، طريقاً لنقل معدات السكة الحديدية.

كان الجنود اليابانيون في طريقهم إلى الجبهة في بورما التي تبعد مئات الأميال المرهقة في الغابة. كانوا وسخين ومنهكين، وعلى

الرغم من ذلك، كانوا مرغمين على المضي في الليل، لا تصدر منهم سوى همهمات وأنات وهم يجرّون المدافع ويدفعونها في الأوحال العميقة. وكان المرض قد ظهر بوضوح على بعض الجنود الذين كان معظمهم شباناً صغاراً لعلهم لا يزالون تلاميذ في المدرسة، وكانوا جميعاً يبدون في حالةٍ يرثى لها.

لم يكن دوريغو إيفانز قد رأى جنوداً يابانيين عن كثب منذ عدّة أشهر. ففي جاوة كان يحترمهم، لا كمهرجين حسيري البصر كما دأب ضبّاط المخابرات الأستراليين على تصويرهم، بل كجنود أشاوس. أما هؤلاء الجنود اليابانيين الذين لا بد أنهم أمضوا النهار كله في السير حتى الليل الطويل متجهين إلى فظائع ورعب جبهة أخرى. كانوا يبدون في حالة بائسة من الحرب كما كان شأن أسرى الحرب أنفسهم: منكسرين، موسّخين، منهكين. ولفتت انتباه دوريغو عينا جندي يحمل فانوساً. بدت عيناه كبيرتان بالمقارنة مع وجهه الذي كان يشبه وجه طفل، رقيقتان كسيرتان، ولم يكن يتجاوز السابعة عشرة من العمر. ما الشيء الذي رآه في الضابط الأسترالي، لم يعرف دوريغو إيفانز، لكنّها لم تكن نظرة تشي بالحقد أو بالشيطانية. تعثّر، ثم توقف، وهو لا يزال يحدّق في الأسترالي. ربما رأى شيئاً. ربما كان منهكاً جداً لا يستطيع أن يتبين أيّ شيء. تملكت دوريغو إيفانز رغبة ملحّة في أن يضمه بين ذراعيه.

وبغتة، سار رقيب ياباني - كان قد رأى الجندي يحدّق - نحوه وضربه بقسوة على وجهه بخيزرانة يحملها في يده، فانتصب الجندي على الفور، وأطلق كلمة اعتذار وعاد ليركّز نظراته على الغابة أمامه. بدا لدوريغو إيفانز أن هذا الجندي لم يفهم سبب ضربه، تماماً كما لم يفهم أسرى الحرب مصيرهم البائس. كم يبعد مسقط رأسه؟ تساءل دوريغو. هل هو مزرعة؟ مدينة؟ في بقعة ما، في وادٍ، في

شارع، في زقاق، في درب، ربما يحلم به، مكان تداعبه الشمس والرياح، والأمطار المنعشة. أشخاص يحيطونه بالرعاية، ويضحكون معه. مكان بعيد عن هذا النتن والاضمحلال، الخضَار الخانق، الألم والأشخاص القساة الذين يحقدون ويعلّمون الآخرين الحقد، الذين يجعلون العالم يحقد. وبينما مشى الجندي الصبي بتثاقل، لاحظ دوريغو أن دماً يسيل من المكان الذي تلقى فيه الضربات في وجهه، وبدلته وسخة وممزّقة ومتعفّنة، ولم يحب أياً من ذلك. لكن على الرغم من ذلك، فإن هذا الفتى ذي العينين الطريتين الذي يحمل فانوساً سيقتل هو أيضاً بقسوة عندما يُطلب منه ذلك، وبالتالي فإنه سيُقتل.

أخذ الرقيب الياباني الذي ضربه بقسوة بوحشية استراحة الآن، وظل يراقب الرتل الذي بدأ يختفي في سواد الغابة، ثم أشعل سيجارة وراح ينفث منها الدخان. وعندما دنا منه ضابط صف آخر، أعطاه سيجارة بابتسامة وحكى له نكتة. وعندما ابتلع الظلام الجنود الأطفال، أحسّ دوريغو إيفانز كأن الحرب كلّها تمرّ أمام عينيه.

بعد أن اختفى الرتل في الغابة، بدأ المطر يهطل بغزارة شديدة كالطوفان. كانت السماء سوداء، ولولا الفوانيس القليلة والمصابيح التي يحملها الحرّاس، لم يكن بالإمكان رؤية شيء. كان الصوت المسموع الوحيد هو صوت المطر المنهمر بغزارة من بين أشجار الساج القريبة في سيول. كان المطر يجرف كل شيء، المطر الذي بدا لدوريغو إيفانز شيئاً حياً، صلباً، متحرّكاً، وبدا المطر وغابة أشجار الساج الضخمة التي يوجد فيها معسكرهم في تلك البقعة الصغيرة التي أزيلت منها الأشجار، تشكل سجناً لا نهاية له، لا سبيل إلى معرفته، ويقتلهم جميعاً ببطء.

أخيراً، تأكد أن جميع الأسرى أصبحوا هناك. رفع دوريغو

إيفانز فانوسه. كانت نظرته قلقة تشي بأنه مكتئب، محطم المعنويات من كلّ ما عانوا منه. لم يكن باستطاعته أن يفعل ذلك لهم. كان عليه أن يفعل أسوأ من ذلك بكثير. نظر إلى الرجال السبعمائة الذين ضمهم ورعاهم وتملقهم وتوسل إليهم وخدعهم بمظهره الكاذب، وساهم في بقائهم أحياء، الرجال الذين كان يضع احتياجاتهم دائما قبل احتياجاته. كان معظمهم يرتدون ثياباً يابانية أو خرقاً تعيسة متنكّرة في شكل بنطلونات قصيرة، وفي ضوء الفانوس الدهني المنزلق، كانت أجسامهم التي تشبه هياكل عظيمة أرعبته للحظة. كان الكثير منهم يرتجفون من الملاريا، وبعضهم يخرون على أنفسهم وهم واقفون هناك، وكان عليه أن يختار من بينهم مئة رجل لكي يسيروا مسافة مئة ميل أخرى في الغابة، نحو المجهول، إلى معبر الموت.

أطرق دوريغو إيفانز، ومع أنه لم يتمكن من رؤية شيء، فقد ذكّره ذلك بأنه يوجد بحوزة عدد قليل منهم مفتاح واحد يمكّنهم من البقاء على قيد الحياة، وهو الحذاء. ممسكاً فانوساً بارتفاع الكاحل، سار ببطء أمام الصف الأول، وراح ينظر إلى الأقدام العارية التي أصيب بعضها بالتهابات شديدة، وتورمت بعضها من مرض البري بري، وأصيب بعضهم الآخر بتقرحات تنبعث منها رائحة كريهة، كبيرة وحقيرة مثل فوهات بركان غاضبة تنهش جلدهم حتى العظم.

توقّف عند أحدهم: تقرّحات حادّة لم تُعالج تركت شريطاً رفيعاً من الجلد السليم حتى الجزء الخارجي من ربلة الساق، أما باقي الساق فقد شكّل قرحة كبيرة ينزّ منها قيح رمادي كريه الرائحة. أوتار وألياف عضلات مسلوخة ومكشوفة، عضلات محوّرة ومنفصلة بتجاويف فاغرة، رأى بينها عظم ظنبوب مسلوخ كأن كلباً قضمها، وكانت العظمة أيضاً قد بدأت تتفسخ وتتفتت إلى رقائق. رفع عينيه ليرى طفلاً شاحباً هزيلاً. لا، لا يمكن لتشام فاهي أن يذهب.

اذهب إلى المستشفى عندما ينتهي التجمّع، قال دوريغو إيفانز.

كان الرجل التالي هاري دولنغ الذي نجح دوريغو قبل ثلاثة أشهر في استئصال زائدته الدودية. إنه انتصار يفتخر به في مثل هذه الظروف. ولم يكن دولنغ يبدو الآن في أسوأ حالاته. فلديه حذاء وحجم تقرحاته متوسطة. رفع دوريغو عينيه ووضع يده على كتفه.

هاري، قال، بلطف شديد، كأنه يوقظ طفلاً.

لقد أصبحتُ جيفة وحش.

كان التالي في الصف راي هيل الذي تمكّنوا من إنقاذه من الكوليرا. لمسه دوريغو أيضاً على كتفه.

راي، قال.

لقد جئت إلى وليمة الموت.

قال راي.

شارون الرهيب، المروع والشنيع.

وهكذا استمر دوريغو، يستعرض صفوف الرجال الذين حاول إنقاذهم وكان عليه الآن أن يختار، ويلمس، ويسمي، ويحكم بالموت على هؤلاء الرجال الذين يظن أنهم قادرون على تحمّل الرحلة على أفضل وجه، الرجال الذين لديهم أفضل فرصة بألّا يموتوا، والذين من المرجح أنهم سيموتون في جميع الأحوال.

عندما انتهى، خطا دوريغو إيفانز إلى الوراء وأطرق خجلاً. فكّر بجاك رينبو الذي جعله يعاني كثيراً، وداركي غاردنر الذي رأى موته الذي دام طويلاً ولم يستطع أن يفعل شيئاً. والآن، هؤلاء الرجال المئة.

عندما رفع عينيه، تحلّقت حوله دائرة من الرجال الذي حكم عليهم بالموت. توقّع أن يلعنه الرجال، وأن يبتعدوا عنه ويشتموه

لأنهم يعرفون أنها ستكون رحلة موتهم. تقدّم جيمي بيغيلو إلى الأمام.

اعتن بنفسك، أيها الكولونيل، قال ومدّ يده ليصافح دوريغو. شكراً على كلّ شيء.

وأنت أيضاً يا جيمي، قال دوريغو إيفانز.

وواحداً تلو الآخر، صافحه الرجال المائة وشكروه.

عندما انتهى، اتجه إلى الغابة بجانب ساحة التجمع وأجهش في البكاء.

- ١٧ -

لسنا متأكّدين ماذا يعرف، قالت الممرضة. فقد رأت عينيه السوداوين اللتين تشبهان عينيْ كلب تتألّقان بحياة تخصهما هما فقط تحت أنابيب ضوء النيون في الجناح. وقالت أظن أنه يسمعني. إني أسمعك.

على الرغم من أنه كان محطماً، فقد كان يدرك أنه موجود في غرفة جميلة أعطيت له، تطلّ على أشجار تين عملاقة بجذورها المنتشرة وخضرتها الزاهية. لكنّه أحسّ بأنه ليس في البيت. بدا له أن هذا المكان ليس مكانه. إنها ليست الجزيرة التي ولد ونشأ فيها. فالطيور هنا تغرد بشكل مختلف عند الفجر، أصوات الببغاوات الخضر وببغاوات الغانغ غانغ السعيدة والقاسية، وليست أصوات الطيور الأرق والأصغر لطائر النمنمة وآكل العسل وطيور العيون الفضية التي توجد في الجزيرة، مسقط رأسه، كلّ الطيور التي تمنّى الآن أن تطير وتغرد. لم يكن طريقاً يتدحرج من كوب خصر امرأة فوق بحر إلى قمر ساطع.

لأن هدفي مستمر، همس -

للإبحار وراء الشمس الغاربة، وحمّامات
كلّ النجوم الغربية حتى أموت.

ماذا يقول؟ سألت إحدى الممرضات.

إنه يهذي، قالت ممرضة أخرى، من الأفضل أن نستدعي الطبيب. إنه المورفين أو أنها النهاية، إما هذه وإما تلك، أو كلاهما. البعض لا يقول شيئاً، والبعض يتوقف عن التنفّس، والبعض الآخر يهذي.

بينما أخذ السياسيون والصحفيون يتنافسون على الإطناب في مديح رجل لم يفهموه قط، كان هو يحلم بيوم واحد فقط: عن داركي غاردنر وجاك رينبو، وتايني مدلتون. وميك غرين، وجاكي ميرورسكي وجيبو نولان وليتل ليني، وقد عادوا إلى ديارهم في مامّ في ولايةماللي. من بين مائة رجل يصافحونه، ألف رجل آخر، أسماء يتذكّرها، أسماء نسيها، بحر من الوجوه. أيمي، أمانتي، أمور.

حياة تتراكم فوق حياة، همهم، أصبحت كلّ كلمة الآن وحياً، كما لو أنها كتبت من أجله، قصيدة حياته، وحياته قصيدة.

يبقى القليل: لكن كلّ ساعة تُوفر
من ذلك الصمت الأبدي، شيء أكثر،

- شيء أكثر. . . شيء أكثر. . . لقد نسي بعض الأبيات ولم يعد يعرف ما هي القصيدة أو من كتبها، فأصبحت القصيدة الآن ملكه

تماماً. هذه الروح الرمادية، فكّر بقنوط، أم هل كان يتذكّر؟ - نعم، هكذا كانت -

وهذه الروح الرمادية تتوق رغبة
لتتبع المعرفة، مثل نجم يهوي،
وراء أقصى حدود الفكر الإنساني.

وأحسّ بالخزي وأحسّ بالخسارة وأحسّ أن حياته كانت مجرد خزي وخسارة، كان كما لو أن الضوء قد بدأ يتلاشى الآن، كانت تناديه، يا ولدا يا ولدا لكنّه لم يجدها، ها هو يعود إلى الجحيم، جحيم لن يتمكن من الهروب منه قط.

وتذكّر وجه لينيت ميسن وهي نائمة، وقناني ويسكي غلينفيديتش الصغيرة التي احتساها قبل أن يغادر، ورسم رابيت هيندريكس لوحة لداركي غاردنر وهو جالس على أريكة وثيرة تسبح فيها أسماك فضّية صغيرة في قرية سورية كان يابي بورروز بشعره ذي النهايات المدبّبة على وشك أن يتلاشى في التراب السوري. وبطريقة ما، لم يفهم كيف أن اللوحة بقيت وسيعاد طبعها إلى ما لا نهاية، في حين ذهب يابي بورروز ولم يعد لحياته أي مستقبل أو معنى. كان هناك شخص يرتدي بدلة زرقاء يقف فوقه. أراد دوريغو أن يتأسف منه، لكنه عندما فتح فمه، لم يخرج منه سوى لعاب.

في جميع الأحوال، كان يُدفع إلى الخلف إلى دوامة هائلة من الناس والأشياء والأماكن، وإلى الوراء وتدور وأعمق وأعمق وأعمق إلى العاصفة الحزينة الراقصة من الأشياء المنسية أو نصف المتذكّرة، حكايات، بيوت من الشعر، وجوه، إيماءات أسيء فهمها، حبّ

رُفض بازدراء، زهرة كاмليا حمراء، رجل يبكي، قاعة كنيسة خشبية، نساء، ضوء سرقه من الشمس -

تذكّر قصيدة أخرى، تمكن من رؤية القصيدة كلها، لكنّه لم يشأ أن يراها أو يعرفها. استطاع أن يرى عيني شارون المحترقتين تحدّقان في عينيه، لكنّه لم يشأ أن يرى شارون، استطاع أن يتذوق الأوبول التي دُست في فمه بقوة، أحسّ بالخواء الذي بدأ يصبح -

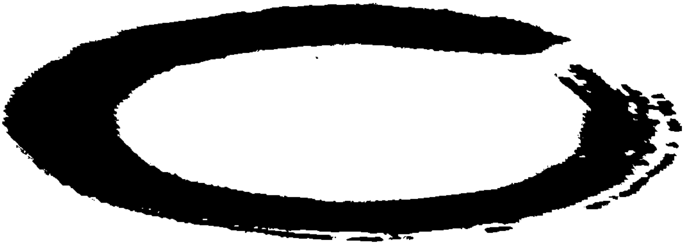

وأخيراً فهم معناها.

كلماته الأخيرة، كما شهدها ممرض سوداني:

تقدّم إلى الأمام أيها السيد المحترم. اشحن عتبة النافذة.

أحسّ بأحبولة تشتد بإحكام حول حنجرته. لهث وألقى ساقاً خارج السرير حيث ارتجّت لثانية أو ثانيتين، وخبطت الإطار الفولاذي بقوة، ولفظ أنفاسه الأخيرة.

- ١٨ -

امتد الليل الطويل، وواصل ربع القمر يرتقي ببطء شديد الدرجات السود، وأطلق الليل آهات وزفرات كثيرة. وصل بونوكس

بيكر إلى الخيمة المخصصة للضبّاط لينقل لهم نبأ غرق داركي غاردنر. بجانب ضوء الفانوس، دوّن دوريغو إيفانز ذلك في مفكرته بأنها جريمة قتل. بدت العبارة غير ملائمة. وأي عبارة تبدو ملائمة؟ ولمح في مرآة الحلاقة الصغيرة المنتصبة بجانب مفكرته، صورته المنعكسة المخيفة: شعر أشيب مشعث، عينان شرستان تتوهجان ناراً، وخرقة متسخة ملتفة حول رقبته. هل أصبح رجل العبّارة؟ قلب المرآة رأساً على عقب. كان الليل قد شارف على الانتصاف، كان يعرف أنه يجب أن يحاول أن ينام بضع ساعات ليتمكن من أن يعيش يوماً آخر. كان يريد أن يكون أول المتواجدين في ساحة التجمع عند الفجر ليلتقي بالرجال المائة عندما يأتون ويودعهم ويتمنّى لهم حظاً طيباً قبل مغادرتهم. وصلت حقيبة البريد في ذلك الصباح بالشاحنة، أول شاحنة يرونها منذ تسعة شهور. وكما هو الحال دائماً، كانت الرسائل عشوائية. كان بعض الرجال يتلقون عدّة رسائل، والكثير منهم لا يتلقون شيئاً. كانت هناك رسالة واحدة لدوريغو إيفانز من إيلا. قرر أن ينتظر حتى نهاية يومه، ليستمتع بقراءتها ثم يخلد إلى النوم بعد أن يكون قد ملأ أحلامه بها، لكنه أحسّ بحنين شديد إلى الوطن عندما رأى الرسالة التي أعطيت له في الصباح قبل انعقاد الاجتماع، ففضها وراح يقرأها من حين لآخر. لم يصدّق ما ورد فيها من أخبار. لم تبارح تفكيره طوال النهار. وعندما قرأها مرة أخرى عندما عاد في آخر اليوم لم يستوعبها جيداً.

كانت الرسالة مؤرخة قبل ستّة أشهر، تحتوي على عدّة صفحات. كتبت له إيلا بأنها لم تسمع شيئاً من دوريغو، أو من وحدته العسكرية منذ أكثر من سنة، وأنها تعرف أنه لا يزال على قيد الحياة. وتحدثت في الرسالة عن حياتها، وعن ملبورن بكلّ تفاصيلها الدنيوية. صدّق كلّ ذلك. لكن بخلاف الرجال الآخرين الذين كانوا

يدققون في كلّ جملة في الرسائل والبطاقات التي يتلقونها من أسرهم، أثار انتباه دوريغو إيفانز تفصيل واحد فقط. فقد أرفقت إيلا بالرسالة قصاصة من صحيفة كان عنوانها الرئيسي *مأساة فندق أديليد*. وتحدثت كيف أنه، بعد انفجار غاز في مطبخ الفندق، احترق فندق الملك كورنوال ولقي أربعة أشخاص حتفهم، بمن فيهم صاحب الفندق المحترم، السيد كيث مولفاني، وفُقد ثلاثة أشخاص آخرون يعتقد أنهم هلكوا أيضاً، بمن فيهم نزيلان في الفندق والسيدة مولفاني، زوجة صاحب الفندق. قرأ دوريغو إيفانز قصاصة الصحيفة مرة ثالثة ثمّ رابعة. في الخارج، عاد المطر يهطل. أحسّ بالبرد. لفّ بطانيته حوله بإحكام، وعلى ضوء الفانوس قرأ رسالة إيلا مرة أخرى.

وكتبت إيلا قائلة إن أحد أصدقاء أبي يشغل منصباً هاماً أجرى تحقيقات عني في مكتب الطبيب الشرعي في أديليد، وقال له إنه أعلن ذلك رسمياً، لكن بسبب المأساة ومشاعر الناس وبغية الحفاظ على الروح المعنوية، وما إلى ذلك، لم يسمحوا بنشر الخبر في الصحف. وقال إنهم يجب أن يتحلوا بالصبر. هل يمكنك أن تتخيّل ذلك؟ إن السيدة كيث مولفاني المسكينة في عداد الأموات المؤكدين الآن. أنا آسفة جداً يا دوري. إني أعرف كم كنت مولعاً بعمّك وزوجته. مآسٍ كهذه تجعلني أدرك كم أنا محظوظة.

السيدة كيث مولفاني؟

لوهلة لم يعن له الاسم أكثر من الخبر.

السيدة كيث مولفاني.

كانت بالنسبة له أيمي. لم يكن يعرف أنها كذبة، الكذبة الوحيدة التي قالتها له إيلا.

أطفأ الفانوس لتوفير الوقود وأشعل عقب شمعة. لفترة طويلة

راح يراقب اللهب الذي كان يرفض أن يموت، وأصبحت الشمعة مستدقة لتتحوّل إلى لطخات صغيرة جداً من السخام تعلو وتهبط وتدور حول هالات ضوء الشمعة. نظر إلى الضوء وإلى لطخات السخام. كأن هناك عالمين. هذا العالم وعالم خفي هو العالم الحقيقي يتكون من ذرات طائرة، تدور، تومض، تتقافز عشوائياً فوق بعضها البعض، ونتيجة ذلك تظهر إلى الوجود عوالم جديدة. إن مشاعر أمرؤ لا تساوي دائماً ما تساويه الحياة، وفي بعض الأحيان، فإنها لا تعادل أيّ شيء على الإطلاق. راح يحدّق في اللهب.

أيمي، أمانتي، أمور، همس، كما لو كانت الكلمات نفسها مجرد لطخات من الرماد تعلو وتهبط، كأن الشمعة قصّة حياته وهي اللهب.

استلقى على سريره الحديدي.

بعد قليل وجد كتاباً وفتحه. وبدأ يقرأه متوقعاً أن تكون نهايته سعيدة، قصة رومانسية أراد أن تنتهي نهاية سعيدة، يجد فيها البطل والبطلة الحبّ بسلام وبهجة وبتضحية وتفاهم.

الحبّ جسدان في روح واحدة، قرأ، وقلب الصفحة.

لكن لم يكن هناك شيء - فقد اقُتلعت الصفحات الأخيرة واستُعملت إما ورقاً للمرحاض أو دُخّنت، لم يكن هناك أمل أو بهجة أو تفاهم. لم تكن هناك صفحة أخيرة. لقد تمزق كتاب حياته. لم يكن هناك سوى الطين تحته والسماء المتلبدة فوقه. لن يكون هناك سلام ولا أمل. وفهم دوريغو إيفانز أن قصّة الحبّ ستستمرّ إلى أبد الآبدين، عالم بلا نهاية.

سيعيش في الجحيم، لأن الحبّ هو ذلك أيضاً.

وضع الكتاب جانباً. جافاه النوم، نهض وتوجه إلى حافة

الملجأ الذي كان المطر ينهمر بغزارة وراءه. ضاع القمر. أشعل الفانوس ثانية وتوجه إلى المبولة المعدّة من قصب الخيزران في الطرف البعيد من المعسكر. أفرغ مثانته، وعندما عاد رأى على جانب الدرب الموحل في وسط الظلام الدامس، زهرة قرمزية تنمو.

انحنى، وأضاء فانوسه ليرى المعجزة الصغيرة. وقف، انحنى في المطر المنهمر، وظل هكذا طويلاً، ثمّ اعتدل في وقفته وواصل طريقه.

هذا الكتاب

«هذه قصّة دوريغو، الرجل بين أسرى الحرب الكثيرين في الغابة الآسيوية، وهو نبض هذه الرواية: إنها قصة موجعة، مرعبة، تغيّر الحياة. إنها شهادة روائية عن الأسرى هناك لا يمكن نسيانها».

ميشيكو كاكوتاني، نيويورك تايمز

«آسرة. . . إنها عمل كلاسيكي يروي قصة عن الحرب بقلم كاتب عالمي. . . لم يكتب أحد مثلها منذ كورماك مكارثي، لقد هزّني هذا الدرب».

رون تشارلز، واشنطن بوست

«محبوكة بصورة رائعة، مدروسة، لا توجد فيها ذرة من الميلودراما. لا تقل رواية فلاناغان عن كونها تحفة أدبية نادرة».

فاينانشال تايمز

ISBN 978-9933352448